المسلمون بين التحدي والمواجهة

حول

التَّربيةِ والتَّعليمِ



بقلم

أ. د. عبد الكريم بكّار



المسلمون بين التحدي والمواجهة

حول

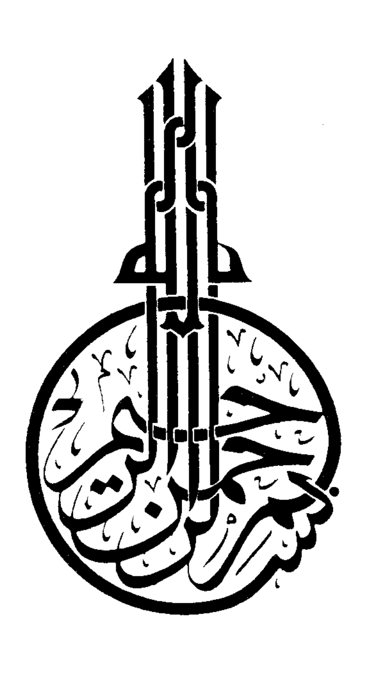


بقلم

أ. د. عبد الكريم بكّار

دار القلم

دمشق





الطَّبعة الثَّالثة
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدّة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد، وعلى آله وصحابته، ومن سلك سبيلهم إلى يوم الدين... وبعد:

فهذا هو الجزء الخامس والأخير من سلسلة **«المسلمون بين التحدي والمواجهة»**.

وقد كان الجزء الأول بعنوان: **«نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي»**.

وكان الجزء الثاني بعنوان: **«من أجل انطلاقة حضارية شاملة»**.

وكان الجزء الثالث تحت عنوان: **«مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي»**.

أما الجزء الرابع فقد كان عنوانه: **«مدخل إلى التنمية المتكاملة»**.

وقد رأينا تخصيص هذا الجزء لمعالجة بعض قضايا التربية والتعليم، وعرض بعض الآراء والخبرات حول مشكلاتهما الآسنة والمتنامية، وذلك عبر رؤية إسلامية معاصرة. ونعتقد أننا بهذا نكون قد أتينا على ذكر جوانب عديدة من التحديات، التي تواجه أمة الإسلام، مع طرح بعض الحلول التي يمكن أن يُعتمد عليها في تجاوز بعض أزماتنا، والتقدم نحو الأمام. ولست أزعم أنني قلت كل ما ينبغي أن يقال؛ فنحن في زمان صعب، كثيراً ما يجعل ما يسكت عنه المرء أهم مما يقوله. ونحن نحاول أن نؤدي الرسالة، وننصح للأمة، ونرجو من الله ـ جل وعلا ـ أن يتجاوز عن قصورنا وتقصيرنا؛ وسيظل الأمل معقوداً عليه في تحسين الأحوال، وتهيئة فرص

الارتقاء لأمة الإسلام؛ وهو أهل لكل فضل، ومولى لكل إحسان.

إن لدينا الألوف من المجلدات التي تتناول مشكلات التربية والتعليم؛ ولدى الأمم الأخرى أضعاف ذلك؛ مما عقَّد البحث والتحليل والتجديد في كل قضية من قضايانا التربوية والتعليمية.

فالخطط التربوية المختلفة استنفدت كل إمكانات الحلول، وأُغرقت الساحة بالمقترحات المتنوعة، ولكن المشكلات التربوية مع ذلك، في ازدياد؛ مما دعا بعض الباحثين إلى تشبيه الخوض في قضايا التربية بالدخول إلى (جحور الأفاعي)!.

ومع كل هذا فإن علينا أن نستمر في البحث عن كل ما يمكن أن يساعدنا في الوصول إلى تربية أقوم، وتعليم أفضل؛ فمعرفتنا بطبيعة النفس البشرية تتحسن، كما أن تجاربنا تزداد ثراء، مما يجعل إمكانات تقديم رؤى أكثر رشداً في حالة من الاتساع الدائم.

إن قضايا التربية والتعليم هي قضايا أمة، وعلى الأمة جميعها أن تحاول النهوض بمؤسساتها، وحل مشكلاتها؛ فنحن جميعاً نتعرض في كل يوم إلى مواقف نتعلم فيها، ونعلِّم، ونربِّي ونتربى، وهذا يفرض علينا أن نتابع بعض المعارف المتعلقة بذلك.

التقدم العقلي والروحي والخلقي ليس محدوداً بأسوار تحول دون مضيِّه إلى ما لا نهاية، وهو منوط على نحو رئيس بنوع التربية والتدريب الذي يمكن أن يتاح لنا، على حين أن التقدم المادي كثيراً ما يعتمد على موارد محدودة، غير قابلة للنمو، بل إن كثيراً منها مهدَّد بالنفاد الكامل؛ ولذا فإن مستقبل البشرية سيعتمد من الآن فصاعداً على نوعية الإنسان الذي تعدُّه المؤسسات التربوية؛ مما يعني أنه لا بديل عن الاهتمام بها، وضرورة الإنفاق عليها بسخاء.

إن مما يزهِّد الناس بالاهتمام بالتربية وجود فجوات زمنية كبيرة بين الجهود التي تبذل فيها، والثمار التي تجنى منها؛ مما يولد نوعاً من الترهل

الذهني والشعوري لديهم؛ ولا سيما عند الشعوب التي أصيبت بمرض (الآنيَّة)، وفقدت فضيلة الأناة.

إنني أعتقد أن التربية التي تلقاها جيلنا لم تكن هي التربية الملائمة، بدليل الواقع الذي نعيشه اليوم، وسيقول الأبناء والأحفاد مثل قولنا إذا لم نسارع إلى تدبر أمورنا، وإصلاح ما لدينا من خلل في تربيتنا وعلاقاتنا وسلوكنا.

إن كل من يبحث في المسائل التربوية يجد أمامه ـ كما هو الشأن في كل علم ـ الكثير من الأفكار والمفاهيم والتجارب المغرقة في (الفنيَّة) مما يدخل في نطاق اهتمامات الباحثين المختصين، وهذا يجعلنا نتجه إلى عدم طرحها في كتاب، يهدف إلى نوع من إشاعة الثقافة التربوية العامة؛ لكن اعتقادنا بأن مؤسساتنا التربوية، لا تستطيع القيام بوظيفتها على نحو فعّال إلا من خلال دعم عام من جميع شرائح الأمة ـ يحتم علينا التعرض لما هو خاص بغية إثارة اهتمام الجمهور به، وإطلاعهم على طرف منه، ومع هذا فإن تقريب الفكرة والعبارة، سيظل موضع عنايتي واهتمامي.

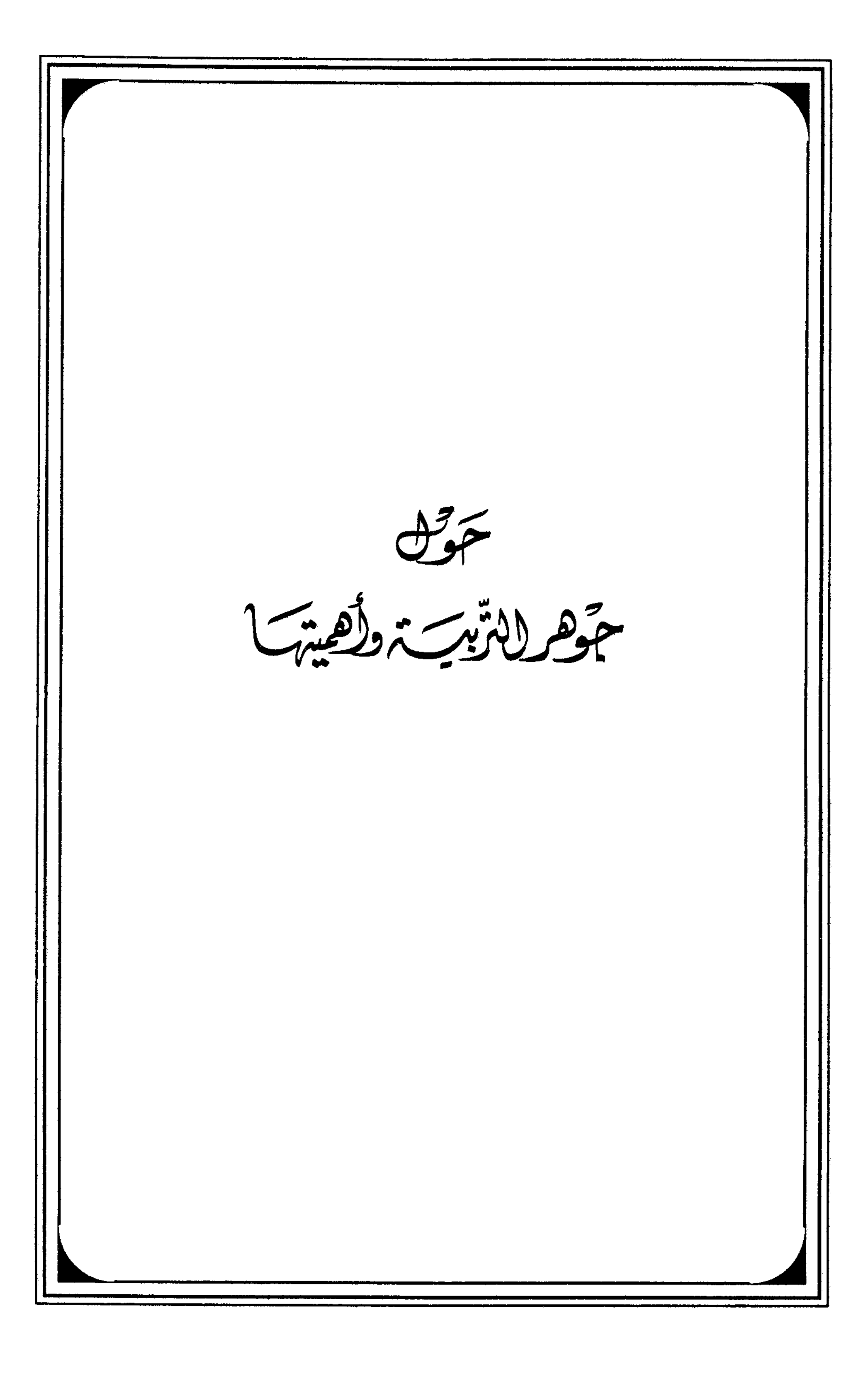
وقد جعلت عنوان الكتاب مرناً حتى يتيسَّر لي اختيار ما أراه ملحّاً ومهماً من مسائل التربية والتعليم.

وقد خصَّصت الصفحات الأولى من هذا الكتاب للحديث عن التربية، ثم تحدثت عن التعليم، وبعض شجونه في محاولة للسعي إلى نوع من الفصل بينهما، مع أن ذلك غير ممكن دائماً؛ حيث إن التعليم جزء من التربية.

وأسأل الله ـ جل وعلا ـ حسن القصد، والمعونة في تحقيق ما أنتويه، والتوفيق لما هو خير وأبقى.

أ.د. عبد الكريم بكّار





حول
جوهر التربية وأهميتها

التربية: طبيعتها وأهميتها

تعريف التربية:

قالت العرب: ربا الشيء رَبْواً وربُوّاً: نما وزاد. قال الله - تعالى - عن الأرض: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾. أي: زادت وانتفخت بسبب ما يتداخلها من الماء والنبات. ويقولون: ربا المال: زاد. ويقولون: ربَّى فلاناً: غذّاه ونشّأه[1].

والذي يظهر لنا من هذا معنيان:

معنى النمو والزيادة، وهذا أوضح ما يُطلب من التربية، وهو تنمية الجانب الذي تُوجَّه إليه؛ فالتربية العقلية تهدف إلى تنمية القدرات العقلية، والتربية الروحية تهدف إلى تنمية القوى الروحية، وهكذا...

أما المعنى الثاني، فهو التدرج؛ فالتربية جهود تراكمية، يرفد بعضها بعضاً، والزمن عامل مهم في بلوغ التربية غاياتها. وهذا واضح في قولهم: تربّى، وتنشّأ، وتثقّف؛ فالتنشئة والتغذية والتثقيف لا تكون أبداً طفرة ومرة واحدة، وإنما تتم على مراحل متتالية. وعلى هذا فالإنماء والتدرج يمثلان أهم قانونين يحكمان طبيعة الأعمال التربوية. فإذا وجدنا تربية لا تثمر نمواً علمنا أنها تربية عقيم. وإذا رأينا جهوداً تستهدف تنمية شيء ما، لكنها لا تتسم بالتدرج والتعاهد المتتابع، علمنا أن تلك الجهود لا تستحق أن تُسمى (تربية).

---

(١) انظر: لسان العرب: (ربا).

إن التربية نوع من (الحرب) الدائمة على كل أشكال الانحراف والتبلد والقصور الذاتي، وإن التربية كالحرب تحتاج إلى الرجل المكِّيث الذي يملك فضيلة الصبر على بذل الجهد المستمر، مع التطلع إلى الفرص المواتية.

وأعتقد أن أصل الوضع اللغوي على درجة عالية من الشفافية والوضوح، وهو يعفينا من كثرة التعريفات الاصطلاحية.

وقد عرَّف معجم (لالاند) التربية بأنها: «سياق يقوم في أن تتطور وظيفة أو عدة وظائف تدريجياً بالتدريب، وأن تتحسَّن نتيجة لذلك السياق»[١].

وعلينا أن نحاول الكشف عن جوهر التربية من خلال استعراض بعض الأدبيات والخبرات والانطباعات التي تكونت لدى المهتمين بالشأن التربوي، ومن خلال علاقة التربية بالتكوينات الثقافية الأخرى.

التربية:

لا يبدأ المربون مهمتهم الشاقة من فراغ، فهناك شيء ما ثابت في النفس البشرية يمكن أن نسميه (الجوهر الإنساني) وهذا الجوهر مجموع ما فطر الله ـ جل وعلا ـ عباده عليه، حيث قال ـ سبحانه ـ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾[٢].

ويتمثل هذا الجوهر ـ فيما أحسب ـ في مجموعات من السمات والخصائص التي طُبعت عليها نفوس البشر ومجتمعاتهم على مقتضى سنن الله في الخلق؛ من نحو قابلية الإنسان للاتجاه نحو الخير والاتجاه نحو الشر، وإقراره في داخله بوجود قوة عظمى تسيِّر هذا الكون، وحبه للخلود واستمرار البقاء، وحاجته إلى إطار مرجعي يوجهه، وخوفه من المجهول،

---

(١) فلسفة التربية: ١٣.

(٢) سورة الروم: آية ٣٠.

مع حبه للمعرفة الحقيقية، بالإضافة إلى ميله إلى التلقائية والبساطة، وكذلك استعداده للتضحية والتغير، وفرحه بالإنجاز، وتضايقه من الزحام. وهو إلى جانب هذا يحمل في عقله وقلبه مبادئ منطقية ومشاعر كثيرة موحدة؛ وهذا وما شابهه يمثل الأرضية المشتركة التي تمكِّن الناس من التفاهم والتعايش، وهو نفسه الذي يجعل التثاقف التربوي بين الأمم شيئاً ذا جدوى.

مفردات هذا الجوهر وقسماته ثوابت في وجودها وأصولها وأقدارٍ منها إلا أن ظروف الحياة الشديدة التنوع - تجعل من السهل ضمور بعض السمات، وتضخم أخرى على نحو مَرَضي. ومن المعلوم أن انتقال المرء من الصحة إلى المرض على الصعيد النفسي ليس - في أكثر الأمر - سوى اختلال في التوازن النفسي بسبب خلل في عوامل ذلك التوازن؛ فالقلق ضروري لتوازن الشخصية، لكنه حيث يحدث بصورة مبالغ فيها، فإنه يتحول إلى مرض. ودرجة معينة من الاهتمام مطلوبة لحفز الطاقات المنتجة لدى الإنسان، لكنه إذا زاد قد يتحول إلى وسواس أو اكتئاب، وقد يسبِّب أمراضاً جسدية خطيرة.

مرادنا من كل هذا أن نقول: إن التربية لا تهدف إلى المحافظة المجردة على مفردات الجوهر الإنساني، وإنما المحافظة على المقادير المطلوبة منها، والمحافظة على علاقات سوِّية فيما بينها؛ بما يخدم التوازن العام للشخصية، ويحول دون تشوهها.

ويرى بعض الفلاسفة والباحثين في الشأن التربوي أن التربية لا تعدو أن تكون مجرد تقديم الفرص للنمو الطبيعي[١]. وهي ليست شيئاً يُقحم على الأطفال والشباب إقحاماً قسرياً من الخارج، وإنما هي نمو القدرات الفطرية الكائنة في بني الإنسان عند الميلاد[٢].

---

(١) التربية والنظام الاجتماعي: ٤٢.

(٢) قاموس جون ديوي للتربية: ٥٥.

ونحن نرى أن إتاحة الظروف والفرص التي تسمح لملكات الإنسان ومواهبه وقدراته بالتفتح والنمو، أمر مطلوب حقًّا ـ على نحو عام ـ فالنضج المأمول لأي فرد، وأي أمة لا يمكن أن يتم خارج دوائر الفعل والممارسة؛ فالأحداث التي يعيشها المرء قد لا تملِّكه أصولاً نظرية للفهم، ولكنها تنمي لديه حساسيات وخبرات، تجعل مسيرته الحياتية أكثر أماناً، وأكثر ثراءً واكتمالاً. لكن مع هذا فإن علينا ألا ننسى أن الثقافة الاجتماعية السائدة هي التي تحدد درجات النمو المطلوبة لجميع الخصائص والخبرات التي يحتاجها الكائن البشري السويّ، وتلك الثقافة متفاوتة بين المجتمعات والعصور؛ مما يجعل الكلام الذي نقلناه آنفاً تجريدياً أكثر مما ينبغي.

حين نمعن النظر نجد أن جميع الأمم تعمل في تربية صغارها وكبارها حول ثلاثة محاور أساسية هي:

١ ـ **محور النفس البشرية**، وما ذكرناه من مفردات فطرتها وميولها ونوازعها.

٢ ـ **إرثها التاريخي والاجتماعي**، والذي يشتمل على مجمل عقائدها ومبادئها، ومعايير الصواب والخطأ لديها، إلى جانب آدابها وتقاليدها وأذواقها.

٣ ـ **ما تعتقد أنه مطلوب لعيش حاضرها**، وجوهري في تلبية حاجات مستقبلها من الصفات والخبرات والمهارات، على نحو ما نشاهده اليوم من الاهتمام بالتعليم والتدريب والتخلق بالأخلاق الحضارية الإنتاجية، من مثل الدقة والفاعلية والحفاظ على الوقت. . . .

ولا يخفى أن الأمم تختلف اختلافاً عظيماً في كثير مما يدخل في إطار التربية على المحورين الثاني والثالث؛ حيث إن لكل أمة إرثها التاريخي الخاص، وترتيبها المتميز لسُلَّمها القيمي، ومشكلاتها وآمالها الوطنية الخاصة. . . وهذا كله ينعكس على المناهج والأساليب المتبعة لدى كل أمة، وعلى نحو فرعي لدى كل أسرة وكل معلِّم وكل فرد. ومع هذا فإن ما يشبه التوحد بين الأمم في المحور الأول بالإضافة إلى شيء من التقارب في المحورين الثاني والثالث ـ سوف يتيح لكل أمة أن تستفيد من خبرات الأمم الأخرى، ولذا نشأ علم (التربية المقارنة).

ويمكن القول: إن مفترق الطرق الأساسي بين الأمم يكمن في تصور طبيعة مفردات كل محور من المحاور الثلاثة، وفي تصور كيفية إقامة التوازن والتناغم بينها. وهذا في الحقيقة هو بيت مشكلات التربية الكبير لدى الأمم قاطبة، حيث تتيه العقول، وتتشظى الخبرات كلما أراد المربون القبض على الهيكل الأساسي لما ينبغي أن يقوموا به حيال تكوين شخصية متكاملة متوازنة.

ومن المعروف أن التقدم الأفقي في العلوم الطبيعية قد ساعد كثيراً على التقدم الرأسي؛ فقد استفادت العلوم الطبية ـ مثلاً ـ استفادة هائلة من التقدم الذي حصل في العلوم الهندسية والكيميائية والفيزيائية؛ على حين أن التقدم في جميع العلوم غير التربوية، كان محدود الإفادة لها؛ فالتقدم الأفقي في المعرفة لا ينعكس إلا على نحو ضئيل على التقدم الرأسي في علم النفس والعلوم والفنون التربوية؛ ولذا فعلى حين تضيق الفجوة بين النظرية والتطبيق على صعيد العلوم الطبيعية يجد علماء النفس والتربية السبل تتشتت بهم أكثر، كلما أوغلوا في البحث في المسائل التربوية والنفسية والاجتماعية!

والسبب الجوهري في هذا أن الله ـ جل وعلا ـ خلق العقل البشري ليكون عقلاً عمليّاً، لا ينتج إلا ضمن أطر ومسلمات ومحددات معينة، وحين يُترك ليبتدع هو أطر عمله، فإنه يكون قد زُجَّ به في بحر لجي، لا يحسن فيه أي شكل من أشكال العوم، وستكون النتيجة ما نراه اليوم لدى فلاسفة الغرب من اختلاف واضطراب في كل شيء، حتى ما يمكن أن نعده أمراً بدهياً في بعض الأحيان!.

إن (الوحي) الذي استدبره الغرب ـ لأسباب تاريخية ـ **هو الذي يمنح إطار التوازن والتكامل للأعمال التربوية، وهو الذي يؤمِّن نوعاً من الانسجام والتلاحم بين متطلبات الفطرة في النفس البشرية**، ومتطلبات الانتماء التاريخي والمجتمعي ومتطلبات العيش الكريم.

وقد أحسَّ الغرب بسعة الفجوة التي تركها الابتعاد عن الدين والاهتداء

بهديه، فحاول ردمها بالكثير الكثير من الدراسات النفسية والاجتماعية والتربوية، وأبدى براعة فائقة في كل ذلك، **لكن النتائج على الصعيد العملي كانت مخيّبة للآمال**؛ فعلى الرغم من الخبرات والمعارف التربوية التي تراكمت على نحو هائل خلال القرنين الماضيين إلا **أن الجريمة وإدمان المخدرات والانحلال القيمي والتفكك الأسري آخذة في الاشتداد والانتشار، وكأن عمل الباحثين كان جهاداً في غير عدو!!**

أما أمة الإسلام فقد أكرمها الله ـ تعالى ـ بالوحي الذي وضع يدها على الكثير الكثير من مكونات النفس البشرية، كما أن لها تاريخاً غنياً بالخبرات والتجارب، وقد رسم لها دينها الأهداف الكبرى التي ينبغي أن تسعى لإنجازها، وملّكها المنهجُ الرباني الكثير من الأصول والمبادئ والأدبيات التي تسعفها في بلورة نظرية تربوية متكاملة ومتماسكة، لكن مشكلتها أنها لم تبذل من الجهد ما يجعلها ترتقي إلى مستوى المنهج الذي أكرمها الله ـ تعالى ـ به، كما أن كثيراً من التربويين من أبنائها لم يتجهوا إلى العمل في إطار ذلك المنهج: مسلماته وأدبياته ورمزياته؛ وما أجروه من بحوث تربوية قليل، ومع ذلك فإنه لم يستهدف ـ في أكثر الأمر ـ الكشف عن مفاصل النظرية التربوية الإسلامية، كما أنهم لم يستطيعوا إبداع منهج البحث الذي يلائم طبيعة المشكلات التي نعاني منها.

إن هذه الدنيا دار ابتلاء، وإن الله ـ تعالى ـ ملّكنا المنهج والرؤية العامة، ولكنه كلفنا بتوظيف ذلك المنهج، وتوفير الشروط الضرورية لعمله، وتهيئة المناخ العام الذي يسهّل الاهتداء به، والامتثال له. إن الوحي يمنحنا الثوابت، ويوضح لنا الخطوط العريضة، ويحدد لنا الأطر العامة، وعلينا نحن أن نقوم بواجبنا في تلبية مطالب ما تأتي به المتغيرات، واختلافات الأزمنة والأمكنة، والتحولات الثقافية الكبرى، وأن نتلمس عبر الدراسات والإحصاءات والملاحظات الذكية طريقنا في النهوض بأبنائنا وأوضاعنا العامة على الوجه الأكمل.

وهكذا فقد أضيرت التربية في الغرب من خلال الانحراف عن المبادئ الكلية، والخروج من الأطر العامة، وتضييع الأهداف الكبرى؛ وأصيبت التربية لدينا بالضرر نتيجة الإهمال والكسل والقصور في الوسائل ورداءة الأوضاع العامة، ولكن على حين حرق الغرب مراكب العودة إلى رياض الوحي؛ فإن طريق التصحيح لدينا ما زال مشرَع الأبواب، إذا ما توفر لدينا ما يكفي من الإخلاص والعزيمة.

التربية جزء من كل:

تتحكم بحياتنا مجموعة كبيرة من النظم العقدية والأخلاقية والسياسية والاجتماعية... ولا يستطيع أي نظام من هذه النظم أن ينفرد بتوجيه الحياة متجاهلاً معطيات النظم الأخرى، ولن يكون من مصلحة أي أمة أن تعلِّق توازنها العام على نظام واحد؛ فإذا صلح صلح حالها، وإذا فسد فسد أمرها؛ بل إن الأمة لا تستطيع أن تفعل ذلك إلا في حدود معينة.

إن طبيعة التخصص تغري بالانحياز والرؤية الأحادية؛ فعلماء الاقتصاد يعتقدون أن الأمة لن تتقدم إلا إذا تقدم اقتصادها، والتربويون يعتقدون أن تقدم التربية شرط لتقدم العالم وهكذا... وهذا كله بعيد عن النظرة الموضوعية؛ لأن أجزاء أي منظومة يتفاعل بعضها مع بعض تفاعلاً غير منظور، وكل جزء من تلك الأجزاء يعيق عملها، ويتمدد على حسابها، كما أنه في بعض الأحيان ينشِّطه، ويمد في سلطانه؛ وليس لدينا قاعدة واحدة تحكم عملية التفاعل تلك؛ فأزمة اقتصادية قد تحطم الكيان التربوي في بعض البلدان حيث تسوء الأخلاق، وتصبح المؤسسات التربوية أشبه بجسم متهدم. وليس من النادر أن ترى في بلدان أخرى إقبالاً على العلم، على أنه الملاذ الأخير؛ نتيجة انسداد آفاق العمل والنمو في المجالات الاقتصادية المختلفة؛ كما حدث للفلسطينيين بعد خروجهم من بلادهم؛ وهكذا...

الذي نريد قوله من وراء هذا هو أن العبارات الذائعة التي بتنا نسمعها كل يوم حول ضرورة التوجه إلى التربية باعتبارها المفتاح الذي سيحل كل

المغاليق ـ لا تعدو أن تكون ضرباً من التلاعب بالألفاظ! ولا يعني هذا بالطبع التهوين من شأن التربية، ولكننا نريد أن نؤكد أن المربين في البيوت والمدارس، وفي كل مكان ـ لا يستطيعون أن يفعلوا ما يشاؤون، ويتمنون، وليس من الإنصاف أن نطلب منهم إيجاد جيل خارق؛ فالمجتمع الفاسد أو الضعيف أشبه بطحين فاسد، كل ما يصنع منه من خبز وكعك... لن يكون إلا كذلك.

إن علاقة التربية بالنظم الحياتية الأخرى علاقة جدلية: أخذ وعطاء وتأثير وتأثر، وسيفعل المربون ما شاءوا إذا ما استطاعوا مغالبة كل العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية... التي تفرز معطيات ضارة بالعملية التربوية؛ وأنّى لهم ذلك؟!.

هذه النظرة الشاملة سوف تخفِّض من درجة مرارة الآباء والمدرسين، وكل الغيورين على مستقبل أبناء الأمة، وستجعلهم يفكرون في العمل على تحقيق نوع من التقدم الشامل، بدل التركيز على نظام واحد، وتوقع نتائج باهرة منه، قد لا تسمح بها طبيعته ومجالاته المحدودة.

إن قانون (الأواني المستطرقة) لا ينطبق على انتقال السوائل وتوازنها، فحسب، ولكنه يشمل النظم والأفكار والسياسات أيضاً.

وسنزيد على هذا بالقول: إن التربية باعتبارها وسيطاً ثقافياً، تنقل رسالة، وتحدد مجالات للعمل، وترسي معايير أخلاقية ـ يمكن أن تكون سلاحاً ذا حدين؛ حيث إنها تقوم بمهمة مزدوجة صعبة، فهي تحاول الاحتفاظ بما هو جيد من المكونات الثقافية المختلفة، من خلال نشرها وتنشئة الشبيبة عليها، كما أنها تحاول بذر أفكار وعادات ومعارف جديدة، ربما كانت مناهضة لما هو معروف ومستقر؛ ويتم كل هذا في مجتمعات تتغير بسرعة فائقة، وطبيعة مثل هذا العمل تكون نتائجه في العادة بطيئة، وتحتاج إلى المهارة والصبر[1].

حين يفقد المربون الشفافية الكافية والإحساس المرهف بالتمييز بين ما

---

(١) التربية والنظام الاجتماعي: ٢٨٣.

يجب أن يبقى لأنه جوهري وأساسي، وما ينبغي أن يتغير، **فمن الوارد آنذاك أن تكون التربية عامل هدم من خلال اختلاط الرؤية للثوابت والمتغيرات.**

إن المهمة الجديدة للتربية ليست أن تعد الأجيال لقبول التغييرات الكثيفة القادمة والتكيف معها فحسب؛ وإنما السيطرة عليها، واستخراج خير ما فيها؛ إلى جانب المقاومة العنيدة للسيِّئ والضار منها. وحين تعصف رياح التغيير بالمجتمع، ويكون تطور المؤسسات والأساليب التربوية على مثل إيقاع السلحفاة، فإن الناس سوف ينظرون إليها على أنها عامل تخلف؛ وقد حدث شيء من هذا منذ عقود، حيث إن بعض الأعمال المسرحية والفكاهية، تصور (المعلم) على أنه شخص تقليدي بطيء الفهم، متبلد الشعور، ميال إلى التمسك بالقشور... ومهما يكن مدى صواب مثل هذه الأوصاف، فإن علينا ألا نتجاهل بعض المشاعر والأحاسيس في هذا السياق.

إن كل شعوب الأرض تملك تقاليد تربوية؛ **وتاريخ البشرية يتميز بتحطيم الشعوب التي استخدمت التربية أداة لاستمرار ما هو موجود**[1] **دون أدنى تمييز. وعلى أمة الإسلام التي تعاني من أشكال عديدة من التخلف أن تدرك حجم إسهامات تربيتها القاصرة في تكريس الأوضاع الراهنة.**

أهمية التربية:

جمع الله ـ جل وعلا ـ للإنسان بين التكريم والابتلاء، ومنَّ عليه بتسخير الكون له، وهذا التسخير كثيراً ما يتجلى في صور قابليات وإمكانات متاحة، وعلى الإنسان بعد ذلك أن يقوم بواجبه في استثمار الإمكانات، وصقل القابليات، وإلا كان مآله النكوص على عقبيه، وخسران كثير من التكريم الذي وهبه الله ـ جل وعلا ـ إياه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾[2].

---

(١) السابق: ٧٤.

(٢) سورة التين: الآيات ٤ ـ ٦.

التربية هي الأسلوب، وهي الأداة التي تضع الإنسان في بداية طريق النمو والاستفادة من الوسط الاجتماعي القائم.

ويمكن أن نستجلي أهمية التربية في حياة الأفراد والمجتمعات على النحو الآتي:

١ ـ لا يولد الإنسان إنساناً، حيث لا يملك شيئاً من مقومات الإنسانية: اللغة والفكر والمشاعر والأخلاق... ولا ينتقل إليه شيء من ذلك بالوراثة من أبويه، وعليه أن يكتسب كل ذلك من خلال التربية الأسرية والاجتماعية؛ ويظهر هذا جليًّا حين نقارن بين إنسان الغابة الذي لا يحسن أكثر من جني الثمار، وبين إنسان يعمل في مركز أبحاث، أو يقود طائرة حديثة!.

إن عدم إنجاز طبيعته هو سر عظمته، حيث يعني ذلك مطاوعة بلا حدود. إن وَلَد إنسان لا يربيه إنسان، لا يمتلك شيئاً من مقومات الإنسانية؛ فالإنسان مدين بما يخوله أن يعيش متمتعاً بإنسانيته إلى التربية، لا إلى الطبيعة[1] إلى حد بعيد.

مع التقدم الحضاري المتسارع صارت الهوة بين الإمكانات والقابليات الفطرية التي لدى الطفل، وبين ما ينبغي أن يكون عليه عند النضج ـ واسعة للغاية، ولذا فإن طفولة الإنسان صارت اليوم تستغرق نحواً من ٣٠٪ من عمره؛ فهو حتى يجد العمل اللائق، ويفهم الحياة حوله على نحو جيد بحاجة إلى أن يتعلم ويتدرب، ويكتسب المهارات إلى قرابة سن الثامنة والعشرين أو الثلاثين. وهذا كله يأتي عن طريق التربية، بمعنى أن وظيفة التربية في اكتمال الإنسان تزداد أهمية واتساعاً، والتقصير فيها صار ضرره أعظم مما كان في الماضي.

٢ ـ إن التربية هي التي تقوم بتكوين الوعي لدى الناشئ، وهي التي

---

(١) فلسفة التربية: ٤٨.

تغرس في نفسه ضرورة التطلع إلى المثل العليا والأهداف الكبرى؛ حيث يستلّ المربي من مجموع ما تفيض به ثقافة الأمة، ومما هو متوفر من معرفة ـ ما يعتقد أنه أساسي في تكوين من يشرف على تربيته، والمشكل هنا أن التربية لدينا لم تحقق نجاحاً واضحاً في جعل الناشئة يدركون الأهداف الكبرى على نحو صحيح؛ فالملاحظ أن الناس يستشعرون الهدف من هذه الحياة على نحو رتيب أو مبتذل؛ وهذا في حد ذاته يجعل درجة التفاعل معه والحماسة لتحقيقه ضعيفة أو معدومة؛ وهذا ما نلاحظه اليوم؛ حيث يضمر كل مسلم في نفسه أن هدفه الأسمى هو رضوان الله ـ تعالى ـ لكن انعدام الفاعلية الشعورية والذهنية في إدراكه، أدى إلى ضعف السعي إلى تحقيقه والارتفاع إلى مستواه لدى السواد الأعظم من المسلمين.

أما العلمانيون والماديون، ومن على شاكلتهم فقد أضاعوا الأهداف الكبرى جملة؛ وقد عبر عن هذا (أنشتاين) حين قال: «إن حضارتنا تمتلك معدات كاملة، لكن الأهداف الكبرى غامضة».

إنها لمأساة أن تنتشر المعرفة، وتتدفق المعلومات في كل اتجاه، ومع ذلك يزداد ضعف تكوين الشخصية لدى الجيل الجديد، ويقل الحكماء وذوو البصائر النافذة؛ والسبب في هذا أن كثيراً من أنشطتنا التربوية قد ابتعد عن فلك الأهداف الكبرى؛ مما أفقدها المنطقية والتجانس، وأوقعها في التشظِّي والتصادم. ولذا فإن التربية الفاضلة ليست تلك التي تنثر أمام الناس مجموعة من الفضائل والحكم والنصائح، وإنما تلك التي تمتلك خيطاً من نور، ينتظم جميع مقولاتها، ويدفع بها إلى بؤرة شعور الفرد، وأعماق بنيته الفكرية؛ وأعماق وعيه. وهذا لن يكون ما لم يَسُدْ نوع من التناغم بين جميع الأجهزة التربوية والإعلامية والتثقيفية.

٣ ـ مهما تقدمت المعرفة فإنه سيظل في معارفنا بعض الفجوات؛ فالعلم يثير من الأسئلة على مقدار ما يمنحنا من اليقين. وتبرز أهمية التربية العقلية في أنها تنمي لدينا ملكات إدراكية، وتؤسس مكونات ثقافية، تمكننا

من إصدار أحكام سديدة ومنطقية على الرغم من نقص المدلولات والمقدمات والمعلومات.

الإنسان الذي لم يتلق تربية جيدة قد لا يستفيد حتى من المعلومات اليقينية، ويفسر الأشياء تفسيراً خاطئاً، ويسهل خداعه، ويصدر أحكاماً، لا يساندها علم ولا منطق[1]، وفي هذا يقول علي ـ رضي الله عنه ـ: «رأيُ الشيخ ولا رؤية الصبي». فالشيخ يصدر رأيه في أمر ما مع نقص المعلومات لديه مستخدماً لخبرته. أما الصبي فإن عقله لما يراه، وتفسيره له يكون في أغلب الأحيان فجاً؛ نظراً لجهله بطبائع الأشياء.

وتتوسل التربية إلى بناء التفكير المنطقي بغرس عدد من الأفكار الأساسية، كتلك المتعلقة بطبائع الأشياء ومنطقها وسنن الله ـ تبارك وتعالى ـ في الخلق، وطبيعة الارتباط بين الأسباب والمسببات، والتفريق بين المقدمات اليقينية والمقدمات الظنية، وعلاقة الشاذ بالمطرد، وكتلك المتعلقة بالرؤية الشاملة للواقع المُعاش. إذا ربينا شاباً، وعلمناه مدة عشرين سنة، ثم وجدناه يصدر أحكاماً جزافية بعيدة عن المعقول، ومعزولة عن الخبرة؛ فهذا يعني أن التربية أخفقت في الوصول إلى هدف من أهم أهدافها، وفقدت بذلك جزءاً من قيمتها وأهميتها.

ويؤسفني القول: **إن تربيتنا لا تملِّك السواد الأعظم من شبابنا وطلابنا ما يجب أن يمتلكوه من المنطقية والقدرة على سد الفراغات المعلوماتية أثناء إصدار الأحكام!**.

إن العقل يعمل على النظام نفسه الذي يعمل عليه (الحاسوب)، وإن من العسير عليه أن يُدخل تحسينات على المعلومات المعطاة له؛ ومن

---

(١) أعرف فتى أصابته حمى، فذهب إلى طبيب، وأخذ علاجاً لمرضه، وحين سأله أهله عن درجة حرارته، قال: قال لي الطبيب: إنها سبعون!، وأراد بذلك استعطاف أهله. وكان موقف الأهل هو التعجب من جهل الطبيب! ولو كان لديهم شيء من الخبرة الطبية لعلموا أنه لا يمكن لطبيب أن يقول مثل ذلك.

اللطيف أن التقدم في الحاسبات يتمحور حول تطور البرامج أكثر من تمحوره حول التقدم التقني الهندسي، وكذلك الشأن مع العقل البشري، فإن ما يُقدَّم له من تغذية علمية وتربية منطقية وإطلاق للخيال أهم من إمكاناته الفطرية الأساسية؛ وماذا يمكن لراعي غنم أمي، يملك عقلية كعقلية أبي حنيفة أو الرازي أن يصنع بها؟!.

٤ ـ عن طريق التربية والتربية وحدها يمكن للإنسان أن يتأهل للعيش في مجتمع، والواحد منا لا يشعر في الغالب بعظمة الفوائد التي تعود عليه بسبب نشوئه في المحاضن الاجتماعية المختلفة، وتلك الفوائد في الحقيقة، أجلُّ من أن توصف؛ فالمرء المتوحش نشأ أصلاً في بيئة متوحشة، والإنسان المهذب الرقيق اللماح اكتسب ذلك من مجتمع يقدِّر هذه الصفات، ويربي عليها.

غالباً ما يؤكد رجال التعليم والفكر على ضرورة منح الاستقلالية للأطفال والفتيان، إلا أن كبار السن يدركون المخاطر التي يتعرض لها الناشئ بسبب اختلافه عن السياق الاجتماعي السائد؛ مما يدفعهم دفعاً إلى الضغط على أطفالهم كي يقلدوهم، ويكونوا نسخاً مكررة عنهم[١]. لا شك لدينا في أن الإصرار على التماثل الشديد قد يدفع بالمجتمع إلى التحلل الذاتي، كما أن التنوع الثقافي الشديد قد يدمر الكيان الاجتماعي تدميراً تاماً؛ مما يعني أن نجاح التربية في مهمتها، يتوقف على وجود معايير واضحة، تمنحنا القدرة على تبين القدر المطلوب من التماثل والتنوع في المجتمعات الإسلامية. على المستوى المنهجي العام لدينا محاور وأطر عامة واضحة في هذا الشأن، وهي تتمثل على نحو أساسي في **عقيدة التوحيد**، وما سماه الأصوليون **بالكليات الخمس، وهي حفظ الدين وحفظ النفس والعقل والعرض والمال**، وما يدور في فلك هذه الكليات من أحكام وأدبيات،

---

(١) انظر: التربية والتجديد: ٣٥.

ويضاف إلى هذا (المباحات) التي تمثل الهيكل الأساسي للتنوع الاجتماعي بشتى صوره.

وأعتقد أن التربويين لدينا بحاجة إلى تعميق معرفتهم بهذه الأصول والمحاور حتى يستطيعوا القيام بواجبهم في تهيئة الناشئة للتفاعل مع هذه المحاور، والتحرك داخل الأطر التي ترسمها. ومع هذا فلا يمكن أن نستغني عن الخبرات والدراسات التي تضع النقاط على الحروف، وتعمق الفهم حول الاستخدام الأمثل لكل ذلك.

ولا أريد أن أسترسل أكثر فأكثر في بيان أهمية التربية، وسوف يستشف القارئ من خلال مطالعته لمجمل هذا الكتاب أية قضية خطيرة هي قضية التربية. والله مولانا.



إضاءة:

الطفل الذي يعيش في جو من السماحة، يتعلم محبة الناس.

والطفل الذي يعيش في جو من العداوة، يتعلم القتال.

حول

فلسفة التربية

١ـ معنى فلسفة التربية ووظيفتها.

٢ـ معالم فلسفتنا التربوية.

١ ـ معنى فلسفة التربية ووظيفتها

كلمة (فلسفة) كلمة مولَّدة، وهي تعني: «دراسة المبادئ الأولى وتفسير المعرفة تفسيراً عقلياً». ويقولون: فلسف الشيء: فسَّره تفسيراً فلسفياً[١].

والكلمة يونانية الأصل، وهي تعني في اليونانية حب الحكمة[٢]. وقد ذكروا تعريفات كثيرة لها، وحاولوا الكشف عن معناها، من خلال مقارنتها مع (العلم) ومن خلال بيان وظائفها. وهذا في الحقيقة ما نسلكه حيال التعامل مع المبهمات من أجل الخروج من أسر العماء و(اللاتكوّن).

يرى بعض الباحثين أن الفلسفة هي: «فن تشكيل وابتكار و(فبركة) المفاهيم»[٣]. ويقول: (ويل ديورانت): «إن الفلسفة هي ـ جوهرياً ـ إنجاز العلم في تركيب الحكمة»[٤].

إن العلم يرغب في أن يحلل الكل الغامض إلى أجزاء، وأن يحيل الغامض إلى معلوم، وهو لا يبحث في قيم الأشياء وإمكاناتها المثالية، ولا في مغزاها الكلي والأخير...

أما الفيلسوف فإنه لا يقنع بوصف الواقعة، حيث يرغب في توكيد علاقتها بالخبرة بصورة عامة، وهو يربط بين الأشياء في تركيب توضيحي أو تأويلي، وهو يحاول أن يجمع بصورة أفضل مما قبل بين أجزاء

---

(١) المعجم الوسيط ٢: ٧٠٠.
(٢) المنهاج الدراسي: ٣٦.
(٣) ما هي الفلسفة: ١٢.
(٤) قصة الفلسفة: ٢٨.

ساعة الكون العظيمة التي فككها العالم الفضولي.

إن العلم يعطينا معرفة، لكن بمقدور الفلسفة وحدها أن تعطينا حكمة[1]. لعل هذه المقارنة بين وظائف العلم ووظائف الفلسفة، تجلو شيئاً من الغشاوة عنها.

هل للتربية فلسفة؟

الفلسفة تبحث في الكليات، والعلم يفكك الكليات إلى جزئيات؛ كي يستطيع العقل استيعابها، وما شرع فلاسفة الغرب في بحث قضية كلية إلا تفرقت بهم السبل، وصاروا يدورون في حلقة مفرغة؛ وما ذاك إلا لأن (العقل) مخلوق مصمم للعمل ضمن إطار توجيهي، يؤمِّن له معطيات ثابتة يتحرك في ثناياها.

والإلحاد الذي يخترق الفلسفة الغربية اختراقاً تاماً ـ حرم العقل الغربي من الأرض الصلبة التي يحتاجها في عمله، بل إن ذلك العقل صار يخاف من أي شيء ثابت، أو مقرر بصورة سابقة أو أولية. والصراع مع المعسكر الاشتراكي كان يرتكز في الأساس على النفور والرفض الشديدين لأية (عقيدة موجهة) يتم إقرارها وفرضها على العقل باعتبارها ثوابت ومسلَّمات.

ولذا فإن في الغرب من رفض البحث في فلسفة التربية على نحو قاطع، ومنهم من لا يرى داعياً إلى وجود فلسفة للتربية، ويكفي أن يكون هناك منهاج دراسي، مثل فلسفة اللغة أو فلسفة التاريخ[2].

من وجهة النظر الإسلامية فإن لدينا نوعين من الفلسفة: **فلسفة عامة** تشكل الإطار النظري والفكري لكل جوانب الحياة، **وفلسفة خاصة** بكل علم من العلوم.

---

(١) السابق: ٣٥.

(٢) انظر: فلسفة التربية الإسلامية: ٣١ ـ ٣٥.

ويمكن تعريف فلسفة التربية تعريفاً إجرائياً شاملاً بالقول: إنها «علم يوفر إطاراً عقدياً وفكرياً للتربية، ويحدد غاياتها، ويضع معايير نجاحها، ويضفي نوعاً من التوحد على أنشطتها، ويولِّد مفاهيمها، ويحلل عملياتها، ويعالج مشكلاتها» وسيتضح معنى هذا التعريف من خلال الحديث عن وظيفة فلسفة التربية.

وظيفة فلسفة التربية:

إن التربية هي الأداة التي تُستخدم في نقل العقائد والمعارف والآداب من جيل سابق إلى جيل لاحق، ولكن لا يستطيع أحد أن يفعل شيئاً من ذلك دون أن يضفي على ما ينقله شيئاً من تصوراته وثقافته الخاصة، وهذا يمثل مصدراً كبيراً للخلاف بين المربين، كما أنه قد يشوّه العملية التربوية؛ وحين تكون فلسفة التربية مبلورة وواضحة على النحو المطلوب؛ فإنها تخفف من آثار هذا، وتسهل انسياب الأعمال التربوية، وتساعد قبل هذا وذاك على إحداث تجديدات تربوية جريئة.

ويمكن إيجاز وظيفة فلسفة التربية في أمرين اثنين هما:

١ ـ استكناه خطة بعيدة المدى للتربية:

لا يستطيع كل مرب أن يعرف نوع التربية التي ينبغي أن يقدمها للناشئة الذين يعتني بهم؛ فالخيارات التربوية كثيرة جداً، ورؤية الناس للأولويات متنوعة إلى حد بعيد، ومن ثَم فإن فيلسوف التربية هو الذي يحدد ملامح التربية الملائمة خلال ربع قرن من الزمان ـ مثلاً ـ وذلك لأن إدراك ما هو مطلوب لسد حاجات الأمة يعتمد على إحراز (رؤية تركيبية) مشكِّلة من عناصر ثقافية واجتماعية وسياسية واقتصادية كثيرة؛ منها على سبيل المثال: عقائد الأمة، ومدى فاعليتها في حياتها، ومنها البنى الثقافية والفكرية العميقة لديها، إلى جانب الإمكانات المتاحة، والعقبات التي تواجه التقدم التربوي ومتطلبات الأمة وحاجاتها على الصعد كافة، والقضايا التي يجب أن تعطى

الأولوية في المعالجة والإصلاح، والموازنة الدقيقة بين كل ذلك. وعلى سبيل المثال حين تكون معرفة الناشئة بعقائدها ضعيفة أو مشوهة، فإن التركيز على تقديم تربية عقدية جيدة، يصبح ذا أولوية. وإذا كانت الأمة تعاني من الكبت والانغلاق؛ فإنه لا يكون من الحكمة آنذاك أن نخوف الناس من مشكلات الحرية والتفلت، وإنما نربي الناشئة على الشجاعة الأدبية والجرأة في قول الحق والانفتاح.

وإذا كان المجتمع يعاني من البطالة في صفوف المثقفين، فإن الصواب آنذاك أن نركز على القيم التي تمجد العقل اليدوي والمهني، وهكذا...

إن طبيعة الفلسفة الاشتغال على القضايا الكلية؛ ورسمُ الخطط الكبرى والبعيدة المدى لا يتم بنجاح إلا إذا تولاه من يملك رؤية كلية قائمة على الدراسات والإحصاءات، والشفافية الكاملة، والملاحظات الذكية، وهذا كله لا يتوفر إلا بوساطة فلسفة تربوية ناضجة ونامية.

إنه ليس لدينا خطط تصلح لكل زمان ومكان، بل ولأبناء أمة واحدة، ولذا فإن على كل مجتمع إسلامي أن يتدبر ويفكر فيما يصلح له من الأنشطة والخطط التربوية. وهذا لا ينفي على أية حال وجود العديد من القواسم المشتركة.

٢ ـ قيادة التغيير الاجتماعي:

إن فلسفة التربية هي التي تساعد الناس على قبول التغيير ومواكبته، بل إنها هي التي تمكِّن القيادات الفكرية والتربوية من التخطيط للتغيير؛ وإن هذا العصر يشهد إيقاعاً متسارعاً في التحولات المختلفة؛ والناس يخافون في العادة من الجديد باعتباره فرعاً من المجهول. وليست مهمة فلاسفة التربية أن يمهدوا السبيل أمام التغييرات المطلوبة فحسب، وإنما التبشير والمطالبة بها من خلال تفكيرهم الدائم في وضع المجتمع، وتلمسهم لما يصلح شؤونه. إن المؤسسات التربوية على اختلاف مستوياتها وأنواعها تميل إلى أن تكون تقليدية محافظة إلى درجة أن تبدو وكأن مهمتها هي المحافظة على

الوضع الراهن وتثبيته، وهي مستعدة لأن تخوض معارك جدلية حامية عقوداً من الزمان من أجل تغيير كتاب يُدرّس، أو تحديث منهج أو تغيير أسلوب... وهذا كله بسبب غموض ملامح الفلسفة التربوية الخاصة بنا لدى كثير من المربين.

إن المناهج والأساليب والأدوات التربوية تهدف جميعاً إلى تحقيق الأهداف العليا للأمة، وإن تطويرها سيعتمد على وضوح الرؤية لنوعية أدائها الحالي، ولما يجب أن تكون عليه، وهذا لا يتم إلا من خلال الرؤية الشاملة التي توفرها فلسفة التربية.

إني أعتقد أن أحوالنا العامة ستظل متأزمة ما دامت مؤسساتنا التربوية مشغولة بترقيع ما مزقه التغير الاجتماعي الذي أحدثه تضخم النظم التجارية، واختلاف المناخات العالمية، وتغير متطلبات العصر على مقتضى ما تفرضه الدول الغربية التي تمسك بناصية الحضارة؛ ولن تستطيع أبداً أن ترتق تلك الفتوق، وسوف تتسع عليها باستمرار، ما لم تقم المؤسسات التربوية نفسها بالمبادرة إلى إحداث التغييرات المطلوبة في أذهان طلابها ونفوسهم، في إطار عقيدة الأمة ومبادئها ومصالحها، وبما يواكب روح العصر الذي نعيش فيه، وهذا ما على فلسفة التربية أن توضحه بجلاء.



إضاءة:

الطفل الذي يعش في جو من الأمن، يتعلم حسن الظن.

والطفل الذي يعيش في جو من الانتقاد، يتعلم الشجب.

معالم فلسفتنا التربوية

إن فلسفة التربية تحدد للمربين الإطار التوجيهي للأنشطة التي سيقومون بها، وهي بذلك توفر البنية العميقة للتربية، وينبغي أن تسري فيها كما يسري الماء في العود الأخضر. إن المنهج الرباني يوفر للأمة رؤية واضحة للكون والإنسان وعالم الغيب، وهو بذلك لا يغنينا عن أن نختار ولا أن نجتهد، ولكنه يقلل من عدد السبل التي قد تشتتنا وتبعدنا عن الهدف، وإن مثل المهتدي به كمثل من يبحث عن إبرة في غرفة، أما المعرض عنه فإنه كمن يبحث عن إبرة في صحراء!

إن فلسفة التربية في منظورنا ينبغي أن تكون جزءاً من رؤيتنا العامة للحياة والأحياء، والأولى والآخرة، كما أنها ينبغي أن تكون في الوقت نفسه منفتحة على ما يتراكم من الخبرات في الوعي التربوي العالمي؛ مما يعد تعزيزاً لرؤيتنا العامة أو تفريعاً عليها. ويمكن أن نذكر أهم ما نراه مجسّداً لفلسفتنا التربوية من خلال المفردات التالية:

١ ـ إن الناظر في آيات القرآن الكريم يقف على حقيقة كبرى، هي أن **الكون كله مخلوق لله** ـ جل وعلا ـ، كما يجد أن الإنسان جزء من هذا الكون، يقول سبحانه: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾[1].

والإنسان أوجد على هذه الأرض للابتلاء: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾[2].

---

(١) سورة الزمر: آية ٦٢.

(٢) سورة الملك: آية ٢.

وسيلة الابتلاء هي العبادة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[1].

والعلاقة بين الإنسان والكون هي علاقة تسخير: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2].

إن هذا كله يعني ما يلي:

أ ـ إن تحقيق العبودية لله ـ تعالى ـ يجب أن يكون مستحضَراً في كل وقت، ولدى جميع المربين، وفي جميع المحاضن المربية: الأسرة والمدرسة ووسائل الإعلام... فينشَّأ الطفل على حب الله ورسوله ﷺ، وتذكيره بنعمة الله عليه ورعايته له، كما يُلفت نظره بين الفينة والفينة إلى بديع خلق الله وتناسقه وجماله، كي يتعاظم في نفسه توقير الله وإجلاله. ويكون هذا محوراً من المحاور الأساسية للمناهج الدراسية، مهما كانت المادة التي تقدمها.

ويضاف إلى ذلك تأسيس ثقافة عامة تدور في فلك الأصول الحضارية الإسلامية في ميادين الأخلاق والاجتماع والسياسة والاقتصاد والنظم كافة.

قد بات من المهم أكثر من أي وقت مضى أن نؤكد بكل وسيلة أن **بلوغ قمة التحضر لن يكون إلا عبر الخضوع لله** ـ تعالى ـ وحده والامتثال لأمره، **وأن التقوى والاستقامة ونفع الخَلْق هي مقاييس التفاضل في المجتمع الإسلامي.**

ب ـ نحن جزء من هذا الكون، وقد تكرَّم الله ـ تعالى ـ فجعل الإنسان قادراً على استثمار جميع ما حوله والانتفاع به، ولذا فإن العلاقة به هي علاقة تعاون وتعاطف؛ والتعاليم الإسلامية الكثيرة تدلنا على **أن على الإنسان أن يتخلَّق بخلق الرحمة، وأن يتمتع بالإحساس المرهف مع كل ما**

---

(١) سورة الذريات: آية ٥٦.

(٢) سورة لقمان: آية ٢٠.

فيه نوع من الحياة، بل إن ذلك يجب أن يمتد إلى الجمادات أيضاً، وذلك بالمحافظة على وجودها، فلا ينبغي للمسلم أن يدمر الموارد المتاحة، وألا يستخدمها إلا على وجه يعود عليه بالنفع.

إن الحضارة الغربية لم تقتصر على إفساد فكر الإنسان وعقيدته، بل تسببت في تلويث الماء والهواء، وتدهور البيئات، كما أشاعت ثقافة عالمية، تقوم على تدمير الموارد، بدلاً من المحافظة عليها، من خلال نشر ثقافة الاستهلاك العظيم. والحجة دائماً هي السعي إلى المزيد من السعادة لبني البشر، لكن **الحقيقة ناطقة بأن ذلك يتم من أجل مضاعفة أرباح الشركات الكبرى التي ليس لجشعها أي حدود!**.

٢ ـ إن الوجود البشري وجود ممتد إلى ما شاء الله، وإن مدة الحياة الدنيا هي الجزء الأقل شأناً، وإن الحياة الحقيقية هي حياة الدار الآخرة، كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[1]. فالانتصارات في هذه الدنيا مهما كان حجمها، يجب أن يُنظر إليها على أنها تقدم في إطار حياة محدودة، والهزائم يجب أن يُنظر إليها على أنها كذلك؛ فهي مؤقتة، ولا يجوز قطعها عن سياقها العام. وهذه النظرة ضرورية لحماية مجتمعاتنا من شرور الأنانية، وتضخم الشره في الاستحواذ على المزيد من المتاع، مهما كان الطريق الذي يوصل إليه!.

ومن وجه آخر فإذا كنا نعد الدار الآخرة هي المرحلة الأهم والأبقى في حياتنا الأبدية، فيجب أن نعلِّم الناشئة كيف يسخِّرون طاقاتهم وإمكاناتهم للفوز بالسعادة الأبدية. ومما يؤسف له أن هذه الحقيقة أمست ضامرة إلى حد بعيد في الحسّ التربوي لدى معظم الناس، حيث لا تكاد تسمع في المجالس الخاصة والعامة وفي وسائل الإعلام إلا الحديث عن النجاحات والخسائر الدنيوية، وهذا في الحقيقة شكل من أسوأ أشكال التطور التي شهدناها خلال العشرين سنة الماضية!.

---

(١) سورة العنكبوت: آية ٦٤.

إن على الفلسفة التربوية أن تمارس وظيفتها النقدية بوضوح؛ حتى لا نبتعد كثيراً عن أصولنا وأهدافنا.

٣ - إن الله - جل وعلا - أرسل محمداً ﷺ رحمة للعالمين، ولا بد لنا من أن نسعى إلى تحقيق هذا المعنى؛ فلا يتصل مسلم بغير مسلم إلا ناله شيء من رحمة الإسلام ولطفه وهديه، ولن يتم هذا إلا إذا كانت تربيتنا تربية إنسانية.

إن ثورة الاتصالات والمواصلات قد وضعت العالم فيما يشبه الخلاطة الكبيرة، وهذا التواصل يمكن أن يكون سبباً في إحداث براكين ثقافية، تزلزل العالم كله إذا ما اعتمد كل بلد تربية إقليمية ضيقة الأفق أنانية المشاعر. كما أنه **يمكن لهذا التواصل أن يكون أداة لنقل الخبرات، وصقل الكيانات الاجتماعية المختلفة، إذا ما تم اعتماد قيم عالمية، ومعايير إنسانية رحبة، ينظر الناس بعضهم إلى بعض من خلالها**.

إن هذا الزمان هو زمان (المواطن العالمي) الذي يجوب الأرض معلِّماً ومتعلِّماً، وآخذاً ومعطياً، ومؤثراً ومتأثراً... ولا بد للتربية أن تسعى إلى تكوين هذا الإنسان فكراً وثقافة وروحاً وخلقاً... وإن الإسلام لم يحكم أجزاء واسعة من الأرض في الماضي إلا بما يملكه من رؤية ومبادئ عالمية سامية؛ والذي ينظر في أدبيات التربية في القرون الإسلامية الأولى يجد أنها كانت ترمي حقيقة إلى **تكوين شخصية عالمية في التفكير والرؤية والتعامل**، وهذا ما نحتاج إليه اليوم على نحو ملحّ.

إن التربية الإنسانية تتجاوز حدود الواجبات والحقوق، لتسمو إلى آفاق مراعاة المشاعر والظروف والهموم؛ إنها نوع من الشهامة والمروءة والتذمم، أو هي - كما سماها القرآن الكريم - درجة الفضل[1].

إن فلسفتنا التربوية تقوم على تنشئة (الإنسان الصالح) الذي له سلوك واحد، وتعامل واحد، ومعايير واحدة؛ فالإنصاف، والأمانة، والعدل، وأداء

---

(١) قال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

الحقوق، والنصح، والإحسان، وإغاثة الملهوف، ونصرة المظلوم، وإكرام الضيف، ورعاية حقوق الجار... وما شاكل ذلك من كريم الصفات - مقومات أساسية يجب أن تتجلى في سلوك المسلم وتعامله مع المسلم وغير المسلم؛ والنصوص في هذا كثيرة ومشهورة.

إن الثقافة الغربية صنعت من المواطن الغربي إنساناً له سلوك وتعامل داخل بلاده، وسلوك وتعامل آخر خارجها، حيث يتم ليُّ الذراع، ونهب الخيرات وقهر الضعفاء! وهذا ما تأثر به بعضُ المسلمين اليوم، وهو جزء من الغزو الخلقي والروحي لنا!

٤ - من معالم فلسفتنا التربوية: التماسك والانسجام، بمعنى عدم اشتمالها على تنافر بين أجزائها، يؤدي إلى أن يُجهض بعضها بعضاً. وهذا الانسجام نابع في الأصل من أن الله - جل وعلا - هو خالق الكون والإنسان، وهو الذي أرسل الرسل، وأنزل الكتب؛ ولذا فعلى مقدار التزام فلسفتنا التربوية بالمنهج الرباني يكون انسجامها أقرب إلى الكمال.

ويشكل ذلك الانسجام عنصر الشمول والتوازن؛ فنجد على سبيل المثال أن القرآن الكريم دعا المسلمين إلى امتلاك القوة، وامتلاك أسباب الغلبة، وهذا لا يتم إلا من خلال نظم وأنشطة تؤدي إلى التفوق المادي؛ ولذا نجد أن في جوهر ثقافتنا وأدبياتنا الكثير مما يجعل المسلم لو التزم به متفوقاً، مثل العلم والنظام والنظافة والإتقان وحسن التدبير والدقة...

ونجد **الإسلام قد حث الشباب على التعفف والتحصن،** فشرع كل ما يساعد على ذلك، مثل ستر النساء، ومنع الاختلاط، والأمر بغض البصر، والبعد عن المغريات والفتن، إلى جانب الحث على تيسير الزواج وخفض نفقاته، وهذا كله يسهل الالتزام بالعفة. ونحن مدعوون خلال مسيرتنا التربوية إلى اكتشاف المزيد من أشكال الانسجام في التعاليم الإسلامية؛ إذا ما أردنا لأنشطتنا التربوية أن تكون فعالة ومنتجة.

إن مما يؤسف له أن تربيتنا الواقعية لا تهتدي في كثير من الأحيان

بهذا الهدي، ففي مسألة العفة مثلاً نجد أن كثيراً من الدول أقامت المؤسسات التعليمية التي يدرس فيها الفتيان والفتيات في قاعات واحدة، وتجد إلى جانب ذلك البرامج التلفازية التي تعرض الصور الفاضحة؛ ويكمل هذا غلاء السكن، وارتفاع تكاليف الزواج، وانتشار البطالة... فكيف يمكن للشباب أن يحافظوا على العفة في مثل هذه الأجواء، وكم هي نسبة الذين سيقاومون هذه الظروف البالغة القسوة؟!

٥ ـ التسامي على السفاسف، ومحاولة الارتقاء إلى المثل الأعلى[١] **ركن ركين في فلسفتنا التربوية**؛ فالله ـ جل وعلا ـ زود الإنسان بطاقات وإمكانات، وجعل في تركيبه النفسي والجسمي حاجات تتطلب الإشباع، وسنَّ له إلى جانب ذلك مبادئ وآداباً، ووضعه في ظروف قد تكون مواتية، وقد تكون معاكسة لتحقيق ذلك ابتلاءً منه واختباراً؛ وعلى المرء أن يتعلّم حسن التصرف حيال كل ذلك.

إن الحضارة الحديثة أضعفت إرادة الإنسان، ونقلت مجال السيطرة والتحكم من الإنسان إلى الأشياء، وصار الإنسان المسلم يشعر ـ أكثر من أي وقت مضى ـ أنه مغلوب على أمره، لاهث حول تحقيق رغبات وحاجات تقصر إمكاناته دونها، وصار يضغط على مبادئه، ويتجاهل أخلاقياته وأدبياته في سبيل اكتمال الوسط الذي يعيش فيه؛ وهذا حدًّ من تساميه وتشوفه إلى المثل العليا.

إن الرؤية الإسلامية في هذه المسألة تتلخص في أن رغبات الناس في امتلاك الأشياء لن تتوقف عند حد: **«لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب»**[٢] ومن ثَم فإنه لا بد للمسلم من المجاهدة الدائمة حتى لا يخضع للظروف الصعبة، وينشد دائماً الأسمى والأرقى. وفي سيرة النبي ﷺ وسير أصحابه الكرام دروس عملية كثيرة

---

(١) يراد بالمثل الأعلى نموذج الحياة المعنوية والمادية المراد للإنسان المسلم أن يحياها. انظر: كلاماً مفصلاً حول هذا في: مقومات الشخصية المسلمة: ٦٣.

(٢) رواه البخاري.

للتسامي؛ فقد خير ﷺ بين أن يكون مِلكاً رسولاً، وأن يكون عبداً رسولاً، فاختار أن يكون عبداً رسولاً، وكان تمر عليه الليالي العديدة دون أن يوقد في بيت من بيوت نسائه نار، وكان يقوم من الليل حتى تتورم قدماه، مع مغفرة الله ـ تعالى ـ له، وكان وكان...

وكان فتيان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يتسابقون إلى ساحات الجهاد طلباً للشهادة، كما كان بعض الصحابة يؤثر إخوانه على نفسه بأشياء، هو في أمس الحاجة إليها، وكان منهم من يعمل ويكد من أجل أن يتصدق بشيء من أجره في سبيل الله!

إن التشريع الإسلامي يراعي الظروف الصعبة، والإمكانات المحدودة لبني البشر، ويعترف بها، ومن أجل ذلك كان التكليف ضمن الوسع، وكانت الرخص؛ لكن الله ـ تعالى ـ يريد دائماً من عباده أن يكون فيهم من يأخذ بالعزائم، ويضغط على حاجاته ومصالحه، من أجل الارتقاء إلى مقام القدوة. وذلك هو السبق، وأصحابه هم السابقون الذين قال الله فيهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢﴾[1].

إن التسامي والارتفاع إلى مقام الإمامة في الخلق والسلوك يحتاج دائماً إلى تضحية، ولكن العاقبة رضوان من الله ورحمة وفوز مبين. وإذا كان من العسير على الواحد منا أن يرتقي إلى المثل الأعلى في كل جوانب الحياة؛ فلا أقل من أن يكون قدوة في مجال من المجالات على الأقل؛ لينير شمعة في زاوية من زوايا ليل العالم الحالك.

التسامي في التحليل النهائي، مظهر من مظاهر الإرادة الصلبة، وهو في الوقت نفسه أداة من أدوات التحرر من ربقة الأهواء والشهوات، وأسر الظروف الصعبة.

الأجيال الجديدة تواجه المزيد من ندرة الموارد، والمزيد من المغريات مع ظروف قاسية، ولذا فإن حاجتها إلى التسامي ستزداد يوماً بعد يوم،

---

(١) سورة الواقعة: الآيات ١٠ ـ ١٢.

ومهمة التربية أن تبرز الحاجة إليه، وأن تستهدف تحقيقه في مناشطها المختلفة.

٦ ـ اقتضى خلود المنهج الرباني واتساعه لأحوال الإنسان مهما تطاول الزمان واختلف المكان ـ أن يشتمل على ثوابت صلبة خارجة عن نطاق التطور والاجتهاد، وعلى فراغات، يمكن للمجتهدين والمنظرين أن يملؤوها من خلال خبراتهم، ومن خلال حاجات الناس الفعلية؛ ففلسفتنا التربوية في مستوياتها العليا لا تقدم أحكاماً في مسائل فرعية، مثل موضوع عقاب الأولاد وضربهم في المدارس، ومثل بيان القدر المسموح به من نقد الابن لأبيه، ومثل تفضيل طريقة على أخرى في التعليم؛ لأن هذه القضايا تتنوع تنوعاً شديداً بين الأمم؛ فالرأي فيها متروك لموجهي التربية وعلمائها.

وهكذا ففلسفتنا التربوية ليست وليدة الخبرة، ولا تبنى بناء على نحو مطلق ـ كما يرى بعض الباحثين ـ ولا هي في المقابل فلسفة مغلقة، كل ما فيها قطعي ونهائي، ولا هي فلسفة متعالية تدعي نضج نظمنا التربوية، وتوصد الأبواب أمام تراكم الخبرة؛ فالإسلام دين عملي؛ ولذا فلا يكاد يذكر الإيمان إلا ويذكر معه العمل الصالح، وكان ﷺ يستعيذ بالله ـ تعالى ـ من علم لا ينفع[1]؛ وإن أكبر مشكلة خلقتها الفلسفة الإسلامية وغير الإسلامية لنفسها، أنها أقحمت نفسها في بحث أمور لم يعدَّ الخالق ـ سبحانه ـ العقل البشري لاستجلاء كنهها، فكان حليفها دائماً الإخفاق والاضطراب.

ولو أن الفلسفة جنحت نحو (العملية) وسد الفراغات المعرفية، ونحو التحليل وتشكيل المفهومات الجزئية، لأسدت للعلم أيادي، هو بأمس الحاجة إليها.

إن النظريات التربوية، لا تعدو أن تكون أدوات في يد الفلسفة التربوية، وهي مثل كل الأدوات، تستمد قيمتها من مدى إمكانية تطبيقها،

---

(١) أخرجه مسلم.

ومن تحقيقها للغايات التي نشأت من أجلها؛ ولذا فإنها قد تصلح في مرحلة، ولا تصلح في أخرى، وقد تصلح في بلد، ولا تصلح في بلد آخر[1]. وقد مر على الناس زمان كان الهمُّ المسيطر عليهم هو استيعاب الواقع الموضوعي وفهمه، لكن القرآن الكريم يشير إلى أن علينا أن نغير من هدف العلم ومن هدف التربية، وأن نضيف إلى محاولة فهم العالم محاولة تغييره، كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[2].

إن المنهج الرباني يمنح المسلم الأصول والأسس والغايات الكبرى، ويمنحه إلى ذلك ما يشكِّل به (العقل المفتوح) الذي يملك استعداداً دائماً لقبول الجديد والنافع، وما تبرهن التجارب على صدقه وصوابه، ما دام لا يتنافر مع الإطار الإسلامي العام، ولا يخالف نصوصاً أو أحكاماً قطعية. والمنهج التجريبي في الأصل صناعة إسلامية، ومن شأن التجريب أن يأتي دائماً بالجديد، وفلسفتنا العامة، فلسفة تجديدية مرنة؛ والارتباك الذي تشهده الساحات التربوية يعود إلى أمرين:

الأول: هو محاولة التجديد في الحقول التربوية دون وجود أطر واضحة؛ مما يؤدي إلى الاضطراب والبلبلة.

والثاني: هو الجمود عند التجارب والنظريات التربوية القديمة، والتي ذهب إليها بشر يصيبون ويخطئون، وهذا يؤدي إلى القصور والتخلف عن ملاحقة الحاجات التربوية المتجددة.

إن الغرب قد أبدع في استخدام الأساليب والنظريات والوسائل التربوية؛ لكن ذلك يتم في غياب فلسفة تربوية عامة، تتمتع برؤية مطلقة ونهائية.

أما المسلمون فإن لديهم فقراً في النظريات والأساليب والأدوات،

---

(١) انظر: أثر العلم في المجتمع: ٨٣.

(٢) سورة الرعد: آية ١١.

بالإضافة إلى نوع من الغبش في استجلاء الفلسفة التي ينبغي أن تواجه الأنشطة التربوية؛ وهكذا دخل الضيم على التربية نتيجة فقد الفلسفة حيناً، ونتيجة قصور الآليات والنظريات حيناً آخر!.

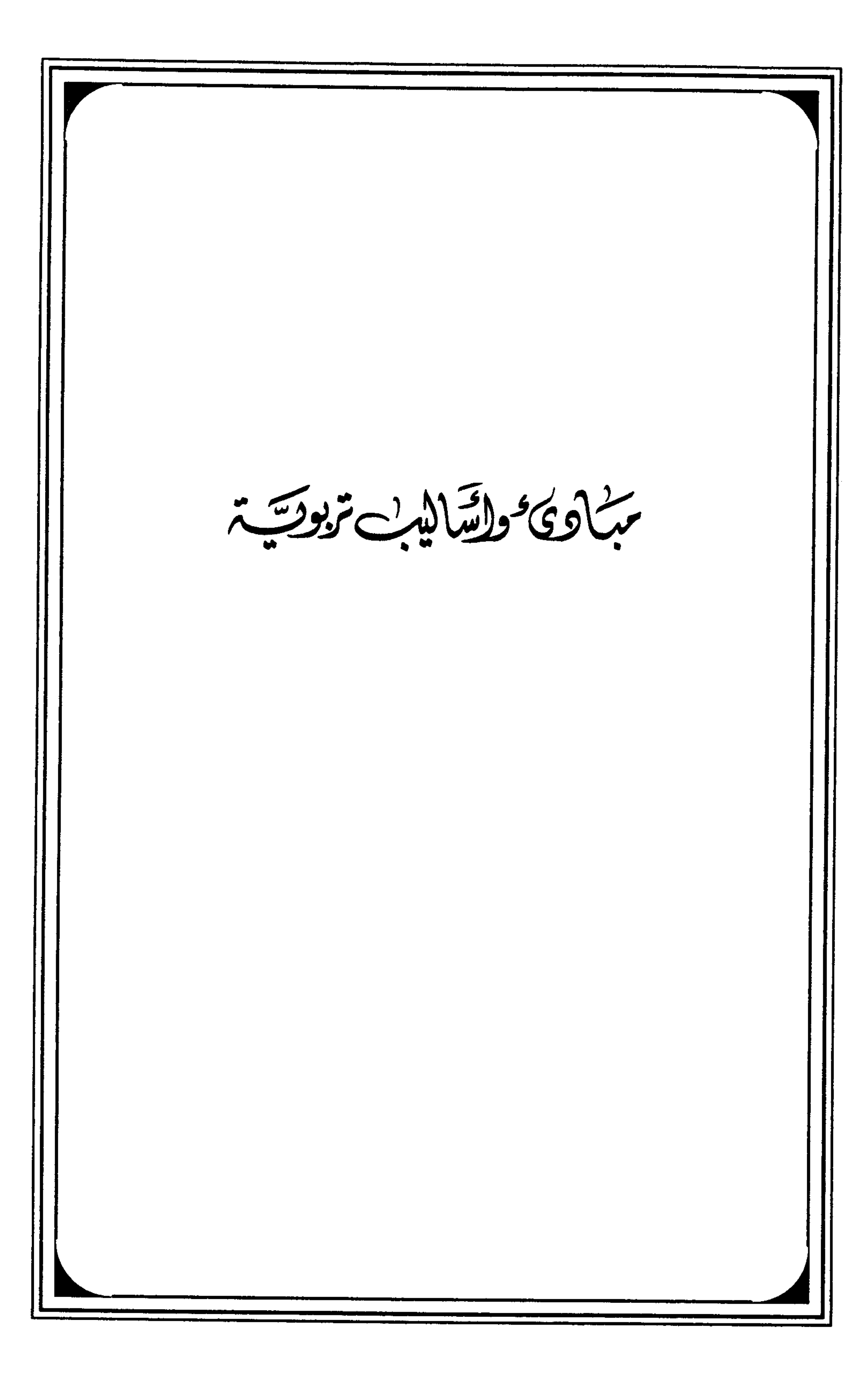


إضاءة:

إن الطفل الذي ينشأ في جو من التشجيع يتعلم الثقة.

والطفل الذي ينشأ في جو من التهكم، يتعلم الخجل.





مبادئ وأساليب تربوية



مبادىء وأساليب تربوية

إن الأعمال التربوية تخضع دائماً لأنظمة مفتوحة، بل إننا نستطيع القول: إنها المرآة التي تلقي عليها التطورات الحضارية على الصعد كافةً أشعتَها، لتعكسها فيما بعد في شكل مفهومات وأفكار وأساليب يتبعها الكبار في تنشئة الصغار؛ ولذا فإن من غير الممكن أن نجد في أي كتاب تربوي الكلمة الأخيرة التي يجب أن تقال في أي شأن تربوي؛ وسيظل مجال الجدل والاختلاف والإضافة في مسائل التربية مفتوحاً.

إن هناك الكثير من العناصر التي تتحكم في ماهية التربية التي تقدمها أي أمة لأبنائها؛ مما يجعل ما يصلح أو يقال في بلد أو زمان لا يصلح أن يقال في بلد أو زمان آخر؛ ولكن مع هذا فستظل هناك مبادئ وأفكار عامة تتصل برؤيتنا للحياة، وتتصل بطبيعة الإنسان، وبما ثبت واستقر من نتائج عامة، تمخضت عنها البحوث والدراسات والخبرات البشرية على نحو عام. وسنحاول أن نسوق هنا بعضاً من ذلك، مما يتصل بالشأن التربوي وقضاياه الشائكة على النحو الآتي:

١ ـ التربية مهمة تحتاج إلى انتظار:

تعالج التربية كائناً، يتمتع بالعنصر الروحي والإرادة الحرة؛ ومع أن أي إنسان قابل لأن يتغير ـ ولا سيما الطفل ـ فإن من الصحيح أيضاً أن عنصر المرونة في الإنسان ليس مكتملاً، ومن ثم فإن المربي يظل فيما يشبه حالة (النزال) مع من يربيه.

ويضاف إلى هذا أن المربي لا ينفرد بالتأثير والتوجيه، فالجهات التي

تتولى تنمية الكائن البشري عديدة، وليس لدينا إجماع اجتماعي على جوهر ما ينبغي أن يقال للطفل، وهذا كله يولِّد نوعاً من (الحرون) والشك في صدق ما يُلقَّن إياه ومدى فائدته له.

المواد الدراسية التي يتلقاها الناشئة عبر البرامج المدرسية أو في المطالعة الخاصة ذات تأثير مهم في تكوينهم[1]، وهي لا تتطابق بالضرورة مع جميع المبادئ والآداب التي تلقنها الأسرة لأبنائها، وقل مثل هذا في وسائل الإعلام والأعراف الاجتماعية السائدة.

ومن وجه آخر فإن المرء يظل أقرب إلى التوحش والفوضى ما لم يتم دمجه في مجتمع، وعملية الدمج هذه عبارة عن محاولات تنمية لبعض جوانب شخصيته، وتشذيب لجوانب أخرى، وهذا كله اجتهادي، ومرهق وشاق في الوقت نفسه.

إن لكل مرحلة عُمْرِيَّةٍ درجة من النضج، يصعب تجاوزها، كما أن لها مشكلات لا يمكن حلها إلا على نحو جزئي، ولذا فإن (العجلة) هي العدو الأول للتربية. إن الآباء والمعلمين يميلون إلى أن ينفضوا أيديهم من مسؤوليات التربية، ويلقوا أعباءها عن كواهلهم، ولذا فإن الشكوى من بطء الاستجابة، وضعف تأثير التربية تظل مستمرة.

هناك جوانب عديدة في شخصياتنا، لا ينضجها إلا الزمن، ويجب أن نعطيه الفرصة الكافية. والمستوى العالي من النضج الفكري قد لا يتم قبل أن يسلخ المرء من عمره خمسين حولاً. أما النضج التام، فيبدو أنه لا سبيل إليه؛ فالبشرية كائن يتعلم على نحو مستمر!.

---

(١) قام (ماكليلاند) بدراسة لعوامل التقدم والتخلف لدى الشعوب المختلفة، وجعل من معايير دراسته التي استخدمها هذا الباحث (المادة) الدراسية التي تقدم للناشئة في الفترة التي تسبق الازدهار أو تسبق الخمول بنحو عشرين عاماً.
تحضير الطفل لعام ألفين: ١٦.

إن الفيصل في هذا الأمر هو شعور المربي أن هناك تقدماً ما على صعيد الجانب الذي يهتم بتنميته في شخصية من يربيه، ولا بأس في أن يكون هذا التقدم بطيئاً، إذا ما تبين أنه ثابت، مع أن النكوص ليس حادثاً غريباً.

٢ ـ المطلوب في التربية قَدْر من كل الشيء:

لعل هذا المبدأ أهم مبدأ في التربية، حيث تقوم التربية على نحو جوهري بمحاولة **دمج الطفل في المجتمع من دون تجاهل طبيعته**، وهذا ليس بالعمل السهل. إن قولنا: إن الطفل صفحة بيضاء، لا يعني أننا نستطيع أن نشكِّله على نحو تام؛ فللطفل طبيعته وموروثاته، وبالتالي ردود أفعاله الخاصة.

إذن المراد من قولنا ذاك هو مرونة الطفل وقابليته للتأثر أكثر مما هو عند الكبار، ليس أكثر. والدليل على هذا أنك قد تعرِّض خمسة من الإخوة لتربية واحدة، ثم يكون لكلٍ منهم سلوكه وشخصيته ومواهبه، وقيمه أيضاً!

إن من المألوف أن نجد أسرة (تدلل) أطفالها، وتلبي جميع رغباتهم، وهذا الأسلوب كثيراً ما تتبعه الأسر الثرية، والأسر التي ليس لها سوى طفل واحد.

ومن المألوف أيضاً أن نرى أباً يربي بطريقة (كسر العظام) ولغة التهديد والوعيد، وحرمان الطفل مما يشعر أنه حق طبيعي له، وهذا كثيراً ما يسود في الأسر الأمية، وتلك التي تعيش في ظروف صعبة.

الأسلوب الأول يخرج للمجتمع ـ في الغالب ـ طفلاً واثقاً من نفسه، ولا يخلو من الشعور بالأنانية، إلى جانب ضعف في الشعور بالمسؤولية.

أما من يتربى بالأسلوب الثاني، فكثيراً ما يكون مغموراً بمشاعر القهر والإحباط والدونية، كما أنه في الغالب يسلك سلوكين: سلوكاً يلبي متطلباته الذاتية، وسلوكاً يُرضي به الأهل والمجتمع من حوله!.

ونرى مع هذا حالات كثيرة متفاوتة وخارجة عن هذين النمطين من النتائج، وهذا هو شأن كل ما يخضع لأنظمة مفتوحة.

وتجارب البشرية تشير إلى أنه لا بد من المزج في تربية الطفل بين عنصرين: عنصر حب الطفل ومراعاة مشاعره، وتلبية بعض رغباته، وعنصر التوجيه والنظام والمنع.

إن من المهم جداً أن يشعر الطفل أن كل تصرفات الأهل، هي في النهاية لصالحه، وأن يشعر أن ما يلقى عليه من أوامر ونواهٍ، ليس نوعاً من الاستعباد والتحكم المتعسف؛ وحين يتوفر له ذلك، فسوف يتلقى ما يختبره من التضييق على تصرفه برد فعل سويّ ومعتدل.

في ثقافة المشارقة هناك تركيز زائد على (التماثل) حيث يُطلب من الصغار أن يكونوا نسخاً مكررة عن الكبار في كل شيء، حتى في الأمور السيِّئة، بحجة المحافظة على العادات والتقاليد! ومن النادر أن يسأل الكبار أنفسَهم: هل استطاعوا هم أن يكونوا نسخاً مكررة عن آبائهم وأجدادهم؟.

إن الجهل بالأصول، وبمعايير الصواب والخطأ، وبحدود الثوابت والمتغيرات - هو الذي جعل الناس لدينا يصرون على (التماثل) المطلق. ونتيجة هذا الإصرار - مع تغير الزمان والثقافة ومتطلبات العيش - هي توليد نوع من الانفصام في شخصية الناشئ، كما أنه يدفع الصغار إلى سحب الثقة من تفهُّم الكبار لهم، ولاحتياجاتهم الشخصية. وفوق هذا وذاك فقد صرنا نعاني من نوع من التماثل الشكلي مع ذهاب المضمون! ولا ننسى أن الإصرار على التماثل يضعف كيان الطفل، كما يُضعف روح المبادرة لديه، ويخمد تحفزه لاكتساب خبرات جديدة.

أما في الثقافة الغربية، فإن الوضع مختلف تماماً، حيث يقال للصغار: حددُوا أحلامكم، ثم حاولوا تحقيقها. كما يؤكَّد على كل طفل أن يكون شيئاً مختلفاً، وأن يحقق ذاته بالأسلوب الذي يراه مناسباً، وعليه أن ينجح مهما كلَّف ذلك من ثمن!.

وهذا أفسد الناشئة، وفتت الأسرة، ونشر الأنانية، وأشكالاً من الانحراف. وهو بالإضافة إلى ذلك قد حمَّل الطفل مسؤولية الاختيار والإنجاز على نحو لا تتحمله جملته العصبية، ولا خبراته وإمكاناته. وأعتقد أن على المشارقة أن يتقدموا خطوة إلى الأمام على طريق الاهتمام بالجوهر، والإعراض عن الشكليات والقشور والمظاهر الفارغة، وعلى الغربيين أن يرجعوا خطوة إلى الوراء نحو توجيه الناشئة، وإرشادهم إلى ما يقوي النسيج الاجتماعي؛ كي يتم اللقاء في منتصف الطريق على ناصية تربية متوازنة لصالح الأجيال الجديدة.

٣ ـ يظل ما تقوله البيئة المحيطة هو الأهم:

لكل مجتمع مبادئه ومثله العليا، كما أن له أيضاً مصالحه وطموحاته وتقاليده ومشكلاته، وبين هذه وتلك نوع من التشابك والتضاغط المستمر؛ المثل والمبادئ تضغط على المصالح؛ حتى تظل في إطارها، والمصالح تضغط على المبادئ كي تتسع لها من خلال توسيع مدلولاتها، والتخفيف من صرامة أحكامها؛ ومن المبادئ والمصالح تتكون البيئة القيمية والأخلاقية. حين يكون صوت المبادئ هو الأعلى، فإن نسق الحياة كلها يتحسَّن: السياسة والأخلاق والتربية والاجتماع. وحين يعلو صوت المصالح، فإن الغايات الاجتماعية تولد آنذاك من رحم المصالح، وتصبح مسوغة لكل الوسائل التي تحققها مهما كانت غير مشروعة، وينحط بذلك توازن الحياة كلها.

الآباء والمعلمون، وكل من يقوم على الشأن التربوي، يحاولون الارتقاء بمن يربونهم نحو أفق المبادئ والقيم التي يؤمنون بها محاولين منع الناشئة من الاستسلام لأحكام البيئة التي يعيشون فيها. وهذا التوجه يظل صائباً، ونبيلاً، لكن إلى أي حد يمكن النجاح في تحقيق ذلك؟

إن مشاعر الإحباط وخيبة الأمل التي نجدها عند المربين سببها في الغالب عدم إدراكهم للأثر الضخم الذي تتركه البيئة المحيطة في نفوس الناشئة، وضآلة أثر رسائلهم التربوية الخاصة في جانب الرسالة التي ترسلها البيئة.

إن (الذاتية) على ما فيها من ثوابت وقسمات وملامح بارزة ـ ليست شيئاً ناجزاً ونهائياً، فالمرء من خلال الحياة الاجتماعية المشتركة يدرك إمكاناته وجوانب قصوره، ومن خلالها يتشرب القيم والمبادئ التي تشكل مثله العليا، كما أنه يتحسس درجة الفاعلية المطلوبة للعيش في مجتمعه بكرامة. والحياة الاجتماعية المشتركة هي التي تساعده على تفسير التاريخ، وتعرّفه على المضامين الأخلاقية للعادات والتقاليد، وهي التي تولد في نفسه الحساسية تجاه المحرمات الثقافية... وهذا كله يعني أن ما نقوله للناشئة، لا يستوعبونه على نحو مباشر، وإنما يمر بعملية (ترميز) تقوم بها البيئة المحيطة. حين يقف من يقول للناس: إن الصلاة في المسجد شرط لصحتها ـ كما هو رأي بعض الفقهاء ـ فإن وقع هذه الكلمة سيختلف بحسب البيئة السائدة؛ فإذا قيلت في بيئة متمسكة ملتزمة، فإن الناس سوف يتقبلونها، ويرون أنها ربما كانت قائمة على دليل معتبر. أما إذا قيلت في بيئة لا تصلي، ولا تؤدي من الواجبات إلا القليل، فإن الناس آنذاك سينظرون إلى قائلها على أنه متنطع متشدد، ويهرف بما لا يعرف!

ماذا نظن أن تكون جدوى المواعظ والتلقين لمبادئ القناعة والحرص على الحلال حين يكون المجتمع كله يتوجه بمشاعر الإعجاب والغبطة للرجل الناجح مهما كانت وسيلته إلى ذلك؟!

حين يقتات السواد الأعظم من الناس على الرشوة والسرقة والاحتيال، فإن العفة والشرف والنزاهة تصبح بمثابة عقوبة لأصحابها، وهذا يشكل ضغطاً هائلاً على المبادئ التي يلقنها المربون للناشئة!

إن الطفل بالإضافة إلى تلقي الرسالة التربوية مرمَّزة ومطعَّمة بنكهة البيئة، فإنه يقارن بين سلوك من يعده مثلاً أعلى له، وبين مدلولات الرسالة التي يتلقاها[1]. ولا ينبغي أن يُفهم من كل هذا أن كلمة البيئة تظل هي

---

(١) ذكر لي أحدهم أنه لاحظ على أخيه الصغير القيام ببعض التصرفات غير اللائقة، وحين=

الأخيرة دائماً؛ فالجو العام الذي ينشأ فيه الصغار مفعم بالمؤثرات الإيجابية والسلبية؛ وقد ينشأ أشخاص على أفضل المستويات في بيئات لا يغلب عليها الصلاح، كما قد يحدث العكس، ولكن تكاليف ذلك كثيراً ما تكون باهظة، حيث جرت السنة بخضوع الأكثرية لأحكام المحيط الذي يحيون فيه.

هذا كله يعني أن مشروع التربية يجب أن يكون مشروع أمة، كما يعني أنه لا يمكن للمؤسسات التربوية أن تكون عبارة عن جزر معزولة في لجة بحر متلاطم، فالعزلة لأية مؤسسة صارت مستحيلة، ولم يبق أمامنا إلا السعي إلى تحسين المناخ العام كله، مع محاولة التركيز على بعض الإجراءات الخاصة من أجل تربية بعض العناصر الراقية المتفوقة، كيما يتم كسر الحلقة المقفلة.

٤ ـ التربية الجيدة، هي التي تثير الرغبة نحو مزيد من التربية:

للدماغ طاقة على الاستيعاب محدودة، وللروح طاقة على التحمل والتقبل أيضاً محدودة؛ وهذا ما يجب أن ندركه على نحو جيد. في مجال التربية العقلية يظل من المهم أن نكوِّن لدى الذين نربيهم (العقل المفتوح) الذي يكون دائماً مستعداً لتفهم الجديد واستيعابه، ثم اتخاذ موقف منه.

والعقل المفتوح هو ذلك الذي يمتلك القدرة على نقد التجارب الماضية، وتقويمها، وأخذ العظة والعبرة منها.

إن كل رؤانا وتعبيراتنا ووجهات نظرنا يجب أن تحتفظ بنهايات مفتوحة، فالله ـ جل وعلا ـ ما أنزل داء إلا أنزل له دواءً عرفه من عرفه، وجهله من جهله. فهناك دائماً إمكانات لنوع من التقدم، وهناك دائماً أشكال من الحلول، وعدم عثورنا عليها لا ينفي وجودها.

= نصحه قال له: إن أبي يفعل ذلك. قال: فأفهمته أن ذلك خطأ ولو فعله والده. وبعد شرح، وأخذ ورد قال لأخيه: ماذا فهمت مني بعد كل هذا؟ قال الصغير: فهمت منك أن ما أفعله غير مناسب الآن، وإذا كبرت وصرت مثل أبي صار ذلك مناسباً.

كل فكرة أو نظرية أو مقولة، توصل الناس إلى طريق مسدود، وتمنحهم إجازة مفتوحة، ليست على صواب، فالله ـ تعالى ـ خلقنا لنعمل ونكدح ونكتشف ونبدع، وهذا يعني أنه ستظل هناك سبل للحركة في اتجاه الأهداف التي نؤمن بها؛ كان أحد الحكماء يعلِّم مشلولاً السباحة، ويقول له: «اعلم يا بني أن في كل جدار باباً يمكن أن ينفتح»!

العقل المفتوح الذي نريد أن يتمتع به أبناؤنا وطلابنا، لا يتقبل الجديد فحسب، ولكن يبحث عنه، ويتشوف إليه، وذلك يحدث حين نقدم له المعرفة بطريقة مرنة، تساق فيها الحقائق والمعلومات على نحو يسمح بالمراجعة والاستزادة، ويثير التساؤل. وسيكوِّن المربي المرونة والانفتاح الذهني حين يحرص على نوعية الأسلوب الذي يتبعه في إيصال الحقائق إلى الطفل أو الفتى، كأن يقول: معلوماتي حول هذه المسألة هي كذا، أو هي ظنية، أو غير مكتملة... وكأن يقول: حاولت أن أصل إلى حل، فلم أوفَّق، وحاولت أن أعرف رأي فلان في هذا الموضوع، فلم أجده في كتابه الفلاني، وربما كان في كتاب كذا...

إن العلم يثير من التساؤلات، ويوجد من الفجوات على مقدار ما يوفر من الأجوبة والحقائق، وعلينا أن نعلِّم هذا لمن نربيهم بوضوح.

كثيراً ما يعطينا (التفلسف) في الحديث، وفي الدرس نوعاً من التفوق على الأقران، لكن الداعي إليه لا يكون قوياً إلا إذا كان هناك فراغ معلوماتي، أو رؤية غائمة؛ مما يعني أننا حين نعلل ونحلل ونركب ونستنبط، وننشئ المفهومات، لا نقف في الغالب على أرض صُلبة، ولذا فإن ما نقوله يبقى ظنياً، وقابلاً للجدل والأخذ والرد، وهذا ما ينبغي أن يكون ملموساً لدى من يسمعنا.

في حالة التوجيه الخلقي والنفسي، فإن من المهم تحيُّن الفرص للتوجيه، وعلى المرء أن يحذر من الكلام الذي ليس له أدنى مناسبة. إن الشعور بالكرامة والاعتزاز بالذات متغلغل في أعماق الأطفال حتى الصغار

منهم، وإن من الحيوي المحافظة على هذا الشعور؛ **وإن كثرة التوبيخ وتوالي النصح تضعف ذلك الشعور، وقد تقتله، وآنذاك يكون من الصعب إثارة حمية الطفل، أو الحصول على استجابة جيدة منه.**

جهودنا التربوية التي نبذلها، عبارة عن (خدمة) وبعضنا يحولها أحياناً إلى نوع من (الاستعباد) حيث يميلون إلى إظهار تفوقهم من خلال إثبات دونية الولد الذي يربونه[1].

بالإمكان غرس الفضائل والأخلاق الكريمة عن طريق القصة والمثل والثناء على بعض النماذج الطيبة، كما يمكن استخدام التلميح والتنبيه، وما شاكل ذلك، لكن عندما يكون الطفل متأكداً من حبنا الشديد له، وعندما يكون في حالة من السرور والانبساط.

إذا قلنا للطفل كل ما عندنا، فإننا سنضطر بعد ذلك إلى أن نعيد ونكرر، وذلك مصدر للسآمة والملل، فلنحاول أن نقول شيئاً مما يجب أن يقال، ونؤخر الباقي إلى وقت آخر ومناسبة أخرى. والمربي بحاجة إلى نوع من الإبداع والتجديد في خطابه وأساليبه ومعلوماته أيضاً، حتى يولد نوعاً من الثقة لدى من يربيه بأن لديه دائماً شيئاً طريفاً ومفيداً، ومن هنا يتولد التشويق إلى تربية مستمرة متجددة.

٥ ـ كما نكون تكون تربيتنا:

بإمكان المربي أن يقول الكثير، ويلفت الانتباه إلى الكثير، لكن المحك النهائي في الاستجابة له يعتمد على ما تنطق به شخصيته، أي الوضعية العامة التي عليها المربي؛ فالأطفال أذكى مما نظن، وهم يلاحظون أشياء كثيرة نعتقد أنهم عنها غافلون؛ ومن هنا كان تأثير الأستاذ في الطالب أعظم من تأثير الوالد؛ لأنه يرى أستاذه في أحسن أحواله ـ وهذا من أسباب الإرهاق في مهنة التدريس ـ على حين أنه يرى أباه في جميع أحواله.

---

(١) فلسفة التربية: ٧٣.

ليست المشكلة في التربية مقصورة على وجود مسافات فاصلة بين القول والعمل، أو بين الشعار والسلوك، وإنما هناك مشكلات أخرى، منها: أن الذي مورس في تربيته نوع من القسوة، يجنح إلى أن يعامل من يربيهم بالأسلوب عينه[1]، وربما ظن أن ذلك هو الأسلوب الأمثل، وقد يفعل ذلك على نحو غير شعوري.

كما أن أمية الأب كثيراً ما تجعله عاجزاً عن إدراك أهمية تعليم ابنه، وإذا ما كان حريصاً على ذلك، فقد لا يملك من المعرفة ما يجعله يوجه ابنه، ويساعده على إكمال تعليمه...

وهكذا فإنه ليس من السهل على الذين حرموا من التربية والتعليم الجيد أن يربوا أولادهم التربية المطلوبة لزمان كزماننا.

في المجال السلوكي على نحو خاص يكون بروز مشكلة المفارقة بين قول المربي وسلوكه مؤذياً؛ إذ ماذا يمكن أن يفعل أب مدخن اكتشف أن ابنه يدخن، وماذا سيفعل أب يأكل الحرام، ويسعى إلى الرشوة، حين يجد أن ابنه يسرق؟!

إن السؤال الصعب هو: هل بإمكان الكبار أن يربوا الصغار على قيم ومثل أفضل من تلك التي تتجسد في سلوكهم، وتتحكم في حياتهم؟

إن ذلك يبدو عسيراً، ولكن مع هذا، فإن علينا ألا نستسلم، ويجب أن نقول لأنفسنا ولإخواننا: «لننظر في المرآة» هل نحن في أخلاقنا وسلوكنا مؤهلون لتربية من اؤتمنا على تربيتهم؟ إن علينا أن نقوِّم العديد من أوضاعنا؛ حتى لا يستمر الخطأ، ونجني على الأجيال القادمة. إن كثيرين منا نشؤوا في ظروف سيئة، سادت فيها أخلاق بغيضة، مما أصَّل في

(١) يذكرون أن فتى فعل جريمة منكرة، وحين أرادوا تنفيذ الحكم فيه، قال أحد الحاضرين: عاقبوا والده الذي لم يربه التربية الصحيحة. فما كان من الفتى إلا أن قال: أبي ليس مذنباً، فقد رباني، لكن أباه ما رباه!!.

النفوس والعقول روح الفردية، والاستبداد، والتقليد والتعصب للقبيلة، والإقليم، والمذهب، وإن من واجبنا ألا نورِّث هذه الأمراض لأبنائنا؛ فالعصر الذي عليهم أن يعيشوا فيه شديد الحساسية لكل هذا، ويجب ألا نعرضهم لاختبارات قاسية.

إن التجربة قد دلتنا على أن القيم التي يحملها الكبار تجهض الكثير من جهودنا التربوية، فما أن ينهي الشاب تعليمه، وينخرط في سوق العمل حتى يجد نفسه ملزماً بأن يسلك مسالك من الانحراف والسوء تتناقض مع كل ما درسه، وما سمعه من نصائح وتوجيهات؛ ولأنه العنصر الأضعف، فإن عليه أن يمتثل، ومع مرور الأيام يندمج، ويصبح جزءاً من المشكلة، بل مغذيًا لها!.

وعلى هذا فالمشكلة تصبح في إيجاد السبيل لتربية الكبار قبل تربية الصغار!.

إذا كان تخريج (دفعة) ضعيفة، أو غير مؤهلة من المعلمين أو الأطباء، يؤدي إلى تخريج دفعات ضعيفة عديدة من طلابهم في المستقبل - حيث إن فاقد الشيء لا يعطيه - فماذا يكون القول في مجتمع، يعاني من مجموعات من العلل والمشكلات التي أعاقت حركته، وأخرته عن الأمم الأخرى؟!

إن علينا أن نحسِّن من أنفسنا، إذا ما أردنا لتربيتنا أن تنجح، وعلينا أيضاً أن نفهم أوضاعنا على نحو جيد، إذا ما أردنا لتغيير صالح أن يحدث؛ والأجر على الله تعالى.

٦ ـ التنشئة على التلاؤم مع التغير[١]:

التحرك في الحياة الاجتماعية هو الأصل، وكلَّما كان التغير بطيئاً كان

---

(١) انظر: في هذا: التربية والتقدم الاجتماعي: ٢٨٥ وما بعدها.

التلاؤم معه أيسر، وأقل خطورة. في زماننا هذا يشهد كل شيء تغيراً سريعاً، لم تخبر البشرية نظيراً له من قبل، وذلك بسبب العلم والتقنية والتصنيع، ولذا فإن أول خطوة على المربي أن يخطوها، هي أن يجعل الناشئ يحسّ بالتغير الحاصل من حوله، ومدى تأثير هذا التغير على جميع مفردات حياته، وآفاق ذلك التغير، وضرورة حسن التصرف حياله.

إن من مهام المربين الأساسية أن يدركوا مبادئ الثقافة الإسلامية، ويحاولوا أن يجدوا السبل لجعل حياة الأجيال الجديدة مؤطرة بأطرها، منفعلة بأصولها، مع تلبية الشروط التي يتطلبها العيش الكفء في هذا الزمان الصعب. ويمكن أن نستجلي في هذا الشأن النقاط التالية:

أ ـ ليس أمام الأجيال الجديدة إلا أن تختار بين أن تعيش من دون أي ثقافة، وبين أن توائم بين ثقافتها والثقافة الجديدة. وهذا الأمر ليس باليسير؛ إذ يقتضي أن نفتح عيناً على أصولنا الحضارية، وما استفدناه من تجارب وخبرات تاريخية، وعيناً أخرى على الحاضر ومتطلباته الكثيرة، وهذا يعني أن يقف الشاب على قدم واحدة في الماضي، وعلى الأخرى في المستقبل من أجل أن يعيش في الحاضر على نحو مستقر ومقبول.

إن هذا مع مشقته هو أفضل الحلول، وإلا فإن التربية الحديثة، قد تفصل الناشئة عن جذورهم الثقافية؛ وتكون بالتالي مصدراً للصراع بين الكبار والصغار، وبين العامة والخاصة؛ والأخطر من ذلك أنها قد تصبح وسيلة لجعل الناشئة فاقدين للهوية التي تميزهم عن أبناء الأمم الأخرى. وربما وجدت التربية نفسَها فارغة اليدين، ولا تدري ما الذي ستقوله؟!

ب ـ إن مخططي التربية والمدرسين والآباء الفاقهين هم المطالبون بالوعي الحسن بمضامين ثقافتنا الإسلامية، مما وضحناه عند الحديث عن فلسفة التربية الإسلامية. والمربون لا يستطيعون الإحساس العميق بثقافتهم إذا كانوا يعيشون خارج أطر تلك الثقافة؛ فمن العسير على مدرس لا يؤدي الفرائض، ولا يجتنب المحرمات أن يلتحم مع ثقافته الأصيلة، فضلاً عن أن

يتمكن من نقلها، وتشريبها لغيره على نحو فعال. وهنا تأتي وظيفة المناهج التي يربي عليها المربون؛ فالتربية قبل كل شيء هي خيار سياسي، حيث إن الحكومات هي التي تتحكم في مفاصل الثقافة والتربية التي يتم تقديمها للصغار والكبار. وفي هذا الإطار فإن كثيراً من المربين في عالمنا الإسلامي لا يعرفون إلا القليل عن عقيدتنا وتاريخنا وفقهنا ونظامنا الرمزي؛ مما يعني أنهم غير مؤهلين للقيام بعملية التطوير والمواءمة المطلوبين. المطلوب من المربين عامة أن يعرفوا ما هو أكثر من محتوى الثقافة الإسلامية: إن عليهم أن يعرفوا كيف يوسعون هذا المحتوى، وكيف يحددون اتجاهات جديدة لنموه، وهذا لا يتم إلا لدى فئة محدودة، جمعت بين التمكن في فهم الثقافة الإسلامية وامتلاك رؤية حضارية شفافة. ومن يملك هذا ينظر دائماً في اتجاهات مختلفة، ويدمج محصول ذلك في مواقف ومواد تربوية، كما يقوم بعقد موازنات ومقارنات بين الأصيل والطارئ، ليقف على خير ما فيهما. إن الحركة دائماً ممكنة، لكنها إذا لم ترشَّد، وتؤصل فإنها تشكل خطراً بالغ الضرر!

جـ - إن التربية من أجل التغيير تحتاج إلى تعاون كلي على مستوى الأسرة والمدرسة والمجتمع، فإذا كانت بين هذه الجهات المربية هوّات واسعة، وتباينات كبيرة، فإن التغيير المطلوب في حياتنا سوف يكون بطيئاً، ولا يتناسب مع التغير المحيط بنا.

من الواضح اليوم أن على التربية أن تجنح إلى (العملية) أكثر من أي وقت مضى، وذلك من خلال اعتماد أسلوب التعامل مع الواقع فهماً وتحليلاً، واكتساباً للمهارات، وتوصيفاً للمشكلات، بالإضافة إلى تدريب الذهن على سبر الحلول الممكنة، ومحاولة النفاذ إلى أفضلها.

إذا تأملنا في واقع التعليم في عالمنا الإسلامي، وجدنا أن الطابع الذي يغلب عليه هو طابع (تمليك المعلومات) للطلاب. وهذه المعلومات سواء أكانت تتعلق بالماضي أم بالحاضر، فإنها لا تُشفع بدراسات ميدانية، ولا

تضطر الطالب إلى التعامل مع المشكلات التي يعيشها الناس، أو معايشة الإمكانات التي تتيحها التطورات الحضارية المتلاحقة. وهذا الأسلوب ليس معزولاً عن حياتنا العامة، وإنما هو صدى لما يجري في حياتنا الأسرية والاجتماعية. حين يقوم الطفل في المنزل بفك (ساعة منبه) وإعادة تركيبها، فإنه يكون قد تهيأ لأسلوب جديد في التعلم في المدرسة، وحين يسمع الناشئ وسائل الإعلام والتثقيف تناقش بوضوح هموم الناس ومشكلاتهم، فإن مقدرته على فك الساعة وتركيبها سوف تتحسَّن، كما سيتحسن أداء المدارس أيضاً في التعليم، وتميل هي الأخرى إلى تكوين عقول عملية.

إن من المهم أن يصبح (التعلم) لدينا فن حل المشكلات، وأن يصبح (التعليم) فن المساعدة على حل المشكلات؛ إذ ما أردنا لنوعية الحياة لدينا أن تتحسَّن.

إن الناس ينفرون من التغيير عادة، ويتوجسون منه خيفة؛ لأنهم لا يعرفون ما وراءه، ولكن هذا ليس حلاً، فالتغيير حاصل، وبدل أن يُفرض علينا نحاول ترشيده، والتحكم فيه، وهذا يحتاج إلى تعاون الجميع من أجل الجميع.

د ـ إن تربيتنا مسؤولة عن إيجاد (روح التكيف) في هذا العصر الشديد التغير إذا ما أردنا لمشكلاتنا ألا تزداد يوماً بعد يوم. وليس المقصود بالتكيف الاستسلام لمعطيات الحضارة الحديثة، ولا التنازل عن القيم والمبادئ في سبيل (تمشية الحال) وإنما المراد أن يملك الناشئة طاقة روحية وعقلية، تمكنهم من استيعاب الوافدات الجديدة، والاستجابة لها على نحو صحيح.

إن معظم بلادنا الإسلامية يشهد كثافة سكانية، وازدحاماً، وضغوطاً على الموارد والخدمات المتاحة، وهذا في حد ذاته يولِّد ما لا يحصى من التوترات؛ ولذا فإننا بحاجة إلى تنمية روح التعاطف والتسامح والإحساس المشترك.

المكتشفات العلمية التي صارت يومية، تطلعنا باستمرار على وضع تقويمي جديد لسلوكاتنا ومألوفاتنا؛ فالغذاء الفلاني، يسبب السرطان، والعادة

الفلانية تسبب الجلطة، والعمل الفلاني يضعف الذاكرة... وعلينا أن نعود أبناءنا أخذ ذلك بعين الاعتبار، وتغيير عاداتنا وسلوكاتنا اليومية بناءً عليه. أسواق العمل في تطور مستمر، وهي تتطلب أن يرمم الإنسان ما تآكل من معلوماته، وأن يجددها، ويعيد تأهيل نفسه حتى لا يجد نفسه عاطلاً عن العمل.

وهذا هو البديل الصالح لما كان سائداً في مجتمعاتنا من توارث الأبناء لمهن الآباء والأجداد.

إن البديل عن التكيف هو الانسحاب إلى الماضي، أو الانسحاب من المجتمع، أو حدوث توترات ومشكلات كبيرة، وكل هذا مزعج وغير ملائم.

٧ ـ لا بديل عن العمل:

ليس الإنسان قاصراً، ولكنه كسول إلى حد بعيد؛ فالله ـ جل وعلا ـ أعطانا من الإمكانات والقدرات ما نستطيع أن ننجز من خلاله أعمالاً عجيبة، يظنها المرء لأول وهلة خارقة ومعجزة! وكثيراً ما تداعب خيال الواحد منّا صور الفوز والانتصار والتفوق، دون أن نسعى مرة واحدة إلى بذل الجهد الذي يؤدي إلى ذلك!

إن الحضارة الحديثة التي أنتجت الملايين من المواد والآلات، قد بنيت على كواهل رجال، لم يكونوا يعرفون سوى العمل، وإن ما تم اختراعه من وسائل وآلات، قد سهل الحياة، وقلل من المجهود العضلي لكل واحد منا، لكن ما بذل من تفكير وتجارب في سبيل الوصول إلى ذلك، شيء يفوق الوصف!

إن مشكلتنا الأساسية لا تكمن في الطاقة التي نمتلكها؛ فالطاقات وزعت على البشر على نحو متقارب، لكن المشكلة أننا لا نريد أن نعمل. إنه حين تتوفر القدرة لدينا، ثم لا نعمل، فمعنى ذلك أننا نفقد (الإرادة)

كما قال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾[1]. وذكر لنا القرآن الكريم مواقف كثيرة، تمت فيها العقوبة على الإرادة لأنه إذا توفرت في أمر ممكن الحصول، تكون المسألة مسألة وقت، كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾[2].

إن في أوساطنا (حمى) تجتاح الصغار والكبار، هي حمى الإنجاز السريع، وجمع الغنائم دون أن نبذل الجهد المطلوب، وهذا قاد إلى مزالق كثيرة، ودفع كثيراً من الناس إلى الانحراف، وسلوك مسالك الرذيلة. إن ظاهرة (الغش) في المدارس والجامعات، وظاهرة نسبة أعمال فنية وكتابية كثيرة إلى غير من قام بها ـ مؤشر خطير إلى ما نقوله!

لا يغيب عن البال أن كل منتج ـ مهما كان نوعه ـ ستكون جودته على مقدار ما بذل فيه من جهد وساعات عمل وفكر وتأمل، وإن علينا أن نعوِّد الناشئة مكابدة المشاق، والمران على طول النَفَس، والصبر على العمل المتواصل، وإلا فإن العواقب وخيمة. البطالة التي تجتاح بلاد المسلمين بنسب عالية جداً، آخذة في الازدياد، وسببها الأساسي أن الناس لا يريدون أن يتعبوا، ولا أن يعيدوا تأهيل أنفسهم، واكتساب مهارات وخبرات جديدة، تتناسب مع سوق العمل، وإذا ما استمر هذا، فإن كل بنياننا الأخلاقي والاجتماعي، سيصاب بأضرار جسيمة، فهل نحن على استعداد لإيقاف دوران عجلاتنا إلى الخلف، قبل فوات الأوان؟!

٨ ـ العمل على غرس الاهتمام بالأمور المشتركة:

مسيرة الحضارة كانت دائماً من الانفراد نحو الاشتراك، ومن الخاص نحو العام؛ والإسلام باعتباره بنية تحضيرية للأمم والشعوب، كان دائماً وفي كل مناسبة، يؤكد على ترسيخ هذا المعنى. وحين أنشأ النبي ﷺ أول

---

(١) سورة التوبة: آية ٤٦.

(٢) سورة الأنبياء: آية ٧٠.

مجتمع إسلامي في المدينة، كان من أوائل ما بدأ به عقد المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار باعتبار ذلك خطوة مهمة على طريق إخراج المسلم من حيز همومه الشخصية إلى حيز الهم العام. إن مراعاة حقوق الوالدين والأقرباء والجيران، ومراعاة حقوق الصداقة والمعرفة، إلى جانب المحافظة على المرافق العامة وتنميتها، كل ذلك من أجل تنمية الأرضية الاجتماعية التي ستشكل خلفية مهمة للتحضر، والعيش الرغيد. ويتصاعد ذلك إلى حد فداء الحياة المشتركة بالنفس والمال، كما يفعل (الشهيد) الذي يقدم حياته في سبيل أن تحيا الأمة ومبادئها وأوطانها في عزة وأمان! إن في إشادة النصوص بعمل الشهداء حثاً واضحاً لكلٍ منا على أن يحمل روح الشهيد، وأن يتشبه به في البذل السخي في سبيل كل ما يخدم المصلحة الإسلامية العامة.

المجتمع الذي يهتم كل فرد من أفراده بشأنه الخاص دون إعارة الانتباه إلى شؤونه العامة، ليس بمجتمع، وإنما هو حشد أجساد، وسيستحق هذا الحشد اسم مجتمع على مقدار ما يتوفر لديه من مؤسسات ومبادرات فردية، همها الحفاظ عليه وصيانته.

إن صلاح أي مسلم، لن يكتمل إذا كان صلاحاً فردياً، ما لم يتجاوز ذلك إلى مرتبة (الإصلاح) وإذا نزل العذاب بأمة، فإن الذين ينجون منه ليسوا أولئك الذين اهتموا بصلاح أنفسهم، وإنما أولئك الذين حاولوا إصلاح محيطهم، وتقويم اعوجاجه، وسد حاجاته، والمحافظة عليه. قال ـ سبحانه ـ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾[١].

كأن المرء لا يستطيع أن يحافظ على الخير في نفسه وأسرته ما لم يصبح نفعه متعدياً إلى غيره، ولا أظن أن إطلاق الشعارات سيكون مجدياً

(١) سورة الأعراف: آية ١٦٥.

ما لم تعتمد الأسر والمدارس والجماعات والأحزاب في صلب أدبياتها وبرامجها ما يخدم الحياة العامة على المستوى الخلقي والاجتماعي والمادي، ويثريها.

إن مما ينمي الإحساس والفهم المشترك بيننا أن نجعل الأطفال يمتلكون فضيلة (التعاون) بدل التنافس الذي يضخم الأنانية والأثرة، ويثير الشحناء والبغضاء. وقد كان من شأن بعض المدرسين أن يلزموا بعض الطلاب المتفوقين بتدريس الطلاب المتعثرين حتى يرتقي مستواهم إلى المستوى العام في الفصل. ومثل هذا موجود اليوم في المدارس اليابانية.

فالطالب المتفوق ينهي واجباته في الفصل قبل الطالب الضعيف، ولذا فإنه يبقى لدى الطفل المتفوق وقت لمساعدة زميله، وهو أيضاً يستفيد من تلك المساعدة[1]. والفارق أن تعاون الطلاب لدينا ظاهرة فردية، على حين أنه لدى اليابانيين تقليد عام.

إن روح التعاون يجب أن تتجاوز مسألة إنجاز المصالح المشتركة إلى محاولة حماية الآخرين، والمحافظة على راحتهم ومشاعرهم ومصالحهم.

ومما يذكر في تراثنا أن رجلاً خطف (قلنسوة) من فوق رأس (فقيه) ومضى هارباً، وقد رأى الفقيه أن هذا المسكين سيصبح مجرماً في نظر نفسه ونظر الناس من أجل شيء تافه، فما كان منه إلا أنه جعل يجري وراءه قائلاً: وهبتك، قل: قبلت، وهبتك قل: قبلت!!.

في اليابان ترى أيام البرد القارس من وضع على أنفه وفمه كمامة بيضاء، ويتصور الزائر الغريب أن الذين يضعونها يحمون أنفسهم من البرد، أو يخشون تنفس هواء ملوَّث، ولكن حقيقة الأمر أنهم يعانون من (الزكام) ويخشون أن تنتقل العدوى إلى غيرهم، ولهذا فهم يحاولون حماية المارة!

---

(١) التربية والتحدي: ٢٠٨.

إن هذا الإحساس بالمسؤولية تجاه سلامة الآخرين هو الذي يسود العلاقات الاجتماعية في اليابان[1].

وفي بريطانيا يعلِّم كثير من الناس كلابهم الإمساك عن (النباح) حتى لا تؤذي الجيران أو المارة.

وهكذا حتى يقوى نسيج حياتنا الاجتماعية فإننا بحاجة إلى المزيد من التعاون واللطف والإيثار، والمراعاة لمشاعر الآخرين ومصالحهم.

إن من المهم أن نعلم أننا لن نستطيع أن نجني مكاسب فردية في وسط منهار، وما يستحوذ عليه بعض الناس سيكون محدوداً ومؤقتاً، وقبل ذلك مكدَّراً.

إن الشرط الأساسي لتوسيع الأرضية المشتركة وتربية الناشئة على الإحساس المشترك هو إبراز نماذج وصور تتجلى فيها التضحية والخدمة وروح العطاء والمجانية، وهذه وظيفة عامة، علينا جميعاً أن ننهض بها.

٩ ـ اعتماد المراجعة والنقد الذاتي:

إن المستقر لدى البشرية جمعاء أن الإنسان أعجز من أن يدرك الحقائق دفعة واحدة، وإنما على سبيل التدرج. وهو إلى جانب هذا لا يعرف مآلات أعماله وعواقبها؛ كما أنه كثيراً ما يعمل أعمالاً تخالف معتقداته ومبادئه وفكره، تحت ضغوط هوى أو شهوة أو مطمع... وهذا كله يجعل موضوع المراجعة شيئاً جوهرياً لكل جوانب الحياة. أبونا آدم وأمنا حواء أول من شق لنا طريق الأوبة والتراجع عن الخطأ حين قالا: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[2].

وعلى هذا الطريق درج الأنبياء والمرسلون مع إكرام الله ـ تعالى ـ لهم

---

(١) السابق: ٨٩.

(٢) سورة الأعراف: آية ٢٣.

بالعصمة؛ فهذا موسى ـ عليه السلام ـ يعترف بخطئه حين قتل القبطي نصرة للإسرائيلي إذ يقول: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾[1].

إن المراجعة تعني تعريض النفس والفعل والموقف لنور البصيرة، كيما يجري التقويم، واستدراك ما يمكن استدراكه من القصور، والكف عن المتابعة في طريق العماية؛ كما يفعل الطبيب حين يشق ما التأم من الجروح على فساد وزغل من أجل تعريضه للشمس والهواء. وهذه العملية على ما فيها من ألم، هي أول الطريق لإيقاف التدهور.

إن القرآن الكريم قد شق طريق النقد للأمة في آيات كثيرة، ومواقف عديدة، وقد كشف في إحدى المرات عن أمر حدَّثت به بعض القبائل نفسها، دون أن يترتب عليه أي خللٍ في الصفوف حيث قال: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[2] وهاتان الطائفتان هما بنو سلمة وبنو حارثة، همتا بالرجوع يوم أحد حين رجع عبد الله بن أبي سلول بمن معه من المنافقين[3].

إذا نظرنا في حياتنا العامة، وجدنا أن هناك خوفاً عاماً من (الوضوح) وتسليط الأضواء، وهناك محاولات دائمة من السواد الأعظم من أبناء الأمة لإخفاء الحقائق، والظهور بالمظهر اللائق؛ مما جعل مجتمعاتنا تظهر في مظهر المعافى من السلوك المنحرف والأعمال الشائنة، وصار لأكثر الناس قولان وسلوكان، الظاهر منهما خير من المستور، مع أن الأصل في المسلم أن باطنه خير من ظاهره!.

كثير من الآباء لا يملك الشجاعة على الاعتراف بخطأ ارتكبه مع

---

(١) سورة القصص: آية ١٦.
(٢) سورة آل عمران: آية ١٢٢.
(٣) فتح القدير: ١ : ٣٧٧.

زوجه أو أحد أبنائه، وكثير من المدرسين لا يجرؤ على القول: إنني قد ذكرت كذا وكذا، وكان خطأ، والصواب هو كذا وكذا...

حين يرى الناشئ أن كل ما حوله تام، فكيف يكون هو ناقصاً، إنه سيتعلم الجدل والدفاع عن النفس بالحق والباطل، ما دام الجميع يفعلون ذلك!

إذا قلنا: إن من المحن الكبرى في تاريخنا وحياتنا المعاصرة، تمجيد الذات وستر العيوب - فإننا لا نكون مبالغين؛ وقد كانت أمتنا تقود العالم، ثم أصبحت في المؤخرة، بسبب أنه ليس لديها العدد الكافي من الرجال الذين يمسكون بالمباضع لاستئصال الأدواء الفتاكة وإراحة الجسم الإسلامي منها.

وهكذا الأحوال تسوء في أكثر من اتجاه، والانتصارات الكلامية تتعالى على رؤوس الأشهاد!

إن من واجب كل محضن من المحاضن التربوية أن يحاول اتباع أسلوب جديد في التربية، يقوم على المفاتحة والمناقشة، على ما يقتضيه الأدب الإسلامي في النقد والحوار والمراجعة.

قد بدأ تاريخ كوني جديد مع البث الفضائي وشبكات المعلومات، وقد انكشف الكلُّ أمام الجميع، وقد انتهى عصر التستر على الفضائح، واستعراض العضلات أمام الأهل والجيران، وبدأ عصر التحدي العالمي، وإن المربين الذين لا يستوعبون هذا التحدي، سيكونون كمن يغنِّي بين القبور!

١٠ ـ احترام الخصوصيات:

كل الكائنات الحية تحتفظ لنفسها بمجال حيوي، تعد اقتحامه نوعاً من العدوان عليها، ويأتي الإنسان على رأس القائمة لاعتبارات عديدة. وإن القرآن الكريم نبه إلى هذه المسألة في بعض جوانب الحياة؛ لنوسِّع نحن

الدلالة إلى كل ما من شأنه مضايقة الآخرين، ومزاحمتهم في خصوصياتهم. قال - تعالى - موجهاً إلى عدم دخول بيوت الناس من غير استئناس واستئذان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾[1]. وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد من قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[2] هو السؤال عما لا يعني من أحوال الناس بحيث يؤدي ذلك إلى كشف عوراتهم والاطلاع على مساوئهم؛ وذلك كأن يُقدَّم للمرء طعام، فلا يسأل عنه من أين هو، أو عرض عليه شيء يشتريه، لم يسأله من أين هو؟[3]

إن في قوله ﷺ: «**إن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»[4] دلالة واضحة على أن كمال المسلم لا يتم إلا إذا انصرف إلى خاصة نفسه، وترك ما لا يعنيه من شؤون غيره.

إن كثيراً من مجالس الناس اليوم لا ينطوي على أي فائدة، وأكثر ما فيها هو عبارة عن تطفل على ما لا يعنيهم من أمور عباد الله؛ مما جعلها مفعمة بالغيبة والحسد والتحليلات الفاسدة والاتهام وسوء الظن... وإلى جانب هذا فإن التدخل الصارخ في خصوصيات الناس قد أشاع فيهم روح (المظهرية) فكثير من التصرفات لا يقوم بها صاحبها عن قناعة، ولكن إرضاءً لزيد وعبيد، ممن لم يتعود أبداً الاشتغال بأي شيء مفيد!

حتى ينشأ الطفل على احترام الشؤون الخاصة لغيره، وعدم التدخل فيما لا يعنيه فإنه ينبغي أن تراعى خصوصياته، فلا تفتح رسائله الخاصة، ولا يتم التنصت على مكالماته، ولا يجري البحث في أشيائه وأمتعته

---

(١) سورة النور: آية ٢٧.

(٢) سورة المائدة: آية ١٠١.

(٣) تفسير القرطبي: ٦: ٣٣٢.

(٤) أخرجه الترمذي وابن ماجه وغيرهما.

الخاصة؛ كما يجب أن يرى مثل ذلك في تعامل أبويه وإخوته بعضهم مع بعض. وعلى المعلم كذلك ألا يذكر أمام الطلاب ما يعده الواحد منهم شأناً خاصاً به، مثل الأخطاء التي يقع فيها، أو الدرجات التي ينالها.

لا يغيب عن البال أن بعض الناس قد وسَّع دائرة الخصوصيات إلى درجة مبالغ فيها، فبعض الفتيان يعد سؤال الأهل عن أحوال أصدقائه تدخلاً في أمر هو من اختصاصه. وبعض الناس يعد تركه للفرائض ووقوعه في المحرمات شيئاً خاصاً به، ولا ينبغي لأحد أن يأمره أو ينهاه! والذي نقوله دائماً: إن الفضيلة تقع دائماً بين رذيلتين، وإن أحكام الشرع قد وضحت حدود الفضيلة في كثير من الأحيان، وتركت لنا بعضاً منها، نجتهد فيه بحسب وعينا وإدراكنا للمصلحة، وهذا ما ينبغي أن يفعله المربون.

١١ ـ التربية الأسرية هي الأساس:

إن الجهات الأساسية التي تتولى عملية التربية، هي الأسرة والمدرسة والمجتمع، فأيها أبقى وأعظم أثراً في شخصية الطفل؟

لا يكاد علماء النفس وعلماء التربية يختلفون في أن الأسرة هي التي تقود عملية التربية الأساسية؛ حيث تثبت دراسات كثيرة أن الخطوط الأساسية في شخصية الطفل يتم رسمها في **السنوات السبع الأولى من عمره**، وأن ما يأتي بعد ذلك من مؤثرات تربوية مختلفة، إنما هو تعميق وتفصيل وتكميل، وهذا يعني **أن الأسرة هي صاحبة التأثير الأكبر في شخصيات الناشئة**.

سيكون من المفيد هنا أن نتساءل عن أبرز سمات الأسرة التي توفر الوسط الذهني لنمو أبنائها نمواً صحيحاً؛ لكن ينبغي أن يكون واضحاً أن كل ما سنقوله هنا لا يعدو أن يكون مقاربة أولية اجتهادية، فالدراسات والملاحظات المتوفرة، تتعلق غالباً بفئات محدودة، والمؤشرات التي تعطيها، قد لا تكون دقيقة، إذا ما تم التعامل مع عينات كبيرة؛ كما أن التنوع الثقافي السائد يعبر أحياناً عن تباين في (القواعد القيمية) التي تقوم

عليها التربية؛ وهذا يجعل نتائج الدراسات عسيرة التعميم. ومع هذا فستظل هناك أمور مشتركة كثيرة، ومؤشرات عديدة ذات دلالة. ولعلنا نوجز ذلك في الآتي:

١ ـ إن الخلفية التاريخية للأسرة، تترك آثارها في حياة أبنائها أجيالاً عديدة. وقد كانت العرب تتغنى بأمجاد الآباء والأجداد وبطولاتهم، ومجمل الصفات الكريمة الموافقة للطباع السليمة، مثل الشجاعة والكرم والوفاء بالعهد وإغاثة الملهوف... وقد كانت تلك الممادح؛ تشكل مواد تربوية يسردها الآباء على الأبناء، كما كانت تمثل مُثلاً عليا، تتعشقها النفس البشرية فتحجزها عن ارتكاب بعض الأعمال المخلة بالأدب والشرف والمروءة. وربما كان يظن الناس أن ذلك نوع من نبالة الدماء وتفوق الأعراق، على حين أن المسألة تربوية ثقافية في المقام الأول. وقد سئل ﷺ عن معادن العرب، فقال: «**خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا**»[١]

فالأشراف في الجاهلية أشراف في الإسلام إذا حازوا الخصال المحمودة شرعاً. فكأن شرف المحتد والمنبت، لا يكتمل إلا إذا كان هناك واقع كريم شريف يكمله، ويكون استمراراً له.

والذي نريد أن نصل إليه من وراء هذا أن ما يرتجى في كثير من الأحيان من أبناء البيوتات، أكبر مما يرتجى من غيرهم، وأن الرجل الصالح الكريم النبيل قد يتعدى نفعه إلى أجيال قادمة؛ بمشيئة الله ـ تعالى ـ.

وبما أن النبل ثقافة، فبإمكان من قصَّر به نسبه أن يستدرك، ويشيّد لأبنائه وأحفاده ما يمثل تأسيساً لصلاحهم ونجاحهم.

ب ـ إن الطفل أشبه شيء بنبتة غضة، ومع احتفاظ كل نبتة بخصائصها الذاتية، إلا أنها تتأثر تأثراً بالغاً بالظروف البيئية والمناخية التي تنمو فيها.

---

(١) رواه البخاري.

وإن مما ينبغي إدراكه على نحو دقيق أن شروط العيش بكرامة تزداد صعوبة عاماً بعد عام، وهذا يستلزم أن تكون ظروف التنشئة لأطفالها أفضل من الظروف التي نشأنا فيها؛ إذا ما أردنا أن نؤهلهم للعيش في قابل الأيام على نحو مقبول. ما عاد ملائماً أن يحشر سبعة من الأولاد في حجرة واحدة، ولا أن يكون البيت خالياً من حاسب آلي أو مكتبة، ولا أن تعيش بيوتنا في فوضى تامة دون أدنى رعاية للوقت، ولا أن نستهلك ما يقع تحت أيدينا دون حساب للمستقبل. . .

إن مما صار ثابتاً أن الفقر والسكن الضيق والزحام السكاني، ما زالت تؤثر في عدد كبير من الأطفال على نحو يعوق أداءهم التربوي. وقد أفاد أحد التقارير أن متوسط سن القراءة لدى أطفال السنة الرابعة المقيمين في مناطق فقيرة يتأخر (١٧) شهراً عن أطفال الأسر الميسورة. وأوضحت دراسة لأحد مراكز تنمية الطفل أن أطفال العمال اليدويين غير المهرة، يعانون من نقائص عضوية، مثل (الحول) و(التهتهة) ومشكلات سلوكية، مثل قضم الأظافر وتبليل الفراش. وفي الوقت نفسه فإن أطفال هذه العائلات، ليسوا محصنين، ولا يترددون على الأطباء، وكثير من الخدمات المقررة لهم، لا يقوم الآباء باستغلالها[١].

واستناداً إلى بعض الدراسات الأمريكية فقد وجد أن الآباء من الطبقة العاملة، لا يهتمون كثيراً أن يبقى أبناؤهم في المدرسة، أو بأن يحصلوا على شكل من أشكال التعليم العالي[٢]. هذا يدل على أن الفقر، لا يسبب المضايقة للأسرة في حياتها المعيشية فحسب، وإنما يؤثر أيضاً على التربية فيها؛ ولذا فإن مشكلات الأمم الفقيرة، مشكلات ممتدة، تنتقل من جيل إلى جيل!

---

(١) اجتماعيات التربية: ٩٦، ٩٧.

(٢) السابق: ٩٩.

جـ - كثرت الدراسات الغربية التي تخرج بنتائج، تمجد الطبقة الوسطى، وتنسب إليها كثيراً من الفضائل؛ ومع تحفظنا على التعميم والإطلاق، إلا أن المبدأ يبدو غير بعيد عن الصواب، وينطبق على أعداد هائلة من البشر؛ حيث إن الفقر الشديد والتدني في المستوى الثقافي، لا يوفران العتبة المطلوبة من الوعي والإمكانات التي تتطلبها الأعمال الجليلة، والنظر إلى المستقبل بجدية، واستغلال الفرص المتاحة.

كما أن وجود الثراء، ومواتاة الظروف، قد يؤديان إلى ترهل المشاعر، وضعف الحوافز نحو بذل الجهد؛ إذ من المعروف أن (الإبداع) كثيراً ما يتطلب شيئاً من معاكسة الظروف.

في سياق التربية الأسرية، تؤكد بعض الدراسات أن الآباء الذين ينتمون إلى الطبقة الوسطى، يتفاعلون مع أبنائهم، ويناقشونهم أكثر. أما في منازل الطبقة العاملة، فيدار (التلفاز) مدداً طويلاً، كما يقضي أبناء هذه الطبقة مدداً طويلة أيضاً في اللعب خارج المنزل. كما أن طفل الطبقة العاملة، يكاد يبني واقعه بمفرده[١].

وتبين دراسة أخرى أن أطفال الإنجاز العالي، كانوا يتميزون عن أطفال الإنجاز المنخفض بأنهم أتوا من منازل تتميز باستخدام أسلوب تنظيم عقلاني، إلى جانب اتصاف آبائهم بالاهتمام بهم، مع النظر إلى الطفل على أنه شخصية مستقلة[٢].

د - أسلوب تعامل الأسرة مع أبنائها، ذو أثر بالغ في مشاعرهم وتكوينهم العقلي، وانفعالهم بالقيم التي تحملها أسرهم، وذو أثر في نجاحهم في الحياة أيضاً. وقد قام أحد الباحثين بإجراء دراسة على مجموعة من الأسر، وتبين له أن الأمهات اللواتي تشابهت قيم أطفالهن مع قيمهن،

---

(١) السابق: ١٢٨.

(٢) السابق: ١٣٤.

كن يستخدمن أساليب تربوية، يسودها الحب، مثل إظهار الحنان والإقناع والتمسك بالمبادئ، إلى جانب تدريب أبنائهن على الاعتماد على النفس[١].

وفي دراسة أخرى حول العلاقات العائلية لأطفال الإنجاز العالي، وأطفال الإنجاز المنخفض، من واقع وجهة نظر الأطفال أنفسهم - وجد أن الأطفال ذوي الإنجاز العالي، كانوا يصفون أسرهم على أنها تشاركهم في قضاء أوقات الفراغ، كما تشاركهم في الأفكار، وتمنحهم الحنان والثقة، وتشجعهم، وتظهر استحساناً لما يقومون به، ولا تفرض عليهم قيوداً ثقيلة. كما أن تلك الأسر تستخدم أساليب شفهية، لا بدنية عند المحافظة على النظام[٢].

هذه المؤشرات التي سقناها جديرة بالاهتمام، ويظل المهم في مثالية الأسرة اجتماع أمرين: **صلاح الوالدين واستقامتهما**، ثم **تحليهما بالوعي الكافي** الذي يمكنهما من حسن التعامل مع طفلهما، والموازنة بين الأساليب التربوية المختلفة؛ ولله الأمر من قبل ومن بعد.



إضاءة:

إن الهموم بقدر الهمم.

---

(١) السابق: ١٣٣.

(٢) السابق: ١٣١، ١٣٢.



أهداف تربوية



أهداف تربوية

إن (التربية) عبارة عن هيكل واحد، وتعمل جوانبها المختلفة، مرتبطة بنسيج واحد، كما هو شأن الجسم؛ والفصل بين تلك الجوانب لا يمكن أن يكون دقيقاً؛ وعجز الإنسان عن استيعاب المعرفة من دون تنظيم وتقسيم، يلزمنا بذلك؛ ولذا فإن نوعاً من التداخل والتكرار لا بد من حصوله؛ فوجود العقل المفتوح لدى الناشئة هدف، وعملية التكوين قابلة لأن نتحدث عنها عند الحديث عن المبادئ أو الأساليب أو مهمات المربين أو أزمة التربية. لكن سنحاول أن نتلافى ذلك ما وجدنا إليه سبيلاً.

إن الهدف النهائي لكل مسلم، هو الفوز برضوان الله ـ تعالى ـ ولذا فإن كل الأهداف الصغرى، يجب أن تخدم هذا الهدف على نحو مباشر، أو غير مباشر. وإن كل هدف صغير هو وسيلة إلى هدف أكبر، وينبغي أن يستمد شرعيته وأدبياته من شرعية الهدف الأكبر وأدبياته.

إننا سنذكر هنا العديد من الأهداف التي ينبغي أن تستهدفها التربية، حتى نذكِّر بها، ونكوِّن نوعاً من الوعي بأهميتها. وسيظل الأهم هو براعة المربي في إدراك الحاجات الأكثر إلحاحاً، والجوانب التي تتطلب عناية أعظم؛ فالعقلاني بحاجة إلى توجيه للاهتمام بالجانب الروحي لديه. والشديد العناية بمظهره، يحتاج إلى لفت نظره إلى الاهتمام بعباداته ونفسه وهكذا... وعلى كل حال فإننا لا نستطيع أن نذكر كل الأهداف التربوية، ولا أن نحيط بها؛ فلنقتصر إذن على ما نحسبه مهماً منها.

وأود أن أشير ابتداءً إلى أن الهدف ـ أي هدف ـ يجب أن يكون واضحاً محدداً، يمكن قياسه، وأن يكون مرناً، يتمكن عدد كبير من الناس

من الاشتغال به، كما ينبغي أن يكون منسجماً مع الطبيعة البشرية.

وسنحاول إيجاز كل ما نريد قوله هنا في الحروف الصغيرة الآتية:

١ ـ الإيمان العميق والتخلق بالأخلاق الإسلامية:

إن هدف الأهداف ـ كما ذكرنا ـ هو الفوز برضوان الله ـ تعالى ـ ولذا فإن كل الأهداف، يجب أن تخدمه، وتوصل إليه. وإن أساس كل خير وكل نشاط صالح، هو الإيمان بالله ـ تعالى ـ والتحلي بالأخلاق والقيم الإسلامية الكريمة. علاقة المسلم بالخالق ـ جل وعلا ـ ليست علاقة علم، ولا علاقة إحساس بقوة عظمى تدير الكون، وإنما علاقة عبودية ومحبة ورجاء وخوف وإيمان بذاته وأسمائه وصفاته. وهذا الإيمان هو الأساس الصلب الذي يشكِّل الإطار المرجعي لكل الأخلاق والمبادئ التي يؤمن بها المسلم.

إن مستقبل الإنسان على المدى البعيد لن يعتمد على الاختراع والتقدم العلمي ـ مهما تكن درجة أهميته ـ ولكنه سيكون منوطاً بمدى قدرة الإيمان والمثل العليا على تشكيل سلوكنا، وبلورة مواقفنا. والخطر الذي يلاحق العالم اليوم، لا يعود إلى الافتقار إلى النجاح والسيطرة على الطبيعة، وإنما مرده إلى الزيغ والضلال والمسخ والتشويه العامد للمثل العليا، والتحريف للقيم عن مواضعها[١].

إن من المؤسف أن كثيراً من بيوت المسلمين، وأكثر المناهج الدراسية، لا تغرس في نفوس الناشئة حب الله ـ تعالى ـ وتعظيمه، وضرورة الالتزام بأمره؛ وكثير مما يقال للطلاب جاف أو قاصر أو مشوَّه!. وعلى أي شيء يدل سؤال أحد الأطفال لوالده: هل الله أكبر أم (جرانديزر)؟!!.

إن مهمة الإيمان والمثل العليا لا تقتصر على توجيه السلوك وضبطه، بل إنها سفينة نوح عند تردي الأحوال، واستفحال السوء؛ حيث يلجأ الناس

---

(١) انظر: لماذا نعلم: ٣٢٢.

إلى مذخورهم الإيماني ليكون أداة تخليص، ومنار أوبة وحياة جديدة؛ وذلك بسبب أن الناس يتبلور إحساسهم بقيمة العدل حين يتعرضون للظلم، ويشتد شوقهم للأمانة، حين يتعرضون للخيانة وهكذا...

إن معضلة تنمية القيم والأخلاق لدى الناشئة، تتمثل في ضآلة معارفنا وخبراتنا بالقدر الملائم من الظروف والأحوال التي بوساطتها تصبح القيم حقيقة واقعة في الحياة[1]؛ فنحن لا نعرف على وجه التحديد القدر الملائم من الحرية أو النظام أو الفقر أو الغنى أو المعرفة... لنمو المثل العليا في النفوس. وربما جاز القول: إن الالتزام بأصول الحياة الإسلامية الصحيحة قد يوفر نوعاً من المناخ المطلوب لذلك.

إن مما ينمي الإيمان، الإكثار من العبادات والقربات. وإن الذي ينمي المبادئ والمثل العليا هو التضحية ببعض المصالح في سبيل جعل حياتنا عبارة عن مواقف تشهد على تمسكنا بتلك المبادئ. وكما تندرس معالم أشياء كثيرة، فإن من المألوف أن ينحط السلوك عن مستوى قاعدته القيمية؛ وإن من واجبنا أن نجعل قيمنا أكثر حيوية، وأكثر نقاء ووضوحاً؛ حتى نتمكن من نقلها إلى الأجيال الجديدة. ولا سبيل إلى ذلك سوى التضحية.

ستظل ذواتنا ممزقة، وستظل أعمالنا مشتتة ومتناقضة، ما لم نوحدها عن طريق الولاء المطلق لدين الله - تعالى - وتعاليمه، وما لم يتحول إيماننا إلى قوة قادرة على إنارة كل أنشطتنا الحياتية.

نحن جميعاً نعرف أثر ضغوط الواقع السيِّئ على تجانس حياتنا، وتجسُّد قيمنا، إلا أن ذلك وحده هو الذي يمنحنا الفارق بين أقوام اختلطت مبادئهم بدمائهم ولحومهم، وبين أقوام لا تمثل القيم بالنسبة لهم أكثر من تكميل شكلي لبشريتهم المتأسِّنة!.

حين تستهدف كل أنشطتنا التربوية ومناهجنا ترسيخ الإيمان والأخلاق النبيلة؛ فإن حياة أخلاقية رائعة ستظللنا من جديد!

---

(١) قاموس جون ديوي للتربية: ١٧٥.

٢ ـ روح الكفاح والمثابرة:

إن طبيعة الالتزام الصارم بالتعاليم الربانية، شكل عظيم من أشكال الاستمرار في بذل الجهد، ومكافحة الأهواء والشهوات؛ حيث يضبط المسلم الملتزم إيقاع حركته ومشاعره ضبطاً تاماً وفق مراد الله ـ تبارك وتعالى ـ والمشكلة في هذا الصدد مع نوعين من المسلمين:

نوع لا يعرف مذاق الاستمرارية والمثابرة، لا في شؤون دينه، ولا شؤون دنياه؛ فهو أقرب إلى أن يكون بدائياً فوضوياً.

ونوع يلتزم بأمور دينه التزاماً منقوصاً، حيث لم يستطع توسيع قاعدة الالتزام، وروح الدأب والكفاح؛ لتشمل جميع جوانب حياته؛ فترى لديه قصوراً في تدينه، ونوعاً من الجمود والاضطراب في معالجة أمور دنياه؛ مع أن الذي يعمق النظر يرى أنه لا يمكن الفصل بين أمور الدين وأمور الدنيا، لا على مستوى الفكر، ولا على مستوى السلوك؛ فالبنية العميقة للشخص لا بد أن تتجلى فيهما معاً.

ولعلنا نلمس في هذه المسألة النقاط التالية:

أ ـ حتى يمتلك الناشئة روح الكفاح والمثابرة على بذل الجهد، وضبط النزعات والميول، فإنهم بحاجة إلى امتلاك عقل مفتوح، وشحنة عظيمة من الأمل والتفاؤل؛ فالمستحيل درجات، ومنه ما هو مطلق، ومنه ما هو نسبي. وما من معضلة إلا وهي قابلة للتغلب عليها كلياً أو جزئياً، وفي النهاية فإن المرء يستطيع أن يعايشها، ويتكيف معها، وبذلك يكون أقوى منها. وكما يقول أحد الفلاسفة: «فلنغرس في نفوس شبابنا أن أعظم الكتب، لم يؤلف بعد، وأن أعظم اللوحات الفنية لم تنقش بعد، وأن أحسن الحكومات ما زالت في مخاض، وأن ذلك كله سيتم على أيديهم»[١].

---

(١) لماذا نعلم: ١٩٥. ولا ينبغي فهم هذا الكلام من خلال منظور حرفي؛ فهو رمزي في المقام الأول.

إن الكمال الذي ننشده ليس بنية مكتملة محددة المعالم، نستحوذ عليها ونرتاح، وإنما هو شيء يلمع ويبرق في الأفق، والاستحواذ عليه ليس أكثر من مناهزته بصورة دائبة دائمة، وبأشكال من التصفية والمراجعة والإنضاج.

تعلمنا التجربة التاريخية الأممية أن الظروف المادية، لا تشكل أبداً حواجز لا تقهر، أو عوائق لا يمكن التغلب عليها؛ فكثير ممن سطّر قصصاً عجيبة من النجاح والتفوق، بدؤوا من الصفر، وفي ظروف قاسية، ثم استطاعوا من خلال الجهد المتواصل أن يكونوا أفضل بكثير ممن ولدوا وفي أفواههم «ملاعق من ذهب»! وهذا يدل على أن (القصور) على مستوى الفرد، وعلى مستوى المؤسسات، هو العقبة الكؤود؛ والتغلب عليها ليس مستحيلاً، إذا ما توفرت الشجاعة وإرادة العطاء والمثابرة.

ب ـ تعود العبقرية في كل مجالات الحياة إلى نوع من التفوق في الإمكانات الذهنية! ولكن لا يمكن للتفوق في الفهم والخيال والتحليل والتركيب والربط، أن يصنع شيئاً ما لم يُشفع بالقدرة على المثابرة والتركيز.

يذكرون أن (زفر) كان أنبغ تلامذة أبي حنيفة النعمان ـ رحمه الله ـ وأبرعهم في القياس، وأن قدرات زميله (أبي يوسف) كانت أقل. وعند النظر في المكانة الفقهية لكل منهما نجد أن الفارق بينهما شاسع. ويذكرون أيضاً أن أبا حنيفة قال لأبي يوسف: «أنبتك ثباتك».

وقد حار كثير من العلماء في تفسير ظاهرة (العبقرية) لدى بعض الناس، وذهبوا في تفسيرها كل مذهب، وكان من رأي بعضهم مثل (أريكسون) أن مفتاح فهم ظاهرة العبقرية يكمن بتميز العباقرة، ليس عن طريق اختبار الذكاء العالي، ولكن بميزة المثابرة الدؤوبة على تنمية المعرفة، خاصة التركيز على حقل واحد، وبأخلاقية عمل خاصة من الطموح والمتابعة والاهتمام والانضباط الذاتي، والبدء المبكر منذ الطفولة، ولفترة عمل مكثف تراكمي، لا تقل عن عشر سنوات في حقل بعينه[1].

---

(١) جريدة الرياض في ٦/٣/١٤١٨ من مقال عن صناعة العبقرية للدكتور خالص جلبي.

إن (أديسون) الذي سجل أكبر عدد من المخترعات في العصر الحديث ـ قال حين سئل عن العبقرية: «إنها ١٪ إلهام و٩٩٪ عرق جبين»!. وعلى هذا فإن التفوق والإنجاز العالي، والإتيان بالطرائف والغرائب هو في المقام الأول وليد الاجتهاد والمتابعة المبصرة والمنظمة.

إن لدى كل طفل من أطفالنا قدراً من العبقرية، وإن علينا أن نكتشف ذلك، ونرعاه وننميه ونتابعه، وهذا من مسؤولياتنا ذات الأهمية والأولوية.

جـ ـ إن كل المؤشرات المتوفرة تقول: إن مشاق الحياة في ازدياد ـ على الرغم من تكاثر المرفهات ـ وما هو مطلوب للعيش الطيب، يزداد ندرة، وليس المقام هنا مقام تفصيل. ولن يكون بمقدور الأمة أن تفعل شيئاً عظيماً ما لم تدرب الناشئة لديها على أن يعدّوا أنفسهم للحياة الجديدة. إن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ ومن تلاهم من بناة الحضارة الإسلامية العتيدة ـ قد تحملوا من المشاق وشظف العيش في مجاهدتهم لنشر هذا الدين ما لا يوصف، مع قلة عتادهم، ومحدودية إمكاناتهم، وتفوق أعدائهم؛ وإن علينا أن نعلم الناشئة كيف يستخلصون الروح والمثل من ذلك.

والذي يقرأ في سيرهم يتبين له بوضوح أنهم كانوا لا يسألون أنفسهم أبداً عما تبقى من الطريق، ولا عن تكاليف ذلك، وكانوا يدعمون روحهم المتوثبة تلك بثقة غير محدودة بنصر الله ـ تعالى ـ وعونه. وقد كان لهم ذلك على نحو فذ وفريد!.

وفي العصر الحديث تعد اليابان النموذج العالمي للنجاح الباهر في ظروف هي الأقسى، ومع موارد شديدة الشح. وكانت وسيلتها إلى ذلك، هي المثابرة والإصرار. ويذكر أحد الكتاب الذين حاولوا النفاذ إلى أعماق التربية اليابانية أن من المرغوب فيه أن يتعلم الطفل في بدايات التعليم الابتدائي أن يتحمل المشاق، وفي السنوات المتوسطة، يتعلم الإصرار والاستمرار؛ ليحقق المطلوب منه في صبر وعزم. في السنوات الأخيرة من التعليم الثانوي يتعلم ألا يقف سلبياً أمام المصاعب والعقبات، وأن يجد

الحلول متغلباً على ما يجد من مشكلات، وألا يخاف الإخفاق بعد أن يبذل الجهد اللازم[1].

وأعتقد أن علينا أن نستفيد من هذه التجربة، وأن نقنن ذلك في صورة منعكسة على المناهج المدرسية وأخلاقيات العمل وأدبيات التربية.

إن من الحيوي للأمم الناهضة ألا تبحث دائماً عن الطرق السهلة في الوصول إلى أهدافها، وأن تربي أطفالها على تقدير العمل الشاق، ولو كانت نتائجه محدودة، أو غير مرئية في البداية؛ فذلك ضروري لتنمية شكيمتهم، وتصليب عزيمتهم. وكثيراً ما نلاقي من يبحث عن العطالة والبطالة من خلال عرضه صور الإخفاق عند زيد وعبيد، مع أن في مقابل كل صورة إخفاق صوراً عديدة للنجاح. إن العمل في حد ذاته قيمة، وإن الذي يبذل جهوداً كبيرة للحصول على أمر ما أفضل ـ مهما كانت النتائج ـ من ذاك الذي اجتاحه اليأس، وأقعده عن العمل؛ فمن الإخفاق يتعلم الإنسان، ويكفي أنه يسبر الطرق المسدودة، ويمتلك حاسة الاستشعار لمواطن العلل والقصور. إن العمل بملء القلب وتركيز العقل والفكر هو ما يحتاج إليه أطفالنا اليوم إذا ما أردنا لهم أن يبدؤوا البداية الصحيحة.

٣ ـ الاستمساك بالحق ومقاومة الشرور:

إن نصرة الحق وإحقاقه والدفاع عنه، من المهمات الأساسية للمسلم في هذه الحياة، فبالحق قامت السموات والأرض، وباتباع الأهواء يفسد كل شيء: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾[2]. وقد أخبرنا ربنا أن أكثر الناس يكرهون الحق: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾[3].

الاشتراك في المصالح وجوانب الحياة العامة كثيراً ما ينتج عنه البغي

---

(١) التربية والتحدي: ٣٩.

(٢) سورة المؤمنون: آية ٧١.

(٣) سورة المؤمنون: آية ٧٠.

وتجاوز حدود الحق: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾(١).

حين هبط أبونا آدم من الجنة، وهبط معه إبليس هبطت معهما الجدلية بين الحق والباطل، وسيظل الجدل والصراع قائماً إلى يوم القيامة؛ ومن مهمة المسلم أن يجد نفسه مع الحق أينما، ومع من كان؛ لأن البديل هو نصرة الباطل، أو تركه يسرح ويمرح؛ ليفسد العباد والبلاد.

إن التربية من أجل إشاعة الاستمساك بالحق، ودفع الباطل، تتطلب ما يلي:

أ ـ أن نربي أطفالنا على قبول الحق، وإبداء الحماسة له والانفعال به؛ لأن ذلك الخطوة الأولى على طريق المجادلة من أجله. إن الفرح بالحق والحقيقة شأن من شؤون النفوس الكبيرة التي ترفعت عن الأهواء والافتتان بالمنافع العاجلة، وهو ضالة الذين يهتمون بمصيرهم الأكبر، وبمصير المجتمعات التي يعيشون فيها؛ على نحو ما حدث لبعض علماء النصارى من الباحثين عن الهدى حين سمعوا القرآن الكريم، وعرفوا أنه الحق، فقد خشعت قلوبهم تأثراً بما سمعوا: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾(٢).

ب ـ التربية على تحمل المسؤولية عن الأعمال التي يقوم بها الطفل ـ أياً كان ذلك العمل ـ نوع من الاستمساك بالحق وإحقاقه. وهذا الخلق سينمو لدى الطفل حين يسمع الثناء على ما قام به من عمل الخير، وحين ينبَّه بلطف على ما كان من خطأ. كما أنه ينمو حين يرى الطفل الكبار حوله من والد ومدرس. . . يعترفون بأخطائهم، ويتحملون المسؤولية عنها بطيب نفس. وقد قص الله ـ جل وعلا ـ علينا شجاعة امرأة العزيز حين اعترفت

---

(١) سورة صٓ: آية ٢٤.

(٢) سورة المائدة: آية ٨٣.

بمراودتها ليوسف عن نفسه، إذ قالت: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾[1].

إن تحمل المسؤولية عن الخطأ، قد بلغت بالصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ مبلغاً عظيماً، يندر وجوده في أي زمان ومكان، وهناك من الصور ما تجيش له المشاعر؛ فقد جاءت الغامدية، وقالت: يا رسول الله إني قد زنيت فطهرني. فردها. ثم جاءته، وطلبت منه أن يرجمها، وقالت: إني حبلى. فأمرها أن تذهب حتى تلد. ثم جاءت بعد ولادتها بطفلها، وقالت: هذا قد ولدته. قال اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه. فلما فطمته أتته بالصبي في يده كسرة خبز، فطلبت أن يرجمها ففعل[2]. وهذا لا يحتاج إلى تعليق!!.

إن تربيتنا البيتية، وعلاقات المعلمين لدينا مع طلابهم، **تؤسس (ثقافة الصمت)**؛ فالزوج يُسكت الزوجة، والكبير يُسكت الصغير، والصبيُ البنت، والمدرسُ الطالب، والمديرُ المدرس... وهذه الوضعية هي السبب الرئيس في انتشار أشكال من الانحراف والشرور والآثام.

إن تربيتنا تؤكد دائماً على الوفاق والوئام، والحلول التلفيقية، وإمساك العصا من الوسط، والمقايضات المختلفة.

كما نظنُّ أن عدم وجود معارضة لأي شيء، هو دليل صحة وعافية؛ مع أن تلك الحالة تشبه حالة جسم تفتك به العلل والأمراض دون أن يصدر عنه أي إنذر من ألم أو ارتفاع حرارة! وتلك العقلية، جعلت منا أمة نموذجية في الهروب من مواجهة المشكلات، وإيثار السلامة على الحق والمصير المشترك!.

إن الله أوجد سنة (المدافعة) من أجل حفظ التوازن الاجتماعي، وهي

---

(١) سورة يوسف: الآيتان: ٥١، ٥٢.

(٢) أخرجه ذلك مسلم في صحيحه.

تعني أن يُدفع الشر والانحراف في كل مجالات الحياة؛ وإن من حسن حظ رب الأسرة أن يكون في بيته من يقول له: أخطأت، وإن أسلوبك غير مناسب... وإن من توفيق الله ـ تعالى ـ للمدرس أن يكون بين طلابه من يعترض عليه، ويسأله ويصحح له معلومة خاطئة؛ فذاك سيرفع من مستوى المدرس والدرس والطلاب.

إن الذي هو موضع اعتراض: القول من غير علم، والنقد خارج حدود الآداب الشرعية، وإصلاح الأحوال بالتعانف وكسر العظام!.

إن مما أطال في عمر الحضارة الغربية ـ على ما فيها من أخطاء فادحة ـ **اعتماد المفاتحة والمفاتشة**، وإيجاد آليات عديدة، يراقب من خلالها كل فرد في المجتمع تصرفات كل فرد فيه، **وإن (ثقافة الصمت) هي إحدى أخطر العلل التي أصابت الحضارة الإسلامية، وأوقفتها عن العطاء والنمو.**

إننا بحاجة إلى أن نشجع الناشئة على دحر الشر والزيف والفساد قبل أن تتفاقم المشكلات، ونجد بالتالي الطريق نحو العودة مسدوداً! إن السكوت عن المنكر هو في الحقيقة نوع من الترويج له، والدفع به إلى الأمام. وإن الأفكار حين تدور في العقول، ولا تستطيع أن تجد لها منفذاً، ولا طريقاً إلى الآخرين، إما أن تذبل وتذوي، وإما أن تصبح زاخرة بالعوج والأمت. «إن الزيف يغتصب الحقيقة، لكن الصمت يغتالها»[1].

٤ ـ توسيع قاعدة الفهم:

لم تكن الحاجة ماسة إلى الفهم العميق في يوم من الأيام كما هي اليوم؛ فالمعلومات متوفرة إلى حد التخمة، وصار الفارق الواضح بين إنسان وآخر يتمثل في مقدرته على الفهم، والاستفادة من تلك المعلومات على نحو حسن. وهذا لن يتم إلا من خلال امتلاك مركَّب عقلي جديد، ذي بنية

(١) مستقبل التعليم والبطالة في الوطن العربي: ٧٣.

متميزة. ومهمة التربية أن تساهم في تكوين تلك البنية، وصقلها. وسنذكر هنا بعض المسائل ذات العلاقة بذلك:

أ ـ إن أول عمل علينا أن نقوم به، هو أن **نقلع الأشواك من الأرض الطيبة التي نريد أن نزرعها**. كثيراً ما نعمد إلى محاولة تلقين الطلاب بعض المبادئ المنطقية، أو نشرح لهم بعض أساليب التفكير؛ وعند النظر في مدى التأثير الذي يتركه ذلك في تصحيح تصوراتهم نجد أنه محدود جداً. وقد رأينا كثيراً ممن يدرِّس علم (المنطق) وكثيراً ممن درسه، ورأينا أن تفكيرهم يفتقر إلى بعض البدهيات التي يحتاجها التفكير القويم! ولذا **فإن من الصحيح أن يركز المربي في البداية على إلقاء الأضواء الكاشفة على الأفكار والرواسب السابقة، والمفاهيم والعادات العقلية والنفسية التي تحول دون الرؤية الصحيحة**[1]، مثل **التعصب والمبالغة، والرؤية النصفية، والميل إلى التبسيط، والانغلاق، والخضوع للمقولات الشائعة، والتعامل مع الواقع على أنه كتلة صلدة**. . .

وأعتقد أن أثر الأسرة في هذا لن يكون كبيراً، حيث إن هذه المسائل أعقد من أن ينتبه إليها الأشخاص العاديون؛ وإنما المعول في ذلك على الوسائل الإعلامية والمناهج المدرسية، والمجالس والندوات الفكرية.

ب ـ إن تقدم العالم كان في الأغلب عن طريق (الأزمات) **وإن القفزات العلمية والإبداعية جاءت في الأغلب من خلال الاصطدام بمشكلات كبيرة ومحيرة**. الذين استطاعوا تجاوز العقبات، والإتيان بالمبهر العظيم، ليسوا أولئك الذين استسلموا للمقولات والمفاهيم السائدة في الساحة العلمية، ولا أولئك الذين يتبرمون بالنتائج التي خالفت توقعاتهم، وفروض بحثوهم؛ وإنما أولئك الذين يملكون العقل المنظم الذي يهش ويبش في وجه المسائل المحيرة والمعضلات الغامضة، ويمنحها الرعاية والملاطفة؛

---

(١) حاولنا في كتاب «فصول في التفكير الموضوعي» تسليط الضوء على شي من ذلك.

حتى يجد مخرجاً أو برهاناً يثبتها على محك التجربة والاختبار[1]. إن كثيراً من أفكارنا لن يبلغ حده الكافي من التبلور والنضج إلا إذا اغتبطنا بالحقائق التي لا تتطابق مع ملاحظاتنا وفروضنا الأولية؛ حيث من خلالها نستطيع إدخال تعديلات على أفكارنا، ونجعلها أكثر ملاءمة للتقدم، وأقرب إلى الدقة والصواب. نحن بشر، وتحليلاتنا وملاحظاتنا ستظل قابلة للتشذيب والتطوير، ويجب أن نعلِّم أطفالنا وطلابنا هذه الحقيقة، ونُريهم من خلال الوقائع والمواقف التطبيقاتِ التي تجعلها تتغلغل في (اللاشعور) منهم.

جـ ـ قالوا قديماً: **نصف عالم أضر على الأمة من جاهل**. وهذا من الحكم الرائعة؛ لأن الجاهل يملك بعض الأخلاقيات، مثل التواضع وحب المعرفة، والقدرة على الاستماع دون مقاطعة. أما نصف العالِم، فإن لديه قدرة على تكرار الألفاظ، وطرح الفروض المبتذلة والدارجة، وعنده حظ من الغرور والتعالم؛ ولذا فإنه يسدل حجباً سميكة على عقله، فلا يتقبل الأفكار الجديدة، ولا يملك من الحماسة ما يكفي لتطوير مفهوماته وطروحاته.

إن توسيع قاعدة الفهم، يتطلب منا أن نؤكد دون ملل على ضرورة وضع معارفنا وأفكارنا في موضعها الصحيح من جسم المعرفة البشرية المنظمة، والسائدة اليوم، وأن ننظر بجدية إلى خطورة ما نجهله حول كل قضية من القضايا المعاصرة. وأرى في هذا السياق أن قدر العالِم وفضله لا ينبعان من كثرة ما يعرف، وإنما من حدسه بما لا يعرفه وتقديره له، وأخذه بعين الاعتبار عند إصداره الأحكام.

إن صاحب الفهم الصحيح، يحاول دائماً أن يجعل أفكاره متساوقة مع حجم البراهين المتوفرة لديه، فعلى مقدار صلابة المعلومات والبراهين تكون صلابة الأفكار ودرجة الوثوق بها. وإذا نظرنا في واقع عالم الأفكار لدى كثيرين منا، وجدنا أن درجة الوثوق واليقين كثيراً ما تكون متقدمة على ما

---

(١) قاموس جون ديوي للتربية: ١٣٠.

هو متوفر لديهم من أدلة وبراهين ومعلومات؛ مما يجعلهم في حالة دائمة من الاضطراب والتشوش، ومما يجعل خيبة الأمل حليفة لهم!.

د ـ حتى تتسع قاعدة الفهم لدى الناشئة، **فلا بد من إكسابهم (المرونة) الفكرية، وسرعة استيعاب المتغيرات الهائلة التي تجتاح العالم**. إن شاب الغد يحتاج إلى أن يكون مستعداً للتنقل الجغرافي من أجل طلب الرزق، فمنطق العصر هو (الترحال) بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى. ويجب أن يكون أيضاً مستعداً لتغيير اختصاصه ومهنته بحسب ما يتوفر من فرص العمل. وبحاجة إلى تغيير مفاهيمه عن أشياء كثيرة محيطة به[1]. وهذا كله يحتاج من الشاب أن يمتلك المرونة الفكرية والنفسية.

لعل مما يساعده على اكتساب هذه المرونة أن ينظر إلى أن الاستجابة للتغيير ليست عبئاً خالصاً؛ فهي بما تتطلبه من التكيف، تخلص الإنسان من الملل والسأم، وتخلصه من كثير من الواقع السيِّئ الذي يعيشه؛ فالتغيير حين يقوده مسلم، يكون ـ بإذن الله ـ نحو الأحسن والأفضل.

مما يسهم في تكوين المرونة الذهنية لدى الأطفال، **جعلهم يدركون جملة الفروق والاختلاف بين البشر**، وأنه لا يمكن جعلهم نسخاً مكررة بعضهم عن بعض في كل أمر؛ بل إن الله ـ جل وعلا ـ خلقهم مختلفين ليكمل بعضهم بعضاً على جميع المستويات: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾[2]. ففي الاختلاف ثراء وتنوع وإخصاب وتعاون، وهو عامل أساسي في توازن الحياة العامة. إن فهم الناس العميق للحياة، بكل ما فيها من تعقيدات وتشابكات بهدي من المنهج الرباني، وبتبصير من الخبرة ـ سوف يخفف إلى حد بعيد من الشعور بالألم، ومن التلاوم، وسوف يجعل أحلامهم ممكنة، وخيالهم معقولاً بعقال

---

(١) العرب وعصر المعلومات: ٣٩٤.

(٢) سورة الزخرف: آية ٣٢.

ما يمكن توقعه؛ أي سيكونون أقرب إلى الحكمة. وكما كان يقول (نيتشه): «إن النمو في الحكمة يقاس بدقة بانخفاض المرارة»[1]. ولا ينبغي أن نهمل في هذا الصدد مساهمة معرفة حدود (الجائز والممنوع) في مسألة المرونة، فحين يتضح للمرء بجلاء ما هو جائز، ويتميز عما هو محظور وممنوع، فإنه يقبل بجرأة كل الأشياء التي تدخل في حيز المباح، مهما كانت صورها وأشكالها، ومهما كانت غريبة وغير مألوفة. **ومشكلة معظم الشعوب النامية خلو خبرتها ووعيها من الحدود الفاصلة بين الجائز والممنوع ـ على المستوى القانوني على الأقل ـ**؛ حيث إن لديها إلى جوار كل قانون مكتوب قانوناً غير مكتوب؛ مما جعل لدى الناس أنواعاً من الخوف غير المسوَّغ، وأحدث حالة من الإحجام المبهم، كما أنه تسبب في تورط بعض الناس في أمور، كانوا يظنون أنها من قبيل المباح. وهذا هو السر الأكبر القابع خلف سلبية الإنسان لدينا!

مما ينمي خبرة التفريق بين الجائزات والممنوعات، أن نستمع بأذن صاغية، وبعقل مفتوح لكل ما يُطرح من أفكار، وأن نتقبله على أنه اجتهاد، ما لم يصادم إجماعاً أو نصاً قطعياً؛ فالأفكار لا تنضج، ولا تتبلور ما لم تلكها ألسنة المناظرة. من خلال الحوار والنقاش والمفاتحة، ومن خلال الوقوف على الأهواء والأخطاء، نبصر طريقنا إلى المنظور الكلي الذي هو الحقيقة. ولا ريب بعد هذا وذاك في **أن سعة الفهم لا تؤدي إلى الاتفاق في الآراء، لكنها تمنح الأساس للاختلاف، أي تجعل الاختلاف مؤصلاً واضحاً، وتجعل ما يتم من اتفاق متيناً؛ لأنه يقوم على قواعد فكرية ومنهجية صحيحة. ونستفيد من ذلك التسامح والتعاطف المتبادل في حالة الاختلاف، والتعاون والمشاركة في حالة الاتفاق.**

إن **الإنسان كائن قابل للتعلم**، بل إن الإنسانية كلها، تظل تتعلم

(١) قصة الفلسفة: ٤٩٤.

باستمرار، وإذا تملكتنا هذه الفكرة، فسوف نعرف كيف نكتسب المرونة، وكيف نستخدمها في تحسين نوعية الحياة.

هـ - إن الهدف الأساسي من كل ما نتلقاه من تعليم وتدريب، ليس أن نتمكن من سرد المعلومات عن ظهر قلب، ولكن أن نحاول ترشيد أحكامنا العقلية، التي نستند إليها في كل القرارات التي نتخذها في جميع مجالات الحياة. وهذا يعني **أن على التربية والتعليم استهداف تكوين (العقل المثقف)** وهو ذلك الذي اجتاز عدداً كبيراً من حالات التدريب على التفكير المستقيم، والذي يستطيع استخلاص نموذج خاص وملامح محددة من خلال استعراض عدد كبير من وجهات النظر المختلفة في المسألة الواحدة. وهذا يعني الاطلاع على مقولات كثيرة في الموضوع الواحد، وتدريب الذهن على الاستفادة من تلك المقولات في بلورة رؤية خاصة متماسكة[١].

كان أفلاطون يرى أن من الضروري أن يكون للعقل نوع من الاستقلال النسبي عن الوسط الذي يعيش فيه[٢]. وهذه الوضعية - في تصوري - مما يجب أن تشمله جهود توسعة قاعدة الفهم، وتربية العقل المثقف؛ إذ إن توحد عقول الناشئة مع الأوساط والبيئات التي يعيشون فيها، سيؤدي بهم إلى أن يصبحوا (إمَّعات) لا يحسنون سوى التقليد، **لكن حين يشجعون على إبداء وجهات نظر مغايرة لما هو سائد، فإنه سيتكون لديهم عقل ناقد، وسيكون ذلك مصدراً لتجديد متوازن.**

إن تثقيف العقل وتدريبه على إصدار الأحكام، يشبه تقوية العضلات، حيث يمكن بعد تقويتها أن نستفيد منها في أي عمل يتطلب القيامُ به استعمالها. إنه يمكن تنمية (العقل المثقف) بطرق عديدة، منها تهذيب قوى الملاحظة المميزة، وتقوية ملكة المنطق ليتمكن الفرد من تتبع الحجة نقطة بعد أخرى، وبالعمل على إنضاج القدرة على المقارنة.

---

(١) انظر: الثقافة الفردية وثقافة الجمهور: ٨٣.

(٢) الدروس التي تتعلمها التربية من علم النفس: ١٣٨.

إن بإمكان الدراسات اللغوية والعلوم الطبيعة أن تنمي عادات الملاحظة الدقيقة، وإن الرياضيات هي المدرب التقليدي لملكات التفكير. أما التاريخ والدراسات الأدبية، فهي تسهم في تنيمة القدرة على الحكم[1].

٥ ـ الشخصية العلمية:

إن كل الأمم التي تحتل مراكز متقدمة في العالم اليوم، استطاعت أن تخطو خطوات واسعة على طريق تكوين أبنائها تكويناً علمياً رصيناً، من خلال بناء (الشخصية العلمية) لديهم، أي **بعث الروح العلمية، وتأسيس العقلية المنهجية**. والتقدم الصناعي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي بحاجة ماسَّة إلى ذلك. **فالذي يملك شخصية علمية، يقف موقفاً راشداً من التغييرات والتجديدات الحضارية، فيقبل ما يقبله عن بصيرة، ويرفض ما يرفضه عن هدى ووعي.**

إن بعض الدول في جنوب شرق آسيا، حققت تقدماً صناعياً ملموساً عن طريق التقليد لصناعات الآخرين، والحصول على امتيازات الإنتاج؛ لكنها لم تمتلك القواعد والأسس العلمية والبحثية لذلك. وهذا مع ما له من فوائد عظيمة، إلا أنه غير مأمون على المدى البعيد؛ لأنه إذا ارتفع دخل الفرد لدى تلك الدول إلى ما يناظره في العالم الغربي، وارتفعت أجور العمال، أو حدثت طفرات كبرى في البحوث التطبيقية؛ فإن تلك الدول ستفقد كثيراً من ميزاتها، وربما ينهار كثير مما بنوه في وقت قصير!

إن التقدم العلمي والصناعي لدى المسلمين، لا يحتاج إلى عين المدة الزمنية التي استغرقها التقدم العلمي لدى الغرب؛ فجهود خمسة قرون من البحث، يمكن استيعابها في نصف قرن، لكن ذلك **لن يحدث أبداً إلا إذا تمكنا من نشر الشغف بالعلم، وإيثاره، وارتكاب المخاطر من أجله، إلى جانب تمليك الشباب أصول المنهج العلمي.**

---

(١) السابق: ١٣٩.

وبناء الشخصية العلمية، يقوم على مبادئ عديدة، ويحتاج إلى وسائل متنوعة، ولعلنا نلقي الضوء على بعض النقاط المهمة في ذلك:

أ ـ **إن العلم وليد الدهشة**، لكن الدهشة تترك المرء مذهولاً عاجزاً عن الفهم إذا لم يشعر بعد دهشته الأولى برغبة في تأمل الأشياء بعين جديدة، ولم يستشعر ـ بوجه خاص ـ الرغبة الشديدة في أن يرى الأشياء ابتداء من تلك اللحظة في هذا الضوء الشديد، الذي يجعلها تبدو على ما هي عليه حقيقة، وتتهيأ للكشف عما تخفيه من أسرار[١].

حين سطع نور الإسلام على الجزيرة، ثم على العالم من بعد، تملكت الكثير من المسلمين رغبة هائلة في العلم والاكتشاف والفهم، وسطر المسلمون في ذلك مآثر عجيبة من التضحيات، وتحمل المشاق، وماذا يمكن أن يكون هناك أكثر من السفر مئات الأميال من أجل رواية حديث عن رسول الله ﷺ؟!

ولم ينحصر حب العلم في أية دائرة من الدوائر، وإنما صار عبارة عن روح يسري في جميع أوصال المجتمع، مما ساهم في تشييد الحضارة الإسلامية الزاهية!

واليوم نحن بحاجة إلى هذه الروح؛ حتى يصبح طلب العلم ومعرفة الجديد، قيمة من القيم الأساسية في حياتنا. إذا أردنا أن نعرف مدى توطن الروح العلمية في أمتنا، فلننظر ماذا يعمل الناس حين يكونون في إجازة أو محطة قطار، أو في أي وقت لا يلتزمون فيه بعملٍ ما. ولننظر كذلك إلى أعداد المكتبات العامة لدينا، وأعداد روادها، ونوعية ما يقرؤون، ويطالعون.

لن تتملك أمتنا زمام الحضارة ما لم يصبح التعلم، والبحث عن الجديد حركة مجتمع لا حركة صفوة أو فئة.

ب ـ كان سلفنا يتقربون إلى الله ـ تعالى ـ بطلب العلم، ويعدونه

---

(١) المنطق وفلسفة العلوم: ٥١.

أفضل من التنفل، وكان لهم في طلبه ونقله للناس آداب عظيمة؛ فلم يكن العالم يرضى أن يأخذ أجرة على التعليم، بل كان كثير منهم يأبى أن يكلف من يعلمه بأي شيء من حوائجه؛ حتى لا يجرح صفاء نيته، ولا يكدر ذلك العمل الأخروي بأي شيء دنيوي! وهذا في الحقيقة من أهم سمات الشخصية العلمية: إنه الترفع عن استخدام العلم سلماً للوصول إلى المنافع الشخصية.

من أهم ما **تتطلبه الروح العلمية (النزاهة)**، ونعني بالنزاهة الفصل بين الأهواء والمصالح، وبين الحقيقة العلمية، والقناعة المعرفية؛ فلا تستخدم الأخيرة لخدمة الأولى، ولا يغير فيها من أجلها، ولا تخضع لضغوطها. **فالحقيقة يجب أن تظل حرة مستعلية على الاستغلال والمتاجرة**، وإلا فإن العلم يمكن أن يتحول من سلاح لإنارة الطريق، والارتقاء بالإنسان إلى سلاح يقتل حياة الناس، ويشوّه المعاني النبيلة!

من نزاهة العالم أن يغير آراءه إذا وجد أن الحق مع غيره، بقطع النظر عما يقوله الناس آنذاك. ومما يذكرونه في هذا السياق أن الإمام الشافعي تناظر مع أبي عبيد القاسم بن سلام، فكان الشافعي يقول: إن القرء هو الحيض، وأبو عبيد يقول: إنه الطهر. فلم يزل كل منهما يقرر مذهبه حتى تفرقا، وقد انتحل كل منهما مذهب صاحبه، وتأثر بما أورده من الحجج والشواهد[١].

ويروى عن الشافعي ـ رحمه الله ـ أنه كان يقول: «والله ما ناظرت أحداً إلا قلت: «اللهم أجر الحق على قلبه ولسانه، فإن كان الحق معي اتبعني، وإن كان الحق معه اتبعته»[٢].

جـ ـ لا تتوفر الروح العلمية الحقة إلا لمن أعد نفسه لتحمل المشاق، والإعراض عن الكثير من اللهو والاسترخاء والسمر وراحة البال والاستقرار، فقد جاء رجل إلى الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ ينصحه بأن يتخلّى

---

(١) قواعد الأحكام ٢: ١٣٥.

(٢) السابق ٢: ١٣٦.

عن الأقوال والمواقف التي تسبب له الأذى، فأجابه الإمام بقوله: «إنك من أصحاب العقول المستريحة»!.

كثير أولئك العلماء الذين عذبوا لأنهم عبروا عن قناعاتهم وآرائهم، وكثير أولئك الذين اضطهدوا، ووضعوا في الظل؛ لأن ألسنتهم لم تخضع لأهواء الظلمة والمتنفذين. وهناك أعداد كبيرة من العلماء الذين استولى اللصوص على متاعهم وكتبهم وأموالهم أثناء ترحالهم في طلب العلم، ولم يثنهم ذلك عن المضي في جوب الآفاق لاكتساب المزيد من العلم والخبرة!

في العصر الحديث بطولات وتضحيات كثيرة وهائلة، قدمها العلماء وهم يرصدون الظواهر الفلكية، وأثناء عملهم في المختبرات العلمية. علماء كثيرون أجريت لهم عمليات بتر في أطرافهم نتيجة دراستهم لأشعة (إكس) الخطرة في معاملهم. والأطباء الذين كانوا يدرسون في معاهد (باستير) المتعددة، كانوا يتعرضون لأخطار مميتة وهم يقومون بعمليات عزل وجمع ودراسة لفصائل نقية (خطرة إلى أقصى حد) من البكتيريا والطفيليات المخيفة التي تسبب الأمراض الوبائية: كالتيفوس ومختلف أنواع حمى المناطق الحارة؛ (الكوليرا) والطاعون[1]!!

إن السعي إلى تأمين سلامة الناس، وتصحيح مسار حياتهم، وتخليصهم من مشكلاتهم يقتضي دائماً أن يعرّض العلماء سلامتهم الشخصية للخطر، وهذا ما يفعله العلماء الأفذاذ، ممن يتمتع بالإخلاص والصدق والروح العلمية المتوثبة.

د ـ إن تكوين الشخصية العلمية، لا يكتمل من غير امتلاك، العالم لروح النقد؛ وهذا يستوجب أن نربي الأطفال على الإحساس المرهف تجاه مختلف الأحداث والقضايا؛ حتى نضع الأساس للملكة النقدية لديهم. لا يعني النقد التجريح، ولا التركيز على المعائب؛ وإنما يعني القدرة على

---

(١) المنطق وفلسفة العلوم: ٥٥، ٦٥.

الموازنة والمقارنة بين ما هو كائن، وبين ما يمكن أن يكون. وهو يعني أيضاً القدرة على إدراك الخصائص والميزات الإيجابية للشيء موضوع النظر، إلى جانب إدراك نواقصه وسلبياته وفق أصول فكرية وعلمية معترف بها. والنقد أيضاً يعني القدرة على النظر إلى الأمر من وجوه وزوايا مختلفة، وبعيون الموالي والمعادي، المؤيد والمعارض، قبل إصدار الحكم. ولا يتم كل هذا إلا من خلال أمرين:

الأول: هو خصوبة الخيال. وقبل كل شيء فإن من الممكن أن يشكل الخيال الواسع ثلمة في الشخصية العلمية، من خلال ضعف رؤية الأشياء على ما هي عليه، أو من خلال النزوع إلى آراء وأفكار وهمية. إلا أن هذا عبارة عن عَرَض جانبي لفضيلة عظيمة.

إن الحاجة إلى الخيال الخصب، تسوِّغها أمور عديدة، منها: أنه ما زال في كل جوانب الحياة أمور غامضة كثيرة غير مكشوفة، والخيال عامل مهم في الحدس بها؛ فالخيال يحملنا إلى عوالم لا تقع في مجال الخبرة البشرية، بعضها على حافة الممكن، وبعضها على حافة المستحيل، لكن نوعاً من الإدراك لها جميعاً حيوي لتحقيق قفزات علمية، وضمان مهم لاستمرار التقدم العلمي. وإن كثيراً من أشكال التقدم التي حققها العلم، كان مديناً لجرأة قوية في الخيال.

كان أحد الحكماء يقول: «لولا الخيال لكان الإنسان دابة»! وهذا القول على درجة عالية من الصواب، فقد قامت في عالمنا الإسلامي أعمال كثيرة جليلة، وكان بالإمكان أن يكون لها نتائج حاسمة لو تهيأ لها خيال خصب يغذيها، ويوسع آفاق التطور أمامها؛ فوقعت فريسة للتخبط والحيرة، وبالتالي العقم والإجهاض!

إن ما هو محتمل قد يكون أهم من الحاضر الناجز، ومعرفة ما هو كائن لا قيمة لها إلا في ارتباطها بالإمكانات المحتملة[1].

---

(١) انظر: قاموس (جون ديوي) للتربية: ٦.

الثاني: من مستلزمات النقد هو: **الثقافة الموسوعية المرتبطة بتخصص**، فالمتخصص بالطب يحتاج إلى معرفة حسنة بعلوم الأحياء والكيمياء والنبات والسلوك والتعلم والذكاء... والمتخصص بالتاريخ بحاجة إلى معرفة حسنة بعلوم النفس والاجتماع والسياسة والاقتصاد والجغرافيا والآثار. والنقاد في مجال العلوم المعقدة التي تتخذ الحياة والإنسان موضوعاً لها ـ أحوج إلى المعرفة الموسوعية عبر التخصص، والنبوغ فيها يأتي دائماً متأخراً[1].

إن الروح النقدية رقيقة وهشة، وهي بحاجة دائمة إلى تقوية وتدعيم من خلال التحصيل العلمي. ولا يفهم مدى تعقد الواقع إلا من عرف كثيراً، وقضى على فرص الخطأ. العقل المشتعل ذكاء من غير مساندة معرفة ممتازة يطرح فروضاً زائفة، وينتج معرفة شكلية، وهو مصدر ثر للغرور والكبر والحذلقة الكلامية! وإن من غير النادر أن نلتقي بأشخاص يتمتعون بملكة الخيال، لكنهم يفتقرون إلى الخبرة، وأن نلتقي بآخرين يملكون الخبرة لكنهم يفتقرون إلى الخيال.

الحمقى يتصرفون بخيال واسع دون معرفة أو خبرة.

والمتحذلقون يستعملون المعرفة دون سعة في الخيال[2]. ومهمة المربي أن يجمع بين ملكة الخيال والخبرة في قالب واحد هو شخصية الطالب.

إن تنمية النقد لدى من نربيهم، قد تستوجب منا أن ندربهم على استعراض الأفكار والمقولات والطروحات المتعارضة؛ لنرى خصائص كل منها، ومدى انسجامه الذاتي، ومدى ما يمكن أن يكون لكل منها من نتائج. إنه ما احتكت فكرتان متعارضتان إلا نتج عنهما فكرة ثالثة متولدة منهما معاً، وأرقى منهما جميعاً؛ لأن تلك الفكرة هي ثمرة إنضاج الفكرتين وتلاقحهما وتنقيحهما. ومهمة النقد أن يوفر ذلك الاحتكاك.

---

(١) المنطق وفلسفة العلوم: ٦١، ٦٢.

(٢) المعلم أمة في واحد: ٥٧.

إن أكثر من ٩٠٪ من الأفكار والأساليب والنظم، بينها نوع من التعارض والتناقض على مستوى من المستويات، وإنها جميعاً قابلة لنوع من النقد والتمحيص والتقويم؛ مما يتيح لنا فرصة عظيمة كي نرقى بملكاتنا النقدية، ونصقلها.

حين نربي ملكة النقد، ونوطد أركانها، فإن الإنتاج المعرفي لدينا سوف يزداد كماً، ويتحسن نوعاً، حيث لا تكون مهمة المدرس والكاتب والطالب ـ وبالتالي المجتمع ـ أن يتداولوا المعرفة فجة ساذجة، كما تلقوها، وإنما يدخلون عليها تحويراً، يمنحها حيوية وإنضاجاً جديدين؛ وذلك من خلال مزجها بالنماذج الخاصة والخبرة الشخصية التي يمتلكها من يديم إعمال فكره فيما يسمع ويرى ويقرأ.

هـ ـ العقل المنهجي هو عقل سببي؛ فالعالم الذي نعيش فيه عالم أسباب ومسببات، كما قال ـ جل وعلا ـ: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾[1] قال ابن عباس: من كل شيء علماً يتسبب له إلى ما يريد. فكأن الله ـ تعالى ـ أطلعه على الأسباب والعلاقات التي تربط بينها وبين مسبباتها. إن من واجبنا أن نزرع في نفوس أبنائنا أن عليهم دائماً أن يبحثوا عن الأسباب التي أدت إلى وجود أي ظاهرة تستوقفهم؛ حيث إن كل الظواهر والأحداث تخضع لعدد من العوامل والأسباب الداخلية والخارجية، المباشرة وغير المباشرة؛ وعلينا عند دراستها محاولة الوقوف عليها واجتراحها.

إن كل شيء في هذا الكون، يجري بإرادة من الله ـ جل وعلا ـ وعلم سابق. والله وحده هو الذي يعرف كل الترابطات والعلاقات التي تربط بين مختلف الوقائع والظواهر؛ أما معاشر البشر، فإن عقولهم خلقت لتتعامل مع سلاسل تسير في خطوط مستقيمة؛ وهذا ما تمضي على أساسه جهود البحث العلمي على نحو عام وشامل.

---

(١) سورة الكهف: الآيتان ٨٤، ٨٥.

إن المنهجية ليست هي الأصل في عمل العقل البشري؛ بل إنه يمكن القول: إن العقل البشري يستطيع أن يجمع بين أقصى درجات المنهجية، وأقصى درجات الخرافة؛ ولذا فإن تكوين العقل المنهجي حتى يتم يحتاج إلى الكثير من المعالجة والجهد والمتابعة.

والملاحظة تفيدنا أن البنى العميقة لمعظم الثقافات، هي بنية خرافية عندما نتجاوز القشرة الخارجية؛ وهذا في نظري من المعضلات البشرية الكبرى؛ ولكن لا خيار أمامنا سوى أن نستهدف الحصول على شيء ولو كان قليلاً!

ولعلنا نعترف هنا أن معظم مدارسنا وجامعاتنا ومؤسساتنا العلمية والتربوية المختلفة ـ لم تفلح في أن تجعل من نفسها بيئات لتكوين الشخصية العلمية، كما أنها لم تفلح في إيقاد شعلة الشوق إلى المعرفة في صدور طلابها؛ فالطابع العام طابع تلقيني تجاري؛ فالدراسة للشهادة، والشهادة للوظيفة، والوظيفة للتمتع بالحياة! ونستطيع أن نقول: إننا فقدنا إخلاص السلف ودأبهم، ولم نستطع أن ننظم الحياة العلمية كما نظمها الغرب، كما لم نستطع إيجاد الباحث المفكر المبدع؛ فنحن محاصرون بين ماض خسرناه، وحاضر لم نربحه!!

إن تكوين الشخصية العلمية، يتطلب أول ما يتطلب (الجو العلمي) المشحون بالأرواح المتوثبة، والعقول المتفتحة، والبحوث العلمية الجادة. إنه الجو الذي تسوده تقاليد بحثية وعلمية راسخة، تجعل كل من يعيش فيه، يتنفس الجدية والدأب والنزاهة والطموح العالي... وبغير هذا فإن المؤسسات العلمية، لا تكون أكثر من أبنية، لها كل شكليات المؤسسات العلمية في البلاد المتقدمة، ولكن ليس فيها إلا القليل من مضامينها، والقليل من إنتاجها ومساهماتها؛ وهذا ما هو واقع لدينا؛ فعلى الرغم من وجود مئات الجامعات في البلدان الإسلامية، إلا أنه ليس فيها إلا النزر القليل من الجامعات التي فيها مراكز بحوث جيدة، أو التي تدرب تدريباً جيداً!

إن مهمة المربي الكبرى أن يحول المعلومات إلى (معرفة)، وهذا يكون من خلال تمليك الناشئ أصولاً وقواعد ومنظومات كبرى؛ وكلَّما جاءت جزئية أو معلومة مفردة، تم دمجها مع الربط المنطقي والعلمي الواضح بين كل أصل وفرعه. إن المعلومات لا تصبح ملكاً لنا إلا إذا أعملنا فيها ملكاتنا العقلية، ولذا فإن **كل أشكال التعليم يجب أن يتلقاها المتعلم في إطارات من الفهم والنقد، وبهذا كله تتشكل خطوةَ العقلية المنهجية والروح العلمية لديه.** هذا الأسلوب في التعليم، هو الذي يحول العلم من عبء على الذاكرة إلى أداة تفتح، وإنضاج للشخصية، ومصدر لبعث النشاط الفكري والهمة العلمية. ومهمة المربي أن يوقظ من يربيه، ويحوِّله من قوة متلقية إلى قوة فاعلة، تهضم المعرفة وتزكيها.

٦ ـ صناعة الطموحات الكبيرة:

المُثل التي يمكن أن يتطلع إليها المرء كثيرة، والمستويات التي يطمح الوصول إليها، لا حدود لها، ولكن قلة قليلة من الناس أولئك الذين يعرفون الإمكانات المتوفرة لديهم، أو تلك التي يمكن تطويرها لبلوغ أهداف كبرى ومنازل متقدمة.

إن مما لا شك فيه أن لدى السواد الأعظم من الناس ما يمكِّنهم من الوصول إلى الآفاق العليا في كل ما تسمو إليه النفوس النبيلة في ميادين الحياة كافة؛ لكن النماذج الرديئة، والأسر المتهدمة، والتعليم السيِّئ، كل أولئك يقتل التطلعات، ويخفِّض درجة الأحلام والآمال؛ مما يجعل هموم الناشئ صغيرة، وآفاق ما يصبو إليه محدودة، وهذا من جهته يقلل من اهتمامه بتأهيل نفسه، ويجعل ركوب المشاق من أجل التكوين الشخصي شيئاً لا معنى له!

كثير من الأهل، وكثير من المربين ينشغلون بمراقبة الناشئ ومتابعته وضبطه، وتلقينه بعض الآداب والمعلومات عن طريق دلالته على الآفاق التي تنتظره، وعن الوضعية التي يمكن أن يكون عليها. وبعضهم يظن أن فائدة الحديث عن الآمال والطموحات محدودة؛ لذلك فإنهم يهملون ذلك، مع

أن الذي يقرأ في سير العظماء يقف على حقيقة سافرة هي تأثرهم الشديد بكلمة قالها أستاذ أو والد أو صديق، ويجد أن الذين غيرت كلمة صادقة مخلصة مجرى حياتهم ليسوا أعداداً قليلة!

إن كثيراً من الناشئة لهم طموحات، تتصل بالجاه والنفوذ، وجمع الثروة من أي طريق. وبعضهم لهم طموحات مشروعة، ولكن لا تتناسب مع إمكاناتهم ومواهبهم. ومهمة المربين في الحالتين أن يُرشِّدوا تلك الطموحات، ويجعلوها أكثر عقلانية وواقعية.

إن ما يدل على نبل الإنسان ليس ما يفعله، ولكن ما يتمنى بصدق أن يفعله، حيث إن كل أعمالنا، تظل مقيدة بقيود البيئة، وحدود الممكن. أما الأحلام والطموحات، فهي حرة أبداً طليقة. وقد ورد في نصوص عديدة ما يزكي المقاصد الحسنة، ويحث عليها، كما في قوله ﷺ: **«فمن همَّ بحسنة فلم يعملها، كتبها الله عنده حسنة كاملة»**[1]

إن تذكير الناشئة بما يمكن أن يبلغوه، يولد لديهم حاسَّة جديدة، يتلمسون من خلالها إمكاناتهم، ويوسعون آفاق نظرهم إلى المستقبل، وهذه مهمة الكبار. وينبغي أن نحذر مع ذلك من الأشواك الضارة التي قد نزرعها مع الأحلام الجميلة: أشواك الأنانية والفردية الزائدة والرعونة، ونفسية الوصول عن أي طريق وبأي وسيلة.

٧ ـ العناية والإتقان:

العصر الذي نعيش فيه هو عصر الأشياء الدقيقة والأشياء المتقنة والفائقة، وهذه السمات كلُّها سمات زائدة على الوجود، إنها نوع من التجاوز للضرورات باتجاه الأناقة والكمال. ويمكن القول: إن ما نلاحظه من جودة وإتقان وتنظيم في البيئة المحيطة والأشياء المنتَجة، هو ـ بمعنى ما ـ صدىً لكينونة إنسانية منظمَّة. وتعبِّر المنتجات الرديئة ـ في أكثر الأمر ـ عن أمم، طابعها العام الكسل

---

(١) أخرجه الشيخان.

والفوضى والجهل والاضطراب، وهذا من الأشياء المشاهدة اليوم.

إن تجويد الأعمال ـ أياً كانت ـ وإتمامها على نحو متميز، يتطلب على ما يبدو نوعاً من الاستقامة الفكرية والنفسية، كما يتطلب تقاليد اجتماعية راسخة، ومستوًى حضارياً عالياً، حيث يتم طرد الجيد للرديء، ويتمدد كيف الأشياء على حساب كمها.

إن المواد الخام آخذة في النضوب، وليس أمام العالم من مخرج لمواجهة هذه المسألة سوى تمكن الناس من الاستفادة القصوى مما تبقى من موارد. وذلك لن يكون إلا من خلال الحرص المطلق على (النوعية) في كل شيء؛ لأنها وحدها هي التي توقف هدر الموارد، وتمكن من إنتاج أجهزة صغيرة الحجم عالية الكفاءة، وآلات اقتصادية ومعمرة. وما نراه اليوم من تنام سريع للمعلوماتية والهندسة الوراثية في مجال النبات والحيوان، ما هو في الحقيقة سوى صدى للإحساس بضرورة تحسين نوعية الأشياء والارتقاء بها.

إن لدينا نصوصاً عديدة، تدلنا على ضرورة التحلي بخلق الإتقان والإكمال، والسعي إلى معالي الأمور في كل ما يتصل بنا، وكل ما ننتجه من أفكار ونظم وأشياء... حين سئل النبي ﷺ عن (الإحسان) بعد أن سئل عن الإسلام والإيمان قال: **«الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**[1] كأنه يشير إلى أن العبد يعبد الله ـ تعالى ـ على هذه الصفة، من استحضار القرب، وأنه بين يديه كأنه يراه، وذلك يوجب الخشية والتعظيم، كما يوجب النصح في العبادة، وبذل النصح في تحسينها وإتمامها وإكمالها[2]. وفي حديث آخر: **«إن الله يحب معالي الأمور، ويكره سفسافها»**[3]. وفي نص ثالث: **«إن الله يحب إذا عمل أحدكم العمل أن يتقنه»**[4].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) جامع العلوم والحكم: ٣٣.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط، ورمز له بالحسن.

(٤) رواه أبو يعلى والبيهقي والطبراني وغيرهم.

إذا تأملنا كل جوانب الحياة، وجدنا أنه ما من شيء إلا ويمكن أن يؤدي الحد الأدنى من وظائفه، ويعطي نوعاً من الانطباع بأنه تام وكامل، لكن الخبرة الجيدة هي التي تمحص دائماً أشكال القصور والزيف، وترشد إلى الوضعية، التي تبلغ فيها الأشياء اكتمالها. ويبدو أنه لا سبيل إلى تكوين الخبرات الناضجة سوى التجربة، ولكن لا بد لمن يكسب وعيه عن طريق التجارب أن يدفع الثمن، وهذا ما تفعله الأمم الضعيفة اليوم!

إن كل ما يتصل بالثقافة والتربية، لا ينضج ولا يرتقي ـ على نحو جوهري ـ عن طريق النظم والأفكار والعظات، وإنما عن طريق زجِّه في أجواء تحمله حملاً على الارتقاء، أو تطرده، وتحجمه عند حرونه وتأبّيه.

هذه الأجواء تتشكل عن طريقين اثنين:

أ ـ ما يقوم به كل أولئك الذين يرتقون بعقلية الناس ومشاعرهم ومهاراتهم، وما يبذلونه من جهد: الأسرة من خلال دلالتها لأطفالها على الأفضل والأجود والأحسن في كل ما يأتونه، والمعلم الذي يراجع أعمال طلابه، ويرشدهم إلى ما ينبغي أن تكون عليه، والدولة التي تشجع الأعمال العظيمة المتقنة التي ترفع سوية المجال الذي تنتمي إليه.

ب ـ النقد النشط البنّاء لكل أولئك الذين يأخذون من كل أمر شكلياته، ومن كل شيء أدناه، وأولئك الذين أصابتهم حمى الإنجازات السريعة والفجة، ومهمة الحكومات في هذا الجانب حيوية، حيث إن بإمكانها أن تضع مواصفات عالية للجودة في كل شيء، وأن تتابع تطبيق تلك المواصفات دون استرخاء أو محاباة لأحد. ويظل الأصل هو الثقافة التي تتغلغل في أوصال الحياة الاجتماعية. وتكوين ثقافة الجودة، يحتاج إلى وقت وجهد، لكن ذلك حين يتم ينتج عنه صلاح شامل وارتقاء عام، يسعد به الجميع؛ ويمكن للقوانين والنظم أن تؤدي وظيفة مهمة في ذلك.

٨ ـ اللمسة الجمالية:

كثيراً ما يلتقي الإتقان بالجمال؛ حيث إن **الإتقان يتجلى دائماً في السمات والأعمال فائقة الجودة.**

والأشياء الجميلة هي أيضاً أشياء متفوقة، تجاوزت المستويات المألوفة، وآفاقها المنتظرة، وتميزت عن نظرائها.

إن الإتقان يكاد يكون شيئاً (وظيفياً)؛ فالأشياء المتقنة دائماً تؤدي وظائفها على نحو متفوق، لكن لا يشترط في كل شيء متقن أن يكون جميلاً، كما أنه ليس كل جميل متقناً، وهذا معروف لا يحتاج إلى شرح.

بعيداً عن التفلسف في تحديد طبيعة الجمال ونوعيته ومقاييسه نقول: إن كل ظاهرة جمالية، تشتمل على عناصر ذاتية، تجعل كثيراً من الناس، ينجذب إليها، كما أن لكل إنسان بعض الخصوصيات عند قراءته لتلك الظاهرة وتفاعله معها. ويمكن القول: إنه مهما اختلفنا في المقاييس الجمالية، ومهما تنوعت الذائقة الجمالية لدى الناس، فإن هناك خطوطاً عريضة مشتركة في الإحساس بالجمال بين كل أولئك الذي تتشكل خبراتهم الثقافية على خلفية واحدة. إن درجة الانبهار بأي شيء جميل، تتحدد من خلال ما يتفاجأ به الناظر من انزياح (الشيء الجميل) عن المعايير والمدركات المكتسبة لديه عبر خبرته بالأشياء المماثلة، أي مدى اتساع (المسافة الجمالية) بين المختزن في الخبرة، وبين المستوى الذي يشعه الشيء الجميل.

إن الجمال هو الحيوية التي بإمكانها أن تتغلغل في كل الأشياء، وإن أشد الأشياء قسوة ومرارة، يظل قابلاً لإضفاء المسحة الجمالية عليه. في نصوص عديدة أمر القرآن الكريم بإضفاء الجمال على أشياء هي موضع معاناة لبني الإنسان، حيث قال ـ سبحانه ـ: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥﴾[1]. والصبر شاق على النفوس، ومع هذا فينبغي أن يكون جميلاً. ومصدر

---

(١) سورة المعارج: آية ٥.

جماله ألا تصحبه شكوى لغير الله. وقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾[1]. قالوا: الهجر الجميل هو الذي لا جزع معه. ورأى عمر ـ رضي الله عنه ـ رجلاً يسحب شاة من رجلها ليذبحها، فقال له: ويلك قدها إلى الموت قوداً جميلاً»[2].

إن حاجتنا الشخصية والاجتماعية إلى وجود الظواهر الجمالية، ليست حاجة هامشية يمكن التغاضي عنها، فحين يلبي الإنسان متطلبات وجوده المادي والمعنوي فإنه يحسّ بأنه ما زال في حياته فراغ، لا يملأ إلا بالجماليات. إن مرتبة الأشياء الجميلة تأتي بعد مرتبة الأشياء الضرورية والحاجية، لكن عندما يحين وقتها فإنه لا يغني عنها أي شيء آخر.

إن الحسّ الجمالي يتكوّن في المنزل منذ الشهور الأولى للطفل حيث يربى من خلال الابتسامة والنظرة والهمسة والقصة، وحيث تشيع في المنزل كلمات تحمل معنى اللطف والجمال، مثل الأحسن والأجمل والألطف والأروع. ومن المهم في هذا السياق أن يقوم الأبوان بتنظيم البيئة من حول الطفل؛ فالبيئة المضطربة وغير النظيفة، لا تساعد على تكوين الإحساس بالجمال، ولا تساعد على تكوين مهارة إضفائه على الأشياء والأفعال.

في المدرسة يرى الطفل النظام والنظافة، ويتلقى ثقافة منهجية، وتوجيهية تكمل وتنمي ما قام به المنزل. وهكذا يكون للمسجد وظيفته، كما يكون للإعلام مهمته في ترسيخ القيم الجمالية لدى الطفل.

لا ينبغي أن نكتفي بكتابة الطفل لواجبه، واصطحابه لكتابه، بل لا بد أن تكون ثيابه ودفاتره وكتبه جميعاً تدل على النظافة والتنظيم والأناقة.

إن مما لا يخفى أنه من الصعب إضفاء الجمال على الأشياء والمواقف في مجتمع مضطرب متوتر، كما لا يمكن أن نفعل ذلك في مجتمع يفشو

---

(١) سورة المزمل: آية ١٠.

(٢) جامع العلوم والحكم: ١٤٦.

فيه التحلل والفساد؛ حيث إن كل أشكال القبح هي على مستوًى ما موصولة بمعنى من معاني (المعصية)، فالجهل والظلم والكسل والفوضى والاستبداد وقطع الأرحام والقذارة، وما شاكلها ـ عبارة عن بقع سوداء تشوه مرآة حياتنا، وتحول دون انعكاس المظاهر الجمالية عليها، وواجبنا إقصاؤها عن مجتمعاتنا إلى أبعد حد ممكن.

والله الهادي إلى الصواب.

❋ ❋ ❋

إضاءة:

إذا اتفق شخصان على كل شيء فإنه لا حاجة إلى واحد منهما.



العلم للحياة



العلم للحياة

لا يستطيع المرء أن يعرف أثر العلم في حياة البشر على اختلاف المستويات، وتنوع المجالات، إلا إذا قارن بين عالم متبحر، وبين أمي نشأ في أحد الأدغال بعيداً عن أن منفذ معرفي؛ لا شك أنه سيجد أن ما يفرق بينهما أكثر مما يجمع، كما أنه سيجد أن عيش هذين الرجلين في منزل واحد يكاد يكون مستحيلًا!

إن القرآن الكريم قد ألقى الضوء على كثير مما يتعلق بالعلم: فضله ومشكلات تزييفه وزغله، وحدود الثقة به وغير ذلك؛ لينبهنا إلى الملابسات التي تصاحب هذا العامل الخطير في توجيه حياة الإنسانية وتطويرها.

يقرر القرآن الكريم أن أصحاب العقول السليمة هم القادرون على استيعاب الخبرة والاتعاظ، وأخذ العبرة: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1]. والعلم بحر لا ساحل له، ولا يستطيع أحد الاستحواذ عليه، فهناك دائماً من هو أكثر إحاطة به: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[2]. ويشجع القرآن الكريم (المعرفة الخاصة)، ويحث الناس على أن يعودوا في كل علم إلى أهله، فحين أنكر مشركو قريش نبوة محمد ﷺ وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فهلا بعث ملكاً ـ أنزل الله ـ سبحانه ـ قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا

---

(١) سورة الزمر: آية ٩.

(٢) سورة يوسف: آية ٧٦.

نُّوحِىٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٤٣ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ ﴾[1]، أي: اسألوا يا معشر قريش العلماء بالتوراة والإنجيل يخبروكم أن جميع الأنبياء كانوا بشراً إن كنتم لا تعلمون ذلك.

ويحذّر الله - جلا وعلا - رسوله من الركون إلى أهواء الناس، والإعراض عما أكرمه الله به من العلم: ﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ ﴾[2] ويقرر القرآن حقيقة كبرى، هي أن أكثر الكفار إنما أعرضوا عن اتباع الحق بسبب عدم توفر العلم لديهم: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾. وهذا يلقي مسؤولية عظمى على أمة الإسلام، حيث إن عليها إيصال الحق إلى الناس ودعوتهم إليه.

وأشار القرآن الكريم إلى أن من زغل العلم اغترار الناس بما أوتوه منه؛ مما يدفعهم إلى إنكار نعم الله عليهم، كما يدفعهم إلى إنكار ما جاء من الوحي: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٤٩﴾[3].

وهذا قارون لما وعظه قومه بالإحسان واستخدام ثروته في مرضاة الله يقول: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ ﴾[4].

ويلمح القرآن الكريم إلى محدودية علم البشر وعجزهم عن رسم الأهداف الكبرى للحياة، لكن الجاهلين يظنون غير ذلك: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝٢٩ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ ﴾[5].

ويلفت القرآن الكريم نظرنا إلى أن من زغل العلم الاشتغال بنقله دون

---

(١) سورة النحل: الآيتان ٤٣، ٤٤.
(٢) سورة البقرة: آية ١٤٥.
(٣) سورة الزمر: آية ٤٩.
(٤) سورة القصص: آية ٧٨.
(٥) سورة النجم: الآيتان ٢٩، ٣٠.

الاهتمام بتدبره والاستنباط منه: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٨﴾[1].

قال بعض المفسرين: الأماني هنا: التلاوة والقراءة، فهم كالأميين في عدم الانتفاع من العلم، حيث لا يعرفون من الكتاب إلا سرده دون تفكر.

إن مزيداً من التأمل في الكتاب العزيز، سوف يجعلنا ننتهي إلى رؤية شاملة لكل ما يتعلق بالمعارف والعلوم من مزالق وملابسات خطيرة.

ولعلنا نستعرض بعد هذه المقدمة بعض الجوانب التي تتعلق بوجوه جعل العلم أداة نافعة لتحسين نوعية الحياة، والارتقاء بالإنسان، وذلك من خلال الحروف الصغيرة الآتية:

١ ـ لماذا نتعلم؟

إذا كانت الوظيفة الأساسية للإنسان في هذه الحياة هي تحقيق العبودية لله ـ تبارك وتعالى ـ وما يتبع ذلك من شروط ومكملات ـ **فإن كل علم يتعلمه الإنسان، وكل تقدم تقني يحرزه، ينبغي أن يساعده على القيام بواجبه وتأدية رسالته على الوجه المطلوب**. هذه الرؤية الإسلامية، تكوِّن إطاراً نظرياً لحركة العلم واهتماماته وأهدافه، وإن كل الإطلاقات يجب أن تفسر في ضوء هذا المفهوم.

إن العلم نمط فرعي من فروع كثيرة، ولذا فإن بإمكان الناس أن يستخدموه أداة للخير وأداة للشر؛ ويمكن أن يوظف في إعمار الحياة الإنسانية كلها، كما يمكن أن يكون أداة لهدمها بحسب الوضعية العامة لمن يستخدمه. إن الإنسان هو الذي قام بتطوير العلوم وإنضاجها، لكنه لا يستطيع السيطرة عليها، ولا توجيهها على نحو دائم، وحين تخرج إلى العلن، يصبح سحبها، أو التراجع عنها أمراً مستحيلاً؛ ولذا فإن بإمكان

(١) سورة البقرة: آية ٧٨.

بعض الأشرار ـ وهم كثر ـ أن يوجدوا للمعارف من التطبيقات ما يضاد مرادات أصحابها الأُوَل وأهدافهم، ورؤيتهم العامة للحياة. إننا نملك الجرأة على القول: إن فقد الإنسان لأهدافه الكبرى وغاياته النهائية، قد جعله يفقد السيطرة على أشياء كثيرة، ومنها (العلم).

وليس بخاف ما تفعله الشركات التجارية والدول الاستعمارية من استخدام للمعرفة في السيطرة على مصائر الشعوب الضعيفة. بل نقول إن الدول الصناعية الكبرى، تستخدم المنجزات العلمية ـ استهدافاً لمزيد من الربح ـ في تدمير البيئة العالمية، مما يعني تدمير نفسها في النهاية! لا نريد أن نستطرد في هذا الأمر، لكن من الضروري لأمة الإسلام وهي تبحث في كل اتجاه عن سبل للتمدن والتقدم أن تعي حاجتها إلى تعميق رؤيتها للحياة، والإحساس بالأهداف الأساسية لوجودها، كلما امتلكت المزيد من الوسائل، والمزيد من (المعرفة) وإلا فإنه يمكن للعلم أن يكون وبالاً عليها.

إن أهم سمة للعلم الصحيح أن يجعل صاحبه أكثر خشية لله ـ تعالى ـ ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[1]، كما أنه يساعده على معرفة (الحق) والاهتداء إلى الطريق الأقوم: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾[2].

إن الحضارة الغربية تركز في حركتها العلمية على (كيف) أي: على المعارف والأساليب والأدوات التي يمكن أن تحقق الغلبة والقوة والرفاهية. ولا يكاد الغربيون يهتمون بالجواب على (لماذا) أي: الأهداف والمحصلات النهائية لكل هذا العناء الإنساني.

أمة الإسلام فقيرة في كل ما يتعلق بـ (كيف) وهي تسعى لامتلاك أطراف منه، لكن الخوف هو أن تنسى، وتضيع ما يتعلق بـ (لماذا) على

---

(١) سورة فاطر: آية ٢٨.

(٢) سورة سبأ: آية ٦.

مقدار ما تحصله مما يتعلق بـ (كيف) وآنذاك فإنها تفقد خصوصيتها الحضارية وإمكانات ريادتها، وتجر على نفسها من الوبال ما لا يمكن الآن معرفة أبعاده!!

٢ ـ العلم بين ترسيخ الثقافة وغربلتها:

الثقافة هي: ذلك النسيج المعقد من العقائد والمبادئ، والأفكار والنظم والآداب والأخلاق والعادات والتقاليد، وما يشكل خلفية تاريخية لكل ذلك. إن كل شبر في الأرض يقطنه ناس، مشحون بثقافة ما. وإن الناس يتشربون أكثر قيمهم الثقافية دون وعي منهم، وهم لا يستطيعون التفريق في كل موقف بين ما هو مركزي في ثقافتهم، وبين ما هو هامشي، كما أن قدرة السواد الأعظم منهم على اكتشاف الزيف والتشويه في ثقافتهم، محدودة جداً.

البنية الثقافية لدى أي أمة، ليست ثابتة، ولا نهائية، فمكوِّنات النسيج الثقافي متعددة، وبينها علاقات تأثر وتأثير على نحو متواصل، كما أن حاجات الأمة والظروف التي تمرُّ بها تمنح ثقافتها نوعاً من التجدد المستمر.

إن ذوي الثقافة العليا في الأمة، هم وحدهم الذين يدركون الذاتية الثقافية للأمة، فمن خلال معرفتهم بأصولها الكبرى، وخبرتهم بمفاصل تطورها، وعبر مقارنتهم لها بثقافات الأمم الأخرى، يضعون أيديهم على ما ينبغي أن يستمر من معالم تلك الثقافة، كما يلمسون الأجزاء المعطوبة فيها، فيعملون على تنقية الثقافة منها.

إن الأمة بحاجة إلى ترسيخ عدد من القيم التي تمثل جزءاً مهماً من منهجيتها العليا، وتلك التي يحتاجها النهوض الشامل الذي تسعى إليه، من نحو: الإخلاص والصدق والنزاهة والتشاور والعدل والحرية والإنصاف وحفظ الحقوق والتعاون والتفتح والدقة والجدية والإيثار وسعة الفهم والمثابرة والمرونة... ومهمة الرسالة التعليمية والتربوية أن تؤكد هذه القيم، وتفضح الممارسات التي تناقض مدلولاتها.

ومن وجه آخر فقد ورثنا من عصور التدهور الحضاري مفاهيم وأخلاقاً ونظماً فاسدة وسيئة؛ مما جعل ثقافتنا مثقلة بالأشياء المعطوبة. إن من طبيعة البشر أن يجعلوا (الدين) جزءاً من ثقافتهم بدل أن يكون المهيمن عليها؛ وهم يكيفونه مع باقي عاداتهم وتقاليدهم؛ مما يفقد تلك الثقافة الدستور الذي يمكن أن يوجهها، ويساعد على تصحيحها. أضف إلى ذلك كله أن بعضاً من المثقفين اليوم قد فتنوا بالحضارة الغربية، وأدخلوا إلى ثقافتنا كثيراً مما يسهم في إنحطاطها وتفككها!

إن مما يحتاج إلى نفي وإبعاد عن ثقافتنا المعاصرة ما شاع في كثير من بلاد المسلمين من فوضى وكسل واستبداد، وإعراض عن المشاركة في الشأن العام، إلى جانب الفكر الإرجائي والخرافي، وعادات التبذير والمظهرية والشكلية، وانعدام الشعور بالمسؤولية، والخروج على النظام، وأكل الحقوق والاستهانة بكرامة الإنسان، بالإضافة إلى حب الإنجاز السريع، وضعف روح المثابرة، وما شاكل ذلك مما أدى في مجموعه إلى أن تصبح الأمة نهبة لكل طامع، بالإضافة إلى شيوع الجهل والفقر والبطالة... لا أظن أن بالإمكان غربلة ثقافتنا دون أن نفهم الآلية التي تمكننا من تطويرها، ودون أن نعرف المداخل النفسية والاجتماعية لذلك.

إن المجتمع العلمي ليس ذلك الذي يشيد المدارس والجامعات، وينشر الكتب، وإنما ذلك المجتمع الذي يصوغ حياته اليومية ونظمه وأعرافه وفق المعارف والآداب التي يلقنها لأطفاله في المدارس[١].

إن وظيفة المؤسسات التعليمية ـ على اختلاف مستوياتها ـ في هذه القضية حاسمة؛ حيث إن عليها أن تحاول أن تجعل من نفسها البيئة النموذجية لتجسيد ما تقدمه من قيم ومثل لطلابها في أوضاعها العامة، وفي العلاقات القائمة فيها.

(١) انظر: أثر العلم في المجتمع: ١٠٠.

إن المؤسسات التعليمية، يجب أن تصبح منصات لمناقشة أنواع التصدع المختلفة بين المبادئ وبين أشكال السلوك اليومي، وأن يكشف عنها بوضوح تام؛ من أجل تأمين نوع من الانسجام بين الرمز والخبرة. وبهذه الطريقة نحمي ذاتيتنا الثقافية من التخريب والتشرذم، ونؤمن لها الانسجام والاستقرار[١].

٣ ـ تحسين نوعية الحياة:

في كثير من الآيات والأحاديث يقترن الإيمان بالعمل الصالح؛ حيث إن تجسيد الرموز، لا يتم إلا من خلال الأعمال والمواقف؛ ولذا فإن المسلمين انطلاقاً من روح الإسلام كانوا أول من خرج على أدبيات المنطق اليوناني الذي كان يعادي التجربة، فوضعوا أصول المنهج التجريبي، ونهضوا بجوانب الحياة العمرانية كافة، وقد حاولوا التعرف على (حجر الفيلسوف) والاهتداء إلى كيفية تحويل المعادن الأساسية إلى ذهب، وفي سعيهم إلى ذلك الهدف كشفوا عن كثير من الحقائق في الكيمياء[٢].

واليوم فإننا بحاجة ماسّة إلى أن نمعن النظر في واقعنا، ونحاول استيعابه من خلال قيمنا وتجربتنا الإنسانية الواعية، وتوجيه مناهجنا الدراسية في اتجاه معالجة مشكلاته، والارتقاء به.

إن المهم اليوم ليس أن يحفظ الطلاب لدينا بعض المعلومات وبعض التواريخ، وإنما المهم أن نوجد المنافذ العملية التي تمكن الطلاب من فهم حقيقي للغايات التي تعلموا من أجلها، ولن يكون ذلك واضحاً ومقنعاً ما لم يعرف الطالب كيف سيستخدم المعارف التي تعلمها عند الحاجة إليها، وكيف يستفيد منها في مواجهة تحديات الواقع، والارتقاء بنفسه. وهذا يعني أن الحاجة قائمة إلى نوع من (البيان العملي) لكثير مما يتعلمه الأولاد في المدارس.

---

(١) انظر: التربية والتقدم الاجتماعي: ١٤٧.

(٢) أثر العلم في المجتمع: ٢٠. ومع هذا فلا بد من القول: إن المنطق اليوناني تمكن من اختراق كثير من العلوم النظرية لدينا على ما هومعروف.

إن مقولة (العلم للعمل) ومقولة (من الجامعة إلى المصنع) بحاجة إلى نوع من التطوير اليوم؛ حيث من المهم أن يُعد الطالب إعداداً يمكنه من تأسيس حياة أفضل له ولأسرته، وذلك من خلال إعداده روحياً وخلقياً وعلمياً ومهنياً واجتماعياً؛ لأن يكون عضواً صالحاً وفعالاً في مجتمعه، أي رفع درجة وعيه العام لمتطلبات العيش في هذا الزمان، وما يستدعيه من إرادة وعزيمة وأهلية.

إن إعداد الشابِّ ليكون إنساناً منتجاً فحسب، قد يفيد في تحسين وضعه المادي، لكن الواقع أن (الحياة الطيبة) لا تولد من رحم الرخاء المادي وحده، وإنما من قيام المرء بأداء واجباته، ومن سلامه مع نفسه، ومن خاصية الانسجام والتوازن بين المطالب الروحية والمادية.

إن تحسين نوعية الحياة، لا يتم إلا من خلال تعميم (ثقافة) تحمل في طياتها ما ينهض بحياة الناس، وذلك من خلال تيسير سبل التعلم والتثقف والاطلاع للجميع. وفي هذا السياق، فإن ما قامت به دول السوق الأوربية المشتركة، شيء يدعو إلى الإعجاب؛ حيث أنجزت مشروعاً عملاقاً كلَّف خمسة مليارات وحدة نقد أوربية حيث وصلت بين المكتبات الأوربية عن طريق شبكة (الإنترنت) لجعل مليارين ومائة مليون كتاب (!) رهن إشارة طالبي المعرفة. ويقوم على هذه الشبكة جيش من المتخصصين يبلغ عدده ربع مليون شخص. وقد ذكرت بعض الإحصاءات أن ٢٣٪ من شعوب دول السوق يسعون إلى هذه المكتبات للاستفادة منها بصفة منتظمة[١]. إلى جانب تعميم المعرفة، فلا بد من أن نركز اهتمامات الناشئة على النظر إلى المستقبل، وتزويدهم بالأفكار والمعارف التي تساعدهم على فهمه والاستعداد له. إن بعض البلدان الإسلامية يتضاعف سكانه كل اثنتي عشرة سنة مرة، وهؤلاء القادمون الجدد، بحاجة إلى أن يُستوعبوا نفسياً واجتماعياً، وهم بحاجة إلى توجيه وتعليم وسكن وخدمات وفرص

---

(١) مجلة المعرفة العدد (١٧) ص: ١٢.

عمل... ولكل هذا تكاليفه ومتطلبات واستعداداته. ومع أن الأطفال والشباب ينتظرون كل هذا من الكبار؛ إلا أن الصحيح أن على الناشئة أن يعدوا أنفسهم لمزيد من الاعتماد على النفس، والقيام بشؤون الذات؛ مما يعني أنهم أيضاً في حاجة إلى مزيد من التوعية والإرشاد والتأهيل لخوض غمار عصر، يزداد العيش الكريم فيه صعوبة ومشقة!

٤ ـ ترشيد ردود الأفعال:

إن عصرنا هذا هو عصر المشكلات والتحديات الكبرى، وهو كذلك عصر الفرص والإمكانات الهائلة. والمأزق الذي ظل يواجه الناس، هو إدراك المشكلات بحجمها الطبيعي، وتلمس المنهجيات والفرص والإمكانات المتاحة لحلها. وهنا تظهر قيمة ما يقدمه العلم في شقي المشكلة. **إن إدراك الواقع على نحو دقيق لا يتم على نحو مباشر، وإنما من خلال (وسيط معرفي) مكوَّن من المبادئ التي نؤمن بها، ومن طريقة نظرنا إلى الأمور، إلى جانب المعطيات والمؤشرات والمعلومات التي تحصلت لدينا عن الواقع الذي نريد معرفته.**

وما يقدمه (الذكاء) والتفوق العقلي في موضوع فهم الواقع ومعالجته ضئيل بالنسبة إلى ما تقدمه الخبرة المتراكمة والتجربة.

ومن الواضح أن المجتمعات التي يسود فيها التجريب، ويتجه العلم فيها إلى معالجة المشكلات التي يعاني منها الناس، استطاعت أن تتفهم واقعها على نحو أفضل من تلك التي شغلت نفسها بتفسير الماضي ومديح الذات، وتمثل المشكلات عن طريق التأمل والخيال عوضاً عن المسح والإحصاء!

إن مهمة العلم لا تقتصر على رسم الفضاء النظري لأشكال المبادرات الفردية والاجتماعية فحسب، وإنما تتجاوز ذلك إلى منحنا محددات لماهية (ردود الفعل) على مجمل التحديات التي نواجهها، ولكن ذلك لا يأتي عفواً، وإنما من خلال ولاء تام للمنهج العلمي، ومن خلال إرادة صلبة لمقاومة (الزيف) الذي يمكن أن يتسرب إلى تصوراتنا وسلوكاتنا.

إن السمة العامة لردود الأفعال هي فقد التوازن والانضباط، حيث تفقد في أكثر الأحيان روح المبادرة والروية. وكثيراً ما نواجه نحن وغيرنا التطرف بتطرف آخر، ولكن في اتجاه معاكس، فقد تأتي موجة متطرفة في الاهتمام بـ (المادة)، فيرد عليها بموجة أخرى متطرفة في الاعتداد بالمسائل الروحية، وإهمال شؤون الدنيا. وتجتاح المجتمعات موجة من الفقر والحرمان، فإذا أصاب الناس شيئاً من الرخاء، لم يحسنوا الاستفادة منه، وإنما يميلون إلى الإنفاق دون حساب وتفكر في كيفية التعامل مع ما بعد الرخاء وهكذا...

في عصر النهضة صار من علامات (المفكرين الأحرار) الاعتقاد بـ (التنجيم) ولم يكن ذلك على أية صلة بالتجربة أو بالتفكير الحر، وإنما كان ذلك رد فعل خاطئاً على تنديد الكنيسة ـ التي يحاربونها ـ به، مع أن المأمول منهم عكس ذلك[1]!.

إن علينا أن نتساءل دائماً: ما قيمة الأفكار والآراء التي نملكها إذا لم نستطع توظيفها وجعلها أدوات للبحث عن حلول للمشكلات الأخلاقية والمعيشية التي تطحن الناس لدينا، وتتسبب بما لا يحصى من أشكال المعاناة اليومية؟

هناك بلاد إسلامية، تعاني من سوء الأحوال الطبيعية من زلازل وفيضانات وأعاصير، وأخرى من شح الغذاء والماء، وثالثة من الأمية... وإذا نظرت إلى مناهج التعليم فيها، فإنك تجد أنها لا تقدم أي إسهام في زيادة الوعي بحجم تلك المشكلات، وتنظيم ردود أفعال إيجابية حيالها!

الدول المتقدمة تفعل شيئاً مختلفاً؛ فاليابان تقدم نموذجاً راقياً لما يمكن أن يفعله شعب في مواجهة بيئة طبيعية غاية في القسوة؛ فضيق المساحة الصالحة للسكن، دفع اليابانين إلى إنتاج الأشياء الصغيرة الحجم. والخوف من العزلة، أدى إلى تطوير وسائط الاتصال. وقلة مصادر الطاقة

---

(١) انظر: أثر العلم في المجتمع: ٨.

إلى البحث عن بدائل إعلامية للانتقال. وتواتر الهزات الأرضية إلى تطوير أشياء خفيفة الوزن سهلة النقل، قليلة الكلفة، سهلة التبديل.

وأخيراً لقد تعلمت اليابان من تاريخها الطويل المتميز بالعنف كيف تدير التبدلات بطريقة ناجعة؛ فهم يطورون ببطء ما يحتاج إلى تطوير؛ لأنه يحتاج إلى حصول التوافق بين جميع المراجع المعنية، ولذلك يكون تاماً عندما تصبح الظروف مهيأة لتنفيذه[١]. وقد تم كل ذلك بمؤازرة تامة من التعليم العام والمهني.

وتقدم الولايات المتحدة نموذجاً آخر لما يمكن أن يقوم به التعليم في مواجهة الحالات الطارئة، فحين وقعت أزمة إمدادات النفط عام ١٩٧٣م، وتعرضت أمريكا للحظر النفطي، سارعت السلطات هناك إلى الاهتمام بالطاقة ذاتها، وبتدريسها؛ وقد كانت الأهداف من تدريس الطاقة ما يأتي:

- تعليم كيفية التعامل مع منجزات الطاقة داخل المنازل.

- تعليم كيفية تركيب أجهزة الطاقة الشمسية.

- تعليم كيفية زيادة فعالية الطاقة في بعض الأجهزة والمعدات، مثل ضبط السيارات والمكيفات.

- تعليم كيفية استهلاك الطاقة وإدارتها اقتصادياً في المدارس والفنادق والمصانع.

- تعليم كيفية اختيار مواقع المباني الجديدة، بحيث تستفيد أقصى فائدة من الشمس.

- تعلم علوم الطاقة وتقنياتها.

- تعلم كيفية الاستفادة الواعية من الطاقة[٢].

---

(١) آفاق المستقبل: ٩٠، ٩١.

(٢) انظر: بحوث مؤتمر التعليم الأساسي المنعقد بجامعة حلوان: ١٣٥.

ويضاف إلى هذا تحديد سرعة السيارات والطائرات بحيث يكون استهلاكها للوقود اقتصادياً. إنها مجموعة من الحلول المركبة لمواجهة أزمة طارئة! ولك أن تقارن هذا مع مواجهة مشكلات الطاقة التي يعاني منها العديد من الشعوب الإسلامية، وتدفع فيها جزءاً مهماً من ناتجها الوطني، حيث لن ترى أي شيء مما ذكرناه؛ إنه نوع من الاستسلام للمشكلات عوضاً عن تثقيف الناس بالطريقة الصحيحة للتخلص منها أو الحدّ من آثارها!

٥ ـ تنامي الحاجة إلى المعرفة المتخصصة.

هناك تدفق معلوماتي، يفوق كل وصف، وهو في نمو مطرد، وأصبح الإنسان العادي محاصراً بفيض من المعلومات والمعارف والأخبار والتقارير المنوعة، وكلها تتسم بسمة واحدة، هي (التشظي) والتناثر؛ حيث إن السواد الأعظم منها، مقطوع عن سياقاته المعرفية، وبعيد عن الحصيلة المعرفية النهائية للمتلقي؛ فإفلاس (مصرف) وموت رسام في أقصى الدنيا والكشف عن قرية أثرية في أستراليا... كل هذه الأخبار، وما شاكلها تطرق أبوابنا في كل الأوقات، وكل هذه المعلومات، لا تهم إلا عدداً محدوداً قد لا تصل نسبتهم إلى واحد في الألف من المتلقين. ولا تأتي المشكلة الأساسية في هذا من هدر الوقت والمال، وإنما من تسطيح أفكار الناس ومعارفهم، وإضعاف قدرتهم على التمييز؛ **فالمعلومات التي تنتمي إلى حقول معرفية متباعدة، تتقاطع، وتتصادم، ولكثرتها فإنها تجعل البنية العقلية لدى الشخص العادي عاجزة عن استخلاص أي شيء كلي.**

ولا ريب في أن هذه الوضعية المعرفية، ترفع من درجة الوعي العام، إلا أنها تعطي انطباعات مشوّشة، وهذا ما نلمسه اليوم عند مناقشة أية قضية محددة مع أولئك الذين يتعرضون لسيول المعارف العامة.

إن التخفيف من هذه المشكلة والاستفادة من المعرفة الضخمة المتاحة قد يكمن في الاتجاه إلى (المعرفة المتخصصة) على مستوى التكوين، وعلى مستوى الإنتاج والنشر والتسويق.

أما على مستوى التكوين فإن بإمكان كل واحد منا أن يهتم بقضية من القضايا التي تؤثر في مجرى الحياة العامة، أو تدفع بجانب من جوانب المعرفة خطوة إلى الأمام. وهذا يقتضي أن يبذل من يريد ذلك ما لا يقل عن نصف وقت تثقفه في استكناه أبعاد القضية التي اختارها، على نحو يمكنه من تقديم رؤية ناضجة وشاملة حولها.

ولا فرق بين أن تكون تلك القضية جزءاً من تخصصه في دراسته المنهجية، وبين أن تكون منتمية إلى تخصص آخر.

ولا ريب أن خروج المرء عن تخصصه الأساسي، يحتاج إلى نوع من إعادة التأهيل المعرفي، وفي ذلك مشقة ومعاناة، لكن هناك ظروفاً كثيرة تفرض ذلك، وتستدعيه؛ ولا بأس في ذلك ما دام سيقدم للناس معارف وأفكاراً، هم بحاجة إليها.

هذا التوجه نحو تعميق المعرفة والاهتمام بأشياء صغيرة ومحددة، سيوجد لدينا تياراً قوياً وهادراً من المعارف المتقنة والأصيلة والناضجة، وسوف يوجد هذا التيار لنفسه في النهاية الوسائل والأطر التي تعبر عنه، وتوصله إلى المتطلعين إليه والراغبين فيه.

إن مشكلة المعارف المختصصة أن قواعدها من القراء، تكون غالباً محدودة؛ مما يجعلها عاجزة عن تغطية نفقات صناعتها ونشرها، لكن هناك اتجاهاً عالمياً نحو التركيز في العلوم والمعارف، حيث إنه السبيل الوحيد للتقدم بها، وتطويرها. ويذكرون على سبيل المثال أنه يصدر في الولايات المتحدة ما يقارب عشرة آلاف مجلة، منها ثمانية آلاف للمعرفة المتخصصة. كما يذكرون أنه على حين يتراجع توزيع الصحف العامة في فرنسا بنسبة ٣٪ سنوياً، فإن توزيع المجلات المتخصصة ينمو بنسبة ١٪[1].

إن مما يثير الأسى أن كثيراً من المحطات الفضائية والمجلات

---

(١) مجلة المعرفة: العدد ١٨، ص١٣.

والإذاعات... لا يؤدي رسالته في النهوض بالأمة، وتثقيف الناس بواقعهم ومشكلاتهم وواجباتهم، وإنما يقوم عوضاً عن ذلك بتقديم فنون التسلية المباحة والمحرمة؛ مما يشغل الأوقات، ويزيد في هلامية الثقافة، وفي فراغ الروح، وإرباك الإحساس بالحاضر والمستقبل!!

إن كل مؤسسة علمية، وكل جهة حكومية أو أهلية، وكل منظمة أو هيئة بإمكانها أن تنشئ إطاراً ـ ولو متواضعاً ـ لتقديم المعرفة المتخصصة للناس على نحو مبسَّط ومؤصل ومثمر، ولكن إذا توفر لها الإخلاص والاهتمام.

٦ ـ العلم السري خطر:

العلم للحياة، وحتى يخدم الحياة، فينبغي أن يكون مشاعاً بين الناس بما يلامس تطلعاتهم وحاجاتهم. وتكتسب المعارف صلابتها ودرجة يقينيتها من تداول العقول والأفهام لها، ومن عرضها على محكات الخبرة والتجربة، وذلك هو الطريق الوحيد إلى نضجها واكتمالها؛ إنها تمر بعشرات العمليات الجراحية الصغرى والكبرى، من إضافة وحذف وتعديل وتحوير حتى تستوي على سوقها، ويشعر الناس بأنها قد ركمت ما سبقها من علم، واكتسبت من المتانة ما يؤهلها لأن تكون مدماكاً في صرح المعرفة البشرية المشيد.

على مدار التاريخ، ولدى كل الأمم ظل هناك من يزعم أن لديه معارف خاصة، يصعب على الناس فهمها، ويصعب إخضاعها للقواعد والمناهج المعرفية المعترف بها؛ فهي كالزهرة، لا تحتمل المس بالأيدي، وبالتالي فإن تداولها غير ممكن أو غير مفيد!

إن من الممكن القول: إن قوة المعرفة تكمن في إمكانية نشرها وتبليغها، وإضاءة الحياة بها. والمعرفة التي لا تقبل النشر، تفتقر في الدرجة الأولى إلى القوة والنمو، فهي كسيرة حسيرة.

المشكلة الأساسية للمعارف النظرية، التي ليس لها تطبيقات عملية،

كتلك التي تتعلق بالجوانب التاريخية أو الفلسفية أو الروحية ـ ليست الافتقار إلى القوة، وإنما (العفونة الداخلية) والتحلل الذاتي، بسبب عدم تعرضها للشمس والهواء، وبسبب خضوعها كلياً لرؤى أحادية ومحدودة. ولذا فإن كل المذاهب المنحرفة، نشأت في الظل، وهي دائماً تستمد استمرارها من عدم تعريضها للتداول والخبرة العامة، وذلك عينه هو عامل ضعفها وانحسارها. إنها أشبه بعملات ونقود أثرية، ليس لها أي وزن في أسواق التبادل التجاري!

إن المعارف السرية غير القابلة للتطبيق، تشكل خطراً على أصحابها، وعلى عدد قليل ممن يلوذ بهم، لكن الخطر الأكبر، يتمثل في تلك العلوم والمعارف التي تتصل بالتقانة الحيوية، كتلك المتعلقة بالهندسة الجينية، وعلوم الوراثة، والأسلحة الجرثومية وعلم النفس... ونحن مازلنا نعيش الضجة الكبرى التي أثارتها بحوث وتقنيات (الاستنساخ)، وبحث العلماء حول إنتاج قنابل وأسلحة ذكية، ذات طابع عنصري، أي يمكن أن تؤثر على ذوي بشرة معينة، أو خصائص خَلْقية محددة... إن (تحت الأرض) الكثير الكثير من العلماء والباحثين الذين يعملون في هذه الحقول؛ ولا يمكن الحدس بحجم النتائج والأضرار التي يمكن أن تنجم عن ذلك!

إن تشريعات صارمة كثيرة يجب أن تُسن، وإن أعيناً كثيرة يجب أن تظل مفتوحة إذا ما أردنا الحد من الآثار السيئة للمعرفة السرية وبحوثها الخطرة.

وعلى خلاف ما يظن بعض الباحثين، **فإن العلم لا يملك أخلاقية خاصة، تعصمه من أن يسلك مسالك تدمر البشرية؛ فالعلم بما هو أداة، يقبل درجات عالية من التحوير والاستغلال لأغراض تجارية بحتة ولا سيما أن الدنيا مليئة بذوي الأهواء الذين لا يرون إلا أنفسهم!**

٧ ـ حاجة المثقفين إلى تفهم مطالب الأكثرية:

سيكون العلم لتحسين حياة الناس إذا استطاع الذين يمسكون بناصية المعرفة، وينتجونها، أن يتفهموا الحاجات الحقيقية للسواد الأعظم من الناس، وهي حاجات متنوعة وكثيرة.

وتبدأ المشكلة في أن كثيراً من المثقفين والتربويين، يتصورون مشكلات الناس من أفق الثقافة التي كونت شخصيتهم العلمية، على مستوى التخصص، وعلى مستوى الخلفية الحضارية للمؤسسات التي تخرجوا فيها. كثيراً ما يشخِّص الاقتصادي حاجات الناس من منطلقات اقتصادية بحتة، ويشخص عالم الاجتماع حاجاتهم من خلال رؤية اجتماعية، وهكذا... وهذا التشخيص مهما كان دقيقاً، فإنه نابع في الأصل من إحساس جزئي، ورؤية مبتسرة، لمعاناة الناس الذين يحاولون معالجة مشكلاتهم.

بعض المثقفين المسلمين درس في الغرب، وآخرون درسوا في دول تنتمي إلى المعسكر الشرقي (سابقاً)، وما درسوه لم ينطلق من رؤية حضارية إسلامية، ولا هو نابع من إدراك جيد لواقعنا. وهذا شيء طبيعي، لكن ما ليس طبيعياً أن يعمد أولئك المثقفون إلى اقتراح مناهج وتقنيات وحلول من تلك الدول عينها، فيحولون مؤسساتنا التعليمية إلى حقول تجارب؛ ومع كثرة المحاولات، فالنتائج تدعو إلى الإحباط!

إن مناهج الأمم ونظمها التعليمية، تعبر عن رؤيتها للحياة، وعن المرحلة الحضارية التي تحياها، وهي مغايرة لما عند المسلمين. الأدوية المقترحة قد تكون ممتازة وملائمة، لكن لغير أدوائنا، **وما جدوى مفتاح من ذهب إذا كان لا يفتح أقفال التخلف الذي يجثم على صدورنا؟!**

إن جودة الثوب من جودة مناسبته للابسه، وليست من لونه، ولا من طوله وعرضه.

لدينا نسب عالية من الكبار والصغار، هم في عداد الأميين، وأعداد

أخرى أكبر، أشبه بالأميين، وما فائدة معرفة القراءة لمن لا يفتح كتاباً؟!

هناك أعداد هائلة من الشباب المتعلم، لا يجد عملاً ولا مسكناً.. ويشعر أنه من غير أمل ولا مستقبل، فكيف نعيد تأهيله؛ ليصبح أرباب العمل بحاجة إليه؟

هناك إلى جانب هذا وذاك أعداد كبيرة من المسلمين تفتقر إلى معرفة أبجديات الحلال والحرام والحقوق والواجبات، كما تفتقر إلى الإحساس بأهدافها الكبرى في الحياة، فكيف نثقفها بكل ذلك؟؟

ولدينا بعد كل هذا أمة هائلة، تشكل ربع سكان الأرض، تشعر أنها تعيش خارج التاريخ، كما تشعر بامتهان يومي لكرامتها وحقوقها، فكيف نفتح أمامها آفاق الخروج من مأزقها الحضاري؟

إنني أعتقد أن كثيراً من مثقفينا بحاجة إلى إعادة تأهيل، وإلى تثقيف جديد، يتمحور حول امتلاك رؤية شاملة ونقدية مما يجب عليهم أن يفعلوه تجاه الأميين والضعفاء والمساكين والمأزومين، والتائهين، وهؤلاء هم العمود الفقري لأمة الإسلامية. فكيف نساعد كل أولئك، وبأية آلية، هذا هو السؤال؟؟

٨ ـ أثر التعليم في التنمية الاقتصادية:

تقول حكمة صينية مأثورة: «إذا أردت مشروعاً تحصده بعد عام، فازرع قمحاً، وإذا أردت الحصاد بعد عشرة أعوام؛ فاغرس شجرة، وإذا أردت حصاد مائة عام، فعلِّم الشعب. فالحبوب التي تزرعها مرة تحصدها مرة، والشجرة التي تغرسها تقطعها عشر مرات، وإذا علمت الشعب حصدت مائة عام»[١].

إن مما لا يخفى أن (العلم) يحدث نوعاً من الانقلاب الشامل في شخصية المتعلم؛ وبما أن الإنسان هو محور التنمية وهدفها وأداتها، فإن

(١) التربية وتنمية المجتمع العربي: ١٧٣.

تغيير العلم لشخصيته أكبر من أن تترجمه الأرقام؛ حيث إن المنافع الحاصلة ليست اقتصادية بحتة، وإنما هي تغيير لنوعية الحياة كلها. إن للتعليم عطاءات كثيرة غير مباشرة؛ فهو المحرك الأكثر مصداقية للنمو، والمساعد على تغيير الاتجاهات، كما أنه المولد للثقة في التغيير؛ وعلى ذلك فإنه يشجع على المشاركة في الحياة السياسية، ويساعد في اختيار الصالح من الجديد، والتخلص من السيئ القديم، كما يسهم في زيادة الوعي بالأفكار والخيارات الجديدة في تنظيم الحياة[1].

ويصف أحد الاقتصاديين الهوة الإنمائية بين الولايات المتحدة وأوربا بأنها هوة تربوية قبل أن تكون هوة تقنية، فأوربا واهنة تربوياً، وهذا الوهن يعطل نموها تعطيلاً جذرياً، إنها واهنة في التربية العامة، وفي التربية التقنية، وأوهن ما تكون في التربية الإدارية[2].

كثير من الناس ينظر إلى (التعليم) على أنه نوع من الرفاهية، ومظهر من مظاهر الوجاهة، وكثير من الدول الإسلامية إلى هذه اللحظة، يصنف التعليم مع القطاعات غير المنتجة، مما جعلها تقطع من نفقاته في أوقات الأزمات، وتحولها إلى قطاعات أخرى[3]!.

إن تفاقم ظاهرة (بطالة المثقفين) قد دفع كثيراً من الآباء في بلدان كثيرة إلى إخراج أبنائهم من المدارس قبل إتمام المرحلة الابتدائية أو المتوسطة ظناً منهم أن ذلك خير لهم ولأبنائهم، وهذا ليس بصحيح قطعاً من الناحية المادية، أما من الناحية الحضارية، فإنه يشكل مأساة، حيث إن إخراج الطفل من التعليم في هذه المرحلة، سيجعله غير صالح للعيش والمشاركة على نحو مقبول في زمان يتطلب من الناشئة أن يمتلكوا عقولاً أكثر تفتحاً، ومهارات أكثر ارتقاء وتنوعاً.

---

(١) انظر: وضع الأطفال في العالم عام ١٩٩٢: ٣٢.
(٢) التربية وتنمية المجتمع العربي: ١٧١.
(٣) التعليم مشروع اقتصادي: ٢٤.

إن هناك فيضاً من الدراسات التي تدل على أن ما يبذل من قبل الدول والأفراد على التعليم ذو مردود مالي وتنموي عالٍ يفوق المردود الذي يحصلون عليه من وراء الأموال التي تنفق في المشروعات الزراعية أو الصناعية. وسنستعرض بعضاً من تلك الدراسات والمؤشرات في النقاط التالية:

أ ـ إن التعليم هو الأسلوب الأمثل لتعويض الأمم والمجتمعات عن نقص مواردها وثرواتها الطبيعية؛ حيث إنها تستطيع من خلال العلم والتدريب أن تجعل من بلدانها مراكز عالمية لتقديم الخدمات، وللتصنيع، وللتقدم في مجالات مربحة جداً، وتعتمد على العنصر البشري، ولا تحتاج إلى مواد خام كثيرة، مثل مجالات الأشعة والتحكم عن بعد و(الإلكترونيات) والمعلوماتية، والهندسة الجينية، وما شاكل ذلك... إن في العالم اليوم دولاً كثيرة يتمتع الفرد فيها بدخل عالٍ جداً مع ضيق مساحتها، وقلة ثرواتها، فمتوسط دخل الفرد في اليابان؛ يتجاوز اليوم (٢١) ألف دولار، وفي سنغافورة يتجاوز عشرة آلاف دولار، ونصيب كل طفل يهودي في فلسطين المحتلة نحو من (١٤٥٠٠) دولار سنوياً إلى جانب هذا هناك دول كثيرة، تتربع على ثروات معدنية هائلة، وشعبها يعاني مما يشبه المجاعة؛ مما يدل على أن المهم ليس أن تمتلك الثروات، وإنما أن تتعلم وتتدرب، وتوفر الأطر والتقنيات لاستغلالها على الوجه الأكمل.

ب ـ دلت الدراسات التي أجراها البنك الدولي أن رفع المستويات التعليمية للقوى العاملة، عبر فسح المجال لهم للدراسة سنة أخرى، يمكن أن يسهم في زيادة الناتج المحلي الإجمالي بما نسبته ٩٪. وبينت دراسات أخرى أن من شأن أربع سنوات من الدراسة أن تسهم في زيادة الإنتاجية الزراعية بنسبة ١٠٪[١].

---

(١) وضع الأطفال في العالم عام ١٩٩٢: ٣٠.

وفي دراسة حول أجور المتعلمين وغير المتعلمين تبين أن الأطفال من سن (١٣) سنة، ممن يحملون مؤهلاً تزيد مرتباتهم عن غيرهم (١٥٧)٪. ومن هم في سن (٢٦) سنة، ويعملون في أعمال رسمية، تزيد مرتباتهم عن غير المؤهلين بنسبة (١١٠)٪ شهرياً.

جـ ـ أجريت دراسات كثيرة حول حساب العائدات المتوقعة من الإنفاق على التعليم، ومن نتائج تلك الدراسات: أن تعويض الأموال التي تنفق على التعليم، يتم خلال مدة (٩) سنوات أو (١٠) سنوات، في حين أن تعويض القروض الطبيعية التي تؤخذ من أجل التنمية، يحتاج إلى مدة تترواح بين (١٢) سنة و(١٨) سنة، وفي حين أن برنامج استصلاح أراض جديدة لا يسد نفقاته قبل (١٥ إلى ١٨) سنة[١].

وهذا يعني أن استدانة الأب من أجل تعليم ابنه ليس مجازفة، كما أن إنشاء صناديق لإقراض الطلاب من أجل إكمال دراستهم أمر حيوي لا يصح تجاهله وتأخيره.

د ـ حظيت الولايات الأمريكية بدراسات كثيرة حول مساهمة العلم في تغيير حالها، ونقلها من دولة تعتمد على الزراعة إلى دولة صناعية في المقام الأول. ومن تلك الدراسات ما قام به (دنيسون) من محاولة للكشف عن حصة العلم في النمو الاقتصادي في أمريكا حيث تبين له أن ٢١٪ من النمو الاقتصادي الذي حدث في أمريكا بني عامي (١٩٢١ ـ ١٩٥٧) يرجع إلى أثر التربية. وتبين دراسات (سولو) عن الإنتاج غير الزراعي في أمريكا بين عام (١٩٠٠ ـ ١٩٦٠) أن عوامل رأس المال المادي، وتزايد السكان، وتزايد منابع الثروة المادية تفسر ١٠٪ فقط من النمو الاقتصادي الذي حدث هناك، وأن ما تبقى (٩٠٪) يرجع إلى عوامل أخرى يفسرها ما ناله العنصر البشري من تربية وإعداد[٢].

---

(١) التربية في البلاد العربية: ١٨٥، ١٨٦.

(٢) السابق: ١٥٠.

وتفيد بعض الدراسات أن ٩٠٪ من الأمريكيين كانوا يشتغلون بالزراعة في بداية القرن العشرين، وقد انخفضت هذه النسبة إلى أقل من ١٠٪ في عام١٩٦٣. وبالرغم من هذا النقص الكبير في ميدان الزراعة، فإن الإنتاج الزراعي قد زاد زيادة كبيرة عما كان عليه بسبب تسخير معطيات التقدم العلمي والتقني في خدمة الزراعة[١].

إن أثر العلم في تغيير حياة الناس، مما يعسر قياسه على نحو دقيق. ويمكن أن نفهم كل ما ذكرناه من دراسات وأرقام على أنه مؤشرات ذات معنى إلى إسهام العلم في توطيد أركان الحضارة وتحسين نوعية الحياة.

من المهم أن نختم هذا الفصل بالقول: إن العلم بكل فروعه واختصاصاته ومستوياته، هو عبارة عن عنصر من عناصر البناء الحضاري، وهذا العنصر ـ على جلالة قدره ـ لا يستطيع أن ينفرد في تطوير أحوال الناس؛ إنه يتفاعل مع الجذور الثقافية، والأحوال المعيشية، والأوضاع السياسية... على نحو ما تتفاعل العناصر الكيميائية بعضها مع بعض؛ لذا فقد ترى كليتين متشابهتين في كل شيء إلا أن آثارهما في الحياة العامة مختلفة بسبب انتمائهما إلى مجتمعين أو بيئتين أو أمتين مختلفتين. وهذا كله يؤكد أن الإصلاح الشامل هو الذي بإمكانه أن ينعش التعليم وغيره.



إضاءة:

رأس الحكمة أن نعرف ما يجول في أفق حياتنا اليومية.

---

(١) بحوث ندوة العالم الإسلامي والمستقبل: ٨٠٢. أما اليوم فإن نسبة الذين يشتغلون بالزراعة من الأمريكيين لا تتجاوز ٣٪.





١ ـ تعلّم بلا حدود.

٢ ـ التعلّم من الفجاجة إلى النضج.

٣ ـ التعلّم مدى الحياة.



تعلم بلا حدود

إن أول ما نزل من القرآن الكريم كان أمراً بالقراءة: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾[1]. وفي ذلك دلالة واضحة على أن هذا الدين دين يعرف قدر العلم، ويطلب من أهله أن يقدِّروه، ويهتموا به حق الاهتمام.

إن الإنسان بطبعه كائن متسائل، وقد زوده الخالق ـ جل وعلا ـ بقدر من الفضول وحب الاستكشاف؛ مما يدفعه دائماً إلى أن يعرف المزيد.

كان العلم في القديم يقوم على النقل. فكان التعلم والتعليم، عبارة عن أفعال مقترنة بالزمان، حيث يتمّان وفق تتابع زمني. وحين يموت العالم؛ فمن الممكن أن يذهب معه أفضل ما يعرف! وحين صار للغات أبجديات، وتمتع الإنسان بنعمة الكتابة، انتقلت المعرفة من حيز الزمان إلى حيز المكان، وصار الحفظ والتوثيق والاسترجاع والنشر، مما هو متاح على أوسع نطاق. وبذلك أمكن للناس أن يطوروا معارفهم على نحو مدهش، وصار للبشرية بذلك تاريخ جديد.

إن (العلم) معارف منظمة، تراكمت عبر مساع موصولة على مدار التاريخ، ومن خلال تلك المعارف، وبها تمرَّن العقل، وتغذى وتثقف ونضج، ومع نضوجه يتوق إلى المزيد من العلم؛ طلبه للمزيد من المعرفة هو داؤه وترياقه في آن واحد!.

---

(١) سورة العلق: الآيات: ١ ـ ٥.

إن الذي يدعو العقل إلى المزيد من التعلم، هو العلم نفسه؛ إذ إنه كلما زادت المعرفة، اتسعت منطقة المجهول، وهكذا تزداد الأشياء المهجولة بازدياد الأشياء المعروفة.

التقدم نفسه يعمل على زيادة حاجة الإنسان الشديدة إلى المعرفة؛ حيث إن التوغل في حقول المعرفة يتيح إمكانات ومجالات جديدة، ويولِّد دوافع جديدة للتقدم الأوسع نطاقاً[١].

لم يكن لدى الناس قديماً إحساس قوي بارتباط كسب الرزق بمدى ما يحصلونه من علم، ولم يكن السواد الأعظم من العلماء من ذوي الثراء، أو السعة في العيش، لكن الأمر اختلف، وصار الأمي لا يصلح لأي شيء، حيث لم يبق على وجه الأرض مهنة يمكن أن يقوم بها غير المتعلم. وارتباط طرق الكسب بمدى ما يتعلمه المرء من علوم، وبما يحسنه من مهارات، جعل بإمكان كل واحد أن يحسِّن وضعه من خلال التهامه للعلم، وصقله لخبراته ومهاراته. لكن في الوقت نفسه سيكون العلم أيضاً عاملاً في تقسيم أمم الأرض، وتقسيم المجتمع الواحد إلى طبقات متفاوتة، يستغل القوي فيها الضعيف، على غرار ما كان الوضع في مجتمع (أثينا): عبيد وخدم ورعايا وسادة[٢]. وإن الأمة التي لا يحسِّن أبناؤها معارفهم على نحو مستمر، تؤهل نفسها لأن تكون تابعة للأمم الأخرى، ومستغلَّة لها على كل المستويات!

إن الفجوة التي تفصل العالم الإسلامي عن العالم الصناعي، هي فجوة تربوية تعليمية في الأساس، ولكن لأنه لا يمكن أن يتحقق أي شيء اليوم إلا عن طريق تحسين مستوى المعرفة لدى الناس، انعكس التخلف العلمي على باقي جوانب الحياة. ونظرة عجلى على واقع العالم، تؤكد لنا ذلك على نحو دقيق؛ فالأمم التي تخلصت من الأمية، والأمم التي تمكنت من بناء مؤسسات علمية ممتازة، هي صاحبة الصوت الأعلى في

---

(١) المعلم أمة في واحد: ٦٣، ٦٦.

(٢) بحوث مؤتمر التعليم وتحديثات القرن (٢١) ١: ٣٩.

السياسة والاقتصاد والصناعة والغلبة الحضارية عامة.

والأمم الصاعدة في مجالات الصناعة - مثل دول شرق آسيا - تحقق تقدماً تعليمياً مساوقاً لتقدمها الصناعي؛ مما يعني أن شيوع الأمية في المجتمعات الإسلامية في عهود التدهور الحضاري كان من العوامل الرئيسة في إنهاك الحضارة الإسلامية، وذهاب ريحها.

إن شيوع الأمية في المجتمعات الإسلامية كان يمثل مشكلة حضارية، هي أكبر مما نظن، فحين أنشأ محمد علي باشا سجلات للضرائب في مصر، لم يجد مفراً - كما يقول الجبرتي - من كتابتها باللغة (العبرية) لأن أكثر الكتاب كانوا من اليهود[1]!

لا ريب في أن الصورة قد تحسنت اليوم، إذا نظرنا نظرة مطلقة، لكن حين نقارن حالنا بحال الأمم الأخرى، وندرك بعناية المستوى المعرفي الذي يتطلبه العصر الحاضر، فإننا قد نصاب بالإحباط؛ حيث إن ما لدينا من معرفة وخبرات، لا يتمتع بقيمة مطلقة، وإنما بقيمة نسبية، وأهميته دائماً من قدرته على الصمود والمنافسة وحل المشكلات، وما يمتلكه من وزن في الساحات العالمية.

إن روح العصر ومنطقه لم يتركا أمامنا سوى خيار واحد، هو أن نتعلم بلا حدود، ونعلم بلا حدود، وندرب بلا حدود إذا ما أردنا للأجيال القادمة ألا تكون خدماً للأمم الأخرى!



إضاءة:

إن التعليم الممتاز والمتفوق مكلف، ولكن قليل الجودة منه أشد تكلفة على المدى البعيد.

---

(١) مقدمات في البعث الحضاري: ٥٦.

التعلم من الفجاجة إلى النضج

حين يولد الإنسان يكون على درجة من العدم في العلم والخبرة، تقترب من الصفر؛ لكن البارئ ـ جل وعلا ـ وهبه من الإمكانات والاستعدادات ما يمكنه من درجات مدهشة من الفهم والعلم والخبرة، كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾[١]. إن الله منح الحيوان معلومات وراثية، تتحكم في تصرفاته على نطاق ضيق، وهو على مقدار ما ينعم بها بما يحمي وجوده، ويؤمن نموه ـ يجد نفسه مكبلاً بها، إلى حد أنها تمنحه ما يشبه الطبيعة الثانية والنهائية. وما يمكن أن يكتسبه خلال التعليم والتدريب بعد ذلك، يعد محدوداً جداً.

أما الإنسان، فإن إمكاناته الكامنة فيه، هي طاقات تتفاعل، وتتيح له قدراً كبيراً من المرونة، مما يجعل سلوكه مشوشاً في كثير من الأحيان، وإذا لم يتلقَّ من التربية والتعليم ما يكفي، فيمكن لأعماله أن تصبح خارج نطاق السيطرة، أو تصبح تصرفات لا معنى لها ولا هدف، وإنما هي أحاسيس متفجرة معدومة الخبرة. هذا الانفتاح الكبير على كل الاحتمالات، هو الذي يجعل نتائج التعليم والتدريب في كل مجال من المجالات مبهرة وعظيمة[٢]. وهذا يعني أن الكمال الإنساني، يظل في حالة من الصيرورة والنمو، ويبدأ نقص الواحد منا عند إحساسه ببلوغ الكمال، أو توقفه عند حد معين.

---

(١) سورة النحل: آية ٧٨.

(٢) المعلم أمة في واحد: ٧٢.

إن فجاجة الإنسان تجعله يتكيف مع البيئة عن طريق المحاولة والصواب والخطأ. وعن طريق العلم والنضج يتكيف معها عن طريق الاستبصار[1].

إن جوهر التعليم يقوم على إثراء خبرات الفرد، وتعديل سلوكه، مما يجعله يستجيب لمتطلبات البيئة على نحو ملائم.

والتعليمِ الجيد، هو الذي يملِّك الطالب منهجاً في التعلم واكتساب الخبرات، يمكِّنه من تحويل المعلومات المبعثرة إلى (معرفة) ذات دلالات واضحة ومترابطة.

دوافع التعلم:

حياة الإنسان معلقة على الاستجابة لعدد من الدوافع، وتلبية عدد من الحاجات الأساسية، فيستحيل استمرار حياة الفرد من دون أخذ كفايته من الطعام والشراب والهواء. ويجد المرء نفسه مضطراً إلى تعلم كل ما يساعده على نيل حاجته منها.

وهناك حاجات ودوافع، تؤدي تلبيتها إلى تحسين نوعية الحياة، والارتقاء بالإنسان، وتوفير الهناء له؛ فهو بحاجة إلى التقدير والاحترام والأمن، وقسط من المعرفة عن الوسط الذي يعيش فيه، والشعور بالتأنق، إلى جانب عدد كبير من الميول والرغبات التي يشعر المرء بنوع من الراحة والسعادة عند تلبيتها[2].

كلما كان المرء أقرب إلى النضج والكمال في شؤونه العامة، تحولت الحاجات والدوافع الثانوية لديه إلى حاجات ودوافع أساسية؛ حيث تتأسس أهدافه عليها، ويصبح عازماً على بذل كل ما يملك من جهد في سبيل تحقيقها. وللمجتمع دور كبير في ذلك، فهو حين يرتقي في سلم الحضارة،

---

(١) الدروس التي تتعلمها التربية من علم النفس: ١٥٨.

(٢) انظر: التعلم: ٥٠٠.

يمارس ضغوطاً أدبية على أفراده من أجل أن يرفعوا من سوياتهم، من خلال تحقيق الأهداف، وتلبية الحاجات التي ترتقي بمستوى الحياة.

فالأسرة المتعلمة تعليماً جيداً، تجعل كل طفل من أطفالها يشعر بضرورة إكمال تعليمه بتفوق وتميز. ولا يقتصر دور المجتمع على الضغط الأدبي، وإنما يساعد أيضاً على تصليب إرادات أبنائه، وتفجير طاقاتهم الداخلية.

ولذا فإن الأسر المحطمة، والمجتمع المنحط، يدفعان بالهمم والطموحات دائماً نحو الأسفل، ويخفضان من سقف الارتقاء والتقدم.

على مقدار ما يتوفر للمسلم من فهم عميق لدينه، والتزام صارم به يندفع نحو العلم، وهذا من الناحية النظرية. أما من الناحية العملية، فإن درجة اهتداء المجتمع بهدي الإسلام، هي التي تتحكم في هذه المسألة على مستوى السواد الأعظم من الناس.

ويمكن القول: إن انخفاض مستوى التعلم، وانتشار الأمية، هما ترجمة حقيقية لضعف الإحساس بنبض التدين الحق والالتزام الصحيح، ومؤشر إلى ضعف الشفافية المطلوبة لفهم المرامي الحضارية لدين الإسلام. ومع كل ما قلناه فإن المطلوب دائماً من كل مسلم أن يتجاوز مقتضيات المعطيات الاجتماعية، وأن يجعل من نفسه نبراساً، يرفع إليه الناس من حوله. وهذا هو معنى القدوة ومعنى الريادة أيضاً.

إن بالإمكان الارتقاء بدوافع الطلاب وأهدافهم، كما أن بالإمكان تحفيزهم نحو مزيد من العلم، وهذا من المهام الأساسية لأسرهم وأساتذتهم. وسيكون لنا حديث خاص حول ذلك فيما بعد بإذن الله تعالى.

❁ ❁ ❁

إضاءة:

يحتاج الإنسان كي يبقى على شيء من الحيوية إلى أن يعيش بين مجموعة من التناقضات.

التعلم مدى الحياة

ليس هناك أمة من الأمم نظرت إلى العلم نظرة احترام وتقدير، كما فعلت أمة الإسلام في أيام حضارتها الزاهية؛ فهو عندها من أعظم القربات إلى الله - تعالى - ويصل التعلم في أحيان كثيرة إلى درجة الواجب الشرعي، وهو في كل حين واجب حضاري. وبما أن التعبد لله - تعالى - لا يعرف أجلاً إلا بانتهاء العمر، فإن التعلم كذلك، حيث لا يعرف المؤمن الحق وقتاً يبلغ فيه درجة التشبع المعرفي؛ فالمرء يظل عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه علم فقد جهل. وفي حديث أبي بكرة: **«اغد عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً، ولا تكن الخامسة فتهلك»**[1].

وسئل عبد الله بن المبارك - رحمه الله - إلى متى تكتب الحديث؟ فأجاب: لعل الكلمة التي أنتفع بها لم أسمعها بعد.

وقيل لأحمد بن حنبل - رحمه الله - إلى متى يكتب الرجل الحديث؟ فقال للسائل: حتى يموت[2]!

وقد جدَّت في عصرنا عوامل وأسباب كثيرة، جعلت الاستمرار في التعلم وتثقيف الذات بكل وسيلة - أمراً لا خيار فيه لدى الأشخاص، وكذلك الأمم التي ترفض أن تعيش على هامش الحياة. ولعلنا نذكر من تلك الأسباب ما يلي:

---

(١) رواه عدد من الأئمة. وقد ضعفه الحافظ العراقي، وقال الهيثمي: رجاله موثقون. انظر كشف الخفاء: ٢: ١٦٧.

(٢) النظم التعليمية عند المحدثين: ١٤٩.

١ ـ إننا **بحاجة إلى التعلم المستمر**، والمعتمد على الجهود الشخصية، لأن أمة الإسلام، تعاني من ثلاثة أنواع من الأمية: **أمية القراءة والكتابة، وأمية الجهل بالمصير، وأمية المثقفين**.

وعلى صعيد الأول فإن متوسط الأمية في العالم الإسلامي يزيد على ٤٥٪، وتذكر بعض الإحصاءات أن الأميين من العرب (من بلغ سن ١٥ سنة فأكثر) بلغوا ٥٥ مليوناً، بنسبة قدرها ٥٩,٩٪ أي ما يوازي ٦/٨ من مجموع الأميين في العالم. والعدد المطلق للأميين ـ مع ما يبذل من جهد لمحو الأمية ـ في تزايد مستمر[١]. ونعتقد أن الأزمة الاقتصادية المستفحلة في كثير من البلدان الإسلامية، ستدفع أعداداً كبيرة من الآباء إلى سحب أبنائهم من المدارس في وقت مبكر، من أجل مساعدتهم على إعالة أسرهم؛ ولم لا، وهم يرون البطالة تجتاح قطاع خريجي الجامعات والثانويات أكثر من أي قطاع آخر؟!

أما على صعيد **الأمية بمعرفة المصير** والرسالة السامية في هذه الحياة؛ فإن مما هو واضح أن أكثر المسلمين يرزح تحت وطأة متطلبات الحياة اليومية، وكثير منهم بعيد عن الالتزام بالأوامر والنواهي والاهتمام بالمصير الشخصي في الآخرة؛ وأقل من القليل أولئك الذين يحملون هموم هذه الأمة، ويعدون تبليغ رسالة الإسلام وإصلاح أحوال البلاد والعباد أحد الشؤون التي تعنيهم وتشغلهم!

وهذا النوع من الأمية هو الأشد خطراً، والأسوأ عاقبة، حيث يسحب ذيوله على كل مناشط الحياة، ويجعلها إما تافهة، وإما غير ذات معنى!

ولكن لا ننسى أن لأهمية القراءة والكتابة أثراً كبيراً في وجود أمية المصير، حيث **إن الأمية** ليست مشكلة ثقافية فحسب، وإنما **هي مشكلة دينية أيضاً**، حيث **إن فهم الإسلام بما هو بنية حضارية راقية، لا يتأتى على النحو المطلوب لمن لم يؤت حظاً من المعرفة**، حيث يصبح التدين شكلياً

---

(١) رؤية مستقبلية لدور التعليم والبحث العلمي: ٣٣.

وهامشياً، وحيث يتم إدراك مرامي الإسلام وأهدافه بطريقة سوقية مبتذلة!

النوع الثالث من أنواع الأمية، هو **أمية المثقفين**؛ حيث إن التقدم في أي علم يحتاج إلى التخصص والاهتمام المركّز على كل ما هو فرعي فيه، وهذا لا بد ـ بطبيعة الحال ـ من أن يستهلك جهوداً وأوقاتاً كثيرة، وليس هناك خيار آخر. والمشكل أن أوضاع البحث العلمي في معظم البلدان الإسلامية بائسة، وتدعو إلى الإحباط؛ مع أن هناك عشرات الجامعات والمراكز العلمية، لكن النتائج متواضعة جداً!!

ومن وجه آخر فإن أكثر المثقفين المسلمين مشغولون عن الاهتمام بالشأن الإسلامي العام والشأن المحلي أيضاً؛ فترى كثيرين منهم أشبه بالعامة عند بحث القضايا الكبرى التي تتحكم في مصير الأمة؛ حيث إنهم لم يقرؤوا أي شيء عنها. ولدى كثيرين منهم عجز واضح عن الوصول إلى وجهات نظر إحاطية، أو الوصول إلى محكات نهائية في معالجة المسائل الخطيرة المطروحة على الساحة الإسلامية. وإن غفلة هذا الفريق من المثقفين لم تحرمه من الإسهام في حل مشكلات الأمة فحسب، وإنما جعلته مؤهلاً على نحو مدهش لأن يكون أداة تكريس للأوضاع السيئة الراهنة.

وهكذا فالعلم الذي يساعد على إشاعة الحياة الكريمة، قد يستخدم أداة في تحطيمها، ودفعها نحو الخلف!

إن تجربة الأمم في هذا السياق، تدل على أن حاجة الأمم ليست إلى صفوة مستنيرة، وإنما إلى **استنارة عامة، تمكن المجتمع من إدراك أهدافه وملاحقة مصالحه، والمجادلة عن حقوقه... والشعوب المتخلفة** في أصقاع الأرض، لا تشكو ضعفاً ثقافياً في قمة الهرم، **وإنما تشكو وهناً وجهلاً وتشتتاً في قاعدته العريضة**.

وعلى هذا فإن مهمة الصفوة ومسؤوليتها، هي النهوض بالمستوى العام للناس، وما لم تقم بهذه المسؤولية، فإن ما يرجى من ورائها ضئيل جداً!

إن التعلم الذاتي المستمر الذي لا يعرف منتهى للإشباع، هو الذي

سيقلل من الاعتماد على الصفوة، وهو الموصل إلى الاستنارة المستهدفة، والقضاء على الفقر الثقافي بكل صوره وأشكاله.

٢ ـ عصرنا هذا عصر التغيرات الحادة، والمشكلات الكبرى المحيرة، وللعلم ـ بمعناه الأشمل ـ الأثر الأكبر في حدوث هذه التغيرات، ونقل العالم من حال إلى حال أخرى.

ومن المألوف أنه كلما حدثت تحديات كبيرة، فإن العلم، يطلق الاستجابات المناسبة لمواجهتها، والتغلب عليها.

ومن هنا كان للعلم هذا الدور الخطير في الحياة المعاصرة[١]. والتعلم المستمر هو الأداة التي تمكن الإنسان من مسايرة التغيرات، وتجعله قادراً على تقبلها والاستفادة منها.

وعن طريق التربية المستمرة، يمكن التخفيف من حدة القلق لدى الناس ـ الشباب خاصة ـ الذي يولده الخوف من المستقبل، وحاجة الحياة المعاصرة إلى التنقل بين المهن المختلفة، والهجرة إلى بلدان ذات ثقافة مغايرة[٢].

ويضاف إلى هذا أن الانفتاح العالمي الذي سيأخذ أبعاداً جديدة بعد سنوات قليلة ـ سيوجد نوعاً من المنافسة العالمية على كل الصعد؛ فاتفاقية (الجات) لن تسمح بتدفق السلع فحسب، وإنما المناهج والأفكار والمنتجات التربوية أيضاً. وهذا يعني أن العالم قادم على سباق محموم، الفوز فيه للنوعية والتميز والتفوق؛ وإن أنصاف المهرة، وأنصاف المتعلمين، وخريجي الجامعات الذين هجروا الكتاب... إن كل أولئك لن يجدوا لهم موطئ قدم في الساحة المزدحمة!

إن التعلم مدى الحياة، هو الذي سيساعد كل واحد منا على أن يعيد تأهيل نفسه، وتحسين مستواه؛ ليرتفع إلى المستوى المطلوب لاستيعاب

---

(١) السابق: ١٠.

(٢) مجلة التربية المستمرة، العدد الثاني: ٧، ١٠.

المستجدات السريعة، بل قيادتها والتحكم فيها. إن عواقب الاستجابة للتحديات هي مزيد من القوة على حين أن التجاهل، ومحاولة الانعزال، قد يؤدي إلى التحلل الذاتي، والخروج من حركة التاريخ!

٣ ـ التدفق الهائل للمعلومات، وتراكم منتجات البحث العلمي، وتسارع التطبيقات التقنية، كل أولئك يزداد اتساعاً يوماً بعد يوم، والنتيجة العامة لكل ذلك هي تقادم ما بحوزتنا من معارف ومعلومات. وليس تقادم المعرفة محصوراً فيما يظهر من قصور وخطأ، وإنما يتعدى ذلك إلى قراءتها قراءة جديدة، أي إنتاجها مرة أخرى، على نحو يبعدها عن مضامينها الأولى قليلاً أو كثيراً. كما أن كثافة الإنتاج المعرفي أوجدت نوعاً من التناسخ بين الجديد والقديم؛ مما أفقد كثيراً من المعلومات وظيفتها في الحياة، وصرف الناس ـ بالتالي عن الاهتمام بها.

إن مما هو جدير بالملاحظة أن تقادم المعلومات لدى أي شخص، يؤدي إلى عدم قدرته على تطوير المهارات الجديدة المطلوبة منه، كما أنه يحول بينه وبين تطوير تلك المعلومات؛ **حيث لا يمكن لمن لم يطلع على الجديد أن يعثر على الآفاق المناسبة لتطوير القديم الذي يملكه**؛ فيتحول المرء بالتدريج من رجل صاحب اختصاص إلى رجل يملك معارف عامة في الحقل الذي يعده ميدانه الرئيس!.

ارتباط مستوى الثقافة بالثورة العلمية المتصاعدة، طرح مشكلة معرفية جديدة، هي أن الأمر لم يعد أن نتساءل عما تجب معرفته، بل عما لا يجوز الجهل به، والذي بدونه لا يستحق المثقف هذا النعت[1].

هذا كله يعني أنه صار من المستحيل على المدارس والجامعات، وجميع المؤسسات التربوية الأخرى أن تقدم على مقاعد الدراسة المعلومات الكافية والملائمة للحاجات الثقافية والمهنية التي تتطلبها الحياة المعاصرة.

---

(١) الثقافة الفردية وثقافة الجمهور: ٤٦.

٤ ـ إن التعلم المستمر هو الحل الناجع لعلاج مشكلة (الفراغ) التي يعاني منها كثير من الناس. من الواضح أن الإحساس بالوقت، والإحساس بالفراغ من جملة المنتجات الحضارية. وقد ساعد التقدم العلمي والتقني الباهر على إنجاز الأعمال الكبيرة بأيدٍ عاملة قليلة، وأوقات قصيرة؛ أضف إلى هذا أن تنظيم أوقات العمل لدى الحكومات، وفي المصانع والشركات، أدى إلى تنظيم مساحات الفراغ في يوم كل موظف وعالم، وهذا كله لم يكن موجوداً من قبل.

الفراغ يضع الإنسان في مواجهة نفسه، وهذه حالة صعبة للغاية، كما أنه يجعل المرء، يشعر بانعدام وجود مسوِّغ لوجوده، وهذا دفع أعداداً كبيرة من الشباب إلى القيام بأعمال وتصرفات شائنة وضارة بهم، وبالمصالح العامة. وقد أدرك الفرنسيون قبل غيرهم خطورة ذلك. فأنشأت (الجبهة الشعبية) في فرنسا سنة ١٩٣٦ وزارة أوقات الفراغ، وشغلت الثقافة منزلة فيها[١].

إن كثيراً من الأعمال الجليلة في التاريخ ما كان لها أن ترى النور لولا تمتع أصحابها بالوقت، وقلّة المشاغل. وهكذا فالوقت الذي هو شرط لازم لإنجاز أي شيء، يمكن في حالة انحطاط الثقافة العامة أن يكون وسيلة لتدمير حياة الصغار والكبار!

التعلم المستمر والتثقف الذاتي، يحول (الفراغ) من نقمة إلى نعمة، ومن أداة هدم إلى وسيلة بناء، لكن ذلك يحتاج إلى جو ثقافي، يحاصر ذوي الكسل الذهني والفوضويين، ويشعر أولئك الذي يبطنون نوعاً من العداء للمعرفة بتفاهتهم وقصورهم.

ما التعلم المستمر؟

التعلم المستمر عبارة عن أنشطة ذات بعدين: بعد رأسي يستغرق حياة الإنسان كلها إلى آخر لحظة، وبعد أفقي يتمثل في تنمية الكينونة الإنسانية في كل

---

(١) السابق: ٣٧.

أبعادها ووظائفها في الحياة[1]؛ من أجل الدنو من الكمال المنشود، والقيام بالمسؤوليات وأداء الواجبات الشخصية والحضارية على أفضل وجه ممكن.

ويمكن أن نذكر من خصائص ومشخصات التعلم المستمر ما يلي:

١ ـ يكوِّن كل واحد منا من خلال الخبرات والتجارب الحياتية صورة عن ذاته وقدراته، وأوجه تميزه وقصوره. ويساعدنا على بلورة تلك الصورة الأهل والأساتذة والزملاء. والمؤسف أن تلك الصورة كثيراً ما تكون زائفة، أو ناقصة. وكثير من الناس يتصرف على مدار حياته وفق معطيات تلك الصورة ومحدداتها. الصورة الفائقة الجودة كثيراً ما تبعث على الغرور، وتدفع إلى المغامرة والتهور. والصورة الباهتة تُقعد صاحبها عن بذل الجهد في سبيل الارتقاء، وتحطِّم طموحاته...

جوهر التعلم مدى الحياة، يقوم على إعادة تشكيل صورة كل واحد منا عن نفسه من جديد، ومحاولة التخلص من كل الصور النمطية المبكرة التي شكلها لنا الآخرون، أو توصلنا إليها نتيجة معاناة شخصية. إنه **تحويل ما كنا نظنه نهائياً إلى شيء قابل للتعديل والتطوير؛ واستكناه مستمر للذات والإمكانات والفرص،** وقراءات مستمرة لكل ذلك. وإن شئت: إعادة إنتاج كل ذلك؛ فالصورة التي نكونها عن أنفسنا قد تكون أهم بكثير من حقيقة أنفسنا. إن العظماء والمبدعين والسباقين من الناس، هم في الأصل أشخاص لا يملكون صوراً نهائية لأنفسهم، ولا يمكن أن يحاولوا ذلك، وشعارهم الدائم: إن ما هو أفضل لم يولد بعد. وإن الله ـ تعالى ـ قد يهب لبعض المتأخرين ما حجبه عن بعض المتقدمين؛ ولا حاجر على فضله. فإذا لم ينجح التعلم المستمر في تطوير رؤيتنا لأنفسنا؛ فإنه قد يكون قد أخفق في تحقيق وظيفة من أخطر وظائفه.

٢ ـ لا ينبغي للتعلم المستمر أن يكون نشاطاً منفصلاً عن الأنشطة الحياتية، وليس مكملاً لها؛ فالقراءة في المساء ـ مثلاً ـ لا تستهدف ملء

---

(١) مجلة التربية المستمرة: العدد الثاني: ١٢.

وقت الفراغ المتوفر بعد الانصراف من الأعمال المعيشية، كما لا ينبغي أن تستهدف إطلاع الشخص على موضوع معين، وإنما الهدف أن يتعلم الإنسان من كل مناشط الحياة حتى يطور طريق عيشه؛ إنه نمو في كل الاتجاهات؛ فتتحسن لديه القراءة والفهم والإدراك والملاحظة والتعامل والتكيف والتعبير عن الذات، وقضاء أوقات الفراغ، وإشباع الحاجات المختلفة. . . . وبذلك لا تقتصر مهمة التعلم المستمر على إنماء الذات فحسب، وإنما تتجاوز ذلك إلى إضفاء الانسجام والتكامل على جميع جوانبها، وتحسين توازنها العام.

٣ ـ التعلم المستمر عبارة عن تعظيم لقدراتنا، وتحسين لنوعية استجاباتنا في مواجهة الظروف والتحديات التي نواجهها في رحلة الابتلاء.

التحديات في الأصل، هي أشكال من المحفزات للارتقاء إلى ما هو أفضل مما هو حاضر وسائد. والاستجابة العليلة لها، هي التي تحولها من محرض على السمو والتقدم إلى مشكلات وعقبات، تحط من مستوى توازن حياتنا العامة.

التعلم المستمر يمكننا من اختيار الوسائل والأساليب المناسبة لمواجهة التحديات، والتغلب عليها من خلال غمسه لنا في لجة التغيرات الاجتماعية، والمعطيات المعرفية المتلاحقة، ومن خلال مساعدتنا على تقويم طروحاتنا واستنتاجاتنا واختيارها.

المجتمعات التي لا تعطي أهمية للتعلم المستمر، هي وحدها التي تتأسن فيها التحديات، وتتفسخ فيها المشكلات بسبب ضعف الخبرة في الاستجابة الملائمة لها.

إن التعليم المتسمر هو بعبارة موجزة ـ الحيوية التي تمكِّن الفرد من أن يعيش إلى أن يموت!



إضاءة:

الخطة الناجحة لا تكون إلا بنتاً للمعلومة الجيدة.

وسائل التعلم المستمر:

إن انتشار الأمية في كثير من الشعوب الإسلامية، يحرمها من دور فاعل للأسرة في تأسيس الشغف بالمعرفة، وحب التنمية الذاتية، بل إن هناك الكثير من الأسر التي تعرف القراءة والكتابة، لكنها لا تلقى بالاً لمتابعة دراسة أبنائها ورقيهم العلمي؛ لذا فلا بد من توفير أطر أخرى لذلك، إلى جانب توعية الآباء بمسؤولياتهم تجاه أبنائهم في هذه المسألة المهمة.

وإليك أهم الوسائل التي يمكن أن تفيد في تعزيز التعلم الذاتي، وذلك من خلال الآتي:

١ ـ **المدرسة** ـ بحكم التخصص والخبرة ـ هي التي ينبغي أن تتحمل القسط الأوفى في بذر حب المعرفة، والمداومة على العلم في نفس الطفل. وتستطيع القيام بذلك من خلال أساليب التدريس ومن خلال الأنشطة (اللاصفية) والأجواء العامة السائدة فيها؛ لكن الملاحظ أن بعض المدرسين يشفق على الطلاب الصغار من بذل الجهد في التعلم، إلى جانب شيء من عدم الثقة في قدراتهم، مما قتل روح المبادرة لدى كثير من الطلاب، وجعل دورهم هامشياً في عملية التعلم، كما زرع فيهم روح الاتكالية والسلبية والاعتماد على غيرهم؛ ولذا فإن هناك دعوات عديدة للمدارس كيما تنتهج أسلوباً جديداً في تعليم الأطفال، يقوم على تدعيم (التعلم الذاتي) لدى المتعلم، وتربيته على أن يربي، ويعلم نفسه بنفسه مدى الحياة؛ وذلك من خلال تنمية معرفته بجمع المعلومات، وتطوير قدراته[1]، وإيجاد الدافعية

(١) بحوث مؤتمر التعليم الأساسي: ٦٣.

والاتجاهات الإيجابية لديه نحو المعرفة. وهذا كله لن يتم إلا من خلال تكثيف الواجبات المدرسية، وتعويد الطلاب إجراء التجارب وكتابة البحوث، والرجوع إلى المراجع، وتشجيعهم على أن يبدوا وجهات نظرهم ـ ولو كانت فجة ـ في كل ما يقرؤونه ويسمعونه.

٢ ـ إن **التعلم المستمر يعتمد** اعتماداً كبيراً **على الجهود الذاتية**؛ إذ من العسير أن يجد المرء في كل وقت مؤسسة أو جهة، تقدم له برنامجاً، أو تدريباً، يحتاج إليه في مجال من المجالات، وإن من أهم الوسائل التي كثيراً ما يتاح استخدامها في التعليم الذاتي، القراءة والملاحظة والتأمل والحوار. ونجد في هذا السياق أن أكثر القراء، لا يقرؤون من أجل هدف محدد، ولا في مجال بعينه، كما أنهم لا يقرؤون قراءة مركزة، فلا يكتبون المعلومات التي يرون أنها مهمة؛ وربما كان كثير منهم يقرؤون بهدف التسلية وملء الفراغ؛ مما يجعل أثر ما يطالعون في تنمية معارفهم، وتوسيع قاعدة الفهم لديهم محدوداً، بل ربما أدت القراءة لبعض ما ينشر إلى تشويه الرؤية، وحرف القارئ عن الوجهة الصحيحة!

إن القراءة المثمرة، هي تلك التي يمارسها صاحبها بقصد الإضافة إلى المعرفة، أي؛ التأليف أو النقد؛ ولذا فربما كان الكتّاب هم أكثر الناس استفادة مما يقرؤون.

إن هناك نقصاً آخر في عملية القراءة لدى كثير منا، هو عدم التأمل والتفكير فيما يقرؤونه. والحقيقة أن ما نسمعه، ونقرؤه، لا يصبح ملكاً لنا إلا من خلال التفكير فيه؛ فبالتفكير وحده يمكن أن نصطفي مما قرأنا ما يدعم رؤيتنا المعرفية، أو يعدلها، أو يضيف إليها.

ولذا فإن على المرء إذا قرأ ساعة أن يتأمل ـ على الأقل ـ نصف ساعة فيما قرأه، إذا ما كان يريد تعزيز ذاتيته الفكرية والمعرفية.

إن **الحوار** هو الآخر، **مصدر من أهم مصادر التثقيف الذاتي**. إن الأفكار في لحظة إنتاجها أو استقبالها، يكون لها وهج ورهبة، والمضي

معها على نحو ساذج، سوف يحرمها من الاكتمال، وحين تتداولها حلقات المناظرة، تكون قد وضعت موضع التمحيص على محكات الجدل، وذاك هو طريق نضجها واكتمالها. آنذاك يكون المتحاورون أكثر من غيرهم استفادة منها. بالحوار وحده نتمكن من رؤية القضية الواحدة من زوايا مختلفة، وبذلك يتم التخلص من الرؤى النصفية والمبتسرة، وذاك باب عظيم من أبواب الفهم العميق!

إن الأشياء القابلة للحوار أكثر من أن تحصى، وإن تنشيط سوق المناظرة والمحاورة، هو من مسؤولية المدارس والجامعات والنوادي والجماعات والأحزاب. وحين تقوم هذه الجهات ببعض مسؤولياتها في هذه المسألة، فإنه سوف يتشكل لدينا جو مفعم بالمثاقفة والتعلم؛ حيث يتعاظم الوعي، وتضاء الزوايا المعرفية المظلمة.

إن ضعف الحوار ضيع الكثير من الأمور، وجعل إحساس الكتاب والمفكرين بما يقولونه، ويكتبونه ضعيفاً، والأخطر من هذا أن أصحاب كل تخصص صاروا يشكلون جزيرة ثقافية منعزلة؛ مما حرم المجتمع من الاستفادة منهم، وأدى بالتالي إلى ضمور عام في المعرفة السائدة.

٣ ـ لم يعد في ظل التطور المعرفي السريع بإمكان أي جهة تعليمية أن تقدم كل ما يُحتاج إليه من معارف ومهارات في أي تخصص من التخصصات. ومن الواضح أن المؤسسات التعليمية، تقدم معلومات كثيرة، لا يحتاجها الطالب في حياته العلمية، كما أن تلك المعلومات تفقد أهميتها مع مرور الوقت بسبب تقادمها، أو تحول الانتباه عنها.

ومن وجه آخر فإن المتعلمين ـ ولا سيما المراهقين ـ يرغبون دائماً أن يروا عائداً اجتماعياً أو اقتصادياً على ما يبذلون الجهد في تعلمه، ومن الواضح أنهم لا يشعرون بشيء من ذلك خلال فترة الدارسة الطويلة.

قد يكون التعليم المستمر هو الحل لكل هذه المشكلات، وذلك من خلال تقصير مدة الدراسة النظرية، وجعل الشباب ينخرطون في الأعمال

البحثية والمهنية والحياتية المختلفة. وخلال العمل يتم إيجاد آلية لتنشيط معلوماتهم السابقة، وتزويدهم بالمعلومات والمهارات التي يتطلبها مجال العمل الذي يعمل فيه الواحد منهم. **وهذا يتطلب نوعاً من الالتحام والتنسيق الجيد بين سوق العمل، والمؤسسات التعليمية المختلفة.** وإن بإمكان النظم والتشريعات والحوافز أن تدفع الشباب دفعاً إلى الاستمرار في التعلم والتدرب لتلبية متطلبات النجاح في العمل الذي يمارسونه. ومهما أدت هذه الطريقة إلى حرمان الشباب من بعض المعلومات النظرية، فإنها ستتيح لهم الكثير من المعلومات والخبرات العملية المنتجة.

وبإمكان وسائل التثقيف المختلفة أن تعوض عن النقص المتأتي بسبب تقصير مدة الدراسة النظرية.

إن المقصود هو تفتيت تلك الكتل الهائلة من طلاب المراحل المتوسطة والثانوية، وتوزيعها في وقت مبكر على المجالات الإنتاجية؛ لتتلقى بعد ذلك من المهارات والمعارف ما تميل إليه، وما هو ضروري لتجويد أدائها المهني، والذي سيعني تردداً دائماً على مصادر المعرفة والمعلومات.

٤ ـ إن وضع كثير من الدول والشعوب الإسلامية، يدعو إلى الدهشة والعجب؛ حيث إن لدى الناس جهلاً عريضاً في كل شيء، كما أن كثيراً من المؤسسات التعليمية لديهم تعمل بنصف طاقتها، فهي مغلقة في النصف الثاني من النهار؛ بالإضافة إلى أعداد هائلة من المساجد، معطّلة معظم الوقت. وإلى جانب كل هذا هناك أعداد كبيرة من العلماء والمثقفين ذوي الخبرات والكفاءات العالية والذي لا يجري الانتفاع بهم؛ أي: أننا مصابون بأدواء الجهل العديدة، وعندنا كل أدويته! وربما كانت المشكلة في عدم إحساس المريض بمرضه، وعدم حرص الطبيب على القيام بمسؤولياته، وعدم وضع نظام للجمع بينهما!!

إن من العسير أن نوجد مجتمعاً، هو أقوى من مجموع أفراده، وإن المكانة المتدنية التي نحتلها بين الأمم، ما هي إلا انعكاس طبيعي لتدني الوضعية

العامة لأكثر أفراد الأمة؛ وإن المطلوب اليوم حركة ثقافية مؤّارة، تنهض بكل جوانب الحياة، ولن يأتي ذلك إلا من خلال ملاحظة أوجه القصور، ثم إتاحة الفرص لتلافيها ومعالجتها من خلال المناهج والبرامج والدراسات واللقاءات، التي تحسِّن من مستوى معرفة الناس في مجالات الحياة كافة.

وعلى سبيل المثال فحين نرى مشكلة (الطلاق) تتفاقم في مجتمع من مجتمعاتنا، فإن دور المؤسسات الاجتماعية والتعليمية، يتجلى في إقامة برامج عديدة حول الزواج والحياة العائلية، وإجراء بحوث ودراسات مسحية حول حجم الظاهرة، والأسباب الفاعلة في تفاقمها. وقد يقتضي الأمر سن قانون، يجعل المرور ببرنامج حول الحياة الأسرية شرطاً لإتمام عقد النكاح، كما هو الشأن الآن في (ماليزيا).

وحين نرى جهلاً لدى التجار في فقه المعاملات، فإن علينا أن نعقد لهم دورات تثقيفية في ذلك.

وإذا رأينا هدراً في استخدام الطاقة أو المياه أو الأثاث... فإن الأمر يقتضي أن تنشط الجمعيات النسائية في تثقيف النساء في الاقتصاد المنزلي، وتدبير شأن المعيشة ومسائل الأمومة والطفولة.

وإذا وجدنا مجتمعنا مبتلى بالعصبية والتحزب والإعجاب بالرأي، والضيق بالمخالف، فإن علينا أن نوفر له ثقافة حية يتعاظم من خلالها وعي الناس بأصول الحوار وأدب الخلاف وأسبابه الموضوعية، وأهمية تنمية الأشياء المشتركة، وهوامش تعدد الرأي والتعاذر بين المختلفين...

إن التعلم المستمر ليس شكلاً من أشكال الرفاهية، وإنما هو آلية لمواجهة مصاعب الحياة، والتخفيف من المشكلات والتوترات التي تنجم عن اجتماع الناس بعضهم مع بعض. وهو لن يترسخ في حياتنا من خلال الحذلقة الكلامية، وإنما من خلال سَنّ التشريعات، وإتاحة الفرص، وتنظيم الأطر، وتهيئة الأجواء التي تساعد الناس على أن يتعلموا، ويرتقوا في معارج التحضر.

٥ ـ عند النظر في أحوال الناس وظروفهم ورغباتهم؛ فسوف نجد أن بينهم تبايناً كبيراً في ذلك: فمنهم من فاته قطار التعليم في الصغر، ومنهم من لم يدرس سوى المرحلة الابتدائية، ومنهم من درس تخصصاً لا يميل إليه، ولا يلائمه، ومنهم من وجد أن سوق العمل لم يعد بحاجة إلى تخصصه أو مهنته، وهناك من يعمل في النهار، وهو بحاجة إلى مؤسسة يتعلم فيها بالليل، وهناك وهناك... مع كل هذه الظروف والأحوال؛ فإن مما يؤسف له أن ثقافة (التعلم المستمر) ما زالت هشة في مجتمعاتنا؛ مما يعني أن جهوداً استثنائية، يجب أن تبذل حتى يتغير الحال.

إن مما سيساعد كثيراً من الناس في الاستمرار بالتعلم، وجود أشكال كثيرة من الأطر التعليمية، ووجود مرونة كبيرة في شروط القبول؛ حتى يجد كل من أراد أن يتعلم المؤسسة التي تقدم له ما يرغب في تعلمه.

يقول أحد مديري الجامعات الأوروبية الشهيرة بعد أن قام بجولة لزيارة مؤسسات التعليم العالي الأمريكي عام ١٩٦٠: «في أمريكا كلية لكل فرد مهما كانت خلفيته أو قدرته الأكاديمية»[١]. وهذه قولة حق؛ ففي الولايات المتحدة اليوم ما يزيد على ٣٨٠٠ جامعة وكلية ومعهد عال. وهذا العدد الضخم لا نظير له، ولا لما يدانيه في أي مكان من العالم. وتقدم تلك الجامعات والكليات من المعارف والتخصصات ما لا يخطر في بال كثير من الناس.

إن الجمود والنمطية هما السمة الأساسية لمؤسساتنا التعليمية في كل جانب من جوانبها؛ على مستوى شروط القبول والبرامج والمناهج والشهادات الممنوحة وأوقات الدوام، فضلاً عن أن روح التعليم فيها خامدة؛ ولذلك فإن وفاءها بحاجات الناس ضعيف جداً، وعلى الناس أن يغيروا حياتهم إذا ما أرادوا دخولها!

المصانع والمؤسسات التجارية والشركات والجماعات والأحزاب

---

(١) أزمة العالم في التعليم من منظور الثمانينيات: ٩٨.

والجمعيات والنوادي. . . كل أولئك يغلب عليه طابع الربحية أو الدعاية، أو تقديم خدمات اجتماعية بحتة، وقلما تجد جهة منها حريصة على تحسين المستوى المعرفي للناس أو الارتقاء بمهاراتهم[1]، مع أن كل جهة منها قادرة على تقديم نوع من التعليم أو التدريب الذي يحتاجه بعض الناس.

في الجامعات والمدارس الإسلامية ضمور شديد في المكتبات والمختبرات ووسائل البحث العلمي، كما أن المكتبات العامة في كثير من الدول محدودة، والتزويد فيها ضعيف جداً؛ مما يجعل مقتنياتها من الأوعية المعرفية متقادمة. . . ومع أن أهل الثراء في بلاد المسلمين كثر إلا أن إسهاماتهم في دعم المكتبات العامة والمؤسسات والأنشطة العلمية محدودة جداً، على خلاف ما هو موجود في العالم الصناعي ـ ولا سيما أمريكا ـ حيث يقدم الأثرياء هناك هبات سخية لدعم الجامعات ومراكز الأبحاث والمكتبات[2]. . .

في الدول المتقدمة أيضاً هناك الكثير من المؤسسات التي تدعم التعليم المستمر؛ ومن النماذج المضيئة في ذلك ما قام به الفرنسيون من إنشاء مؤسسة غير حكومية، من نوع جديد، تسمى «جامعة الحلقة الثالثة من العمر» يدرس فيها كبار السن. ومنذ عام ١٩٧٣، وخلال سبع سنوات تم إنشاء خمسين مؤسسة أخرى في ربوع فرنسا[3].

٦ ـ إن تدفق المعلومات، وإتساع دوائر النشر، وتوفر وسائل الاتصال، إن كل ذلك يمثل أدوات ممتازة لدعم التعلم المستمر. والملاحظ أن الاستفادة من الوسائل الإعلامية المتاحة في عمليات التعليم المختلفة ـ ضعيفة جداً، فالصحف والجرائد المتخصصة قليلة جداً، كما أن أكثر الدول

---

(١) بدأت الصورة تتغير في بعض البلاد الإسلامية، وإنا نأمل أن تمضي جميع المجتمعات الإسلامية في الطريق إلى آخره.

(٢) نشرت إحدى المجلات الأمريكية أن إجمالي التبرعات الخيرية الأهلية في أمريكا عام ١٩٩٦ (١٥١) بليون دولارا! وقد ذهب من هذا المبلغ ما نسبته ٤٦٪ للمؤسسات والأغراض الدينية، و١٣٪ للتعليم، و٩٪ للصحة. مجلة المعرفة العدد ٣٢ ص١٨٧.

(٣) أزمة العالم في التعليم: ٨٧.

الإسلامية، لا تملك محطات تلفازية متخصصة ببث البرامج التعليمية، بل إنه ليس هناك - في أكثر الدول - إذاعات تعليمية مع انخفاض تكاليف البث الإذاعي نسبياً! وأكثر ما يبث وينشر يقدم ثقافة عامة، ولا يستهدف خاصة من الناس، مما يجعل الأكثرية يشعرون بضعف الاستفادة منه.

إن شبكات المعلومات الآخذة في النمو والانتشار السريع، إلى جانب الأقمار الصناعية، هي من الوسائل المثلى في نشر المعرفة المركزة والممنهجة، والتي تستهدف فئات معينة من الناس، مثل الطلاب والأساتذة وربات البيوت وكبار السن والعمال والفلاحين... كما أن بإمكان كل جريدة أن تخصص نصف صفحة لتقديم برنامج دراسي، أو مادة علمية معينة، أو إصدار ملحق بذلك.

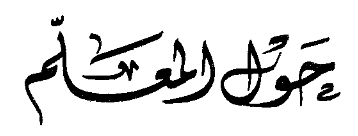
لا ريب أن هناك ظروفاً ومشكلات عديدة تصرف الناس عن متابعة تثقيف أنفسهم، كما أن هناك قصوراً في أطر التثقيف ووسائله، إلا أن العقبة الكأداء، هي فقد الأغلبية من المسلمين لفضيلة (الاهتمام) بهذه المسألة الحيوية والمصيرية؛ فالأوقات والأموال موجودة، وكثير من الوسائل موجود، إلا أن المفقود هو الاهتمام بتوظيفها، والمنهجية المطلوبة للاستفادة منها!

إن أكثرنا انشغالاً يستطيع أن يجد نصف ساعة لتثقيف نفسه. ونصف ساعة يومياً ليس بالشيء القليل، فهي كافية إذا ما وظفت في قراءة مادة من المواد مدة خمس سنوات لجعل القارئ أستاذاً في تلك المادة. وبإمكان الفقير أن يضغط على مصروفه لتوفير ثمن كتاب أو مجلة للارتقاء بمعرفته... **إن الممكنات كثيرة جداً، لكن المشكلة في ضعف الهمة، وفقد النفس التوّاقة!**



إضاءة:

علينا أن ننتقل من تطفيل الكبار إلى سرعة إنضاج الصغار.



١ـ اختيار المعلّم وإعداده.

٢ـ شخصيّة المعلّم.

٣ـ حقوق المعلّم.



١ ـ اختيار المعلم وإعداده

إن التعليم هو الوسيلة الأساسية التي تستخدمها الأمم في تكوين أبنائها في جميع المجالات، وعلى كل المستويات. هذا التكوين الذي يشتمل على تعريفهم بعقائدهم ومبادئهم وتراث أمتهم، ورؤيتها العامة للحياة، كما يشتمل على تزويدهم بالخبرات والمهارات التي تمكنهم من فهم عصرهم، والإسهام في دفع عجلة التقدم... والذي سيقوم بكل ذلك هو (المعلم) الذي ينبغي أن يكون مستوعباً لمضمون الرسالة التي سيوصلها لطلابه، على نحو يمكنه من الارتقاء بهم، ودفعهم إلى السير حتى نهاية الطريق.

إن كل معلم هو بمعنى ما (مصلح) والمصلحون في هذه الأمة، هم أناس حققوا الصلاح في أنفسهم، وتملكوا من الطاقة والخبرة والمقصد الحسن ما يمكنهم من إشاعة الخير والاستقامة والمعرفة في مجتمعاتهم، وهي بذلك أشبه بحواريي الأنبياء، ومهامهم في الحياة جزء من مهام نبيهم ـ عليه السلام ـ.

إذا استحضر المشرفون على اختيار المعلمين وإعدادهم هذا المفهوم، فإنه سيكون بإمكانهم اختيار النوعية الصالحة لهذا العلم العظيم، وتأهليهم للقيام به.

حسن المطلع نصف الفوز:

كثيراً ما تكون الخطوة الأولى أهم عمل في مسير طويل؛ ولا ينطبق هذا على شيء كما ينطبق على موضوع اختيار (المعلم) حيث إن المطلوب منه أكثر بكثير من نقل المعلومات من كتاب إلى طالب. وحين يكون هناك

قصور ظاهر في الاستعداد أو مكونات الشخصية، فإن فائدة التعليم والتدريب، ستكون محدودة.

كثيرون أولئك الذين يقضون وقتاً غير قصير في التأمل والفحص والمقارنة عند عزمهم على شراء منزل أو سيارة. وبعضهم يفعل ذلك عند شراء قميص أو حذاء! وكثير من الكليات ـ مع الأسف الشديد ـ لا تمنح نفسها من الوقت لاختيار (معلم المستقبل) ما يمنحه الناس أنفسهم عند شراء سلعة معمرة، مع الفارق الضخم بين الأمرين!

إن لدى بعض الجهات التعليمية انطباعاً، مفاده: أن كل من أخذ ساعات محددة في تخصص ما صار صالحاً للعمل في تدريس ذلك التخصص للناشئة، وهذا هو سبب التراخي في مسألة اختيار المدرسين، مع أن الكفاءة في مجال علمي معين، ما هي سوى شرط واحد من شروط عديدة.

بعض الأشخاص، لديهم مزاج حاد، فهم يثورون لأتفه الأسباب، وبعضهم مصاب ببعض عيوب النطق، وبعضهم يشكو القماءة والقصر المفرط... وهذا كله يعوق أداءهم الجيد في مهنة التدريس.

إلى جانب هذا كيف ستكون الحال إذا كان علينا أن نحارب انتشار التدخين بين الطلاب ـ مثلاً ـ وكان مدير المدرسة، أو كثير من المدرسين ممن يدخن؟! وكيف سنرسخ أداء شعيرة (الصلاة) في سلوك الطلاب إذا كان بعض المعلمين لا يقوم بأدائها، وهكذا...

إن تعليقنا الآمال العريضة على (التعليم) يتطلب مزيداً من الاهتمام باختيار المعلمين، وهذا لن يتبلور إلا من خلال تقنين (اختبار شخصية) جيد، يثبت من خلاله المتقدمون لمهنة التعليم أنهم يملكون الاستعدادات والقابليات الملائمة لممارسة المهنة؛ إلى جانب درجة حسنة من الاستيعاب للتخصص الذي سيقومون بتدريسه. وهذا هو السبيل الأمثل لتزويد المؤسسات التعليمية بحاجاتها من المستويات الجيدة من المدرسين، إذا ما أريد لها أن تقدم التدريب والتعليم المطلوبين في عصرنا الحاضر.

إن من واجب كليات التربية ومعاهد المعلمين القيام بمقابلات واختبارات دقيقة وموزونة لاختيار منسوبيها، كما ينبغي تقديم تدريب مهني كاف لخريجي كليات الآداب قبل الموافقة على انخراطهم في سلك التعلم. وبعد كل هذا فإن أولوية التعيين ينبغي أن تكون لأولئك الذين يحصلون على أعلى التقديرات. وقد يكون من الملائم تعيين من يحصلون على تقدير (ممتاز) عند التخرج في مرتبة وظيفية أعلى.

الإعداد المستمر:

إن العلاقة بين المعلم وبين الكليات والمعاهد التي دربته كثيراً ما تنتهي عند تخرجه وانخراطه في التدريس، وكأن تلك المؤسسات، قد قدمت للمتخرجين فيها كل ما يتطلبه التدريس الجيد في زمن كثير التحول، سريع التغير!

أما المدارس فموقفها ليس بعيداً عن موقف الكليات، فهي لا تعمل إلا أقل القليل في سبيل تحسين مستوى الأداء لمن يعمل فيها. ولعلنا نلمس في هذه المسألة النقاط التالية:

١ ـ إن أهمية التدريب المستمر للمعلمين تعود إلى اعتبارات عديدة منها:

٢ ـ إن هناك إجماعاً عالمياً على أن التنمية الروحية والفكرية والمهنية، ربما تكون الوسيلة الأكثر نجاعة، والأقل كلفة بالنسبة إلى الدول النامية التي لا تملك الكثير من الإمكانات المادية؛ فالارتقاء الفكري والروحي والمهاري، لا يكاد يحد بحدود في المجال أو الإيقاع. **والإمكانات البشرية الضخمة المتوفرة في العالم الإسلامي هي فرصتنا ومشكلتنا في آن واحد.** وإن إهمال تدريبها والارتقاء بها، يجعلها كجيش ضخم لم يتم تدريبه، ولا تسليحه على النحو المطلوب؛ مما يحوله من قوة ردع وفتح إلى هدف سهل للعدو!.

ب ـ مدة صلاحية المعلومات التي تقدم للطلاب، صارت أقصر من ذي قبل؛ مما يتطلب تجديدها على نحو مستمر. وإن وسائل الاتصال والوسائل الإعلامية، قد كونت (ذائقة) معرفية جديدة لدى الناشئة، تقوم على الانصراف

عن كل ما ليس عملياً، وكل ما لا يخدم الحياة المعاصرة، وعلى المعلمين أن يستوعبوا ذلك، ويتجاوبوا معه، وهذا لن يتم من دون تدريب وإعادة تأهيل.

جـ ـ إن مرور عشر سنوات على تخريج المعلم، ومزاولته المهنة كاف لجعل معلوماته في التخصص تتقلص إلى حدود المعلومات التي يقدمها من خلال المواد والمناهج التي يدرسها لطلابه. وهذا الوضع ذو أبعاد سيئة على عملية التدريس؛ **فالمعلومات التي تقدمها الكتب المدرسية أشبه بهيكل عظمي، والاقتصار عليها يجعل فهمها شاقاً**، كما أنّه يكوّن ضيق الأفق لدى الطلاب. بالإضافة إلى أن موقف المدرس أمامهم يصبح ضعيفاً نظراً لتقارب مستوى معرفته مع مستوى ما تقدمه الكتب المدرسية.

٢ ـ لا ينبغي أن يهدف التدريب المستمر والإعداد المتواصل للمعلم إلى تحسين أدائه داخل حجرة التدريس، وإنما إلى تحسين حالة المدرس العامة، من حيث إنه يؤهله للقيام بمهام عمله برؤية أرحب وبكفاءة أعلى، وبمطالب متزايدة من شخصه[١].

إن زماننا هذا هو زمان ضياع الأهداف الكلية لأنشطة البشر؛ وهناك أسباب عدة تجعل المعلم المثالي، لا يدرك طبيعة مهنته بوضوح؛ وطالما انهمك المعلمون بأداء واجباتهم اليومية منشغلين عن أي شيء آخر. ولذا فإن على الإعداد المستمر أن يستهدف تحسين جوانب عديدة في شخصية المعلم، نجملها في الآتي:

أ ـ حتى يكون لعناء الأساتذة والطلاب مغزى واضح، فإن المعلمين بحاجة ماسة إلى تعميق معرفتهم بفلسفة العلوم التي يدرّسونها، والإضافات التي يمكن أن تسديها إلى حياة الناس، ومكانة تلك التخصصات في النسق المعرفي العام؛ فالمعرفة في الأصل واحدة، وقد قسمها الإنسان بغية تسهيل استيعابها، وعلى المعلمين أن يتعلموا كيفية إعادة تركيبها من خلال رؤية

---

(١) انظر: الإدراة ١: ٣٣٢.

شاملة ورحبة للحياة والكون. وهذا حين يتم سيساعد على توظيف المعرفة، وجعلها أكثر عملية.

ب ـ إن طول ممارسة أية مهنة، يقتل روح المبادرة، ويرسخ النمطية؛ وهذا يعني أن التدريب المستمر للمعلمين يجب أن يستهدف ـ فيما يستهدف ـ كسر الرتابة، وحفز القابليات والاستعدادات للترحيب بالجديد واستخدامه. وهناك مؤشرات عدة إلى أن الدورات التدريبية تمد همم المتدربين بوقود جديد، وتجعل عقولهم أكثر انفتاحاً. وهذا بالنسبة للمعلم أكثر أهمية، حيث إن القطاع التعليمي بطبيعته يميل إلى الركود، وإيجاد آليات لتثبيت الحالة الحاضرة.

جـ ـ إن التدريس الجيد هو نتاج معلومات وفيرة وأسلوب ملائم لإيصالها؛ ولذا فإن تحسن أسلوب التعليم ينبغي أن يستحوذ على اهتمامات القائمين على المؤسسات التعليمية. وقد يتم ذلك من خلال اطلاع المتدربين على الحقائق والمعلومات الجديدة في تخصصاتهم. ويمكن لإدارات التطوير التربوي أن تزود المدرسين في مطلع كل عام بمعلومات وافية حول المعلومات الجديدة، وحول البحوث والدراسات الحديثة التي جرت حول المواد المختلفة. بالإضافة إلى هذا فإن هناك بحوثاً متجددة، وخبرات نامية حول أساليب التدريس الناجعة، وينبغي أن يلمّ المعلمون بطرف منها إلى جانب إجراء حوارات مستفيضة حولها، بغية الارتقاء بطرق إيصال المعلومات للطلاب.

د ـ من الملاحظ أن المشكلات التي يتعرض لها الطلاب في حياتهم العامة آخذة في التفاقم، وهي تؤدي إلى ضعف استيعابهم لما يلقى عليهم، كما أنها تحدث متاعب جديدة للمعلمين، أثناء إدارتهم لفصولهم. ومواجهة ذلك تجعل المعلم بحاجة إلى اكتساب معلومات وخبرات إدارية ونفسية واجتماعية وطبية، وبإمكان برامج الإعداد المستمر أن تؤمّن ذلك.

٣ ـ العصر الحديث أوجد مشكلات كثيرة، ووفّر وسائل أيضاً لمواجهتها، وإن تطور وسائل الاتصال على النحو الملموس اليوم، سيمكّن من تقديم برامج كثيرة للتدريب بيسر وسهولة. ومما يمكن ذكره حول برامج الإعداد المستمر للمعلم، ووسائل ذلك ما يلي:

أ ـ إيجاد نوع من الارتباط بين المعلم وبين المعهد أو الكلية التي تخرج فيها. وهذا يتم عن طريق عقد اختبار (إعادة تقويم) يعقد كل خمس سنوات لكل أولئك الذين يعملون في سلك التعليم، ويتم ذلك في المؤسسة التي تخرج فيها المعلم، ويكون ذلك الاختبار شاملاً لمعلومات مهمة في التخصص إلى جانب معلومات ثقافية عامة، وأخرى تربوية ونفسية يحتاجها عادة من يمارس مهنة التعليم. وهذا الأسلوب تتبعه بعض الدول ـ مثل أمريكا ـ مع (الأطباء) حيث لا تجدد رخصة مزاولة المهنة إلا بعد أن يؤدي الطبيب امتحاناً كل عشر سنوات، وهو امتحان شاق وعالي المعايير. وحين تتوقف ترقية المدرس على النجاح في ذلك الاختبار، فإنه سيستعد له، وينجح بالتالي فيه، وسيكون ذلك لفائدته وفائدة طلابه.

ب ـ مهما كان التعليم الذي تلقاه المعلم قبل التخرج جيداً، فإنه سيجد نوعاً من المفارقة بين ما تعلمه وبين ما يمارسه، كما أن المعلم حديث التخرج، يواجه عادة العديد من المشكلات التي لم يكن يتوقعها؛ ولذا فإن الأمر قد يحتاج إلى نوع من الارتباط بين المدرسين القدامى والجدد حتى يستفيد الجدد من تجارب زملائهم القدامى وخبراتهم. وهذا ما يتم في اليابان حيث يشرف مدرس قديم ذو خبرة على زميله الجديد خلال سنة عمله الأولى، بالإضافة إلى أن جميع المدرسين الجدد، يجتمعون مرتين أو ثلاث مرات شهرياً مع مدير المدرسة والزملاء القدامى للمناقشة حول أساليب التدريس، ولتلقي النصائح التربوية والتوجيهات. وإلى جانب ذلك هناك اجتماعات دورية لمدرسي الصف الواحد للمذاكرة في شؤونه[١].

ج ـ يمكن القول إن تدريب المعلمين، ومتابعة إعدادهم، صار اليوم أسهل من ذي قبل؛ إذ يمكن تدريب أعداد كبيرة منهم بوسائل قليلة التكلفة، ودون الحاجة إلى انتقالهم من مكان إلى آخر. وعلى سبيل المثال يمكن أن تخصص بعض المحطات الإذاعية و(التلفازية) ساعة في أحد أيام

(١) التربية والتحدي: ١٥٦.

الأسبوع لمدرسي إحدى المواد، ويتم تفريغ جداول الأساتذة الذين يقومون بتدريس تلك المادة على مستوى القطر، حيث يتم بثُّ بعض المعلومات الخاصة بالمادة، كما يتم إجراء حوار حي بين الأساتذة والمدربين أو الجهات التعليمية المهتمة على الهاتف أو عبر الأقمار الصناعية. ويفعل ذلك مع جميع المواد حسب جداول محددة ومعروفة.

الصين من الدول التي استخدمت الأقمار الصناعية منذ أمد في تدريب المدرسين وتعليمهم بعض المواد(١).

من الوسائل أيضاً وجود كلية في كل جامعة إقليمية، تكون مهمتها تقديم دورات منتظمة مسائية أو صيفية خاصة بالمدرسين. وتعد تركيا من الدول التي تهتم بتدريب المدرسين أثناء الخدمة، وكثير من مؤسسات التعليم العالي، تقدم لهم برامج ودورات تدريبية، وتقدم لهم شهادات، يحدد فيها البرنامج التدريبي ومدته، ويعطى للمعلم الحاصل عليها عدد من الامتيازات(٢).

في اليابان يقدم ٨٦٪ من معاهد التعليم العالي برامج لتدريب المعلمين؛ مما يجعلها من أكثر الدول تقدماً في هذا المجال(٣).

بالإضافة إلى ما ذكرناه ينبغي أن يكون هناك بعض البرامج التي ينخرط فيها المعلم عن طريق المراسلة والمتابعة، ويتدرب من خلال ما يرسل إليه من كتب وأشرطة.. في اعتقادي أننا سنجد الكثير مما يمكن عمله للارتقاء بالمعلمين بشرط أن نعي ما يعنيه ذلك للارتقاء بالأمة.



إضاءة:

حين يقوم أفراد مجتمع بتحقيق مصالحهم بعيداً عن مبادئهم، فإن الثمن الذي يدفعونه هو انحطاط أخلاقهم.

---

(١) تطور التربية في الصين: ٤٩.
(٢) نظام التعليم في تركيا: ١٥٥.
(٣) التربية والتحدي: ١٥٥.

٢ ـ شخصية المعلم

الناس في الإطار الأوسع، يشبه بعضهم بعضاً إلى حد التطابق. أما على مستوى التفاصيل فإن لكل واحد منهم شخصيته الخاصة التي يتميز بها عن سائر البشر. للشخصية جوانب عديدة، أهمها الجانب الروحي والعقلي والجسمي والانفعالي والاجتماعي؛ مما يتجلى في السلوك الشخصي للفرد، وفي علاقاته مع غيره.

والعلاقات بين جوانب الشخصية علاقات اعتمادية تكاملية؛ فالنقص في جانب، يعوضه النمو في جانب آخر، والمعائب في جانب، يغض عنها الطرف، بسبب المحاسن في جانب ثان.

ولذا فإن الطالب يقوِّم أستاذه تقويماً شاملاً متكاملاً، ويتجاوب معه على أساس ذلك. وهذا يمثل فرصة كبيرة لكل واحد منا؛ حيث إن بإمكان المرء أن ينمي الجانب الذي يرى سهولة تنميته، مما يزيد في رصيده العام، ويجعله أكثر فاعلية وحيوية، وتأثيراً في الناس.

ويهمنا هنا أن نتحدث عن بعض المسائل المتصلة بشخصية المدرس وتنميتها من خلال الحروف الصغيرة التالية:

١ ـ خطورة التعليم على شخصية المعلم:

التعليم من المهن الخطرة على شخصية المعلم، وهو يمثل اختباراً قاسياً لكثير من الناس. وطول الممارسة له قد يصوغ إنساناً محطماً مفلساً في طاقاته الروحية والعقلية، فاقداً للحماسة والفضول والدهشة من الجديد، ملوَّث الخلق...

إن كثيراً من المعلمين، يلاحظون أنهم بعد مدة من الاحتكاك بالأطفال

والناشئة من خلال المهنة، بدؤوا يفقدون حب الاستطلاع، كما بدؤوا يشعرون بضعف ملكة الخيال والإبداع، وتقلص دائرة الاهتمامات[1]. وكأن طبيعة التعليم للصغار، ورتابة المناهج وطرق التدريس، تؤدي إلى أن تكون مهنة التدريس مصدراً لقتل الحيوية إذا لم يتمتع المعلم بالحذر والاحتياط الكافيين.

وعلى سبيل المثال فإن المعلم يخبر أموراً كثيرة لم يكن له دراية بها عند نهاية المرحلة الجامعية وبداية التدريس، من نحو: الدروس الخصوصية وعقابيلها الخلقية والاجتماعية، وعدم العدل بين الطلاب، والاستخفاف ببعضهم، وعدم الانتظام في المواعيد، وكثرة الشكوى والبرم... ومن تتوفر لديهم هذه الصفات، يعكسون مع تقدم السن أكثر فأكثر شخصية المعلم المرهق السريع الانفعال، وغير الواثق من نفسه، وغير القابل للنمو والتطور، والذي يتآكله الخوف باستمرار، ويعد مهنة التعليم الملجأ الأخير لكسب الرزق.

وهناك - ولا ريب - نخبة من المعلمين، تترك انطباعات رائعة لدى الطلاب والناس، فهم مع تقدم السن يزدادون رأفة ورحمة ونضجاً وإخلاصاً ومرحاً وإبداعاً وزهداً واستقلالية[2]. ولكن هذا في الحقيقة لا يتأتى إلا من خلال بذل جهود استثنائية وكفاح متواصل. وعلى كل حال فإن المعلمين إذا استطاعوا أن يروا أنفسهم على حالتها - دون تجميل - وكما يراها الناس، فإنهم يكونون قد خطوا الخطوة الأولى في اتجاه الوضعية الصحيحة. وستكون الخطوة الثانية متوقفة على تشرب المعلم لفكرة أن الاحتفاظ برغبة قوية للنمو والاكتشاف والبحث والتحرر من الرتابة، هو السبيل الوحيد للحيلولة دون تحلل الشخصية، وفقدان ميزة الحياة.

إن الموت يبدأ عندما يتوقف النمو، وليس في هذا نقطة توازن، فإما نمو، وإما انحلال يسير بالمرء نحو التلاشي التام[3].

---

(١) المعلم أمة في واحد: ٨٤.
(٢) السابق: ١٨٩، ١٩٠.
(٣) السابق: ١٩٩ - ٢٠٠.

٢ ـ لا بديل عن التعلم الدائم:

على من يريد أن يعيش في هذا العصر بكل حواسه وأبعاده أن يتعلم باستمرار، والبديل عن ذلك دائماً، هو العيش على هامش الحياة. إن كل شيء الآن يحتشد، ويتراكم، ومع ذلك هناك مناطق مظلمة، تحتاج إلى اكتشاف، وفراغات معرفية، تحتاج إلى ملء على المستوى الشخصي، وعلى المستوى العام.

المعلم على نحو خاص بحاجة إلى عقل أذكى من عقول معظم طلابه، وإلى معرفة قادرة على إغراء الطلاب بالسؤال والجدل والحوار والتفكير. وهذا لن يكون إلا من خلال الاطلاع الدائم والمتابعة الحية لمعطيات المعرفة المتجددة؛ فهذا وحده هو الذي يجعله يتحدث بوضوح تام، ويجعله محط أنظار طلابه.

في ظل تفجر المعلومات المدهش والمتسارع، لا ينبغي لأحد أن ينتظر اللحظة التي يبلغ فيها نضوجه المعرفي حد الكمال والتمام، فكل شيء اليوم عرضة للتغير، وإعادة التقويم، لكن من المهم لنا جميعاً أن نردد النظر في كمية المعارف التي نملكها ونوعية تلك المعارف، حيث إن من المألوف في حالة الدفق المعرفي الشديد أن يمتلك الناس معلومات كثيرة، لكنها مبعثرة ومفككة، مما لا يساعد كثيراً على النضج العقلي.

المعلم الذي أوكلت إليه صياغة عقول الناشئة وشخصياتهم، أحوج الناس إلى فحص معلوماته، ومحاولة إيجاد روابط وانتماءات عامة بينها، والأهم من ذلك أن يحاول دمج المعلومات الجزئية التي لديه في مفاهيم وأطر شاملة.

إن المعرفة التي لا تتصل بالناس، أو بمعارف أخرى ـ تظل محدودة الفائدة، منقوصة القيمة. هذا الدمج والتصنيف من الوسائل المهمة في تمكين المعلم من إيجاد تحويرات ذات قيمة في معارف الطلاب، وفي تكوينهم العقلي، كما أنه مهم في حجز المعلم عن إساءة الفهم، والتصور الجزئي المبتسر لقضايا كلية معقدة.

إن المادة التي يعمل فيها المعلم هي (الإنسان) وهو يعمل كما يعمل النحات في الحجر، ومعرفته بطبيعة الإنسان مهمة للغاية. من المؤسف أن أفكاراً كثيرة شائعة عن طبيعة الطفل، لا تسهل عمل المعلم، بل تعوقه وتفسده؛ فهناك مشاعر طبقية، ونظريات عامة بصدد المقدرة والعبقرية والخصائص النفسية وارتباطها باللون أو العرق أو البلد... وهي من بقايا ثقافة الرق والعبودية وبقايا أوهاق الجهل والهوى!

بعد كل هذا فعلى كل واحد منا أن يتساءل عن الأشياء الجديرة بالمعرفة، وأن يبحث عن منطقة عيش نفسية ومعرفية وفكرية، تؤهله للنمو الجيد.

٣ ـ كسر الرتابة:

بعض المعلمين يجعلون الأشياء المشوّقة والمفيدة كئيبة لا روح فيها، مما يجعل قاعات الدراسة أماكن للسأم والملل والذكريات المؤلمة! والتعليم بطبعه يستطيع دائماً أن يولد أجواء الرتابة والتكرار اللذين لا يأتيان بغير كلل القلوب وركود العقول؛ ولذا فمن المهم للمعلم أن يستهدف (التجديد) في كل ما يتصل بمهنته: وضع المقاعد في الفصل، طريقة التدريس، وسائل الإيضاح، معرفة آراء الطلاب، طريقة الحوار، أسلوب التلطف والتودد إلى الطلاب، أسلوب التشجيع والتحفيز... وهذا كله من أجل طرد الملل والسأم، وجعل العمل التعليمي يشتمل على نوع من المفأجاة من خلال توسيع الآفاق التي يتوقعها الطلاب من أساليب الأساتذة.

وحتى يتم هذا، فإنه بحاجة إلى أمرين: الخيال والحيوية؛ فبالخيال يتم ارتياد أشكال جديدة لكل ما ذكرناه. وبالحيوية يصبح تنفيذها ممكناً. إن الرتابة تسهّل العمل، لكنها تولد الركود، وتبلد الإحساس.

٤ ـ تنمية شخصية المدرس:

حين يتفتح وعي الإنسان على الحياة يجد نفسه مكبلاً بموروثات

جسمانية وعقلية ونفسية، وبمعطيات ثقافية وبيئية كثيرة. وكثير من تلك الموروثات والمعطيات، قد لا يكون ملائماً لتنمية ذاتٍ حرة، وتحقيق نموذج متفرد، ينشد الكمال، ويتجاوز عقابيل ما هو كائن. وعلى كل واحد منا أن يفكر ملياً فيما ينبغي عليه أن يفعله للفكاك من أسر حتميات البيئة والطبيعة والمعارف الزائفة ومحددات الوراثة.

وأعتقد أن مما يساعد الإنسان و(المعلم) خاصة على هذا التحرر ما يلي:

أ ـ حتى ينمو الإنسان ينبغي أن يكون حراً، والبيئة في البلاد المتخلفة، لا تساعد على النمو، وإنما تضع القيود، وتستهلك الطاقات دون النظر إلى أي مردود، يمكن أن يحصل من وراء معاناة المشاق! ولذا فإن من المهم للمعلم أن يصنع بيئته الخاصة التي يعتقد أنها تساعده على تحسين حاله.

وعلى سبيل المثال فكثيراً ما تفرض الحياة الاجتماعية أنواعاً من المجاملات التي تهدر الوقت، وتقطع على الإنسان هدوءه، وتختلس منه أوقات نشاطه. **وعلى المرء أن يفرض على نفسه درجة من العزلة، إذا ما أراد أن يقدم لنفسه وللناس شيئاً نافعاً**. أضف إلى هذا أن كثيراً من بيئاتنا، يقلل من شأن الأعمال الفكرية، ويعدها نوعاً من الهذر والسفسطة؛ وعلى المرء أن يتعلم كيف يتجاوز ذلك، ويمضي فيما يرى أن عليه أن ينجزه؛ فالقضية قضية مصير!

إن الخضوع للبيئة قد يحوّل الإنسان إلى جزء تافه في آلة كبيرة، كما يجعله مستعبَداً لحياة فقدت أهدافها الصحيحة.

ب ـ على المرء كي ينمو أن **يتخلص من الاهتمامات الصغيرة والضيقة**: أسعار الخضار والعقار، وشجار زيد وعمرو، وتأخر صرف مرتب... وإن **خير تعبير عن ذاتية المرء هو ما يلغو به في أوقات الفراغ ومجالس السمر**... وإن مواقف محددة من الشكاية من وضع مادي معين، كافية لتقزيم أستاذ أمام طلابه. فكيف تكون الحال إذا اكتشف الطلاب أن معلمهم مهتم بانتصارات فريقه الرياضي أكثر من اهتمامه بمستقبل أمة أو

جيل، أو اكتشفوا أن جل اهتمامه منصب على المكاسب التي سيجنيها من وراء التعليم أو الطلاب؟!

إن الإنسان مهما كان فعّالاً ونشيطاً، فلن يستطيع أن يتفوق على بعض الحشرات الاجتماعية، مثل النحل أو النمل، لكن الذي يميزه هو الأهداف والمعاني السامية التي تشكل دوائر اهتمامه، وتستحثه على بذل الجهد. ولن تكون الأهداف سامية إلا إذا تجاوزت أطر المصالح المحضة والهموم الذاتية الصغيرة.

جـ ـ إن من أسباب ارتباكنا حيال مشكلاتنا الصغرى والكبرى أننا ننظر إلى نهايات الأمور بدل النظر إلى جذورها وبداياتها؛ ولذا فإننا نشعر بالعجز والانحسار تجاهها. إن أية مشكلة تحتاج إلى (الزمن) كي تمكن السيطرة عليها، وإلغاء وظيفة الزمن، يجعلنا ننظر إلى طاقاتنا الظاهرة والحاضرة، وهي ـ في الغالب ـ محدودة وغير كافية للتغلب على المصاعب التي نواجهها. وفي المقابل فإن أكبر مشكلة يمكن تجاوزها، أو التخفيف من لأوائها إذا قلنا: ماذا يمكن أن نصنع حيالها خلال خمس سنوات أو ثلاثين سنة؟

إننا بحاجة دائمة إلى التطلع إلى ما يمكن أن يكون، إلى الطاقات الكامنة والمعطلة. بإمكان المعلم أن يقول: ماذا ستكون حالتي إذا دأبت على تعلم لغة حية خلال ثلاث سنوات، وكيف سيكون خطي إذا دخلت دورة لتحسين الخطوط خلال ثلاثة أشهر، وكيف ستكون ثقافتي بعد خمس سنوات إذا ألزمت نفسي بقراءة مثمرة كل يوم ثلاث ساعات...؟؟

إن تغيرات كثيرة يمكن أن تحدث في شخصية المعلم من خلال دخول عدد من الدورات والاطلاع الجيد على عدد من العلوم.

على المعلم أيضاً أن ينظر في الطاقات الكامنة لطلابه بدل التعجب من ضعف هممهم، وضحالة ثقافتهم، ومن المعروف أن كثيراً من عباقرة العالم كانوا في نظر معلميهم عبارة عن تلاميذ أغبياء أو ضائعين؛ لأنهم لم يفكروا

أبداً في نقاط القوة لديهم، ولم يحاولوا قراءة التفاصيل الدقيقة في خرائطهم الشخصية.

إن رؤية المسافة الفاصلة بين ما هو كائن وبين ما يمكن أن يكون تُوجد بعض التوتر والإحباط في نفوسنا، لكن تلك المسافات، هي أيضاً مصدر النمو والتطور والحفز المستمر، ولولا أن الإنسان يوسع مدى الرؤية كلما حصل على إنجاز جيد لتوقفت مسيرة الحياة، ودفن الناس أنفسهم وهم أحياء!

إن براعة الإنسان لا تظهر إلا حين يستخرج من هيكل محطَّم جزءاً صغيراً قابلاً لأن يكون شيئاً عظيماً!

د ـ تتوقف كل أشكال التنمية في لكل جوانب الحياة على توفر قدر من الطاقة والاحتمال. وعلى المعلم المسلم أن يعرف المصدر الحقيقي لطاقاته النفسية والروحية، إذ بدونه لا يمكن عمل شيء ذي قيمة. هذا المصدر هو الصلة بالله ـ جل وعلا ـ حباً ورجاءً وتذكراً وتبتلاً وخوفاً. ولا تستمر هذه الصلة ما لم يتم تجسيدها في سلوك ملتزم أواب، وهي أشبه بشجرة لا تستمر حياتها إلا بالماء، وماء الصلة بالله ـ تعالى ـ هو العبادات وإقامة الشعائر والوقوف عند الحدود.

إن وظيفة المعلم هي (الكلام): وهي وظيفة تستهلك ـ بطبعها ـ الطاقات الروحية؛ ولذا فإن المعلمين والوعاظ أحوج الناس إلى تجديد بعدهم الروحي وتدعيمه.

هـ ـ كفاءة المعلم، وإتقانه للمواد التي يدرسها جزء مهم من شخصيته، ومن العسير أن ينظر الطالب إلى أستاذه بعين التقدير ما لم يشعر بتمكنه من ناصية المعرفة التي تعهد بتقديمها وتشريبها للطلاب. هناك شكوى تتردد في كل مكان ـ ولا سيما المؤتمرات التربوية ـ حول ضعف الإعداد العلمي الذي تقدمه الكليات والمعاهد لمن تدرب فيها من المعلمين[١].

---

(١) انظر: أمة معرضة للخطر: ٦٨.

والحقيقة أن الشكوى من كل شيء صارت جزءاً من تقاليد الفكر الحديث؛ ولذا فبقطع النظر عن مستوى ما تقدمه الكليات التربوية لطلابها؛ فإن المطلوب من المعلم أن ينمي معلوماته باستمرار، وإلا فسيكون مصير من تم إعداده من المعلمين على نحو جيد، ومن تم إعداده على نحو رديء شيئاً واحداً!

إن مما نلمسه جميعاً أن التخصصات تزداد تشعباً يوماً بعد يوم، وذلك بسبب التقدم المعرفي. وهذا يعني أن المتخصص الذي لا ينمي اختصاصه، ولا يتعمق فيه، سيجد نفسه شيئاً فشيئاً قريباً من غير المتخصص؛ فأمواج التقدم العلمي، تدفع به نحو الحافَّة باستمرار؛ لتخرجه من الساحة كليًا بعد ذلك!

بعض الإدارات المدرسية يرى أن جعل المدرس يدُرس صفاً معيناً مدة طويلة من الزمن، يعمّق معرفته، ويزيد في إتقانه للمناهج والمواد التي يقوم بتعليمها؛ وهذا صحيح، ولكن لا يمكن تعميمه، فبعض المعلمين يجد في ذلك فرصة للاستراحة من عناء تنويع المواد والتحضير المستمر. . . فتكون النتيجة عكسية. على حين أن بعض المعلمين يستفيد من ذلك فعلاً في تعميق معرفته بالعدد المحدود من المناهج التي يعلمها، وبخصائص الطفولة في المرحلة التي يدرس فيها. والقاعدة العامة **أن كل ما تعتقد أنه سبيل للتقدم والارتقاء، يمكن من خلال طريقة الاستخدام وإطاره ودرجته أن يحول إلى شيء ضار، يدفع إلى الوراء.**

إن مسؤولية المدارس والمعلمين معاً أن يهتموا على نحو دائم بالسبل والوسائل التي تنمّي كفاءة العمليات التعليمية، وتجعل مردودها قريباً من المأمول والمتوقع منها.



إضاءة:

لا أحد يستطيع الدفاع عن أفكار عقيمة، لا تملك ما يمنحها الفاعلية والبقاء.

٥ ــ أخلاق المعلم:

المعلم الصالح كالمواطن الصالح، هو قبل كل شيء إنسان صالح؛ فالاستقامة بالمعنى الشرعي هي أم الفضائل، وهي الضامن لكل السمات والصفات الحسنة المطلوب توفرها فيمن ائتمنتهم الأمة على أبنائها. وما ذلك إلا **لأن معاني الصلاح من منظور شرعي، تشكل المناخ الضروري لنمو كل الأخلاقيات التي تطلبها أية مهنة من المهن.**

تشكو المجتمعات الإسلامية ـ على درجات متفاوتة ـ من ضعف الالتزام بالأحكام والآداب الإسلامية، مما يحط من مستوى النسيج العام لأكثر أفرادها، ومما يجعل تنمية صفات شخصية فردية متفوقة، عسيراً ومكلفاً!

وسنعرض هنا لأهم الصفات الأخلاقية التي نظن أن نجاح المعلم في أداء مهنته محتاج إليها:

أ ـ تحدد ثقافة كل أمة الحد الأدنى المطلوب من السمات التي تحقق التوازن العام لسواء الشخصية، ومع أن ذلك ليس واضحاً دائماً، إلا أن كل تدنٍ عما يعد سلوكاً حسناً، يترك شكلاً من الانطباع السلبي لدى بعض الناس. ثقافتنا الإسلامية تضع المعلم في مقام الريادة، وتجعله، محط أنظار طلابه؛ مما يدفعهم إلى التشبه به، ومحاولة تقليده. وهذا يلقي مسؤولية خاصة على المعلم، ويوجب عليه أن يثبت أنه يملك من الأخلاق الفاضلة ما يجعله جديراً بالإمامة لطلابه.

كان أحد الأئمة يقول: «لا يؤخذ العلم من أربعة، ويؤخذ ممن سوى ذلك:

لا يؤخذ من سفيه معلن بالسفه، وإن كان أروى الناس.

ولا يؤخذ من كذاب.

ولا من صاحب هوى، يدعو الناس إلى هواه.

ولا من شيخ له فضل وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحدِّث».

وفي هذا النص تحديد لبعض السمات المطلوبة فيمن يُتخذ شيخاً ومعلماً، وواضح أن شيئاً من هذا المطلوب يعود إلى حسن الفهم والفقه في المرويات التي ينقلها للناس، كما أن شيئاً منه يعود إلى سلامة المعتقد، إلى جانب بعض العادات النفسية والسلوكية الحميدة.

ب ـ **الصبر** من الصفات الأساسية المطلوبة في شخص المعلم؛ فهو يتعامل مع كائن يتمتع بالعنصر الروحي والإرادة الحرة؛ وبسبب من هذين العنصرين سيكون التعامل مع كل ما يتصل بالإنسان صعباً ومعقداً. وكثيراً ما يكون تأثيث مدينة كاملة أسهل من إقناع إنسان بفكرة من الأفكار فضلاً عن تغيير اتجاهه أو تركيبه العقلي!

التعليم ـ على كل حال ـ عبارة عن نظام يعمل مع عدد من النظم الحياتية المفتوحة؛ لذا فإن نتائجه ليست مضمونة دائماً، وحسب المعلم أن يبذل الجهد، ويعد العدة الكافية للنجاح.

ولا ننسى مع ذلك أن آثار جهود المعلمين، قد تمتد قروناً، وأن جميع عظماء الأمة ومصلحيها، يحملون في عقولهم وأرواحهم لمسات ونفحات ممن علموهم؛ مما يعني أن الجهد قد لا يظهر في سلوك المتعلم مباشرة؛ فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه.

جـ ـ **التواضع** سمة أخرى مهمة في شخص المعلم؛ ومما لا شك فيه أن المعلم ـ بحكم عمله وتأهيله ـ يعرف أكثر مما يعرفه طلابه، وهذا كثيراً ما يولِّد نوعاً من الوثوقية الزائدة، ويجعل أجوبة المعلم على كل ما يُسأل عنه قاطعة وصارمة، وهذا باب لانحرافات كثيرة، منها الغرور، وصعوبة التراجع عن معلومة خاطئة قالها المعلم في وقت من الأوقات، والالتزام

بالإجابة عن كل ما يسأل عنه، مع أنه ليس هناك من يعرف كل شيء. وأخيراً ازدراء الطلاب، ولا سيما الضعاف منهم.

إن تواضع المعلم، يثير في نفوس طلابه أجمل الأحاسيس، والإنسان العظيم ليس ذاك الذي إذا جالسته شعرت بأنك صغير، ولكن الذي إذا جالسته شعرت بأنك كبير!

المعلم المتواضع ينمي شخصيات طلابه، ويفتح شهيتهم للعلم، ويساعدهم على بلورة سلوك أقرب إلى الاستقامة والسواء. إن التكبر على الطلاب هو نوع من الاستعباد لهم، والتعليم في جوهره عبارة عن خدمة نقدمها لطلابنا، وينبغي أن يظل كذلك.

د ـ إن مهنة التعليم، هي مهنة الأريحية والنخوة، ولأمة الإسلام تقاليد عريقة في اهتمام علمائها ومعلميها بحاجات الناس المادية والروحية، ويجب أن يظل التعليم مهنة العطاء غير المحدود، والذي لا ينتظر مكافأة من أي نوع.

إن المعلمين بحاجة إلى أن ينموا في أنفسهم درجة عالية من الحساسية الاجتماعية إذا ما أرادوا أن يفهموا أحوال طلابهم وظروفهم، وإذا ما أرادوا إحداث نوع من التجاوب النفسي معهم[1]. فالعلم روح تُنفخ لا مسائل تُنسخ.

إن نظم التعليم الحالية بامتحاناتها وشهاداتها ورواتب معلميها، قد أضفت على العلاقة بين المعلمين والطلاب ظلالاً مادية نفعية قاتمة؛ ولذا فإن المعلمين مطالبون أكثر من أي وقت مضى بمزيد من المجانية والتضحية، حتى يعود لهذه المهنة إشراقها التاريخي المعهود. ويبدو أن بعضاً من المعلمين، ما زال يحتفظ بأعلى درجات الفداء والعطاء غير المشروط؛ فقد تناقلت وكالات الأنباء مؤخراً خبر معلمة (اسكتلندية) وقفت أمام بندقية رجل مجنون لتحمي تلامذتها وراءها، وتتلقى ـ بالتالي ـ الرصاص بصدرها!

---

(١) انظر: (لماذا نعلم): ١٤٨.

كما نقلت خبر أحد مدربي القفز بالمظلات الذي أخفق في فتح مظلته، فسقط هو وتلميذه من ارتفاع خمسة آلاف قدم نحو الأرض، وقبل الارتطام بالأرض جعل نفسه تحت تلميذه، فتلقى الصدمة بجسمه ومات، وأنقذ تلميذه. وقد سأل أحد الصحفيين التلميذ: ماذا كانت آخر كلماته؟ فقال: كان طول الخمسة آلاف قدم يردد: «المعذرة يا عزيزي، المعذرة يا عزيزي»!!.

هـ ـ إن الميدان الحقيقي لفاعلية أخلاق المعلمين، هو العلاقات التي يقيمونها مع طلابهم داخل قاعات الدرس وخارجها، وإن ما توحي به علاقات المعلمين مع طلابهم من قيم ومثل أهم بكثير من الدروس والتوجيهات الأخلاقية التي قد يلقونها على مسامع تلامذتهم. وإن شخصيات الطلاب تتشكل نتيجة للتفاعل الذي يتم بينهم، والتفاعل الذي بينهم وبين أساتذتهم[1]، ولاحتكاك الطلاب بأساتذتهم خارج قاعات الدرس أهمية خاصة في تأثر الطلاب وتشربهم لأخلاق أساتذتهم. وعند النظر في تاريخ العلم والعلماء لدى المسلمين نجد أن اختلاط الأساتذة بالطلاب كان لا يقف عند حد؛ ففضلاً عن جلسات المذاكرة الطويلة كانت هناك علاقات علمية اعتمادية كثيرة، فيكون الواحد معلماً في مادة، ومتعلماً من بعض طلابه في مادة أخرى. وقد قال ابن جماعة: «كان جماعة من السلف يستفيدون من طلبتهم ما ليس عندهم».

وكان الكسائي قد أخذ عن قتيبة بن مهران قراءة أهل المدينة، على حين كان قتيبة تلميذاً للكسائي، حيث أخذ عنه قراءته الخاصة. ونتيجة للألفة والمودة، قامت علاقات مصاهرة كثيرة بين الأساتذة وطلابهم؛ مما جعل العلم والتعليم أداة لتواصل اجتماعي وتربوي وأخلاقي فريد!. وهذه العلاقات الحميمة ما زالت موجودة ـ إلى حد ما ـ في مجال (التعليم الشرعي).

---

(١) الدروس التي تتعلمها التربية من علم النفس: ٢٢١.

أما في المدارس والجامعات، فإنها شبه مفقودة! في اليابان مازالوا يؤمنون بأهمية وجود علاقات بين المعلمين وطلابهم، حيث يقوم المعلم الياباني بزيارة تلاميذه مرة في السنة على الأقل، وهذا جزء من اعتقاد تربوي يقوم على أن المدرس، يفهم تلميذه على نحو أفضل إذا عرف أسرته وأحواله العائلية، كما أن التلاميذ يزورون معلميهم في بيوتهم. وفي الأعياد والمناسبات يقوم الطلاب بزيارة أساتذتهم السابقين الذين علموهم فيما مضى[١].

إن المعلم قد يحتاج إلى أن يوجه إلى بعض طلابه بعض النقد، وقد يحتاج إلى أن يكون صارماً في بعض المواقف، وقد يحتاج إلى استخدام شكل من أشكال العقوبة، لكن يجب أن تنتهي كل المواقف بكلمات ونظرات، ترفع ولا تضع، وتشجع ولا تحبط.

والمعلم بحاجة إلى جانب الجدية والصرامة إلى أن يمتلك شيئاً من روح (الدعابة) فالدعابة هي خميرة العلاقات الإنسانية، وهي الوسط الكيميائي الذي يتفاعل باستمرار، فيحطم عتو الغطرسة، ويخفف بعضاً من إيقاع الرتابة الذي تشكو منه عملية التعليم[٢]. وقد كان علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ يقول: «إن هذه القلوب تمل، كما تمل الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكمة»[٣].



إضاءة:

إن كثرة انتماءات الفرد الاختيارية، تدلل على حيويته وانفتاحه على مجتمعه.

---

(١) التربية والتحدي: ١٥٣.
(٢) انظر: (لماذا نعلم): ٢٩٩.
(٣) النظم التعليمية: ٧١.

مسؤوليات المعلم

إن الأسر في البيوت والمعلمين في المدارس يشتغلون على جهاز واحد، ويعملون من أجل أهداف واحدة ـ وإن اختلف المستوى ـ ولذا فإن بعضاً مما سنقوله هنا، سبق أن عرضنا لبعض معانيه في مواضع سابقة، ولكن انتشار بعض المفاهيم الخاطئة حول مهام المعلمين ومسؤولياتهم، والحاجة إلى بلورة أفكار محددة، دعت إلى كتابة هذه الحروف الصغيرة هنا.

إن مسؤوليات المربين والمعلمين، تزداد اتساعاً، لاتساع حاجات العيش في زماننا الصعب، ولكثرة المشكلات التي تواجه الشباب في ميادين الحياة المختلفة؛ فعمل المعلم اليوم مزيج من مهام الأب والقائد ومدير المشروع والناقد والمستشار والشارح!

وسنشير هنا إلى أهم المسؤوليات التي نعتقد أن على المعلم أن يضطلع بها:

١ ـ تنمية الاتجاهات الأخلاقية:

لا نختلف في أن المهمة الأساسية للمدرس، هي تثقيف العقول، ومحاولة إغناء الطلاب بالمعلومات المختلفة، ومساعدتهم على تفهم المواد والمناهج المقررة، لكن هذا ليس كل الواجب، فتوجيه الطلاب وإرشادهم، وترسيخ القيم والأخلاق الفاضلة في نفوسهم، من المهام الأساسية للمدارس والمعلمين.

إن مهمة المدرسة مكملة لمهمة الأسرة؛ وإذا كانت الخطوط العميقة

في شخصية الطفل، تتشكل في السنوات السبع الأولى من عمره، فإن الصحيح أيضاً أن تلك البذور والأنماط السلوكية، تظل بحاجة إلى تزكية ورعاية من قبل المعلمين حتى يشب الطالب عن الطوق، وتستكمل شخصيته كل أبعادها النهائية، وإلا فإن الانتكاس سيظل أمراً وارداً. ولا ينبغي أن ننسى أن كثيراً من الأسر، لا يقوم بواجبه تجاه غرس القيم الإسلامية في نفوس أبنائه، بل إن بعضها ليس مؤهلاً لذلك أصلاً؛ وإن بعضها يؤسس أخلاقاً سيئة، فيأتي الطفل إلى المدرسة في حالة مَرَضية، تحتاج إلى معالجة.

ليس هدفنا من وراء التعليم هو أن نعد أبناءنا ليكونوا موظفين أو باحثين، وإنما نعدهم؛ ليحيوا (حياة طيبة) وهي لا تولد من التزود بالكثير من المعارف، وإنما **من خاصية التوازن والتكامل لمجمل عناصر الشخصية؛** العقلية والمعرفية والنفسية والروحية. وهذا لن يتم إلا من وراء عمليات متواصلة، تهدف إلى تعريف الطلاب بالفوارق بين الصواب والخطأ، والحلال والحرام، والأخلاق الحميدة، والأخلاق الذميمة، إلى جانب تثبيت الاتجاهات الخيرة، وكل ما يؤدي إلى صقل الشخصية. ولست أدري كيف يمكن أن نعلم مسائل وقضايا تتعلق بمصير الإنسان ومصالحه وعلاقاته... دون أن نسلط الضوء على الوضعية الصحيحة في كل ذلك، ودون أن نسلط أشعة النقد على الحالات التي تخالف النموذج الذي ينبغي أن يكون؟

إن عصرنا هذا هو عصر القلق النفسي، والتحلل الخلقي، والجفاء الاجتماعي، وهو عصر ذلت فيه الرقاب للمطامع والحاجات المادية، وإن على المدرسة أن تعرف واجبها في صياغة جيل، يحمل مناعة ضد هذه الأوبئة، وتستعلي فيه مطالب الروح على مطالب الجسد.

٢ ـ المعلم جسر بين الأجيال:

نحن أمة ذات تراث ضخم، وذات تجربة حضارية عريقة وثرية؛ وحتى نستوعب حضارة العصر على نحو مقبول، فإننا بحاجة إلى أن نمتلك وعياً جيداً بذلك التراث، وتلك التجربة. ومن الواضح أن التطور الحالي

الهائل، أوجد هوة واسعة بين الأجيال الحاضرة وبين تراثها، كما أنه أدى إلى إيجاد اختلاف واسع بين كل آليات الفهم والتحليل التي سادت في الماضي، وهذه السائدة اليوم. ومهمة المدرس أن يقوم بعملية ترجمة واسعة وأمينة لكل المعطيات الحضارية والتراثية، وتقديمها للطلاب بلغة معاصرة، وبذلك يكون قد جسّر العلاقة بين الماضي والحاضر. ليست هذه المهمة من المهام السهلة، فنحن لا نملك معايير صارمة، ولا أدوات دقيقة لفهم الماضي، كما أن التعبير عنه بصورة متوازنة ومنصفة، هو مشكلة أخرى. ولا أجد من المناسب هنا أن أفصل القول في هذه المسألة، لكن كل ما يمكن قوله هنا هو: أن علينا أن نقدم للأجيال الجديدة من تراثنا الحضاري ما يعمق انتماءها لهذا الدين وهذه الأمة، وما يعرفها على هويتها الإسلامية، بالإضافة إلى المغازي الحضارية التي تساعدها على فهم هذا العصر والعيش فيه بكفاءة وفاعلية.

٣ ـ تحرير العقل من أغلاله:

العادات العقلية ظروف شرطية للكفاية الفكرية، فهي تحدد للعقل التخوم والمدارات التي سيعمل فيها، كما أنها تحول دون شروده وبحثه في مسائل لا تلائم الواقع. وعلى الرغم من أهمية ذلك، فإن العادة عندما تصبح نسقاً مطرداً رتيباً، فإنها تغلق الباب في وجه التفكير، وتصده إلى درجة أن الحاجة إلى التفكير تنعدم، أو تصبح غير ممكنة[١].

من الواضح أن نوعية الثقافة، وأشكال المقولات التي (تقولب) عقلية المرء، هي التي تحدد آفاق فكره، كما تحدد طبيعة امتصاصه للمعارف، وطبيعة تحليلها والاستفادة منها؛ ولذا فإن كل ثقافة لا تخضع للتمحيص والمراجعة على نحو مستمر، يمكن أن تتحول إلى أغلال تكبل العقل، وتحوله من أداة تحرر وارتقاء إلى أداة تكرس الأخطاء وتنتجها، ولنضرب مثالين لتوضيح ما نريد:

---

(١) قاموس (جون ديوي للتربية): ١٤٢.

أ ـ حين يعتقد شخص أو أهل بلد (الولاية) في شخص، فإن طبيعة ذلك الاعتقاد، تولد عدداً من عادات التفكير لديهم؛ فإذا قال بعض الناس: إن ذلك الشخص ليس بولي، ساد توقع بأن أذىً ما سيحل بذلك الجاحد. وإذا أكل ذلك الولي في بيت قوم، وأصابهم بعد ذلك خير، فببركة أكله عندهم. وإذا عمل عملاً مخالفاً لأحكام الشريعة، فإن الناس يكذّبون الناقل، أو يقولون: إنه واهم في رؤيته، أو إن ذلك العمل ليس محرَّماً، وقد يكون فعله ليخفف من وتيرة اعتقاد الناس بصلاحه... وهكذا يكون اعتقاد أهل ذلك البلد بولاية ذلك الشخص، قد حدد أفق التفكير والتحليل والتعامل مع المعلومات الواردة. ومع مرور الأيام يعمم (العقل) هذا الأسلوب ليستخدمه في حالات كثيرة أخرى، مما يؤدي إلى ترسيخ عادات فكرية ونفسية ذرائعية وخرافية!

ب ـ أكثر ظواهر الحياة تتحكم في وجودها وتطورها عوامل داخلية وأخرى خارجية، فحين ينهزم جيش في معركة ما، فإن الشيء المألوف أن تحدث الهزيمة نتيجة قصور ذاتي وضعف داخلي، ونتيجة ضغط جيش الأعداء، لكن حين تكون عقلية الجيش المهزوم مشوَّهة، فإنه قد يقول: إنه لم يهزم، وإنه حقق مكاسب هائلة، وحين يقر بالهزيمة، فإنه يرد أسبابها إلى العوامل الخارجية فقط؛ فقوة عدوه، وليس ضعفه، هي السبب فيما حصل!!

ولا يخفى أن كثيرين من أبناء الأمة يرون أن ما حصل من فتن واحتراب في تاريخنا الإسلامي، كان بسبب عناصر مدسوسة، أو تآمر أممي. وسقوط الدولة العثمانية كان بسبب تآمر أوربا. وقوة الاقتصاد اليهودي في فلسطين السليبة بسبب المعونات الأمريكية... وهكذا فكل شيء عندنا على ما يرام، والسبب في مصائبنا هم الآخرون!! ونجد بعد هذا أن من مستلزمات (التفسير التآمري) للواقع والتاريخ اللجوء الدائم إلى عادة (الانتقاء) الذي يمكن العقل من القيام بعمله وفق الثقافة (التآمرية) السائدة. فإذا جاء نص يؤكد القصور الذاتي في حدث تاريخي فاجع، كان ذلك النص مكذوباً، أو بحاجة إلى تمحيص... وإذا جاء نص يؤكد وجود تآمر خارجي، فإنه يُقبل دون تردد!!

إن مهمة المعلم أن يحرر عقول الطلاب من كل المقولات

والطروحات والأنماط والعادات الخرافية والعنصرية والإقليمية والمحلية والقَبَلية، ويقوم إلى جانب ذلك بتأسيس العقلية المنهجية السببية التي أرسى قواعدها القرآن الكريم، وعليه أن يستعين بالخبرات التي خلفها كفاح البشرية ضد استعباد الثقافات المحدودة للعقول، وضد أشكال التحيز والرؤى المشوَّهة والأحكام المبتَسرة... وحتى يستطيع المعلم أن يفعل ذلك، فإن عليه أن يثقف نفسه على نحو مستمر بثقافة عالمية، تمكنه من الموازنة الصحيحة، وتخرجه من سجن الخبرات الفجة والقراءات الناقصة للماضي والحاضر.

٤ ـ مساعدة الطلاب على تحديد أهدافهم:

منذ سن الثامنة يبدأ الطفل بالتساؤل عن العمل الذي سيمتهنه في المستقبل، وعن التخصص الذي سوف يدرسه تأثراً بالآباء والأساتذة والزعماء والإخوة والأقرباء. ومنذ ذلك الحين تبدأ مسؤولية المعلمين في مساعدة الطلاب على التطلع إلى الارتباط بأهداف تناسب طاقاتهم ومواهبهم، وهي إلى جانب ذلك ممكنة التحقيق وذات معنى. صحيح أن كثيراً مما يقال في سن مبكرة عن مهنة المستقبل عرضة لتبدلات عديدة، إلا أن تحاور المعلم مع طلابه عما يمكن أن يسعوا لأجله ذو فائدة عظيمة في تحديد آفاق ما يمكن اختياره، فلكل مجتمع إمكاناته وحاجاته ومشكلاته، وهي في تغير دائم، ومن خلالها جميعاً يمكن بلورة قائمة بأهداف متنوعة، يزيدها الطلاب بلورة وتحديداً إلى أن يحين وقت الاختيار.

من المهم في معالجة هذا الموضوع مع الطلاب أن يتم من أفق إشعارهم بالمسؤولية تجاه أنفسهم وأمتهم؛ إذ إن (الشخصية) لا تنبثق إلا من خلال الشعور بالمسؤولية. والأهداف التي يسعى الناشئة إلى تحقيقها، قد تصبح مصدراً للأنانية والتوتر الاجتماعي ما لم تنبثق من إحساس المجتمع بحاجاته المستقبلية، فإذا كان المجتمع يشكو ـ مثلاً ـ من نقص في المشتغلين بالبحث العلمي أو الأطباء أو التقنيين أو المهندسين... وجب تركيز البحث والحوار والتوجيه نحو ما يصبو المجتمع إلى إيجاد التوازن

فيه. بالإضافة إلى هذا فإن تحقيق أي هدف يجب أن يتم في جو التجربة المعيشة للمجتمع، وعلى خلفية ثقافية وتاريخية محددة. ومن المهم للمعلم أن يستوعب ذلك حتى يبلور لطلابه الأنماط الفكرية السائدة والقوى النابعة منها، ومواطن الصراع فيها، والوسائل المختلفة التي تساعد على تخفيف حدة الصراع وتوجيهه بما يكفل إقامة مجتمع متزن مرن متفتح، متماسك، يقبل التغيرات الجديدة، ويحدثها[1]. وبهذا يكون تحديد أهداف الأفراد مؤطراً بمطالب المجتمع الذي يعيشون فيه، وبتجاربه وإمكاناته.

٥ ـ إثارة الفضول لدى الطلاب:

لعل هذه المسألة هي أكبر فرصة متاحة أمام المعلم؛ ليصنع شيئاً رائعاً من العجينة التي بين يديه، ولعلها في الوقت نفسه أكبر مشكلة يعاني منها!

لدى الناس جميعاً حب فطري للاستطلاع، زودهم به الخالق ـ جل وعلا ـ ليكون الأداة الرئيسة في نمو معارفهم وخبراتهم؛ لكن هذه الإمكانية ـ كشأن كل الإمكانات ـ بحاجة إلى حماية ورعاية. من المؤسف أن تربيتنا العامة، لا تشجع الناشئة على التساؤل والتحاور؛ مما أوجد لدى الكبار والصغار ميلاً عظيماً إلى (الصمت) ومما جعل المعلم يعاني من مشكلة (رجع الصدى) فهو لا يدري في أي موقع وقع كلامه؛ لأنه ـ في الغالب ـ لا يسمع من الطلاب أي شيء يدل على انفعالهم بما يقول؛ فلا أسئلة ولا نقاش ولا اعتراض ولا إضافة... وكثير من المعلمين الأكفاء يستجدون من طلابهم كل ذلك، لكن لا يحصلون إلا على استجابة ضعيفة. وصار مما يُحسب للأستاذ أن يجعل طلابه بشراً ينطقون!!

ربما استطاع الأستاذ الناجح أن يصنع شيئاً في هذه السبيل عن طريق العلاقات الفردية مع الطلاب في أوقات الساعات المكتبية وخارج الدوام، وخلال ساعات الأنشطة.

---

(١) التربية والتغير الثقافي: ١٤٢.

وعلى كل حال فإن ظاهرة إعراض كثير من الطلاب عن التفاعل مع ما يقال لهم، تحتاج إلى دراسات كثيرة، وحوارات معمقة؛ ومهما يكن من أمر فإن هذه الظاهرة ستظل جزءاً من ثقافة السكوت والتغابي التي آثر كثير من الشعوب المتخلفة أن يواجه بها مستقبله المجهول، وما لم يطرأ تغير أساسي على تلك (الثقافة) فإن فائدة المعالجات الجزئية، ستكون محدودة.

لا يعني كل هذا أن كل المعلمين قد فعلوا كل ما بوسعهم، أو كل ما يجب عليهم أن يفعلوه، فهناك معلمون لا يسمحون للطلاب بإلقاء الأسئلة، ولا بالمناقشة. ومنهم من لا يسمح بذلك أثناء إلقاء الدرس. وهناك معلمون يشعر طلابهم أنه لا أجوبة عندهم على أي سؤال، يمكن أن يوجه إليهم - بسبب ضحالة معرفتهم - ولذا فعدم توجيه الأسئلة لهم هو من باب الرفق بهم، ودفع الحرج عنهم!

هذا كله يعني أن المسألة بحاجة إلى أكثر من حل، وعلى أكثر من صعيد.

٦ - إعانة الطلاب على الوضوح الفكري:

هذه من المسائل الصعبة التي تواجه كل معلم، فالغموض وسوء الفهم والخبرة المشوهة من ملازمات الجنس البشري، وكما قيل: إن من لا يفهم أبداً، هو - على الأقل - في حمى من سوء الفهم!

إن النظام الرمزي لدى الطلاب - ولا سيما الصغار منهم - غير مكتمل، كما أن وسائطهم المعرفية غير ناضجة؛ ولذا فإن ما يستخدمه المعلمون من عبارات في شرح القضايا الكبرى، لا يؤدي وظيفته التفهيمية على الوجه المطلوب؛ فالفتى يدمج كل ما يسمعه في أطر فكرية ومعرفية ناقصة، مما يجهض فاعلية كثير من المدلولات الرمزية، ويحول دون وصول كثير من المعاني الحضارية التي يجب أن تصل إليهم. حين يتحدث الأساتذة عن ضرورة الاستعداد لمواجهة مخاطر (العولمة) أو الاستعداد لمواجهة شح الموارد، أو الاستعداد لمواجهة خطر تلوث البيئة أو تزايد صعوبة العيش

الكريم... فإن الطلاب ـ في الغالب ـ لا يستوعبون مغزى هذا الكلام، ولا يستخلصون منه معاني عملية. ولم لا وكثير من المعلمين وكبار السن لم يستوعبوه بعد؟!

حتى يتمكن الأستاذ من إيصال أكبر عدد ممكن من المعاني الواضحة إلى أذهان الطلاب، فإن عليه أن يعتمد طريقة الحوار، وأن يفسح صدره لسماع استفسارات الطلاب ومناقشاتهم واعتراضاتهم، وما يعرضونه من صور سوء الفهم. إلى جانب هذا فلا بد من الإتيان بالنماذج والأمثلة القريبة من خبرة الطالب. وللإحصاءات والأرقام، وذكر الاستنتاجات والدروس من الحوادث التاريخية إيحاءات ودلالات ذات قيمة عالية في توضيح الأفكار. ومن المفيد في هذا السياق تعويد الطلاب مناقشة المسائل عن طريق التحليل والتركيب، كأن يقال لهم: ما العوامل والأسباب التي أدت إلى تأخر العالم الإسلامي صناعياً، أو التي أدت إلى انتشار التدخين مؤخراً، أو إلى كثرة حوادث الطلاق...؟ وكأن يقال لهم: إذا حدث انخفاض في مستوى التعليم في بلدٍ ما إلى جانب نسبة عالية من البطالة، فما الحالة الاجتماعية التي يمكن أن تنشأ عن ذلك؟

حين يستمع المعلم إلى إجاباتهم، فعليه مناقشتها، ومحاولة تسديدها، وبيان الأسس التي تقوم عليها الإجابة الصحيحة.

٧ ـ تكميل المناهج والمقررات الدراسية:

حين تقرر وزارات التربية تدريس بعض المواد أو بعض المناهج والكتب، فإنما تتوخى تلبية الحاجات المعرفية للشريحة العريضة من الطلاب، آخذة بعين الاعتبار الأحوال العادية والمستويات العامة. كما أن خبرات القائمين على وضع المناهج مهما كانت راقية، فإنهم يظلون بشراً، لهم أفقهم واجتهادهم وقصورهم. والتطوير التربوي للمناهج كثيراً ما يكون عاجزاً عن ملاحقة الحاجات العلمية المتجددة للطلاب. هنا يأتي دور المعلم الجيد المدرك لمسؤولياته، والغيور على مستقبل طلابه. وعلى سبيل المثال

فقد يجد مدرس (اللغة العربية) في المرحلة الثانوية أن كثيراً من طلابه ضعيف في (الإملاء) فيعمد إلى شرح بعض القواعد الإملائية المهمة، أو يلزمهم بكتابة بعض المقاطع، ويناقشهم في أخطائهم فيها.

قد يحدث أن يقدم الكتاب المدرسي إحصاءات قديمة حول عدد السكان أو الناتج الوطني أو نسبة الفقر... وعلى المدرس آنذاك أن يتلمس الأرقام الجديدة لتقديمها إلى طلابه. وقد يحدث أن تطرأ أحداث مهمة على قطر من الأقطار، فتتغير بعض المعطيات الجغرافية والحضارية فيه، مما يستلزم اطلاع الطلاب عليها، حتى تكتمل الصورة لديهم.......

الطلاب المتفوقون قد يحتاجون إلى من يرشدهم إلى بعض المراجع والكتب التي تقدم شرحاً أوسع وأدق للموضوعات التي تتناولها الكتب المدرسية، كي يشبعوا نهمهم المعرفي؛ وليس هناك من يقوم بهذه المهمة سوى المعلم.

قد يلاحظ معلم كره بعض الطلاب للمادة التي يدرسها ـ وكثيراً ما يحصل ذلك بسبب سوء مدرس سابق أو بفعل دعاية مضادة ـ وفي هذه الحالة فإن على المعلم أن يستجمع كل قواه؛ ليثبت لطلابه حاجتهم إلى تلك المادة، وليبرهن على الفوائد التي سيجنونها من وراء الفهم الجيد لها؛ وذلك من خلال الكشف عن فلسفتها الخاصة، وعن موقعها في النسق المعرفي العام.

وفي الختام يمكن القول: إن الخطوة الأولى على طريق القيام بهذه المسؤوليات، تتمثل في إدراك المعلمين لجلال المهمة التي ندبوا أنفسهم لها، وللثمار العظيمة التي ستقطفها الأمة من وراء أدائها على الوجه الصحيح.



إضاءة:

إن الواقع الاجتماعي ليس انعكاساً مباشراً للأفكار السائدة.

أسلوب التدريس:

العلاقة بين أسلوب التدريس والمعلومات التي يقدمها المعلم خلال الدرس، هي من نوع العلاقة بين الشكل والمضمون، وقيمة الأشياء ـ على نسب متفاوتة ـ من الشكل والمضمون معاً. وفي الحديث الشريف: «**إن من البيان لسحراً**»[1]. إن التدرس هو فن إيصال المعلومة للطالب. والنجاح فيه، وإن كان يقوم على امتلاك قدر مناسب من المعلومات إلا أن الجانب المهاري فيه؛ ذو أهمية بالغة. وقد رأينا كثيراً من المعلمين الذين يملكون من المعرفة ما هو مطلوب، لكن لم ينجحوا في عملهم، كما رأينا منهم من يعد ناجحاً مع قلة بضاعته من العلم في المواد التي يدرسها؛ لأنه يملك ما يتطلبه الموقف التعليمي من مهارة وعتاد.

إن أسلوب الرجل، هو الرجل نفسه، ولا ينطبق هذا على شيء كانطباقه على مهنة التعليم؛ فالبراعة في أداء الدرس، لا تعتمد على البيان وحده، كما لا تعتمد على المعلومات وحدها، ولا على شكل المدرس، أو طريقة تعامله مع طلابه، وإنما هي عصارة فكر المعلم وثقافته وروحه وأحاسيسه وذوقه وحسن تصرفه؛ ومن نوعية هذه العصارة يكون أداء المدرس في عمله.

نحن لا نريد هنا أن نلج في تفاصيل الأسلوب التعليمي الناجح؛ فنحن لا نكتب في هذه السلسلة لأهل الاختصاص، وإنما نريد أن نقدم بعض الإضاءات التي نظن أنها ترفع من سوية الوعي العام في المسائل التي نطرقها.

---

(١) أخرجه البخاري.

وإليك بعض اللمحات حول أسلوب التدريس من خلال النقاط التالية:

١ ـ الحفظ والتلقين أم الفهم؟

من القضايا المثيرة للجدل في ساحتنا التربوية قضية (الحفظ عن ظهر قلب) حيث توجَّه سهام ناقذة لهذه المسألة، ويلقى اللوم على المعلمين الذين يصرون على تلقين الطلاب أكبر قدر من المعلومات، والتي سيطالبون بإفراغها حرفياً في أوراق الاختبار.

ويمكن القول: إن هناك موجة عالمية، تحط من قدر (الذاكرة) وتدعو إلى ضرورة استناد الطفل في التعليم إلى الذكاء والفهم، والاستجابات الجيدة للمنهج أكثر من استناده للحفظ. لكن بعض الباحثين يرى أننا لا نستطيع في الأحوال كلها أن نتصور بسهولة وجود إنسان مثقف ذي معلومات جيدة جداً، بل ومتعمقة في بعض النقاط دون أن يرجع الفضل فيما اكتسبه إلى (الذاكرة)[١].

ويمكن القول: إن هناك بشأن هذه المسألة ثلاثة اتجاهات كبرى: اتجاه، يزهِّد في أسلوب الحفظ والتلقين إلى أبعد الحدود، كما هو الشأن في الولايات المتحدة الأمريكية. واتجاه يعول على الحفظ أكثر بكثير من التعويل على الفقه والتحليل والاستنتاج، وهذا هو السائد في معظم البلدان الإسلامية. والاتجاه الثالث، يهتم بالحفظ والفهم في آن واحد، وهذا ما يأخذ به التعليم في اليابان.

وأود أن أبدي حول هذه المسألة عدداً من الملاحظات:

أ ـ إذا نظرنا في القرآن الكريم وجدنا في مسألة (الحفظ) أن الله ـ جل وعلا ـ تكفل بحفظ القرآن الكريم حين قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝﴾[٢]. ولا نجد في الكتاب العزيز آيات تحث المسلمين على

(١) الثقافة الفردية وثقافة الجمهور: ٨٩.

(٢) سورة الحجر، آية ٩.

حفظ القرآن الكريم (عن ظهر قلب) كما أن كثيراً من أعلام الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وكثيراً من الفقهاء العظام، لم يكونوا يحفظون القرآن الكريم كاملاً. ولم يشترط علماء الأصول فيمن يريد ممارسة الاجتهاد حفظ القرآن. ونجد إلى جانب هذا ما يفيد أن القرآن الكريم أُنزل من أجل تدبره والتفكر فيه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴿٢٩﴾﴾[1]. ومع التقدير لحفظ القرآن الكريم والتقدير لحفظته، إلا أننا نجد أمراً غريباً في عالمنا الإسلامي؛ حيث إن فيه مئات الألوف من المدارس التي تعنى بحفظ القرآن على حين أننا لا نكاد نجد مدرسة واحدة، متخصصة بتدبره وفهمه والتفكر فيه!!

ب ـ إن (التلقين) ليس أسلوباً في التدريس فحسب، وإنما هو قبل كل شيء جزء من أسلوب حياة؛ فالمجتمع الذي يجعل حياته تتمحور في كل مجال حول عدد معين من الأشخاص على حين يهمّش الجماهير الغفيرة ـ ينشئ على نحو غير مقصود (المعلم) الملقّن الذي تتمحور حوله العملية التعليمية كلها؛ فهو الذي يعلِّم، ويربي، يؤدِّب، ويتسلط، وهو الذي يهمش الطالب حين يخصص له وظائف الامتثال والاستقبال والاستيعاب[2]!

وهذا كله نابع من نزوع (تسلطي) لدى (المعلم)، ومن استخفاف بقدرة الطالب على المشاركة في العملية التعليمية. وما دمنا نعتقد في الطالب ذلك فسيكون وسيظل كذلك!

وقد قال (توماس جيفرسون) معلم الثورة الأمريكية، وثالث رئيس للولايات المتحدة لـ(آدمز): «إن كلاً منا يحب الشعب، ويعمل على إسعاده، ولكنك تحبه كما لو كان رضيعاً، تخشى أن تتركه بلا حاضنة، في حين أني أحبه كما لو كان راشداً، يستطيع أن يتولى أمر نفسه بنفسه حراً»[3].

(١) سورة صّ: آية ٢٩. وانظر سورة النساء: آية ٨٢.
(٢) انظر: التربية العربية: ٩٢.
(٣) لماذا نعلم: ٤٩.

جـ - إن التلقين لا يقتصر على تحفيظ الطلاب معلومات معينة، ثم مطالبتهم بها، وإنما يتخذ أشكالاً عديدة منها:

- عرض وجهة نظر واحدة والتمسك بها.

- عرض وجهات النظر المعارضة بطريقة مشوهة أو غير عادلة.

- تغليب العاطفة، واستبعاد التحليل والنقد والدراسة للشواهد العلمية.

- استخدام طرق آلية لتحفيظ معلومات معينة.

- عرض الموضوعات في صور لا تناسب قدرة الأطفال أو الشباب ومستوى نضجهم[1].

د - وجد من خلال بعض الدراسات المقارنة أن ذاكرة الطالب الشرقي، أقوى من ذاكرة الطالب الغربي، حيث لم يدرب هذا الأخير ذاكرته على الحفظ. وحين عُرضت بعض المشكلات التي تتطلب حلّاً، استطاع الطالب الغربي حلها قبل الطالب الشرقي؛ لأن طريقة تعلمه في الأصل، كانت على نحو أقرب إلى التفكير. ونعتقد أن ضعف الإبداع في عالمنا الإسلامي، يعود في بعض أسبابه إلى التعليم التلقيني.

هـ - إن الطفرة (المعلوماتية) الهائلة، قد حطت من شأن المعطيات العلمية الجاهزة، حيث صار بالإمكان الحصول على كم ضخم من المعارف والإحصاءات وأخبار الاكتشافات العلمية بأيسر السبل وأقل الأثمان. وبرزت مسألة معالجة هذه المعلومات، والاستفادة منها في حل المشكلات التي تواجهنا، وفي تلبية الاحتياجات المتزايدة لأمتنا.

ولا يعني هذا أن اختزان المعلومات في الذاكرة، صار غير ذي جدوى؛ إذ إن هناك علوماً قوامها الحفظ مثل علم (القراءات القرآنية) ومثل علوم الطب والتاريخ والجغرافيا. وإضافة إلى هذا فإن المخ البشري، يحتاج

---

(١) التربية والتغير الثقافي: ٣٣٧.

إلى معلومات ومعطيات يشتغل عليها، ويستخلص منها شيئاً جديداً نافعاً. في اليابان يحفظ الطلاب كمّاً كبيراً من المعلومات، إلا أنهم من خلال (الاستراتيجيات) المقصودة يتعلمون كيف يصنفون ويبوبون تلك المعلومات، مما يسمح لهم بفهم العلاقات بينها. ولا ينظرون إليها على أنها شذرات متفرقة، لا روابط بينها؛ إذ إن إدراك الروابط والعلاقات هو الذي يعطي للمعلومات معاني وفوائد[1].

إنني أعتقد أن التركيز على الحفظ قد جلب لنا أضراراً كثيرة، وقد آن الأوان لأن نفسح المجال لأسلوب جديد في التعليم، يقوم على محاولة التحليل والتعليل والتفسير لكل المسائل التي نقررها، كما يقوم على الربط بين الجزئيات العلمية المتشظية بغية دمجها في جسم معرفي واحد؛ حتى نتمكن من فهم أدق لواقعنا المعاصر.

إن الإبقاء على طلابنا مخازن للمعلومات سيقلل من وعيهم بالعالم الملابس لهم؛ وقبولهم بهذا الدور السلبي المفروض عليهم، يعني بالضرورة تأقلمهم المستمر مع الواقع الذي يعيشونه[2]، مع أن المطلوب من التعليم هو تغيير واقع التخلف ورفضه، وتهيئة الأجيال الجديدة لصناعة حياة أطيب وأكرم.

٢ ـ تعليم أكثر التصاقاً بحقائق الأشياء:

إن الأعمال العقلية المعتمدة على التعريفات والمقارنات والتصورات الذهنية وحشود من الجمل والآراء ـ أكبر مصدر للضجر والملل، وأكبر مصدر للتصورات والآراء الخاطئة أيضاً.

وقد أدرك عدد من كبار المربين عقم التدريس في (داخل الفصول، والتدريس المعتمد على الكتب وحدها، ودعوا إلى أن نقدم للناشئين حقائق

---

(١) التربية والتحدي: ٨٣.

(٢) التعليم والثقافة كحاجات أساسية في الوطن العربي: ٧٤.

الأشياء بدل أن نقدم لهم ظلال الأشياء وأشباهها[1].

إن الكسل وقلة الإمكانات وكراهة التجديد، وضعف الحساسية للمشكلات التعليمية هي العوامل التي تمد طرق التدريس الشائعة لدينا بالبقاء!

إن المنطق اليوناني كان يعتمد على الذهن وحده في تصور المشكلات وحلها بعيداً عن التجربة الحسية، وإننا ما زلنا نرسف في أغلال ذلك المنطق، على حين أن أوربا اعتبرته إرثاً معوّقاً، فأعرضت عنه إلى التجربة الحية، فحققت ما حققت.

وسنضرب هنا بعض الأمثلة لتوضيح ما نريد:

أ ـ نعاني في تدريس اللغة العربية من مشكلة استخدام الطلاب للقواعد في الكتابة والنطق؛ فالطالب ـ مثلاً ـ يحفظ تعريف الفاعل، ويعرف أنه واجب الرفع، ويعرف تعريف المضاف إليه، وأن حكمه وجوب الجر، لكنه حين يتكلم أو يقرأ، لا يهتدي إلى وجه الصواب في التعامل مع ذلك، فيرفع ما حقه الجر وينصب ما حقه الرفع... والسبب في هذا هو قلة الاستخدام العملي للفصحى، وقلة التمارين التي يحلها الطلاب. ويمكن من أجل التخفيف من هذه المشكلة أن يكلف المعلم طالباً بتحضير كلمة قصيرة، يلقيها أمام زملائه، ويقوِّم زملاؤه الأخطاء النحوية التي وقع فيها، ثم يناقش فيها. كما أن بالإمكان تكليف الطلاب بشكل كتيّب، أو إعراب جزء من القرآن الكريم، أو تتبع الأخطاء الموجودة في برنامج إذاعي... ويعقد لكل ذلك حلقات نقاش مشتركة بين المعلم وطلابه.

ب ـ إذا كان في المنهج درس أخلاقي عن العدل، فإن أفضل وسيلة لفهمه وتجسيده، هو أن يؤتى بشريط مرئي، يحوي وقائع محاكمة، حيث

---

(١) من هؤلاء المربي (جان روسو) و(مونتيتني) و(رابليه). انظر أثر تقنيات التعليم على الذكاء المروز لدى الأطفال: ١٩٠ وما بعدها.

يسمع الطالب، ويرى الجدل بين محامي الادعاء ومحامي الدفاع للوصول إلى حكم عادل، كما يرى تصرف القضاة حيال الحجج المتناقضة التي يسمعونها. وهو إلى جانب ذلك يتعلم دروساً في البلاغة والمنطق والحوار والقانون!

جـ ـ حين يدرس الطلاب موضوعاً يتعلق بالصناعة أو الزراعة أو الكهرباء أو التاريخ، فإن بالإمكان تنظيم زيارات لهم إلى المؤسسات والمصانع والمتاحف والمزارع من أجل رؤية بعض التطبيقات والتجسيد لما يقرؤونه في الكتب وهكذا...

إن القيام بكل هذا ممكن وممتع، لكنه يحتاج إلى شيء من الحيوية والتنظيم وقليل من التكاليف. وعلى المعلمين أن يبادروا إلى تأسيس نماذج جديدة في كل هذا دون أن ينتظروا المساعدة من أحد.

٣ ـ البحث العلمي عوضاً عن الاختبارات القاسية:

الحاصل في أكثر مدارسنا أن الطلاب يستمعون من أساتذتهم طوال العام، ويكتبون بعض الواجبات اليومية التي لا تشغل سوى وقت قصير من يومهم، فإذا جاء وقت الامتحان هبّ الطلاب للمذاكرة المكثفة، وإفراغ ما ذاكروه على الورق، ثم ينتهي كل شيء!

هذا الأسلوب في التعليم ترك فراغاً كبيراً في حياة الطلاب، وحرمهم من تكوين شخصية علمية مستقلة. وهذا يفسر قلة الباحثين الجادين في ساحاتنا الثقافية، حيث التكوين الأوليّ لشخصية الباحث شبه مفقود!

إن المدخل الصحيح هو إشعار الطالب بأنه (باحث صغير)، وأن أستاذه مرشد وموجه أكثر من كونه معلماً وملقناً، فيكون في كل مادة بحث أو تجربة، ويجعل نصف الدرجة عليه، والنصف الآخر على الاختبار. وتأخذ هذه الوضعية صوراً عديدة منها:

ـ تكليف الطلاب ببعض التجارب العلمية في مجالات العلوم والكيمياء

والفيزياء، وتقديم شرح نظري واسع عنها من أجل غرس حب البحث العلمي في نفوسهم واكتشاف ميولهم.

- تكليف الطلاب بتلخيص كتاب، أو تقديم عرض عنه بأسلوب تظهر فيه شخصية الطالب.

- تكليف الطلاب بقراءة بعض الكتب، ومحاولة نقدها، أو إضافة بعض الأفكار الجديدة إليها.

- أن يعهد إلى الطلاب باستعراض بعض المسائل والقضايا التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية القديمة، ومحاولة النظر إليها من زاوية جديدة، أو بطريقة جديدة، أو محاولة ترجيح بعض ما قيل فيها على غيره، أو عرض معلومات جديدة تتعلق بها.

- أن يقوم المعلم بعرض بعض المشكلات العلمية أو الاجتماعية أو الإدارية على الطلاب، ومطالبتهم بأن يجمعوا معلومات وإحصاءات واستبانات حولها، ثم محاولة الإسهام في إيجاد حلول لها.

إن المقصود الأساسي من كل هذا ليس إثراء الساحة العلمية بالمعارف والكشوفات، وإنما تدريب الطلاب على المعالجة المستقلة للمعرفة، وتأسيس شخصية الباحث العلمي؛ فالارتحال نفسه أهم من المكان الذي سيصلون إليه. بهذا نستطيع أن نوجه التعليم توجيهاً جديداً، وأن نكتب له تاريخاً ناصعاً، يستحقه أبناؤنا!

٤ ـ تشجيع الجد والتميز:

الثناء على أصحاب الكفاءات وأصحاب السلوك المتميز والهمة العالية أدب نبوي رفيع؛ حيث حملت لنا الآثار مديحه ﷺ للعديد من أصحابه، تقديراً لتقدمهم في العديد من المجالات. كما أثنى على أهالي بلدان وأقاليم، وعلى شعوب وقبائل، مما هو معلوم ومشهور.

إن الإنسان مهما بلغ من المكانة ـ يظل بحاجة إلى التقدير والتشجيع،

وكأن الواحد منا غير متأكد من منزلته في نفوس الآخرين، وغير واثق من اعترافهم بفضله. ويبدو أن تقويم المرء لنفسه يتم عبر اعتبارات اجتماعية وثقافية، كما يخضع لاعتبارات موضوعية وشخصية؛ مما يجعل المرء بحاجة دائمة إلى غيره في هذا المقام. لهذا كله كان على المعلم أن يكافئ طلابه الذين يظهرون تفوقاً في السلوك أو التحصيل أو الخدمة العامة أو التعاون... والمعلم حين يكافئ طالباً على سلوك ما، فإنه في الحقيقة لا يكافئ على ذلك السلوك فحسب، وإنما يدعم الذات كلها، وتكون النتيجة رضا الإنسان عن نفسه، وتعزيز ثقته بذاته؛ مما يدفعه إلى المزيد من الأعمال التي يظن أنها تمنحه ثواباً أكثر.

إن الطفل الصغير، يميل إلى الثواب الذي يتجسد في أشياء محسوسة كبعض الهدايا، وكلما كبر صار للثواب المعنوي قيمة أكبر؛ فنيل المرء الكبير في السن للقب من ألقاب التفخيم أهم في نظره من هدية ذات قيمة مالية عالية. ولذا فإنه يكفي في كثير من الأحيان أن يبدي المعلم علامات القبول والاستحسان، ويطلق عبارات الثناء والتقدير؛ والمهم دائماً هو الصدق والإخلاص[1].

إذا أردنا أن يكون (الثواب) فعالاً في تعزيز التميز، فينبغي أن نجعله مباشراً وسريعاً، فحب قطف الثمار بأسرع وقت ممكن غريزة مكينة في نفوس البشر كما قال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾[2]. حين يقوم الطالب بعمل جيد، فإنه يتوقع التقدير من معلمه، فإذا لم يسمع ما توقعه، فقد يفسر ذلك على أ نوع من العقوبة له، أو نوع من الاستخفاف به. وقد يتجاوز الأمر ذلك إلى الحكم على المعلم بالتبلد أو الظلم. وبهذا تصبح مسألة المكافأة عنصراً مهماً في نجاح العملية التعليمية، وبناء الثقة بين المعلم والطالب.

---

(١) انظر: الدروس التي تتعلمها التربية من علم النفس: ٣٦، ٣٧.

(٢) سورة الإسراء: آية ١١.

إن الثواب يستمد قدراً كبيراً من أهميته من شخصية (المعلم)، فإذا كان يحوز على حب طلابه واحترامهم، فإن لكلماته آنذاك معاني استثنائية في تعزيز الإنجاز، كالمعاني التي تصحب شهادة ينالها المرء من جامعة أو هيئة لها مكانة عالمية.

لا بد من الإشارة هنا إلى أنّ (الثواب) يفقد قيمته تدريجياً إذا اشتمل على عنصر المبالغة، أو إذا تم منحه بسخاء، فالمعلم الذي يصف أحد طلابه بأنه عبقري زمانه، أو الذي يقول لكل طالب: إنه مثالي أو ممتاز، يفقد مصداقيته، وتتحول مكافآته السخية إلى عنصر سلبي في العملية التعليمية!

وإلى جانب هذا فعلى المعلم أن يكون على حذر من أن يقود الثناء على بعض الطلاب إلى إشعال نار الغيرة والتنافس الشديد بينهم؛ مما يبث بينهم العداوة والبغضاء.

إن مرض الغرور والثقة المبالغ فيها بالنفس، قد يتولد من التشجيع غير المقترن بالحكمة، مما يسبب الضرر لمن أردنا نفعه والإحسان إليه.

لعل المناسب أن نكافئ بحذر، وأن نرقب نتائج ذلك بالإضافة إلى جعل الطالب يدخل في تنافس مع نفسه بدل التنافس مع زملائه، وكأن يقال له: إن العمل الذي قمت به كان رائعاً، ولكن دون المستوى الذي قدمته في الفصل الماضي، أو يقال؛ إن ما قمت به ممتاز، ولكن بإمكانك أن تقدم أفضل منه؛ فظروفك تسمح لك بخير منه.... هذا ونحوه، يدفع الطالب في طريق (التفوق على الذات) بدل الانشغال بمقارنة نفسه بزملائه، وربما الكيد لهم.

٥ ـ المعلم واستخدام العقاب:

استخدام العقاب من قبل المعلمين في ضبط سلوك الطلاب وحملهم على أداء واجباتهم، من أكثر القضايا المثيرة للجدل في دول العالم كافة.

ونحب أن نقدم حول هذه المسألة المهمة الإضاءات التالية:

١ ـ لأسباب عديدة، لا تخفى على القارئ النبيه، سيكون سلوك الطلاب في المدارس وأداؤهم لواجباتهم، وعلاقتهم مع أساتذتهم وزملائهم ـ غير متجانس؛ ولذا فإن علينا دائماً أن نتوقع منهم ما يسر، وما يسوء، وأن نسمع ونرى الملائم وغير الملائم. في بعض الأحيان تكون الظروف التعليمية في المدرسة سيئة، فتدفع الطلاب إلى الفوضى وسوء السلوك دفعاً. الأعداد الكبيرة في الفصل، تجعل معرفة المسيء عسيرة على المدرسة، فيغري ذلك بعض الطلاب بالمزيد من الإساءة. كما تجعل تكوين تصورات واضحة عنهم، وبناء علاقات جيدة معهم أمراً شاقاً. ضيق أماكن الدراسة، وممرات المدرسة، يؤدي إلى الزحام، ويثير بالتالي العدوانية. قلة الأنشطة غير المنهجية، وحرص الإدارة الشديد على ضبط إيقاع الحركة في المدرسة، مما يدفع إلى السلبية وسوء الخلق. ضعف شخصية المعلم، وسوء إدارته للفصل، وعدم تمكنه من المادة التي يدرسها، كل ذلك يؤدي إلى استهانة الطلاب به، ومحاولة معاكسته...

ب ـ إن المعلم الجيد يذهب إلى عمله حاملاً معه عقائد إيجابية عن طاقة أبناء البشر وإمكاناتهم، وعن أهداف التعليم وقيمته، وقيمة نسيان الذات في سبيل قضية مهمة[١]. هذه الرؤية ستمنح المدرس البصيرة التي يحتاج إليها في موقفه من طلابه، وفي أدائه لعمله وتحمله لمشكلاته.

إن الأساس في العملية التعليمية هو الرغبة، وليس الخوف. والأعمال الحضارية العظيمة، لا تقوم على الخوف والتوجس والمنع والتهديد، وإنما تقوم على الإيمان والحب والشغف والأمل والعمل والمبادرة الذاتية والتضحية. الحدود والعقوبات من وجهة نظر الشريعة الغراء لا تنشئ مجتمعاً لكنها تحميه، وهي لم تشرع إلا لردع من فاتته التنشئة الاجتماعية

(١) المعلم أمة في واحد: ٢١.

الصحيحة؛ ولذا فإنها لم تحتل من الكتاب العزيز سوى مساحة ضيقة جداً. وهكذا العقوبات المعنوية والإدارية والمادية، لا يمكن أن تكون أسلوباً دائماً، ولا أساساً مكيناً في نجاح العملية التعليمية، ونقل المعرفة والخبرة من جيل إلى جيل.

بعض المعلمين لا يرشد الطلاب إلى ما يجب أن يعملوه، ولا إلى كيفية عمله، ولا إلى السلوك الذي يجب أن يسلكوه، فإذا وقع أحدهم في خطأ، نهاه أو عاقبه، غير منتبه إلى أنه لم يقم بما عليه أن يقوم به من الإرشاد والتوجيه. فريق آخر من المعلمين يفتقر إلى (الحزم) في أسلوب تعامله مع طلابه، مما يعطيهم انطباعات خاطئة عنه، ويدفعهم إلى التهاون بتعليماته، وإساءة الأدب معه، مما يضطره إلى إنزال العقوبات بهم. ولو استخدم الحزم المطلوب لما لجأ إلى العقوبة إلا قليلاً.

جـ ـ إذا كان العقاب لا يوجد متعلماً، وإنما يحميه، فإن علينا أن ندرس بعناية الأسباب التي تولد ضعف بواعث التعلم لدى الطلاب، وتدفعهم إلى السلوك السيِّئ؛ فالمدرسة لا تتعامل مع آلة، وإنما مع كائن حي له رغباته وطموحاته ونزواته ومشكلاته؛ وعليها أن تتحسس كل ذلك، وتحاول توفير الأجواء التي تساعد على التعليم واكتساب الخبرات والمهارات. وبما أن تحقيق هذا سيظل مشوباً ببعض القصور؛ فإن علينا أن نستشعر أن جزءاً من مشكلات الطلاب تقع مسؤوليته علينا، ولذا فإن الطالب في هذه الحالة، يستحق الرحمة والتعاطف والمساندة.

بعد كل هذا فهل يمكن للعملية التعليمية أن تسير في كل حين دون استخدام أي نوع من العقاب؟

لا أعتقد أن ذلك ممكن؛ ولذا فإن علينا عند إيقاع العقاب مراعاة ما يلي:

ـ العقاب البدني ينبغي أن يوكل إلى جهة واحدة مثل المدير أو الوكيل حتى نضمن سلامة استخدامه، وحتى لا نهدم العلاقة بين المعلم والطالب. ولا ينبغي استخدامه عند أول خطأ يقع، فالتهديد بالعقوبة له ردع أقوى من

العقوبة نفسها لدى بعض الناس. وقد قال عتبة بن أبي سفيان لمؤدب ولده: «تهددهم بي، وأدبهم دوني، وكن لهم كالطبيب الذي لا يعمل بالدواء حتى يعرف الداء».

- إذا كنا نسعى إلى تحبيب الطلاب بالمدرسة، فلا ينبغي ربط أي شكل من أشكال العقاب بالبقاء فيها؛ فلا نقول للطالب: إذا فعلت كذا فلن تغادر المدرسة إلا بعد العصر، أو ستكتب هذا الدرس عشرين مرة قبل أن تغادرها.

- حين توفر المدارس الحوافز المعنوية والمادية للطلاب المتميزين، فإنه سيكون أمامها هامش جيد، يحول دون استخدام العقاب البدني وغيره، فحرمان الطالب من جائزة أو هدية تعطى للعديد من زملائه، يكفي لإشعاره بالتقصير، ويوصل إليه رسالة عتاب، يفهمها كل طالب في العادة.

- لا بد من تعاون أسرة الطالب مع المدرسة في تقويمه وتوجيهه، والملموس أن استدعاء ولي الأمر إلى المدرسة، ومناقشة وضع الطالب معه - من الوسائل الناجعة في تأديب الطالب وإصلاحه؛ إذ قد يكون السبب في الانحراف والتقصير هو سوء فهم المدرسة للخلفية الثقافية والأسرية للطالب. وقد تكون الأسرة هي السبب في وضعية ابنها، وباجتماع الطرفين توضع النقاط على الحروف.

- العقاب البدني بحاجة إلى تقنين، فلا يصح ضرب الطالب على وجهه، ولا يصح ضربه ضرباً مؤذياً، لا يستطيع احتماله. كما لا تصح معاقبته بعقوبة السجن في حجرة من حجر المدرسة؛ لأن هذا يجعله يظهر بمظهر المجرم. ومع قلة فائدة القوانين الضابطة لهذه المسألة إلا أن وجودها يعطي بعض المؤشرات، ويوجد مرجعية معينة. حين نعتقد أن العقاب البدني، هو أشبه شيء بالتداخل الجراحي؛ فإننا سنقتصد في استعماله، وإذا استعملناه استعملناه بحذر وحكمة.

- هناك إغراءات كثيرة، تدعو (المعلم) إلى استخدام أسلوب التهكم

والسخرية في عقوبة طلابه، ويجب أن يكون الحذر شديداً في هذا الأمر؛ فربما نبذ المعلم الطالب بلقب قبيح، يلازمه طوال الحياة. وربما آذاه بذم أسرته أو قبيلته أو أهل بلده، فيقع بذلك في الظلم، ويثير مشاعر عنصرية، ويسبب للطالب ضرراً نفسياً بالغاً.

كلما ارتقى الإنسان كان تأثير العقاب المعنوي فيه أشد؛ والأسر المحطمة والجاهلة هي التي تعتمد استخدام العقاب البدني. وبسبب ارتقاء نوعية الحياة الاجتماعية، صار استخدام السخرية والاستهزاء غير مقبول، فلنحاول أن نعرض عنه، وأن نشوب ما نضطر إليه من عقاب بإظهار الحرص على تعليم الطالب ونفعه؛ حتى لا نثير فيه مشاعر البغضاء والانتقام.



إضاءة:

إن التعليم الذي لا يتحسَّن مثل الطفل الذي لا ينمو؛ كلاهما يعاني من مشكلة.

٣ ـ حقوق المعلم

تراثنا مفعم بالنصوص والآثار والأقوال والمواقف التي تشع بالثناء على المعلم والاعتراف بفضله، وأهمية وظيفته في حياة الناس. ولسنا نريد استعراض ذلك، فهو من قبيل المشهور. ومن البدهي أن نتحدث عن حقوق المعلم ما دمنا قد تكلمنا الكثير الكثير عما ينبغي عليه أن يفعله! فالأعباء التعليمية الثقيلة دون امتيازات لمن يضطلع بها، قد تحول مهنة التعليم إلى ملجأ لكل من لم يجد سبيلاً للنجاح في الحياة، كما تجعلها أضعف وسيلة لتحقيق الرضا الشخصي؛ وحينئذ يكون من المستحيل النهوض بالتعليم ما دمنا لا نستطيع أن نجتذب له أفضل العناصر.

وسنحاول هنا مقاربة هذه المسألة من خلال انقاط التالية:

١ ـ لا نختلف في أننا نعيش في عصر (المادة) حيث ينظر إلى الأشياء من زاوية وظيفتها ونفعها المادي ـ في المقام الأول ـ مما أدى إلى ضمور كل المعاني الرمزية، وإعادة صياغة النظر إلى كثير مما يعد مقدساً؛ وهذا هو سر برود العاطفة نحو الأرحام والأصدقاء وكبار السن والشخصيات العامة...

كان الناس قديماً يأتون بأولادهم الصغار إلى (الكتّاب) ويقولون العبارة المشهورة: «لك اللحم ولنا العظم»[١] تعبيراً عن تقديرهم لشخص المعلم وحكمته وحرصه على أبنائهم.

(١) أي من حقك أن تضربه الضرب الذي تراه ما لم تكسر عظامه!

أما اليوم فالمعلم موظف، يتقاضى أجراً، وفي (التعليم الخاص) يكون الأجر مدفوعاً من قبل أولياء الأمور؛ لذا فإن عليه أن يؤدي واجبه على أحسن وجه، وأن يراعي مشاعر أبنائهم، ويقدر ظروفهم، وقد يحملونه مسؤولية رسوب ابنهم وإخفاقه في دراسته. هذه الوضعية عالمية، وعلى المعلمين أن يكفوا عن الحلم بعودة ما كان يلقاه أسلافهم من أشكال التبجيل والاحترام!

٢ ـ هناك انخفاض في الدخل[١] في معظم الدول الإسلامية، وبطء في النمو، وهذا انعكس على جميع فئات الشعب. ومن الممكن لكل أصحاب مهنة علمية، كالطب والمحاماة والهندسة أن يشرحوا للناس عن خطورة اختصاصهم، وحاجة الناس إليه، واستحقاقهم أجوراً مجزية؛ كي يستطيعوا القيام بمهامهم؛ ومن ثم تبلور اتجاه عام نحو جعل الأجور متناسبة مع سنوات الدراسة والتدريب؛ فالطبيب يتقاضى أجراً أكثر من المهندس والمهندس أكثر من المعلم وهكذا... ومن ثم فإنه على الدولة أن ترفع جميع الأجور إذا ما لبت مطالب أهل تخصص أو مهنة بعينها، وهذا لا يكون ممكناً في كل الأحوال.

٣ ـ إن هناك فرقاً بين عمل المعلم وعمل الطبيب والمهندس؛ فأداء المعلم يقوم على تكامل جانبين: الشخصية والمهارة؛ فالمعلم مرب وقدوة ورائد إلى جانب كونه ناقلاً للمعلومات ومنمياً للمهارات. على حين يقوم أداء باقي المهن على المهارة على نحو أساسي. هذا يعني أنه لا بد من توفير الأسباب والعناصر التي تساعد المعلم على التمتع بوضعية من شأنها تمكينه من أداء رسالته السامية.

هناك إجماع على أن التعليم لا يمكن أن يكون مهنة المترفين

---

(١) الارتفاع في الدخل السنوي المشاهد في بعض الدول كثيراً ما يكون وهمياً حيث إن ذلك مظهر من مظاهر التضخم النقدي.

والأثرياء، لكن الحاصل أن هناك وضعاً تقليدياً سيئاً لكل من يلابس العلم والأدب، وقد كانوا قديماً يقولون: فلان أدركته حرفة الأدب، فافتقر!

وقد عبر عن هذا المعنى الشاعر محمود غنيم حين قال:

أيحيا الناس في بذخ وعز ونحيا مثل زهّاد الهنود
وما شطَّ المعلم أو تجنى ولا هو هام في العيش الرغيد
بل التمس الكرامة في زمان به الأقدار توزن بالنقود

إن السياسات المالية الحكومية في معظم الدول، تعامل قطاع التعليم على أنه قطاع (خدمات) أي قطاع غير منتج، ولذا فإن معلمي المراحل الابتدائية والثانوية يتقاضون أجوراً تقارب أجور من لم يتلق سوى حظ يسير من التعليم، مثل السباكين والنجارين والطهاة والحلاقين... وهذا دفع بكثير من المعلمين إلى إعطاء (الدروس الخصوصية) أو امتهان أعمال إضافية، شغلتهم عن أداء مهمتهم الأساسية!

في عصر محوره المادة يكون امتلاك الكفاية المادية أمراً مهماً. ويمكن للوضع المتردي للمعلمين أن يحوّل هذه المهنة المحترمة إلى وصمة اجتماعية، بدل أن تكون مصدر فخر واعتزاز لصاحبها!

إن انهيار مكانة المعلم في المجتمع، سيؤدي إلى انهيار ثقته بنفسه، وهذا سيؤدي إلى ضعف قدرته على المساهمة في بحث المشكلات العامة للمجتمع، كما يخفِّض من مستوى وعيه واهتمامه بالمحيط الذي يعيش فيه. وانعكاسات ذلك كله على التربية سيئة جداً؛ حيث إن كل رجالات الأمة يتخرجون من بين يديه، وهو الذي ينفخ فيهم من روحه، ويضفي على عقولهم ونفوسهم من فنه وذوقه وأحاسيسه؛ فإذا ما كان في وضع مترد فإن درجة من العطب ستلحق بكل أولئك الذين نعدهم للمستقبل، وبالأمة معهم أيضاً!!

٤ ـ إن الوضع الاقتصادي في أيّة دولة، ولأية فئة، يحتاج دائماً إلى

(حلول مركبة) تقوم على توفير الأعمال، ومحاولة الاستغناء عنه قدر الإمكان في آن واحد. وموضوع تحسين نوعية حياة المعلم، هو من هذا القبيل. ويمكن أن نلمس في هذا الشأن بعض الحلول الممكنة:

أ ـ لا ينبغي لأي معلم أن ينسى (الرفاهية الروحية) والمعنوية التي يتمتع بها كل من يشعر أنه يؤدي خدمة، ويبلّغ رسالة، ويسهم في تشكيل مستقبل أمته. صحيح أن التعليم إذا لم يمارس بطريقة صحيحة، فإنه يحطم الطالب والأستاذ معاً، لكن من الصحيح أيضاً أن معظم المعلمين يشعرون أن ثمار جهودهم قد أينعت، وأصبحت جزءاً من تيار الحياة من خلال ما صقلوه من مواهب، وما هذبوه من نفوس... وفي هذا يقول أحد المربين: «طول حياتي كمعلم زهاءَ نصف قرن من الزمان اجتمع أمامي طول هذه الفترة مالا يقل عن أربعين ألفاً من الدارسين، يفصحون على نحو ما أنهم يؤمنون بأنني أسهمت بقسط في تكوين عقولهم، وتشكيل شخصياتهم. إن الأحذية القديمة، لا تنطق بمثل هذه الشهادة للصانع الذي أنتجها»[1].

هذا الشعور باستمرار النفع أجيالاً عديدة هو ما عبّر عنه الحديث الشريف: **«إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»**[2].

وهذا ينبغي أن يشكّل مصدر ثراء روحي واستغناء عن كثير من الكماليات والمرفّهات التي يلهث خلفها أولئك المحرومون من تذوق مباهج المعرفة، ومباهج الثواب العظيم، ومباهج إغناء الحياة بالنور والخير والمثل العليا.

ب ـ إن جزءاً مهماً من مشكلات كل واحد منا، يعود في الحقيقة إلى (قصوره الذاتي)، وعجزه عن استثمار إمكاناته ومواهبه والفرص المتاحة

---

(١) لماذا نعلم: ٢٣٨.

(٢) رواه مسلم.

أمامه. وإن بإمكان كثير من المعلمين أن ينمي معارفه، ويركزها في علم من العلوم أو موضوع من الموضوعات، ويستطيع عن طريق ذلك أن يوجد دخلاً إضافياً، يساعده على تحمل لأواء الحياة، وذلك من خلال تأليف كتاب أو الكتابة في الصحف أو الاستشارات العلمية... وأعتقد أنه ما من إنسان يتقن علماً من العلوم حتى يصبح حجة فيه، أو متفوقاً تفوقاً ظاهراً إلا وجد في ذلك مصدراً كافياً لحياة كريمة.

جـ - إن هناك إمكانات عديدة لتحسين الوضع المادي للمعلمين؛ إذ بالإمكان تأمين مساكن لهم عن طريق التقسيط المريح، وتأمين علاج مناسب لأسرهم، وتخصيص بدل (طبيعة عمل) لهم؛ حيث إن من المجمع عليه دولياً أن مهنة التدريس من أشق المهن التي يعمل فيها الناس. ويمكن تحسين أوضاعهم أيضاً عن طريق وضع رسوم رمزية على التعليم، يدفعها ذوو اليسار من أولياء أمور الطلاب، كما يمكن استخدام المدارس في غير أوقات الدراسة في إقامة أنشطة ثقافية واجتماعية وعلمية في مقابل رسوم محددة، تخصص لدعم العملية التعليمية على نحو عام...

في تصوري أننا سنستطيع أن نفعل الكثير من أجل جعل مهنة التعليم، تجذب أفضل العقول، إذا آمنا بأن تحسين أوضاع التعليم والمعلمين، هو شرط ضروري لجعل الأجيال القادمة، تعيش حياة أفضل من الحياة التي نعيشها.

والله الهادي إلى سواء السبيل.



إضاءة:

لنحذر العبارات المحكمة السبك؛ فإنها كثيراً ما تخنق التفكير عوضاً أن تغنيه!

حول التعليم الشرعي

١ - مدخل تاريخي.

٢ - الارتقاء بالتعليم الشرعي.



١ ـ مدخل تاريخي

تحتل العلوم الشرعية مساحة مهمة من المعارف التي تحتاجها استقامة الحياة الإسلامية ونموها، فهي ترسم الفضاء النظري لعلاقة الإنسان بربه ـ جل وعلا ـ وعلاقة المسلم بأخيه المسلم، وبغير المسلم أيضاً، كما ترسم أبعاد الشخصية المسلمة المطلوبة. الحرص على تعلم العلوم الشرعية، فرع من شعور المسلم بالعبودية لله ـ تعالى ـ وحرصه الشديد على أن يحيا وفق مقتضيات تلك العبودية وآدابها. ولذلك كان تعلم العلم الشرعي عبارة عن حركة اجتماعية عامة؛ فكل مسلم مهما كان شأنه أو عمله، يسعى إلى أن يمتلك شيئاً من المعرفة الشرعية التي تشكل البنية التحتية، والخلفية الثقافية لكل جوانب النشاط الإنساني، وعلى اختلاف مستوياته.

كانت حركة تعلم أمور الدين حرة في البداية من كل قيد، حيث لم تكن هناك جهة تتولى تنظيمها؛ وبسبب من الرغبة الشديدة في العلم والفهم، صارت المجتمعات الإسلامية تموج بالمفتين والمستفتين والمعلمين والمتعلمين، وانتشرت حلق الفقه والحديث والتفسير والوعظ في المساجد والبيوت... ثم تعقدت المعرفة، ونشأت إلى جانب هذه العلوم علوم العربية وعلوم الآلة والكلام والمنطق والجدل والمناظرة... وتسابق الأمراء والولاة وأهل الشراء إلى تشجيع الحركة العلمية، ونشأت المكتبات والمدارس، وأخذت الحركة التعليمية تكتسب شيئاً فشيئاً تقاليد راسخة، وتربح أرضاً ثابتة، وتضخمت الحلقات والتجمعات التعليمية حتى بلغت في بعض الأحيان الألوف، وكان ذلك كافياً لجعلها أشبه بالتجمعات

السياسية[1]؛ مما حدا بكثير من الأمراء والولاة إلى تقييدها والضغط عليها من خلال الترغيب تارة والترهيب تارة أخرى؛ مما جعلها في النهاية تحت السيطرة، وحال بينها وبين أن تكون بؤراً للمعارضة السياسية. وقد أثرت تلك الضغوط في هيكل الحركة العلمية، فنما الفقه الفردي على حساب الفقه المجتمعي، والفقه الشعائري على حساب الفقه السياسي والإصلاحي، وجرى الانشغال بتفريعات كثيرة، لا يحتاج إليها الواقع المعيش، على حين أُسدل الستار على قضايا جوهرية، كانت بحاجة إلى حوار، وتشكيل وعي مجتمعي جيد حولها. وفقد أكثر العلماء الإحساس بمقاصد العلوم، فتضخمت علوم الآلة مثل علوم أصول الفقه والنحو والصرف والمنطق، ووقفت حركة الفكر عندها بدل تجاوزها إلى مقاصدها، وما أوجدت من أجله.

بعد القرن الرابع الهجري ساد شعور عام بالارتباك وانطفاء روح التجديد، وكان ذلك في الحقيقة صدى لتردي الواقع السياسي والأخلاقي والاجتماعي؛ فالفكر يتأزم، والعلوم تتجمد، وتتراجع إذا لم يكن في الواقع المعيش ما يستحثها على تطوير ذاتها، وتجديد طروحاتها، ويظهر الانحسار العلمي عادة في الخوف والشك والحذر الزائد، وتشديد شروط الاجتهاد، والنزوع إلى نوع من الإجماع والتوافق الشكلي.

ويحدثنا ابن خلدون عن ذلك بقوله: «ووقف التقليد في الأمصار عند هؤلاء الأربعة ـ مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد ـ ودرس المقلدون لمن سواهم، وسد باب الخلاف وطرقه لما كثر تشعب الاصطلاحات في العلوم، ولما عاق عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد، ولما خشي من إسناد ذلك إلى غير أهله، ومن لا يوثق برأيه، ولا بدينه، فصرحوا بالعجز والإعواز، وردوا الناس إلى تقليد هؤلاء كل من اختص به من المقلدين، وحظروا أن يُتداول

---

(١) من أدبيات السياسة: كل شيء فردي إذا صار جماعياً صار سياسياً. وعلى مقدار تضخم الجماعي ينظر إليه على أنه أدخل في السياسة.

تقليدهم لما فيه من التلاعب، ولم يبق إلا نقل مذاهبهم، وعمل كل مقلد بمذهب من قلده منهم بعد تصحيح الأصول، واتصال سندها بالرواية. لا محصول اليوم للفقه غير هذا. ومدعي الاجتهاد لهذا العهد مردود، منكوص على عقبه، مهجور تقليده، وقد صار أهل الإسلام اليوم على تقليد هؤلاء الأربعة»[1].

مع سيادة روح التقليد، والتشنيع على الاجتهاد والتجديد، فقدت الحركة العلمية أمراً حيوياً ومهماً، هو قدرتها على (التحرر الذاتي)، حيث إن من طبيعة الامتداد قتل الاتجاه، وإضعاف الإحساس بالأهداف الكبرى والمسائل الجوهرية.

إن الحركة العلمية بحاجة ماسة إلى الوعي بنفسها حتى تتمكن من الاستمرار بالقيام بوظائفها، والالتحام بغاياتها النهائية، وحتى تتمكن من التخلص من أجزائها المعطوبة، ومظاهر النمو الزائفة، التي تتجسد في المماحكات اللفظية والطروحات الشكلية، والتبحر في الجزئيات التي لا يحتاج إليها الواقع، ولا تساعد على نمو العلم الذي تنتسب إليه. هذا الوعي هو الضمان الوحيد لإبقاء العلم في علاقة جدلية مع الواقع المعيش: يحل مشكلاته، ويستجيب في الوقت نفسه لتحدياته.

لكن المؤسف أن الوعي المطلوب لم يحدث، ولذا كانت المؤلفات في كل علم من العلوم، تتكاثر يوماً بعد يوم[2]، على حين كان الواقع الاجتماعي، يتردى، كما كانت الأمة آخذة في المزيد من الابتعاد عن أصولها الحضارية!

كان زخم الحركة العلمية أيام ازدهار الحضارة الإسلامية شاملاً لكل العلوم: الشرعية والإنسانية والطبيعية والعمرانية، وكان كل علم يستفيد من

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ٣:٦.

(٢) بلغت شروح بعض المتون والمنظومات حداً غريباً من التضخم المَرَضي، فقد ذكروا أن شروح (ألفية ابن مالك) قد بلغت ١٢٧ شرحاً!!.

نضج العلوم الأخرى ما يجعل نموه أكثر رشداً وواقعية. وحين أخذ نجم الحضارة الإسلامية بالأفول كان من الطبيعي أن تتراجع العلوم الكونية والعمرانية على نحو أخص؛ إذ إن استمرار تقدم بعضها يتوقف على مدى توفر المال اللازم لإجراء التجارب وصناعة الآلات والأدوات، كما أن بعضها، ينظر إليه على أنه يخدم رفاهية الموسرين، وهذا لا يجري الاهتمام به في ظل انعدام الأمن واضطراب الأحوال العامة. وأدى ذلك إلى أن تخسر (العلوم الشرعية) البيئة الحضارية التي تحتاجها للنمو، كما خسرت الروافد الفكرية والعلمية والتقنية التي كانت تساعدها على إدراك وظائفها، والوعي بنفسها، وكان من الطبيعي إلى جانب كل هذا أن تتجه أعداد هائلة من الناس للاشتغال بالعلوم الشرعية واللغوية، على أنها الطريق الأهم للارتقاء الاجتماعي، كما أنها باب لكسب الرزق، وقد كان من الممكن أن ينتج عن ذلك حركة تثقيفية واجتهادية هائلة، لكن فقر الحياة العامة وانحطاطها أديا إلى أن يصبح العرض أكثر من الطلب، مما أدى إلى شيوع الكثير من حالات الفقر والبؤس بين طلاب العلم، وجعلِ كثير منهم يعيش على هامش المجتمع، وكانت المحصلة العامة، هبوط سوية العلماء، وانتشار الأمية والجهل بين السواد الأعظم من أبناء الأمة!

وحين جرى نوع من الاحتكاك الثقافي بين المسلمين والأوربيين منذ قرنين من الزمان تقريباً أدرك المسلمون أنهم بحاجة ماسة إلى علوم الغرب الحديثة في بناء الجيوش، وزراعة الأرض، وتشييد المصانع، ونشر المعارف حتى طباعة المصاحف؛ مما دفع الحكام في ذلك الوقت إلى تشييد المدارس والكليات التي ليس فيها من روح الشرق وفكره أي شيء ذي قيمة. كما أن البعثات التي تم إرسالها إلى أوربا عادت وقد فتنت بما رأت وسمعت، ولم يكن أمامها ـ كما ظنت ـ سوى أن تنفخ في الشرق روح الغرب، وإلا أن تكوّن عقليته تكويناً جديداً، ليس فيه من الثقافة الإسلامية سوى رسوم وقشور! حين انفتح المسلمون على الغرب، لم يكن لديهم الكثير من المؤسسات التعلمية، واقتضى اليأس من انبعاث تجديد داخلي

بالإضافة إلى الانبهار بالغرب والثقة العمياء بمناهجه وأدواته النهضية ـ أن تُزرَع المعاهد والمدارس والجامعات المحدَثة على الطريقة الغربية إلى جانب المؤسسات التي تقدم العلوم الشرعية؛ فمحمد علي باشا لم يطور الأزهر، ولم يغلقه، لكنه فرض الضرائب على الأوقاف، وأخذ في فتح المدارس المختلفة، مثل مدرسة الألسن عام ١٨٣٥، ومدرسة الفتيات عام ١٨٧٣[١]. وحين تترك مؤسسة تعليمية لتكون عبارة عن بنية ثبوتية جامدة في مناهجها وإداراتها وخططها الدراسية، ثم تطور كل ما حولها، وتنفق عليه الأموال الطائلة، وتمده بأحدث الخبرات، فإن النتيجة لن تكون سوى دفع تلك المؤسسة إلى التحلل الذاتي؛ لتصبح أوضاعها علامة فارقة بين من يتصل؛ بالسلف وعلوم التراث، وبين من يتصل بأوربا وثقافتها وفنونها!

هذه الخطة لم تتبع مع الأزهر وحده، وإنما اتُبعت مع معاهد ومدارس التعليم الإسلامي من المحيط إلى المحيط على درجات متفاوتة!

الخلاصة: إن أكثر مؤسسات التعليم الشرعي قد ابتلي بالقصور الذاتي، كما ابتلي بالتآمر الخارجي؛ والله المستعان.



إضاءة:

طلبنا العلم لغير الله فأبى العلم إلا أن يكون لله.

---

(١) انظر مقدمات في البعث الحضاري: ٦٤.

٢ ـ الارتقاء بالتعليم الشرعي[١]

يتساءل العديد من الباحثين والمفكرين عن مدى حاجة الأمة إلى وجود معاهد ومدارس شرعية، تخالف في روحها ونظمها ومناهجها النظم التعليمية العامة السائدة في بلدان العالم الإسلامي، ويرى كثير منهم أن الازدواجية في نظمنا التعليمية ذات أضرار بالغة، حيث تؤسس للتمزق الثقافي، وتضعف أدوات التفاهم والتواصل الاجتماعي، ولذا فلا بد أن نمحوها من حياتنا محواً، وأن نتعلم من الإسلام إصراره على استقبال قبلة واحدة في كل صلاة، ولكل المسلمين[٢].

والحقيقة أن الأصل، هو ألا يسود في أي مجتمع سوى نظام تعليمي واحد، ويجب أن تعبر المؤسسات التعليمية القائمة عن روح الأمة، وأن تعمم ثقافتها الأصلية، وأن تخرج من المتعلمين ما يلبي حاجاتها المختلفة، وأن تساعد الأمة على بلوغ الأهداف الكبرى التي تتطلع إليها. وبوصفنا أمة مسلمة متميزة عن غيرها من الأمم، فينبغي أن يكون الإسلام هو الحيوية التي تسري في هياكلنا الثقافية والتعليمية كافة. والمشاهد اليوم أن المناهج السائدة في معظم البلاد الإسلامية، لا تستهدف ما ذكرناه، كما أن ما تقدمه من معلومات لا يُعد كافياً لتعريف الطالب على الإسلام، كما أنه لا يصوغ شخصية الطالب صياغة إسلامية، ويضاف إلى هذا أن نظم التعليم العام لا

---

(١) نعني بالتعليم الشرعي هنا على نحو جوهري ما تقدمه المدارس والمعاهد الأهلية في مرحلة ما قبل الجامعة.

(٢) السابق: ٦٩.

تستطيع أن تؤهل خريجيها للقيام بوظائف الإمامة والخطابة التي تبلغ في كل قطر إسلامي الألوف أو عشرات الألوف. لهذا كله يعد وجود مؤسسات تقدم العلوم الشرعية أمراً ضرورياً لسد الحاجات الماثلة.

الملامح العامة للمعاهد والمدارس الشرعية القائمة:

إن ما سنذكره من آراء وأفكار حول الارتقاء بالتعليم الشرعي لا ينطبق بالضرورة على جميع المعاهد والمدارس الشرعية، فالعالم الإسلامي مترامي الأطراف، وتعيش دوله وشعوبه في أوضاع متنوعة؛ فالأقليات الإسلامية في أفريقيا وأوربا تواجه مشكلات وظروفاً لا تواجهها الشعوب الإسلامية التي تمثل الأكثرية في بلادها، وبالتالي فإن أوضاع التعليم الشرعي كثيراً ما تكون مختلفة؛ ولكن يمكن أن نقول: إن جل ما سنقوله عن تحسين التعليم الشرعي ينطبق على معظمها على نحو ما.

إن النمو هو قانون الحياة، وإن كل شيء من حولنا يتغير، وينمو، مما جعل ساحات الحياة جميعها تموج بالمعطيات الجديدة؛ وهذا يولِّد في كل يوم تحديات، ويأتي بمشكلات، كما يضفي على مناهجنا ووسائلنا نوعاً من التقادم، وهو بذلك يستنهضنا لتطويرها وتحسينها، كيما تحتفظ بملاءمتها وفاعليتها المرجوة، وهذا يعني أن توقف النمو في هذه الحال، لا يحدث إلا بسبب وجود مشكلة؛ وإن علينا أن نكتشف تلك المشكلة، ونحاول علاجها.

إن ما أنشأناه من مؤسسات ونظم ومناهج، يستهدف دائماً تلبية حاجاتنا الثقافية والاجتماعية والاقتصادية... وتلبية هذه الحاجات، ستكون هي مسوِّغ وجودها، ومسوِّغ العناء الذي نتكبده للمحافظة عليها. كما أنها في الوقت نفسه تعد معيار نجاحها وأدائها لوظائفها.

إن تطوير المدارس الشرعية، سيحل بعض المشكلات، ولكنه قد يوجد مشكلات جديدة، ولا يستطيع المرء مهما أوتي من نفاذ البصيرة أن

يتنبأ بكل النتائج التي ستترتب على الإصلاحات التي سيقوم بها، لكن مع هذا فإن علينا أن نتساءل دائماً في أية ظروف تكون إصلاحاتنا وتجديداتنا مقبولة ومثمرة؟

إن قطاع التعليم - بطبيعته - قطاع حرون، والعاملون فيه أميل إلى المحافظة والتقليد، ولذا فإن على المرء أن يتحلى بالكثير من الصبر والمثابرة إذا ما أراد أن ينجز شيئاً ذا قيمة.

إن المدارس الشرعية، تقدم خدمات جليلة لأمة الإسلام، وهي غير قادرة على أن تنهض بنفسها في جميع الأحوال، مما يتطلب مد يد العون لها، حتى تستمر في عطائها، وحتى تحسّن من مستوى أدائها. وإني آمل أن تسهم الأفكار التالية في دفعها خطوة نحو الأمام:

- حول الهدف والتخصص:

ذكرنا أن العلوم الشرعية، تمثل لكل مسلم الثقافة الأساسية التي عليه أن يتضلع منها، على نحو يمكنه أن يحيا الحياة الطيبة التي يرضاها الله - جل وعلا - له. وهذا يستلزم بذل جهود هائلة من أجل إتاحة الفرصة لكل مسلم أن يطلع على الحد الأدنى من المعرفة الشرعية؛ وهذا لن يتم إلا إذا عادت للمسجد وظيفته التاريخية في التعليم والتثقيف والحوار، وإلا إذا استهدفت ذلك كل الأطر الثقافية والاجتماعية، وكل مؤسسات العمل والإنتاج. وحين تتوفر الإرادة، فإن الإمكانات المتاحة كافية لتحقيق الكثير من ذلك.

حين يقوم المجتمع بوظيفته تجاه ثقافته الأساسية على هذا النحو، فإن المدارس الشرعية، ستتمكن من توجيه جهودها إلى تخريج النخب التي ستتولى تطوير تلك الثقافة وتزكيتها، وتقديمها على النحو الملائم؛ وهذا ما يجب أن نتطلع إليه.

في كل الأحوال فإن أول خطوة على المدارس الشرعية أن تخطوها في سبيل تحسين أوضاعها، هي أن تحاول تحديد أهدافها على نحو واضح

ودقيق؛ إذ لم يعد كافياً أن يقال: هذا المعهد يهدف إلى تخريج طلاب مزدوين بما يحتاجون إليه من العلوم الشرعية والعربية والكونية لسد حاجات الناس في الإمامة والخطابة والتدريس... فهذا الهدف عام، وبسبب عموميته؛ فإنه لا يعد كافياً لتوجيه نظام المعهد ومناهجه وأنشطته، والتي تمنحه بالتالي شخصيته المتميزة، وتزيد من وعيه بذاته.

يمكن القول ابتداءً: إن القدر المشترك بين جميع المعاهد الشرعية، هو أن تزود طلابها بقدر جيد من المعلومات الشرعية والعربية والإنسانية والكونية، إلى جانب توجيههم وإرشادهم على نحو يجعلهم يجسّدون في سلوكهم ومظهرهم القيم والمبادئ والآداب التي يدعون إليها. وبعد هذا فإننا نرى أن المهم أن تحرص المدارس الشرعية على أن تقدم من المعلومات ما يؤهل طلابها لإكمال دراساتهم الجامعية، وأن تكيف نظمها ومناهجها بما يتلاءم مع ذلك. وعليها أن تبحث بجدية عن معادلة شهاداتها لدى عدد من الجامعات الإسلامية والعربية المعترف بها. وإنما نقول ذلك؛ لأنه إذا لم يتح لخريجيها الحصول على شهادات جامعية، فإنهم سيواجهون مشكلات جمة على صعيد حياتهم المعيشية؛ والأهم من ذلك أن طبيعة الأعمال التي سيقومون بها آنذاك ستجعلهم يعيشون على هامش المجتمع، بعيدين عن مراكز التأثير والقيادة التي تتاح عادة للنخبة.

نظراً لاتساع رقعة العالم الإسلامي وتنوع الظروف التي تحيط بالتعليم الشرعي، فإن بعض المدارس قد تجد أن أفضل خدمة يمكن أن تقدمها لمحيطها، هو تخريج شخص صالح للإمامة والخطابة، أو تجد أن البلد الموجودة فيه، ليس فيه تعليم جامعي ملائم لإكمال خريجيها دراساتهم فيه. كما هو شأن العديد من الأقليات الإسلامية المنتشرة في أصقاع المعمورة؛ وفي هذه الحالة فإن بالإمكان أيضاً الصيرورة إلى نوع من التخصص. وهناك - على الأقل - تخصصان أساسيان: تخصص يؤهل دارسه لمباشرة الإمامة والخطابة والوعظ، وتخصص يؤهل صاحبه للعمل في مجال (العمل

الدعوي) حيث يحتاج التأهيل للتحرك فيه إلى جانب العلوم الشرعية الاطلاع على شيء من علوم النفس والاجتماع والإدارة والمذاهب المعاصرة بالإضافة إلى شيء من الرؤى الفكرية والإصلاحية مع اكتساب بعض مهارات الحوار والاتصال مع المجموعات الصغيرة. مدة الدراسة في أكثر المعاهد تتراوح بين خمس سنوات وسبع سنوات، ومن الممكن تشعيب الدراسة في السنة الأخيرة أو السنتين الأخيرتين إلى شعبتين بما يخدم التخصصين اللذين تحدثنا عنهما. وعلى كل حال فإن من المهم دائماً أن تنجح المدارس الشرعية في تحديد الحاجات الحقيقية للبيئة التي نشأت فيها، وأن تنجح في إعداد الطلاب الذين يلبون تلك الحاجات. وسوف نتحدث ـ بإذن الله تعالى ـ عن المواد التي تخدم ذلك عند حديثنا عن المقررات والمناهج.

القبول وشروطه:

هناك ظاهرة مشتركة، تطبع معظم إنتاج مؤسساتنا في العالم الإسلامي، هذه الظاهرة، هي انخفاض مستوى (النوعية) فلا تكاد تجد شيئاً من منتجاتنا يتفوق على ما هو موجود في الدول الصناعية إلا إذا كان بمساعدة فنية منهم. ويبدو أن هذا ضريبة مباشرة للتخلف الذي تعاني منه أمة الإسلام. انخفاض النوعية أوجد انحباساً في حركة الفكر، وخفّض من سقف النماذج الإبداعية التي تكشف في العادة عن الآفاق البكر التي يمكن ارتيادها؛ ولذا فإنني أعتقد أن التركيز على (الكيف) ينبغي أن يحتل حيزاً مهماً بين كل الأفكار الإصلاحية، وفي كل المجالات.

قد آن الأوان لأن تلتفت المعاهد الشرعية إلى (السويَّة)؛ فحاجة الأمة الحقيقية ليست إلى حشد من الأئمة والخطباء، وإنما إلى نوعية خاصة من الشباب ذوي الاستعدادات والمواهب الخاصة. وأول خطوة تخطوها المعاهد في هذه السبيل، هي أن تدقق في اختيار طلابها، وتضع معايير واضحة وجيدة للقبول. وأتصور أن مما يفيد في ذلك ما يلي:

١ ـ إجراء مقابلة شخصية للمتقدمين، يتم خلالها التعرف على

شخصياتهم، وهيئاتهم وظروفهم، وأسباب تقدمهم للدراسة في المعهد، كما يتم من خلالها التعرف على قدرة الواحد منهم على القراءة السليمة، ومقدار ما يحفظه من القرآن الكريم. ولا توضع درجات على هذه المقابلة، فإما أن يقبل الطالب، وإما أن يرفض. ونرى أن تجري المقابلات لجنة واحدة؛ حتى يمكن ضبط معايير القبول

٢ ـ الذين ينجحون في المقابلة الشخصية يسألون في اختبار تحريري أسئلة ثقافية عامة ويطلب منهم الإجابة على أسئلة تقيس ذكاء الطالب وقدراته العقلية، وتجمع الدرجة التي يحصل عليها الطالب مع المعدل الوسطي لدرجات الشهادة التي تقدم بناء عليها إلى المعهد، ثم تقسيم الدرجة على اثنين.

٣ ـ يتم إجراء مفاضلة بين المتقدمين، ويقبل المعهد أعلاهم درجات؛ حتى يستوفي العدد الذي حدده، ونقترح ألا يكون كبيراً حتى تمكن العناية به.

٤ ـ حتى يحصل المعهد على النوعيات الممتازة من الطلاب، فإن عليه أن يعرِّف الناس في المناطق والمحافظات على نفسه تعريفاً جيداً، وذلك من خلال ذكر الميزات والخدمات التي يحصل عليها الطلاب الذي يلتحقون بالمعهد، وبذكر المعلومات والمناهج المتميزة التي يقدمها، وينبغي أن يصدر كل معهد شرعي عدداً من المطويات التي تعطي صورة واضحة عنه.

المقررات والمناهج:

تقرر المواد، وتصمم المناهج عادة من أجل خدمة أهداف محددة، تسعى إليها المؤسسات العلمية. وبما أن كل شيء من حولنا يتغير، فإن ما نقدمه من معارف، يجب أن يخضع للمراجعة من أجل التأكد من أنه قادر على تحقيق الأهداف المرجوة، ومن أجل التأكد أيضاً من حيوية الأهداف

التي رسمت من قبل. وبما أن الوقت محدود، وطاقة الاحتمال أيضاً محدودة لدى الطلاب، فلا بد من نوع من الموازنة بين المواد الأساسية، مثل الفقه والأصول والحديث والتفسير... وبين المواد الجديدة، التي تفرض الاطلاعَ عليها الاستجابةُ للتحديات المعاصرة. والتطوير المطلوب في المناهج والمقررات يتجلى في أشكال عديدة، تتمثل في حذف بعض المواد أو تقليصها، وفي إضافة مواد جديدة، وتعديل بعض المواد، أو الإضافة إليها. وسوف نوجز كل ذلك في الإشارات السريعة التالية:

١ - يلاحظ المتتبع لمناهج العديد من المعاهد والمدارس الشرعية أن بعض المقررات يعطى ساعات أكثر مما تدعو إليه الحاجة؛ مما يجعله غير ملائم للطلاب في تلك السنّ المبكرة، كما أنه يفوِّت الفرصة على تقرير بعض المواد التي تمس الحاجة إليها. وعلى سبيل المثال فإن مادة (التوحيد) تدرس في كثير من المعاهد في جميع سنوات الدراسة، مع أنها في الأصل مادة محدودة، لكن الجدل التاريخي الذي تم بين المذاهب والفرق، ضخمها على نحو مَرَضي. ومن وجه آخر فإن البراهين الكثيرة التي تساق على مختلف المسائل العقدية، تفقد الكثير من مصداقيتها وتأثيرها حين تختلف القاعدة الثقافية التي توجه آليات الفهم والاقتناع؛ حيث يصبح أفق انتظار الدارس لتلك البراهين غير متوافق معها، ويكون بالتالي العناء المبذول في فهمها غير ذي معنى. ولهذا كله أرى ألا تزيد مقررات هذه المادة عن ثلاثة، وينبغي إلى جانب هذا الإعراضُ عن الكتب القديمة، وتقرير كتب جديدة تلائم عقول الناشئة في أسلوبها وطرحها، وتراعي ما استجد من مفهومات وبينات في محتويات هذه المادة المهمة.

مادة (المواريث) هي الأخرى، تحتاج إلى نظر؛ إذ إنه كثيراً ما يقرر لها من الساعات، ويعطى فيها من المعلومات ما هو فائض عن حاجة طالب المدارس الشرعية في المرحلة المتوسطة والثانوية. ويكفي هذه المادة أن تدرس في سنة واحدة، ويكون لها ساعتان؛ حيث يطلع الطالب على

الفلسفة الإسلامية في تحديد أنصبة الورثة، كما يطلع على بعض المسائل الأساسية فيها؛ فهو لا يؤهَّل ليكون قاضياً.

ومما يلاحظ كذلك كثرة المقررات المخصصة لمادة (النحو)، فهو يدرَّس في كل السنوات، ويعطى اهتماماً واسعاً، وكثيراً ما يكون ذلك على حساب مادة (الأدب) مع أن علم (النحو) من العلوم التي كان يسميها الأقدمون (علوم الآلة) فهو أداة ووسيلة، وليست غاية. وتدرس المعاهد الشرعية كتباً قديمة مثل (أوضح المسالك) و(قطر الندى) و(مغني اللبيب) مما يجعل الطالب يستفرغ طاقته في فهم عباراتها دون النفاذ إلى الجوهر الذي هو إقامة اللسان. ولذا فإنه قد يكون من الأجدى تقرير كتب حديثة، مشبعة بالأسئلة والمناقشات والتدريبات، والتركيز على التطبيق النحوي والإعراب. ويوضع إلى جانب هذا مقرر يتعلم فيه الطالب بعض المهارات اللغوية، مثل المحادثة والأسلوب والكتابة الأدبية.

٢ ـ إن حديثنا عن تقليص مقررات بعض المواد كان يهدف في جملة ما يهدف إليه إلى إتاحة الفرصة لتقرير بعض المواد المهمة لطالب العلم الشرعي، وذلك من أجل تكامل معارفه، ومن أجل تصحيح مساره الثقافي، ونرى أنه ينبغي تقرير ما يلي:

أ ـ من المستحسن أن يدرس الطالب مقرراً واحداً من (المذاهب المعاصرة) عوضاً عن دراسة الفرق القديمة التي أصبحت في ذمة التاريخ. ومن المستحسن كذلك أن يدرس الطالب بعض التوجهات السائدة الآن مثل التعددية والنسبية والجدلية والديموقراطية، إلى جانب بعض المذاهب مثل الرأسمالية والليبرالية. وينبغي أن تتم دراسة كل ذلك من أفق المذهبية الإسلامية في البناء الحضاري.

ب ـ يحتاج الطالب إلى دراسة مقرر، يتناول شيئاً من تاريخ التشريع وأسباب اختلاف الفقهاء، ويتم التركيز فيه على المفهومات والأسس الثقافية التي تمكّن من إقامة علاقات الحوار والتعاون والتعايش، وذلك من خلال

كسر حدة العصبية والمذهبية والحزبية، واكتشاف آفاق جديدة للتعاذر، والفهم الجيد لوجهات النظر المختلفة.

جـ - حتى يتوثق ارتباط طالب العلم الشرعي بأمته، فإنه بحاجة إلى دراسة مادة عن (حاضر العالم الإسلامي) والتطلعات المشتركة لشعوبه، إلى جانب الاطلاع على مجمل التحديات التي يواجهها، مع طرح بعض الرؤى حول تقدمه وتنميته ولمّ شعثه.

د - يُدرِّس في أكثر المدارس الشرعية مقرر أو أكثر في (المنطق اليوناني القديم) وقد ذكرنا أن هذا المنطق موضع لانتقادات واسعة اليوم؛ ولذا فإنني أرى إلغاء كل المقررات المرتبطة به، وتقرير عوضاً عنه مادة حول (التفكير) تشتمل على بعض المبادئ الأساسية في التفكير الناقد والتفكير الجدلي والتفكير الموضوعي بالإضافة إلى بعض الأبواب حول طبيعة الأشياء ومنطقها، والعلاقة بين الثقافة والفكر، مع تدريبات على التفكير الجيد.

هـ - دراسة مقررين - على الأقل - في الحاسب الآلي أمست اليوم ملحّة، حيث إن من المنتظر اعتبار عدم معرفة استخدام الحاسوب شكلاً من أشكال الأمية، أو هو الأمية الحديثة!

و - مادة (فقه السيرة) مفقودة في أكثر المعاهد الشرعية، مع أنها مادة مهمة للغاية في استجلاء كنه التشريع وكنه الدعوة والتاريخ. وطلاب المعاهد بحاجة ماسة إليها؛ ولا سيما حين يوضع لها منهج تحليلي جيد، ويقوم على تدريسها من يملك الشفافية والمعرفة الكافيتين لإيصال هذه المادة العظيمة.

ز - إذا كنا نطالب أبناء الدعوات والجماعات الإسلامية بالتعمق في معرفة العلوم الشرعية عامة فإننا نطالب المعاهد الشرعية أيضاً بأن تنفتح على ما لدى الآخرين من أفكار وأساليب وطروحات في مجالات الدعوة إلى الله - تعالى - وإذا ما أرادت ذلك فإن الأمر يتجاوز النوايا الحسنة إلى تغيير

جدي في المناهج الدراسية؛ حتى يحدث التقارب الثقافي بين المهمتين بالدعوة والإصلاح، والالتقاء في منتصف الطريق؛ وذلك كأن يتم تقرير بعض المناهج التي تشتمل على معلومات في علم الدعوة وثقافة الداعية، وحول التجديد وسير بعض (المجددين)، مع محاولة الربط الدائم بين المناهج التي تدرس وبين الواقع الإسلامي، ومحاولة استشعار كيفية الاستفادة من كثير من المناهج في إصلاح ذلك الواقع.

٣ ـ من أهم ما ينبغي تحسينه وتطويره في مجال المواد والمناهج والمقررات، إيجاد مدخل لكل علم يُدرَّس، يشتمل على بيان نشأة ذلك العلم، وأهم الأطوار والمنعطفات الحادة التي مرّ بها ومقاصد دراسته، إلى جانب الحديث عن بعض رجالاته العظام، وما يمكن أن يُعدَّ (فلسفة) له. وحين يتم هذا فإنه سيكون من الأدوات المهمة في كسر الجمود الفكري، ونقل الطالب من مرحلة التلقين إلى مرحلة التفاعل مع العلوم والتفكير فيها.

٤ ـ هناك اليوم مدارس شرعية للبنات، والإقبال عليها يتزايد، ولا بد من مراعاة خصوصية المرأة على مستويات عديدة، منها (المناهج) فالوظيفة الأساسية لكل امرأة هي الأمومة وتربية الأطفال، ولذا فإن من المهم أن يتم تقرير بعض المواد التي تساعدها على أداء عملها. ونرى من **الضروري** أن تدرس الطالبة مادة في **أحكام الأسرة** مع التركيز على الأحكام الفقهية الخاصة بالمرأة. ومادة ثانية في **تربية الطفل**، وثالثة في **التدبير المنزلي**، ورابعة حول **الخصائص النفسية والعقلية للمرأة**. وأعتقد أنه قد آن الأوان للانشغال بتنمية المرأة المسلمة، وتأهيلها للوظائف التربوية والاجتماعية التي تنتظرها؛ ولا بد أن نعوضها عن الإهمال السابق الذي كان تلقاه من شرائح المجتمع كافة!

٥ ـ مما يتصل بمسألة المناهج قضية (البحث العلمي) وإعداد الطالب له. والهدف من العناية بالبحث العلمي، هو إخراج الطالب من القوقعة والانحسار الذي تفرضه الدراسة المنتظمة والمناهج المقنَّنة، والتلقي المدرسي

للمعارف؛ بالإضافة إلى بناء شخصية الطالب المستقلة، وتعويده استخلاص المعلومات، وصياغتها في سياقات وأطر محددة.

إن الطالب في السنوات الثلاث الأولى من الدراسة في المعهد، لا يستطيع القيام ببحث ناضج، ولذا فمن الممكن جعل جزء من (أعمال السنة) في تلخيص كتاب، أو تحقيق مسألة، أو استخراج آراء أهل العلم فيها. أما في السنة التي قبل الأخيرة، فإنه يكون بإمكان الطالب أن يكتب بحثاً صغيراً في إحدى المواد الرئيسة التي يدرسها، ويمكن للبحث أن يكون تأليفاً أو تحقيقاً. أما في السنة الأخيرة، فقد يكون من الملائم تكليف الطلاب بكتابة بحث له مئة درجة، ويتم تعيين مشرفين على الطلاب فيه، وبهذا يتم تحريك أذهان الطلاب، ودفعهم نحو خوض غمار المصادر والمراجع والتعامل معها. وهذا يتطلب تقرير مادة دراسية حول البحث والمصادر والمكتبة، كما يتطلب تدريباً ميدانياً على ارتياد المكتبة والاستفادة منها.

إن الحديث عن المناهج حديث ذو شجون؛ وحين تبلور المدارس الشرعية أهدافها على نحو واضح، فإنها ستعرف المناهج والمقررات والمعارف التي يمكن أن تبلِّغها تلك الأهداف.

النشاط غير الصفي:

إن النشاط غير الصفي، أي غير المنهجي محدود في معظم المدارس الشرعية، وهناك حرص تقليدي متوارث على ضبط إيقاع الحركة أكثر بكثير من الملائم والمطلوب، مع أن الطلاب في سنّ المراهقة والفتوة بحاجة ماسة إلى كل الأنشطة التي تنمي الجوانب المختلفة في ذواتهم، وإلى ما يشبع رغباتهم المشروعة، ويشعرهم بالحصول على ما يحتاجونه في فهم الحياة من حولهم. وهذا لن يتأتى من خلال الاستغراق في القراءة والاستماع، وإنما من خلال الأعمال الطليقة، والتفاعل الحي مع الحياة والأحياء. ومفردات النشاط غير الصفي كثيرة للغاية، يمكن أن نذكر منها:

١ ـ تدريب الطلاب على الخطابة والتمثيل، وتقديم المشاهد المسرحية الهادفة، والنشيد الإسلامي البعيد عن البدع والمديح غير المناسب، وهذا يقتضي وجود مسرح في المعهد أو المدرسة.

٢ ـ عقد ندوات ومحاضرات أسبوعية أو نصف شهرية، يشارك فيها أساتذة من داخل المعهد وخارجه.

٣ ـ عرض أشرطة مرئية، تتضمن بعض المواد العلمية والمحاضرات القيمة.

٤ ـ إقامة مسابقات ثقافية حول تلخيص بعض الكتب، وكتابة بعض البحوث.

٥ ـ إقامة برامج ودراسات مسائية في بعض التخصصات والمهارات، مثل التجويد واللغة العربية واللغة الإنجليزية والخط والحاسب والإدارة والخطابة...

٦ ـ رحلات الحج والعمرة، ورحلات داخل المنطقة، ورحلات إلى مناطق القطر المختلفة إلى جانب المخيمات الصيفية، وزيارة بعض أهل العلم، وزيارة المعاهد المناظرة.

٧ ـ الخروج إلى البساتين، وحبذا لو كان للمعهد مزرعة، يقوم الطلاب بزراعتها والعناية بها لصالح المعهد، وتمثل في الوقت نفسه استراحة لجميع منسوبي المعهد.

٨ ـ النشاط الرياضي ذو وظيفة مهمة في تنمية شخصية الشاب؛ وهناك فرص وأساليب عديدة لممارسته.

إن النشاط غير الصفي، يجدد البعد الروحي والبدني للطالب، ويساعد على استثمار الطاقات، وصقل المواهب، واكتساب المهارات؛ ولذا فينبغي أن يكون موضع عناية واهتمام.

التربية والتوجيه:

إن طالب العلم الشرعي على نحو خاص بحاجة كبيرة إلى التربية الروحية والخلقية والسلوكية؛ حيث إنه يجري إعداده ليكون قدوة للناس، كما أن العمل الدعوي نفسه يحتاج إلى طاقات روحية، باعثة على البذل والعطاء. وهذا يعني أن يتم تشجيع كل ما ينمي الجانب الروحي والخلقي لدى الطلاب، وذلك من خلال تخصيص بعض المدرسين للعناية بالطلاب في السكن الداخلي، وخارج أوقات الدوام، وتنظيم بعض اللقاءات والأنشطة التي تصقل الجانب الروحي، مثل الاجتماع على قراءة القرآن، ومثل الإفطار الجماعي بعد صوم يوم نفل، ومثل إيقاظ من يرغب من الطلاب للتهجد في السحر...

وقد بادر كثير من المعاهد الشرعية إلى تقرير بعض الكتب التي ترى أنها تعزز الجانب الخلقي لدى الطلاب، مثل (الحكم العطائية) و(الرسالة القشيرية) وبعض كتب الإمام الغزالي وغير ذلك... وهذه الكتب يختلط فيها الغث بالسمين، والصحيح بالمدخول، وهي تزهِّد القارئ بالدنيا إلى حد العدم، وتعرض حالات خيالية من التنسك، تجعل المرء يجنح إلى المثالية على نحو مَرَضي، كما أن فيها الكثير من العبارات التي تحتاج إلى تأويلات متعسفة حتى تظهر استقامتها، وبعضها لا يقبل أي تأويل!

ولعل من المناسب في مثل هذا المجال تقرير صور من مجاهدات بعض علماء الشريعة، والأئمة المهديين، إلى جانب مقتطفات من السيرة النبوية، وسير بعض الصحابة - رضوان الله عليهم - فالمجال الروحي - بطبيعته - شديد الحساسية، ويجب أن يجري العمل فيه بدقة ووعي كاملين.

ومهما يكن من أمر، فإنني أعتقد أن المدارس الشرعية لا تملك - في أكثر الأمر - الطاقات الكافية لرعاية مئات الشباب الذين يدرسون لديها، وبث الوعي فيهم، ولذا فإن مما يعزز جهودها التربوية التعاون مع الأطر والمؤسسات والجماعات الإسلامية الموجودة في بلدها. ومع أن هناك مآخذ

جدية، ومهمة على بعض الجماعات الإسلامية، إلا أن الساحة لا تخلو في العادة من بعض الجماعات الملتزمة بآداب الشريعة، والناشطة في مجال الدعوة؛ والكمال لله وحده. كثير من القائمين على المعاهد الشرعية لا يبدون ارتياحهم لتردد طلابهم على أي دائرة دعوية خارج محيطهم حرصاً على نقاء أولئك الطلاب، أو خلوص ولائهم، وأعتقد **أن كسب الولاء لا يكون بالحجر والمنع، وإنما بالتوجيه إلى ما يُعتقد أن فيه مصلحة الطالب.** وعلى كل حال فالمعاهد الشرعية، ليست بحاجة إلى ذلك الولاء، فعملها الأساسي خدمة الشريعة والأمة، وهي تقوم بذلك، وهذا يغنيها عن كسب أي ولاء خاص.

الإدارة والأجهزة المساندة:

تكتسب الجوانب الإدارية في الأعمال والمؤسسات كافة أهمية متزايدة، ويمكن لإدارة ذات كفاءة عالية أن تصل إلى أفضل الأهداف، على الرغم من وجود القليل من الإمكانات، كما أن كثيراً من المؤسسات الكبرى صار إلى الإفلاس والانهيار بسبب ضعف إدارته، وسوء الخدمات المساندة التي تقدم للعاملين فيه.

ربما كان من أساليب تحسين إدارة المدارس الشرعية، الصيرورة إلى اتخاذ بعض التدابير التي تحد من سلطة الأفراد عليها، وتجعل رسم خططها وتنفيذ سياساتها إلى مجالس جماعية. وعلى سبيل المثال، فقد يكون من المهم تكوين مجلس أمناء من عشرة أعضاء من الشخصيات العلمية المعروفة والشخصيات العامة ومن كبار الممولين والمؤازين للمعهد. وتكون مهمته رسم السياسات، والإشراف على المجلس الإداري، ومتابعة جوانب التطوير والتحديث.

أما السلطة التنفيذية المباشرة، فيستحسن أن تتكون من مجلس إداري يضم المدير والوكيل وأمين السر واثنين من المدرسين، وتكون مهمته تنفيذ السياسات التي يرسمها مجلس الأمناء، والقيام على تسيير حركة المعهد اليومية.

ولا ينبغي أن يغيب عن الذهن أن ما نتحدث عنه من نهوض وارتقاء بالتعليم الشرعي، لا يمكن أن يتم من غير توفير موظفين أكفاء، يقدمون الخدمات التي يحتاج إليها الأستاذ والطالب.

إن المدارس الشرعية ستستفيد من وراء الإدارة الجماعية الكثير من ثقة الناس، والتي هي بأمس الحاجة إليها، حتى تؤمّن الموارد المالية الضرورية لاستمرارها.

التمويل:

نعتقد أن التعليم الشرعي سيظل يواجه صعوبات، ويعاني من مشكلات تأمين النفقات التي يحتاجها في ظل أزمة اقتصادية (عالمية) آخذة بالتفاقم. ولكن نعتقد إلى جانب هذا أن كل الأعمال والمؤسسات، يظل قابلاً لنوع من الإصلاح والتحسين، مما يجعلنا نلحّ على ضرورة الاهتمام بتنمية الموارد المالية، وابتكار أساليب جديدة في ذلك ولعل مما يسهم في ذلك ما يلي:

١ ـ أن تقوم كل مدرسة بتشكيل هيئة مهمتها تدبير الأموال واستثمارها. ويحسن أن تكون تلك الهيئة كبيرة نسبياً، وأن يكون أعضاؤها من الشخصيات العامة ورجال الأعمال والتجار. ونرى أن تهتم هذه الهيئة بإيجاد أوقاف وأسهم في شركات، وإقامة مصانع وشراء عمارات وعقارات، مما تجمعه الهيئة، حيث تمكِّن الموارد الثابتة المعاهد من التخطيط لتطوير نفسها.

٢ ـ إلى جانب جمع الصدقات والهبات، هناك مجال مهم، هو مجال (الوصايا) حيث يمكن من خلال الصلات والزيارات لكبار الملاك والأثرياء أخذ وعود ومستندات منهم بتخصيص جزء من ثرواتهم بعد الموت وصية للمدرسة، فكثير من الناس يبذل على هذا النحو ما يكون شحيحاً به في حال حياته.

٣ ـ يمكن الاستفادة من بعض الأساليب التي اتبعتها بعض الجهات

الخيرية، مثل كفالة مدرس، توفير مكتبة صغيرة لطالب علم، كسوة طالب علم...

٤ ـ إن تشكيل مجلس داعم لأنشطة المعهد من آباء الطلاب، سيكون عظيم الفائدة، ولا سيما إذا أحسن اختيار أعضائه. ويعمل هذا المجلس على النحو الذي تعمل عليه لجان أصدقاء البيئة، ولجان أصدقاء المرضى ونحوها.

٥ ـ في اعتقادي أن من الممكن إعادة النظر ـ في بعض البلاد على الأقل ـ في قضية مجانية التعليم الشرعي؛ حيث إن ترتيب بعض الرسوم السنوية من أجل تحسين مستوى المعاهد، ودعم أنشطتها ـ سيكون أمراً مفيداً من أكثر من وجه. ويمكن إعفاء بعض الطلاب من تلك الرسوم في بعض الحالات، مثل: ثبوت فقد ولي أمر الطالب، وحصول الطالب على مستوى عال في الاختبارات النهائية، وفي حالة إرادة استقطاب أبناء منطقة معينة، تشكو من نقص في أعداد طلبة العلم الشرعي. وليس القصد من هذا هو الحصول على المال، فحسب، وإنما إثارة اهتمام الطلاب وحفزهم على التعليم الجيد، إلى جانب إشعارهم بأهمية وجودهم في المعهد. ويمكن أن تخضع المنح الشهرية للطلاب أيضاً لاعتبارات الحاجة والتفوق.

وبعد فإن بعضاً مما قلناه هنا، لا يخلو من الجنوح إلى شيء من المثالية؛ وتطبيقه ربما كان يحتاج إلى ظروف أفضل من تلك السائدة في كثير من بلدان العالم الإسلامي، كما أنه يحتاج إلى درجات من الاهتمام والوعي أفضل مما هو متوفر. ولكن دائماً تكون دوائر النظر أوسع من إمكانات التطبيق. والفكرة التي لا يمكن الاستفادة منها على نحو حرفي، قد تفتح آفاقاً لأفكار جديدة ممكنة التطبيق، كما أن ما لا يصلح لبلد أو مرحلة، قد لا يكون كذلك في بلاد أو مراحل أخرى؛ ونسأل الله توفيقاً وإحساناً.



إضاءة:

إن الشرط الأساسي لتحصيل الحقيقة هو استخدامها؛ إذ لا بد أن يُردَّ فكر الإنسان إلى عمل؛ والعمل كمال الفكر.

حول التعليم الجامعي

- مهمات الجامعة .
- التعليم الجامعي بين الواقع والمأمول .



١ ـ مهمات الجامعة

يكتسب التعليم الجامعي اليوم أهمية متزايدة نظراً لتشعب العلوم والمعارف وتكاثر التخصصات، وارتقاء شروط العيش الكريم. وحين تجتاح مجتمعاً من المجتمعات رياح التقلب والاضطراب السياسي، فإن الجامعة تكون من بين أهم المؤسسات التي تحافظ على توازن المجتمع، وتضمن له نوعاً من الاستقرار الثقافي. وهي لما تتمتع به من قوة الاستمرار أو (الحرون) في وجه التغيير، تشكل إطاراً مرجعياً للملاءمة بين القديم والجديد.

في الجامعات يتم إعداد المعلمين للمراحل التعليمية المختلفة؛ وهذا يعني أن الجامعة الناجحة، تسهم بحظ وافر في إصلاح المراحل التعليمية المختلفة، ورفع مستواها، وهذا يعطيها نوعاً من الأولوية في العناية والتطوير.

ومن وجه آخر فإن الفجوة الهائلة بين أمة الإسلام والأمم الأخرى على المستوى العلمي والتقني، لا يمكن ردمها عن طريق المعارف الأولية العامة، وإنما عن طريق المعارف المتقدمة، والجامعات هي أكثر المؤسسات أهلية لإنتاج تلك المعارف، فهي تتيح من خلال المناهج وأساليب البحث العلمي المختلفة ـ التطبيقات العملية للأفكار المنهجية والتحليلية المتعلقة بمشكلات المجتمعات الحديثة[1].

---

(١) الإدارة ١ : ٢٠٥.

إن خير ما يشير إلى أهمية التعليم الجامعي، هو أن نعمد إلى حذف وظائف الجامعة وإلغائها؛ لنرى أية وضعية معرفية وحضارية تكون لدينا، ولنتصور مجتمعاً من غير معلمين ولا مهندسين ولا أطباء ولا صناعيين ماذا ستكون حاله؟!

إن الجامعات قد أضحت في نظر الأمم رمزاً من رموز السيادة الوطنية، وعنصراً مهماً من عناصر تكوين الدول، ويذكر في هذا الصدد أن الزعيم الصهيوني (حييم وايزمان) قال عند افتتاح الجامعة العبرية عام ١٩٢٤ : «الآن تم بناء الدولة»[١].

إذا كانت الجامعة تحتل هذه المكانة الخطيرة، فإن علينا أن نتساءل عن المهمات التي على التعليم العالي أن ينجزها للأمة، وعن الأهداف التي ينبغي أن يحققها؟

ولعلي أوجز ما أراه في هذا الصدد في الآتي:

١ ـ إرساء تقاليد علمية.

لا نستطيع أن نؤسس مجتمعات، تصوغ أعرافها وعلاقاتها وأنماط تفكيرها على قواعد علمية صحيحة ما لم نرسخ في حياتنا تقاليد ثقافية بحثية، تساعدنا على تكوين أجواء ملائمة للإبداع والنمو العلمي، وتحجِّم في الوقت نفسه من الزيف والزغل الذي كثيراً ما يتفشى في الأوساط العلمية.

الجامعات بما هي أوعية وأطر لإنتاج المعرفة ونقلها وغربلتها، تستطيع أن تفعل ذلك. ولعل أهم التقاليد التي ينبغي التركيز عليها في هذا المجال هي: **النزاهة العلمية، والدقة في النقل، والاعتراف بالفضل لأهله، والموقف الموضوعي من الأخبار المنقولة، والانفتاح على الجديد، وتقبل النقد،**

(١) مجلة المعرفة: عدد ذي القعدة عام ١٤١٧هـ ص:٦٨.

والتشجيع عليه، والتفكير المنطقي، وهذا في الحقيقة لن يتم على الوجه المطلوب، ما لم يكن الأساتذة في الجامعة على مستوى جيد من الأهلية والخبرة.

٢ ـ تمليك الطالب منهجاً للتعامل مع المعرفة.

إن السنوات الأربع أو الست التي يقضيها الطالب في الجامعة ـ ليست كافية لاطلاعه على القسط الكافي من المعرفة؛ ولذا فإن من أهم ما يمكن للجامعة أن تتيحه لمنسوبيها (المنهج العلمي) الذي يمكنهم من التعامل الصحيح مع العلوم والمعارف. صحيح أن الجامعات تتيح قدراً من المعارف المتخصصة والعامة، لكن ذلك القدر إذا لم يرتكز على رؤية منهجية، فإنه سيكون أفضل وسيلة لتخريج نصف طالب علم، يتملكه من الغرور بمقدار ما يملك من النظر القاصر! إن الذي يملك معلومة، كمن يملك قطعة ذهبية، أما الذي يملك منهجاً، فهو كمن يملك مفتاح منجم من الذهب، وشتان ما بينهما!

إن تعليم طالب القراءةَ المثمرةَ، أو محددات التعامل مع النص التاريخي، أو أسلوب الاستفادة من معجم، أو ملامح العلاقات الجدلية. . . يعد جزءاً من تكوينه المنهجي، وذلك أجدى بكثير من حفظ معاني بعض الكلمات، أو الاطلاع على عشرة كتب في التاريخ. . .

الشيء الآخر الذي يمكن للجامعة أن تفعله على هذا الصعيد، هو قدر من التوازن المعرفي، فالعلم عبارة عن معرفة منظمة؛ والجامعة من خلال مواد التخصص، ومن خلال المواد التربوية والمواد المساعدة ومواد الثقافة العامة ـ توجد الأساس للتوازن المعرفي المطلوب. هذا التوازن هو الذي يحول بين إيجاد مثقف منغلق، ومثقف مشوّه الرؤية، وهو الذي يتيح المجال أمام تكوين أعداد كبيرة من الناس المهتمين بالشأن العام، العارفين بما يتطلبه التقدم الحضاري من خطط وجهود وأدوات.

٣ ـ تكوين الرجل الحسّاس:

متطلبات العيش في هذا الزمان، ومتطلبات التأثير في الحركة الاجتماعية ـ أضحت اليوم أكثر تعقيداً من أي وقت مضى، نظراً لكثرة المعطيات التي يتطلبها القرار الصحيح على المستوى الفردي، وعلى المستوى الجماعي. لا تستطيع الجامعات ـ كما قلنا من قبل ـ أن تقول كل شيء لطلابها، ولكنها تستطيع أن تنمي لديهم مجموعة من (الحساسيات) التي تساعدهم على اتخاذ المبادرات والمواقف الصحيحة، كما تساعدهم على جعل ردود أفعالهم تجاه أحداث الحياة أكثر رشداً وتنظيماً. ولعل أهم ما ينبغي تكوين الحساسية نحوه ما يلي:

أ ـ البعد التاريخي لأمة الإسلام بما حواه من مجد وفتوحات وإنجازات، وما تضمنه من مشكلات وأخطاء وانكسارات. تنبع أهمية التاريخ لأمة عريقة كأمتنا من أنه يشكل الخلفية الثقافية لكل جوانب المعرفة التي نعالجها، كما أن نظامنا الرمزي مكون من معطيات منهجية وتاريخية. ليس المهم أن يحفظ الطالب تفصيلات الحوادث التاريخية، ولكن أن يشكل انطباعات واضحة عن مجريات التاريخ وسنن الله ـ جل وعلا ـ في القرون التي خلت، إلى جانب فهم عميق لطبائع الأشياء ومنطقها واتجاهات تطورها. إن استيعاب الواقع، لا يتم من غير استيعاب حسن للتاريخ ما دامت جذور الواقع النفسي والاجتماعي والتربوي والسياسي... الذي نعيشه تضرب في أعماق الزمن. وعلى نحو عام، فنحن لا نفهم علماً حتى نفهم تاريخه.

ب ـ كل التصرفات التي يتصرفها البشر، هي ثمرات نسيج معقد من طبائعهم وثقافتهم وعقائدهم وتأثير البيئة فيهم. ويحتاج الرجل الحديث إلى امتلاك حسّ مرهف وبصيرة نافذة نحو ما هو مشترك بين الناس جميعاً، وهو (الطبيعة البشرية) بما تشتمل عليه من دوافع وغرائز وأشواق وتطلعات؛ حتى يفهم رجال المستقبل المنطق الذي يحكم تصرفات البشر، والعلل

الخفية لها. وبذلك يتمكنون من ضبط أنفسهم، وتحييد العناصر السيئة من سلوكهم، إلى جانب بناء علاقات حسنة وواضحة مع أبناء مجتمعاتهم.

جـ ـ في عصر التغيرات السريعة يصبح تعليم الطلاب الجامعيين (التكيف) ومهارات الاتصال ـ أمراً في غاية الأهمية؛ فمن غير خبرة بهذا وذاك يمكن للطالب أن يضحي فريسة للسلبية، أو الاندماج الكلي دون تمييز، وهما مصدران للتحلل الذاتي في أيامنا هذه!

وأستطيع القول: إن الانقسام الذي نلحظه بين كثير من مثقفينا حول كثير من قضايانا الجوهرية، ما هو إلا من نتائج تقصير الجامعات في أداء مهامها نحو هاتين المسألتين. والدليل على ذلك أن أقساماً محدودة جداً فيها ـ كقسم إدارة الأعمال ـ تلك التي تدرس مقرراً لطلابها حول التكيف أو مهارات الاتصال، كما أن ضعف الربط بين المناهج المختلفة، وضعف ربط المناهج برؤيتنا الحضارية وفلسفتنا الحياتية أدى إلى ما نشاهده من ضعف التكيف، وضعف روح المبادرة الفردية.

د ـ الحساسية نحو مجمل التحديات التي تواجهها الأمة على الصعد المختلفة، إلى جانب الأهداف التي ترنو إلى تحقيقها. وهذا الموضوع يكتسب أهمية متزايدة في ظل الإحباط الذي تعاني منه الأجيال الحاضرة، وفي ظل سيطرة الهموم الشخصية على معظم الناس. ويؤسفني القول: إن التقدم على هذا الصعيد، يتسم بالبطء والارتباك. ويبدو أن ما هو متاح من هامش حرية التعبير لا يكفي لأكثر مما هو حاصل الآن؛ مع أن الوعي بذلك شرط أساسي للوصول إلى محكات نهائية في مسائل التغيير والإصلاح الاجتماعي.

٤ ـ إنتاج المعرفة المتقدمة:

تمثل الجامعة المؤسسة الرئيسة لاحتضان (البحث العلمي)، فعلى الرغم من وجود مراكز البحوث المستقلة في أماكن كثيرة، إلا أن الجامعات

هي التي تتولى القسط الأكبر من هذه المهمة؛ فالدراسات العليا، هي أقسام تدريب على كتابة البحوث، وإجراء التجارب، كما أن لأساتذة الجامعة إسهامات قيمة في هذا المجال. وقد أفردنا حيزاً كبيراً للبحث العلمي لما له من أهمية استثنائية. وأردت هنا فقط التذكير بمهمة جامعية شبه مهملة!

في البلدان المتقدمة يخصص جزء كبير من ميزانيات الجامعات للبحث العلمي والبحوث التطبيقية خاصة، مما ساعدها على تجديد نفسها، وتقديم الخدمات العلمية للمصانع والشركات والمؤسسات السياسية والاجتماعية المختلفة. كثير من جامعاتنا لا يختلف في مسألة البحث العلمي عن الثانويات، إلا أنها أكثر ازدحاماً! وهي لعدم صلتها بالجديد، تدرس نظريات مضى عليها عقود، وكثير منها صار منسوخاً، على حين يدرس الطلاب في البلاد المتقدمة النظريات التي تم التوصل إليها قبل عام؛ وكثيراً ما يكون الطلاب أول من اطلع على بعض النظريات الحديثة، بسبب أن أساتذتهم الذين يدرِّسونهم هم أصحاب تلك النظريات!.

٥ ـ خدمة المجتمع:

إن السوية الثقافية العامة لأكثر أفراد الأمة الإسلامية، هي أدنى بكثير مما هو موجود لدى كثير من الشعوب الأخرى، ورفع تلك السوية، يحتاج إلى جهود هائلة، وفي كل اتجاه. إن المكانة المرموقة التي تحتلها الجامعات في مجتمعاتها، تمنحها حق الريادة، وترتب عليها في الوقت نفسه مسؤولية النهوض بالبيئة المحيطة بها. والجامعات بما تملكه من إمكانات علمية ومادية تستطيع حقاً ـ لو أرادت ـ أن تصبح مراكز إشعاع حضاري؛ وهي بحاجة إلى هذه الوظيفة، حتى تكسر حواجز العزلة التي تفصلها عن الناس حولها.

ما يمكن أن تقوم به الجامعات من الارتقاء بالمجتمع والخدمة له كثير جداً، نذكر منه:

ـ تبسيط المعرفة التي تقدمها لطلابها على نحو يمكّن جماهير الناس من استيعابها؛ إذ لا يصح بحال أن يبقى السواد الأعظم من الناس بعيدين عن المعارف الأساسية والمعارف المعاصرة، ما دمنا نعتقد أن (العلم) هو القاعدة التي سيقوم عليها البناء الحضاري كله.

ـ ترجمة أفضل ما لدى الأمم الأخرى من معارف وعلوم وأفكار وتقنيات، حتى نكتسب ما نحن بحاجة إليه في تحسين مستوى الحياة لدينا، وحتى نعرف ما يدور في العالم من حولنا.

ـ تقديم الاستشارات العلمية للهيئات والشركات والمؤسسات الحكومية والأهلية؛ وهذا لن يتم إلا إذا استوعبت الجامعات حاجات القطاعات الصناعية والعمرانية والتجارية من الخبرات والدراسات، وعملت على تلبيتها.

ـ عقد الدورات التدريبية والتنشيطية للموظفين ـ ولا سيما المعلمين ـ وإقامة الندوات والمحاضرات العامة التي تنشر الوعي بين الناس، وتبصّرهم بالحلول لأشكال معاناتهم.

ولن يكون بمقدور الجامعات أن تقوم لهذا كله على نحو جيد ما لم تتم إعادة تنظيمها من جديد من خلال إجراء تغييرات جذرية كثيرة في كل أوضاعها، إلى جانب إعادة رسم أهدافها على نحو أكثر شمولاً ووضوحاً.

❁ ❁ ❁

إضاءة:

إن الواقع المؤلم، يدفع الناس إلى تجاهله، على نحو ما يدفع الألم الشديد بصاحبه إلى الغيبوبة.

٢ ـ التعليم الجامعي بين الواقع والمأمول

لا نستطيع أن نقوّم واقع التعليم الجامعي في عالمنا الإسلامي ما لم نعرف شبكة الجامعات التي لديه، وندرس نقاط القوة والضعف فيها، وهذا ليس متيسراً لنا، ولا لغيرنا. والأرقام التي تحت أيدينا ـ على قلتها ـ غشيها الكثير من التشويه، كما أن التبدلات النوعية التي تحدث في بعض الجامعات هنا وهناك كثيراً ما تجعل أحكامنا قاصرة. وهذا يفرض علينا أن نصوغ ما لدينا من ملاحظات بعبارات مرنة، تمنح تشخيصات أولية، وانطباعات عامة دون أن يعول عليها على نحو مفصل ودقيق.

مما لا يغيب عن البال أن الجامعات تعكس على نحو لا مهرب منه كل التغيرات الفكرية والاجتماعية والحضارية التي تحدث داخل مجتمعاتها، ولذا فإن أصول التغيير الذي يطرأ على جامعة من الجامعات، إنما يقع أغلبها خارج حدودها[١]. ومن وجه آخر فإن الجامعات لا تستطيع أن تجعل من نفسها الترياق الذي يعالج كل ما خرّبته القوى النافذة في المجتمع، ولا أن تتلافى كل الذي حدث من قبل الأسر أو وسائل الإعلام، أو مراحل التعليم السابقة.

هل جامعاتنا في أزمة؟

يبدو أن الشكوى من سوء الأحوال شيء ملازم للطبيعة البشرية، أو

(١) التعليم العالي في أمريكا: ٣٩.

هي مما اخترعته للتحريض على التقدم. ثم إن ما ندعوه بالأزمات والمشكلات، يأخذ دائماً طابع النسبية، ومدلوله شديد المرونة؛ لكن يبدو أن الذي منح الإحساس بوجود أزمة هو بطالة كثير من المتعلمين وخريجي الجامعات، إلى جانب الوعي الذي تولد من خلال مقارنة أوضاع جامعاتنا بأوضاع الجامعات في الدول الصناعية على نحو خاص.

وسنحاول رسم أهم ملامح الأزمة قبل أن نتحدث عن تفاصيلها، وبعض الحلول الممكنة لها، وذلك من خلال المفردات التالية:

١ ـ يعاني التعليم في العالم الإسلامي من أزمة (هُويَّة)[1]، وهذه الأزمة تتعرض لها كل الأمم التي تعاني من انطفاء جذوة الإبداع وركود إنتاجها الثقافي الرفيع. وقد عانت أمة الإسلام من ذلك قروناً عدة قبل أن يأتي الاستعمار، ويستغلّ الفراغ الفكري والثقافي الموجود لدينا في بسط فلسفته وثقافته ومفاهيمه، باعتبار ذلك ضمانة طويلة الأجل لاستمرار الهيمنة الشاملة.

عند النظر في أحوال جامعاتنا نجد أن منها ما تسري فيه روح علمانية، ومنها ما تسري فيه روح قومية أو وطنية، وقليل منها تلك التي تتخذ من الإسلام ـ عقيدة وشريعة ـ إطاراً مرجعياً لما تقدمه إلى طلابها من علوم!

إن الهوية حتى تكون حاضرة في الأذهان، وفي المناهج والنظم، تحتاج إلى إنتاج فكري مبدع، مختوم بخاتم ذاتيتنا الثقافية وفلسفتنا في الحياة؛ إذ لا هوية بلا فكر، ولا فكر من غير إنتاج فكري، ولا إنتاج فكرياً من غير مؤسسات، تحرض عليه، وتحتضنه، وتساعده.

إن كثيراً من التشوش والغبش في هذه المسألة، نابع من أن كثيرين

---

(١) يمكن تعريف العوية بأنها: «مجموعة الخصائص والميزات العقدية والأخلاقية والثقافية والرمزية التي ينفرد بها شعب من الشعوب أو أمة من الأمم».

منا، لا يحسنون سوى الحديث عن الماضي والأمجاد الغابرة، ونقل فلان عن علان، لكنك لا تسمع منهم شيئاً عما يقولونه هم. وفي المقابل فإننا لا نشكو من قلة الذين يتحدثون عن (الغرب) وفلسفته وإنجازاته مع أن الذي يهمنا من الماضي ومن الغرب هو المغزى والأفكار الرئيسية التي تساعد على النهوض بأمتنا!

إن مناهجنا ونظمنا التعليمية مشوشة ومرقعة على مستوى الفلسفة والتوجه، وعلى مستوى المعارف والأنشطة؛ ولا أعتقد أننا بحاجة إلى براهين على هذا.

٢ ـ يشكو السواد الأعظم من الجامعات في العالم الإسلامي من (الفيضان) الطلابي؛ فالمتقدمون لها في تزايد مستمر، ولا يتمكن إلا القليل منها من مواكبة الزيادة في منسوبيها؛ فعجزها متصاعد في المباني، وفي أعضاء هيئة التدريس، وفي التجهيزات والوسائل المساعدة، الفصول مكتظة، وكثير من الأساتذة مثقلون بالمحاضرات، والمكتبات فقيرة، وأقسام التزويد فيها ضعيفة، وهكذا فهناك اختناقات شديدة، وأداء ضعيف؛ والاستثناء من ذلك قليل.

٣ ـ كانت نتائج ذلك هي تدهور مستوى كثير من الجامعات في العالم الإسلامي، فتكلفة التعليم الجيد، ترتفع على نحو مستمر. وبما أن تلبية حاجات أكثر الجامعات غير متيسرة، فقد أصبحت المستويات المعرفية التي تقدمها غير ملائمة لمتطلبات العصر الذي نعيشه. وقد قام أحد الباحثين بدراسة مسحية لعدد من الجامعات الإسلامية بغية التعرف على أحوالها، وقد كشفت تلك الدراسة عن أشكال مذهلة من العجز والقصور في كثير من تلك الجامعات. وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن الحاصلين على درجة (الدكتوراه) من أساتذة (جامعة المسلمين) الأندنوسية، يشكلون نسبة ٥٪ أما الحاصلون على درجة (الماجستير) فيشكلون ١٠٪ فقط[1].

---

(١) الجامعات الإسلامية: ١٨٣.

مركز الملك فيصل في الفلبين يمنح الماجستير في الشريعة واللغة العربية، على حين أنه ليس فيه شخص واحد، يحمل (الدكتوراه)[1]! وفي جامعة الفلبين معهد آخر للدراسات الإسلامية، يمنح الدكتوراه، وأساتذته الذين يدرسون فيه، لا يزيدون على خمسة، وبعضهم يسعى لأخذ شهادة (الدكتوراه) منه[2]. ولو ذهبنا نعمق النظر في كثير مما يسمى (جامعات) في دول عديدة مثل الباكستان وبنغلادش ودول أفريقية كثيرة لوجدنا أنها لا تعدو أن تكون عبارة عن كليات ضعيفة في كل شيء!

تردي البحث العلمي:

كنا ذكرنا من قبل أن من مهمات الجامعة الرئيسة تطوير المعرفة من خلال البحوث العلمية الرصينة التي يقوم بها أساتذتها وطلابها. وعند النظر في واقع البحث العلمي في معظم الجامعات في العالم الإسلامي، نجد أنه واقع مؤلم؛ والدليل على ذلك أن كثيراً من الجامعات في البلاد الإسلامية، ليس لديه أية أموال مرصودة للإنفاق على أية بحوث. والبحوث التي يقوم بها بعض الأساتذة في تلك الجامعات، تتم بمبادرات فردية منهم، دون أن يتلقوا أية مساعدات من جامعاتهم. أضف إلى هذا أن براءات الاختراع التي تسجلها الجامعات في عالمنا الإسلامي، لا تساوي ما تسجله الجامعات في بلد أوربي واحد! ولا يخفى أننا لا نستطيع أن نقوّم ما نقدمه من معرفة، وما نقوم به من بحوث، بمعزل عما يقدمه العالم من حولنا، على نحو ما أشرنا إليه من قبل. وحتى نعرف شيئاً عن الهوة التي تفصل جامعاتنا عن الجامعات الأخرى سنلقي الضوء على بعض أحوال التعليم العالي في فلسطين المحتلة في مجال البحث العلمي. في البداية فإن الحكومة اليهودية في فلسطين تخصص ٣٪ من الناتج القومي للإنفاق على البحث

---

(١) السابق: ٢٤٢.

(٢) السابق: ٢٥١.

العلمي، وهذه النسبة من أعلى النسب في العالم، ولديها عدد من الجامعات والمعاهد المصنفة مع أرقى المعاهد العلمية والتقنية في العالم. وعلى سبيل المثال فإن معهد (وايزمان) يركز على أبحاث الكيمياء وعلوم الأحياء الدقيقة والنظائر المشعة والإلكترونيات والفيزياء النووية... وهو يجري سنوياً ما بين ٤٠٠ و٥٠٠ برنامج بحثي أساسي وتطبيقي، ويعمل فيه ما يزيد على ٥٠٠ عالم، ويستضيف سنوياً قرابة ١٠٠ عالم من أنحاء العالم، ويدرس في هذا المعهد نحو من ٧٥٠ طالباً في مرحلتي (الماجستير) و(الدكتوراه). ولا نريد أن نقلب المواجع ونزيد في الإحباط، لكن من المهم أن نعلم أن نسبة أعداد الأساتذة والمشتغلين بالبحث العلمي إلى نسبة أعداد الطلاب في الجامعات اليهودية هي (١) إلى (٤،٧)[١] وهذه نسبة قليلة الوجود في الجامعات العالمية! وسوف نتحدث باستفاضة - بإذن الله - عن موضوع البحث العلمي في العالم الإسلامي فيما بعد.

٥ - يمكن القول: إن هناك نوعاً من سوء (التوافق) بين حاجات سوق العمل من الموظفين وبين الإعداد الذي تقدمه جامعاتنا لطلابها؛ مما جعل خريجي الجامعات هم الشريحة العظمى بين العاطلين عن العمل، وبين الذين يعملون في غير تخصصاتهم، ولهذا نتائجه الوخيمة على الخريجين وعلى الجامعات وعلى سوق العمل. وسبب هذه الوضعية هو عجز الجامعات عن فهم متطلبات الحياة الحديثة، وبسبب افتقارها للمرونة، وعجزها عن تطوير نفسها بما يجعلها مؤهلة لتلبية ما فهمته واستوعبته.

هذه هي أمهات العوامل التي شكلت أزمة التعليم الجامعي في العالم الإسلامي، وسوف نتعرف على المزيد من مظاهر تلك الأزمة في الصفحات القادمة بإذن الله تعالى.

---

(١) انظر مجلة المعرفة العدد ١٩ ص: ٧٥ وما بعدها.

الأستاذ الجامعي:

تختلف مهمة الأستاذ الجامعي عن مهمة المعلم في المراحل التعليمية الأخرى، حيث يكون واجب الأخير ـ على نحو أساسي ـ تقديم المعارف الأساسية لطلابه التي غالباً ما تكون موضع إجماع. أما الأستاذ الجامعي، فإن مهمته مزدوجة؛ حيث إن عليه أن ينقل إلى طلابه المعارف والعلوم التي أنتجها من سبقه، كما أن عليه أن ينتج معرفة جديدة، تمنح ذلك المنقول نوعاً من التجديد والتلوين. وقد يصل الأمر إلى حد نقض الكثير من الأفكار والمقولات السابقة وهدمها؛ حيث إن من طبيعة الفكر أن يهزم الفكر؛ والمعرفة التي لا تنمو تتأسَّن، وتفقد مصداقيتها وفعاليتها. والمشكلة أن بعض الأساتذة الجامعيين لا يرون سوى جانب واحد من مهمتهم، وهو تبليغ المعرفة للطلاب؛ وذلك من ذيول ركود الاجتهاد في عالمنا الإسلامي، ومن نتائج ذبول الروح العلمية في كثير من جامعاتنا. وهذا في الحقيقة يمثل مشكلة كبرى، حيث إن الجامعات هي المعاقل الرئيسة لإنتاج المعارف وتطويرها، فإذا لم تفعل ذلك، فمن الذي سيفعله؟!

وقد دلت دراسة مسحية أجريت في السبعينات على تدني إنتاجية الأستاذ الجامعي العربي، إذا ما قورنت بإنتاجية الأستاذ الجامعي في العالم المتقدم، حيث لم تزد على ١٠٪ منها، وقد كان من المفترض أن ينتج علماء الوطن العربي سنوياً ما بين (٨) آلاف إلى (١٤) ألف بحث إذا ما استخدمت المقاييس العالمية، ولكنهم لم ينتجوا إلا ٨٤٧ بحثاً فقط[١].

ما السبيل؟

يجب أن نفرق بين النمو الطبيعي للأستاذ الجامعي وبين التنمية المقصودة له؛ إذ إن من شأن كل الوظائف والمهن أن تولد نوعاً من ارتقاء الخبرة لدى من يباشرها، لكن هذا النمو الطبيعي لم يعد كافياً لمواكبة

---

(١) الجامعات الإسلامية: ١١٣.

التطورات السريعة التي تتطلب دائماً المزيد من الكفاءة والتألق. إن التعليم الجامعي يواجه مشكلات متشابهة، وإن هناك الكثير من الأساليب والوسائل التي اتبعتها دول عديدة لتحسين عطاء الأستاذ الجامعي، وعلينا أن نستفيد منها، كما أن علينا أن نبدع من ذلك ما يناسب حاجاتنا الخاصة. ولعلنا نذكر هنا بعض الخبرات والمقترحات التي نظن أنها تساعد على ذلك:

١ ـ هناك أعداد كبيرة من الطلاب الجامعيين الذين يتطلعون إلى الانخراط في سلك التدريس الجامعي، وهذا يمنح الجامعات فرصة كبيرة لاختيار المعيدين الذين سيتم إعدادهم لممارسة المهنة. والحال الآن هو أن كثيراً من الجامعات يختار المعيدين على أساس الدرجات التي ينالها الطالب في دراسته الجامعية، إلى جانب مقابلة شخصية سريعة، ثم يجري دفع من يتم اختياره إلى الدراسة المنهجية.

إن البداية الصحيحة تتمثل في رفع مستوى شروط القبول لـ(الإعادة) وفي جعلها واضحة، من خلال شرحها للطلاب أثناء سنوات الدراسة الجامعية على نحو يزيل أي لبس. ولعل من أهم تلك الشروط إتقان لغة أجنبية، ومعرفة جيدة باستخدام (الحاسوب)، إلى جانب معرفة جيدة باستخدام الأسلوب الإحصائي في البحث العلمي، كالخبرة في تصميم الاستبانات وتحليلها. ويفوق كل ذلك في الأهمية أن يثبت الطالب نوعاً من الاهتمام المميز بالتخصص والقسم الذي يرغب في الانتساب إليه والعمل فيه؛ وذلك كأن يكون أجرى فيه بعض البحوث، أو حضر فيه بعض البرامج والدورات... وهذا طبعاً بالإضافة إلى الشروط الخلقية والسلوكية. ويتم خلال مدة الإعادة تدريبه على مهارات البحث والتدريس والتقويم... إن وضوح شروط الإعادة، وارتقاءها، سيكون حافزاً للطلاب المتميزين على الاستعداد لها.

في اليابان تعد جامعة (طوكيو) أرقى الجامعات اليابانية، ويعتقد من يدرس فيها أن مستقبلاً زاهراً[1] ينتظره. ونظراً لصعوبة القبول فيها، فإن

---

(١) كشفت إحدى الدراسات المسحية أن ٤٠٪ من مديري الشركات الكبرى في اليابان هم من خريجي جامعة (طوكيو).

ذوي الطموحات الكبيرة من الطلاب، يبدؤون وهم في الصف الأول المتوسط بدراسة اختبارات القبول السابقة فيها، والاستعداد الذهني والمعرفي للاختبار عندما يحصلون على الثانوية!!

٢ ـ إن الضعف الشديد في أطر تنمية الأساتذة والمدرسين في كثير من جامعاتنا، يعود إلى اعتقاد تقليدي بعدم حاجة أساتذة الجامعة للتدريب على التدريس وشؤون البحث العلمي، لكن المشكلات المتمثلة في ضعف مستويات الخريجين، وتعثر الكثير من الطلاب، بدأت توجد قناعات جديدة بضرورة تغيير تلك النظرة والقيام بشيء ما.

أعتقد أن كل جامعة من الجامعات بحاجة إلى إيجاد مركز يعنى على نحو أساسي بتقديم المهارات والمعلومات والخبرات ذات الصلة بمهنة التدريس لكل من ينتسب إلى الهيئات التدريسية، والمساعدين لهم خلال السنوات الخمس الأولى ـ على الأقل ـ من انتساب الواحد منهم. كما يعني بإصدار نشرة دورية تتضمن الجديد في هذا المجال.

وسيكون من الملائم أن تنشئ وزارة التعليم العالي في كل قطر مركزاً يشرف على أداء المراكز الموجودة في الجامعات، ويقوم بالتنسيق بينها، وإيجاد معابر لانتقال الخبرة من جامعة إلى أخرى، بالإضافة إلى إيجاد معايير موحدة في اختيار المعيدين وتدريبهم، وترقية الأساتذة... تلتزم المراكز بمراعاتها.

إن أداء الجامعات الجيد في الدول المتقدمة لم يأت من فراغ، وإنما من جهود تطويرية دائمة ومضنية. في دراسة مسحية في بريطانيا تبين أن ٣٩ جامعة في بريطانيا من جامعاتها الخمس والأربعين كانت تقدم منذ عام ١٩٧١ البرامج التدريبية لأساتذتها بشكل أو بآخر[١].

٣ ـ من الأسباب المهمة لتدني عطاء الكثير من الكليات والأقسام عدم وجود معايير للجودة، وعدم وجود روح علمية وبحثية جيدة، وذلك يعود على نحو أساسي إلى العزلة القاتلة الموجودة بين الجامعات، حيث إن هناك

---

(١) التعليم والتعلم في الجامعات والمعاهد العليا: ٢٥.

استقلالية مبالغ فيها، مما جعل لكل قسم معاييره الخاصة وأسلوبه الخاص في تقديم المعرفة والتدريب لطلابه، وهو لن يجد - بالطبع - أي مشكلة في إيجاد المسوغات الضرورية لإقناع نفسه بالرضا عن المستوى الذي هو عليه!

لذا فإن مما ينبغي عمله إعادة هيكلة الكليات، ليتم تنظيمها على أساس الأقسام، فيكون لكل قسم شخصيته المستقلة، وميزانيته الخاصة، وينبغي إيجاد جهة حكومية، تتولى وضع معايير وضوابط دقيقة لتصنيف الأقسام المتناظرة على مستوى القطر - كما هو الحال في الولايات المتحدة مثلاً - حتى يعرف كل قسم موقعه بين الأقسام المماثلة، وحجم العطاء الذي يقدمه، وحتى يمكن إيجاد نوع من التنافس بينها.

يضاف إلى هذا تنشيط تبادل الأساتذة الزائرين بين الجامعات من أجل انتقال الخبرات بينها، ومن أجل اكتشاف كل زائر ما لدى قسمه وما لدى الأقسام التي يزورها من ميزات، ومن نقاط ضعف، وهذا لن يتم ما لم تستهدف الزيارة عقد ندوات وإجراء حوارات ولقاءات عمل مع أساتذة الكلية المستضيفة.

٤ - تقويم الطلاب لأداء أساتذتهم من الوسائل المهمة اليوم في تحسين الأداء التعليمي في الجامعات. والمشكل أن كثيراً من أدبيات التعليم والتعلم لدينا، يحث الطالب على الصمت بين يدي أساتذته، فكيف يتاح له أن يقوّم طريقة تدريسهم؟!

وأظن أن كل المجتمعات التعليمية قد قاومت في البداية هذه الطريقة في تحسين التعليم، إلا أن ذلك قد تغير في كثير من الجامعات. والمسوغ لذلك هو أن التعليم خدمة تقدم للطالب، ومن حقه أن يبدي رأيه فيما يقدم إليه؛ كما هو الشأن في جميع الخدمات. وكما يقول (براون): «إذا ما أردت أن تعرف ما إذا كان المطعم جيداً، فإن عليك أن تسأل عملاءه، وليس الطاهي ولا المالك»[١].

---

(١) بحوث مؤتمر التعليم وتحديات القرن (٢١): ٧٨.

ومن وجه آخر فإن السوية والنوعية المطلوبتين في الأستاذ الجامعي، قد اختلفتا عما كان في الماضي، كما أن الأهداف المرتجاة من التعليم الجامعي، قد تطورت أيضاً، وهذا كله يفرض علينا أن نتأكد على نحو مباشر من أن الأموال والأوقات والجهود التي تستهلكها المؤسسات التعليمية، تؤتي نحواً من الثمار التي تؤتيها نظيراتها في البلدان الأخرى.

إن تقويم الأستاذ الجامعي يمنح الجامعة مصداقية اجتماعية، ويساعدها على تطوير برامجها ووسائل التعليم فيها، كما أنه حافز كبير للأستاذ كي يطور قدراته ومهاراته[1]. ومع أن لذلك بعض السلبيات، إلا أنه من خلال التوعية والمتابعة، إلى جانب تقنين وسائل التقويم وأساليبه ـ سيمكن التخلص من كثير منها. إن ما يمكن أن نفعله حيال تحسين التعليم الجامعي كثير جداً، إلا أن الملاحظ أن الجامعات كثيراً ما تبدي على نحو غير سائغ الحيرة والارتباك ـ وأحياناً عدم الاكتراث ـ تجاه تحسين خدماتها!



إضاءة:

إذا سمح المرء لنفسه بآمال كبيرة، فإنه يخطب ودَّ خيبة الأمل.

---

(١) للتوسع في هذا الموضوع، انظر السابق ٥٣ ـ ١١١.

لغة التعليم الجامعي:

تعذر المؤسسات في أشكال القصور الناشئة عن أمور خارج إرادتها، مثل الإمكانات المادية ـ مثلاً ـ لكن لا أدري كيف نصنع في تسويغ خطأ كبير، لا تكلف إزالته أي شيء، ولا يملك قرار الخلاص منه أحد سوانا؟!

إن معظم كليات الطب والهندسة وبعض الكليات الأخرى في جامعاتنا العربية، تدرس مناهجها بلغة أجنبية كثيراً ما تكون (الإنجليزية) وأحياناً (الفرنسية)، وسيكون من المؤسف أن نحتاج إلى براهين وأدلة على أهمية التدريس باللغة العربية في جميع التخصصات، مع أن ذلك هو الأصل؛ وما هو سائد الآن هو الذي يحتاج إلى تسويغ!

يمكن القول في هذا السياق: إن مسألة تدريس العلوم بلغتنا العربية من المسائل المتصلة بالسيادة والكرامة، والمتعلقة باستكمال مكونات الاستقلال، والخروج من الدوران في فلك الآخرين، والعيش على هامش ثقافاتهم، وإن إهمال لغتنا، وإبعادها عن بعض مجالات التعليم، هو ضرب من ضروب احتقار الذات، وتهيئة جلية لنوع من التبعية الحضارية لأولئك الذين نعلِّم بلغاتهم.

إن الاتجاهات اللغوية الحديثة ترفض اعتبار اللغة أداة مجردة، لا تتفاعل مع الفكر والحياة؛ فاللغة ليست وعاء فحسب، وإنما هي وعاء ومضمون أيضاً. كما أن تلك الاتجاهات ترفض أيضاً ادعاء قصور أي لغة عن استيعاب العلوم؛ ولا سيما اللغة التي كان لها إنجاب فكري سابق بحجم ما فعلته العربية، وإنه لمن المعترف به اليوم أن التفكير إذا ما خضع

لمقتضيات الطرق العلمية، فإنه يتخذ الخطوات نفسها ـ حيثما كان وبأي لغة اختيرت ـ في وصف التجربة[1].

إن تدريس بعض العلوم بلغات أجنبية، يكوّن لدينا جزراً ثقافية معزولة عن محيطها، كما يحرم السواد الأعظم من الناس من الاطلاع على تلك العلوم والتفاعل معها. هناك تجارب تفيد بأن استيعاب الطلاب للمواد الدراسية يكون أفضل بكثير عندما يدرسون هذه المواد باللغة العربية؛ وذلك لأن حواس الإنسان العربي معتادة على تأثيرات لغته العربية، وتدريس العلوم بلغة أجنبية، يجعل الطلاب مخذولين من حيث الفهم، ثم من حيث الإبداع؛ لأن سيطرتهم على تلك اللغة لن تكون أبداً كسيطرتهم على لغتهم الأم[2].

تقدم جامعة دمشق تجربة حية في هذه القضية، فقد أنشئت كلية الطب فيها عام ١٩١٩ تحت اسم (المعهد الطبي) ومنذ ذلك اليوم، وإلى يومنا هذا تقدم جميع موادها باللغة العربية، فهل ثبت أن خريجها أقل كفاءة من أولئك الذين درسوا باللغات الأجنبية، وهل ثبت أن دراستهم بالعربية أعاقتهم عن متابعة تخصصاتهم العليا في البلاد المتقدمة، أم هل ثبت أن الذين درسوا بالإنجليزية مثلاً، قدموا إسهامات متميزة في تخصصاتهم أكثر مما قدَّمه الذين درسوا بالعربية؟ إنه لم يثبت شيء من ذلك، بل إن الذي ثبت هو العكس.

في عام ١٩٧٥ تقدمت مجموعة من خريجي كلية الطب بجامعة دمشق في امتحان في بيروت من أجل إكمال دراستهم العليا في الولايات المتحدة الأمريكية، وكان مع تلك المجموعة طلاب لبنانيون ومصريون وفلسطينيون وأردنيون، وهؤلاء جميعاً درسوا الطب باللغة الإنجليزية، ومن الطبيعي أن تكون الأسئلة باللغة الإنجليزية، وكانت النتيجة أن نصف الناجحين في

---

(١) اللغة العربية في التعليم العالي: ٥٠.

(٢) رؤية مستقبلية لدور التعليم العالي والبحث العلمي: ٧٣.

الاختبار كان من الأطباء السوريين، والنصف الثاني كان من أطباء الدول الأربع الأخرى!

إن تجربة جامعة دمشق ليست تجربة فذة[1]، بل إنها جزء من تجارب عالمية كثيرة، فالأمم المتقدمة والمتخلفة جميعاً تأنف من التدريس بغير لغاتها الوطنية، مهما كانت لغاتها متخلفة وعسيرة الاستخدام[2]؛ فالمسألة ليست مسألة تجارية ولا مزاجية. إن هناك لغات كثيرة لم تمر بالتجربة الحضارية والتاريخية التي مرت بها العربية، ومع ذلك فإن أهلها يستخدمونها في تدريس العلوم في جامعاتهم، مثل اليوغسلافية والبلغارية والتركية. . . وتقدم اليابان نموذجاً متقدماً في التمسك بلغة يعاني المثقفون قبل غيرهم من استخدامها؛ إذ يقولون: إن القارئ يحتاج لكي يتمكن من قراءة جريدة يابانية إلى معرفة ١٨٥٠ حرفاً، وإن هذا العدد يزداد كلما زادت ثقافة الإنسان، واتسعت معرفته[3]. ويذكر بعض المختصين أن المثقف الياباني عالي المستوى قد يحتاج إلى معرفة ما يتراوح بين ٤٥٠٠٠ حرف و٥٠٠٠٠ ألفاً من رسوم اللغة اليابانية! وقد حدثني أحد المثقفين من مسلمي اليابان أنه ينوي ترجمة (صحيح البخاري) إلى اللغة اليابانية، وأن مشكلته في ذلك ليست العربية، وإنما لغته الأم: اليابانية! ومع هذا فإن اليابان تعد لغتها تلك من مكونات شخصيتها الرئيسة، ومن أعمدة تاريخها؛ ولذا فإنها تتحمل تكاليف الإبقاء عليها. ولم تحل اللغة اليابانية الشديدة التعقيد والصعوبة دون

(١) من الجدير بالذكر أن الطب كان يدرس في مصر قبل الاحتلال الإنجليزي باللغة العربية، وحين جاء الإنجليز جعلوه بالإنجليزية، واستمر الأمر على ذلك إلى يومنا هذا!.

(٢) يحدث في بعض الأحيان أن تكون لغات بعض الشعوب شفوية، كما هو الشأن في بعض اللغات الأفريقية، أو يكون لدى الشعب الواحد تنوع لغوي كبير، كما في الهند، وفي هذه الحالة يتم اللجوء اضطراراً إلى لغة أجنبية لتكون وسيلة تفاهم وتعلم.

(٣) اللغة العربية في التعليم العالي: ٥٩.

تربع اليابان اليوم على قمة الدول المتقدمة في مجالات العلوم والتقنية؛ مما يدل على أن اللغة ـ مهما كانت قاصرة ـ تظل كائناً مبدعاً وشديد الطواعية.

ولماذا نذهب إلى آخر المعمورة، ولا ننظر في قلب منطقتنا، حيث استطاع اليهود إحياء اللغة العبرية مما يشبه العدم، وهي الآن لغة التعليم العالي والبحث العلمي في فلسطين المحتلة، مع أن عملية الإحياء الضخمة حين تمت كانت من أجل المساهمة في إيجاد رابطة قومية بين مليونين من اليهود في فلسطين السليبة! ولا يستطيع أحد أن يقول اليوم: إن الجامعات اليهودية في فلسطين ضعيفة أو متخلفة.

إن الذين يرون استمرار تدريس الطب والهندسة وغيرها باللغات الأجنبية، يحتجون بوجود عدد من المشكلات التي تحول دون الانطلاق إلى تعريب التعليم الجامعي، وأهم تلك المشكلات عدم وجود مصطلحات علمية باللغة العربية سهلة وواضحة وشاملة لكل العلوم، بالإضافة إلى أن معظم الأساتذة الجامعيين في التخصصات العلمية، هم من خريجي الجامعات الأجنبية، وهم لذلك لا يستطيعون تدريس اختصاصاتهم بالعربية بصورة مُرْضية.

ويزيدون على هذا أن التعريب يعزل الطالب الجامعي العربي عن الفكر العالمي، ويجعل من العسير عليه الالتحاق بالجامعات الأجنبية لإكمال دراساته العليا. ولا ينسون أن يثيروا مشكلة توفر الكتاب الجامعي باللغة العربية في الفروع العلمية المشار إليها، كما أن الدوريات العلمية، يصدر أكثرها أيضاً بلغات أجنبية[١].

ولا يرى المتحمسون للتعريب أن يعزل الطالب عن اللغات الحية، وإنما يقترحون أن يدرس الطالب الجامعي لغة أجنبية حية بكثافة، كما يمكن أن تقرر عليه مادة بلغة أجنبية كي يجد الحافز على تعلمها. أما المراجع

---

(١) التربية في البلاد العربية: ٧٨٠ وما بعدها.

العلمية، فإن علينا أن نفعل كما تفعل الأمم التي تهتم بالمعرفة، وليس لها لغات عالمية، مثل روسيا واليابان والصين وغيرها، فإنها أقامت أجهزة ضخمة للترجمة؛ كي تتيح المعرفة العالمية لأبنائها!

والحقيقة أن كل ما ذكر من صعوبات تواجه التعليم بالعربية، أقرب إلى أن يكون موهوماً أو مصطنعاً، وحين يصدر القرار من الجهات المشرفة على مسائل السيادة الوطنية، فإن كل ذلك سوف يكون سراباً!



إضاءة:

إذا أردت أن تدرس مجتمعاً فادرس نظامه التربوي.

المناهج والمقررات:

لا يستطيع المرء في قضية كثيرة التشعبيات والتفاصيل كهذه أن يقدم ما تستحقه من أفكار وتشخيصات ومقترحات، لكن لا نستطيع في المقابل أن نتجاوزها دون وضع بعض النقاط على الحروف في بعض شؤونها.

يقولون: إن عناصر العملية التعليمية ثلاثة: الأستاذ والكتاب والطالب. والكتاب هو الصيغة التنفيذية لمنهج ولرؤية تربوية ومعرفية. وعلى هذا فإن المأمول أن يتسم كل عنصر من هذه العناصر الثلاثة بخصائص تساعد في تحقيق الأهداف التي أنشئت الجامعة من أجلها. ونظراً لكثرة التخصصات وتنوع المعارف التي تقدمها الجامعات المختلفة، فإن من العسير الحديث عن المناهج والمقررات التي ينبغي أن تدرس، ولكن من الممكن أن نذكر ما نراه من السمات المشتركة التي يجب أن تنطوي عليها المناهج والمقررات الجامعية. ولعلنا نذكر أربعاً منها على نحو مختصر.

١ ـ تدعيم الثقافة الأساسية.

لا نعني بالثقافة الأساسية هنا ما تقدمه المراحل التعليمية الدنيا من معلومات، ولا ما تقدمه الأجهزة الإعلامية المختلفة من معارف وخبرات فحسب، وإنما نعني قبل ذلك المفردات التي تشكل البنية العميقة لكل ذلك، وهي مفردات رمزية أكثر من أي شيء آخر. ولعل من أهم تلك المفردات الإيمان بالله ـ جل وعلا ـ والإيمان باليوم الآخر، إلى جانب ترسيخ عدد من القيم الخلقية، مثل الرحمة والعدل والإخاء والإيثار، بالإضافة إلى عدد من المبادئ والأحكام العقلية مثل الإنصاف والموضوعية، واعتماد التجريب،

وفهم كنه القصور الذاتي، والإقرار بالجهل... مما يعد من مكونات الشخصية الإسلامية السوية. والذي يقلِّب النظر في كثير من المناهج الجامعية يجد أنها تقدم رؤية علمانية دنيوية مادية للأشياء، وبعضها يقدم رؤية مرقعة مشوشة، وقلَّ منها تلك التي تستند إلى فلسفة إسلامية صافية. ليس المقصود من كلامنا أن نلتزم بالاستشهاد بالآيات والأحاديث في كل درس أو موضوع يُطرق، وإنما المقصود أن يسري روح ثقافتنا الأساسية في مناهجنا كما يسري الماء في العود الأخضر، ليشكل الحيوية المشتركة بينها جميعاً.

٢ ـ الطلاقة:

كلما كان الطالب أصغر سناً، كانت حاجته إلى التلقين وتلقي المعارف (المقفلة) أشد. أما طالب الجامعة، فإنه لا يُعدُّ على نحو أساسي للاطلاع على المعلومات، وإنما لينميها، ويضيف إليها، ويزيد في تأصيلها وتفريعها؛ ولذا فإن حاجاته إلى (التمدرس) وتلقي المعلومات الجاهزة أقل. هذا يعني أن على المناهج الجامعية أن تعكس الوضعية التي تعد الجامعة طلابها لها. ونقصد بطلاقة المنهج البعدين التاليين:

أ ـ في كل العلوم والتخصصات الإنسانية والطبيعية معارف هي موضع قبول واتفاق، وأخرى حولها خلاف ونزاع وتفسيرات متنوعة؛ والطالب الجامعي حتى تتشكل معارفه وعقليته على نحو صحيح بحاجة ماسة إلى أن يكوِّن صورة واضحة عنها جميعاً؛ فالمعارف والعلوم التي لم تنل التكوّن النهائي تمثل بالنسبة للطالب مداخل لتفتيق الذهن وللاجتهاد وإجراء البحوث، فهي باب مهم من أبواب تكوين الشخصية العلمية المستقلة، ويجب أن تكون المناهج والكتب المقررة والمراجع ثرية بتلك المعارف، كما يجب التخلص من الملخصات والمذكرات التي تعرض الهيكل العظمي للمعرفة، والذي لا يكوِّن في النهاية سوى محصلة معرفية ضئيلة.

إن من الأسباب الرئيسة لانتشار عقلية البعد الواحد في الماضي والحاضر، وانتشار روح التعصب والتحزب الفقهي والسياسي والمذهبي ـ

العرضَ الأحادي للمسائل، والعرض غير المنصف لوجهات نظر المخالفين دون نقد وتمحيص جاد. ومهمة الأستاذ الجامعي في هذا حيوية للغاية، حيث إنه هو الذي بإمكانه أن يضفي على المنهج صبغة المقارنة والموازنة، كما أن بإمكانه أن يقزم المنهج، ويحيله إلى معلومات (مدرسية) صماء!

ب ـ طلاقة المناهج تقتضي أن تصمم على نحو يراعي بعدها الزمني؛ فهناك حقيقة كثيراً ما تغيب عنا، هي أننا لا نبلغ أعماق تخصص من التخصصات، أو علم من العلوم ما لم نفهم على نحو جيد تاريخه: نشأته وأطواره والمنعطفات الحادة التي مر بها، والمشكلات التي واجهها، والآفاق التي تنتظره... هذه الطلاقة بتجلياتها المختلفة، هي التي تساعد في وضع الطالب على بداية طريق (البحث العلمي) وتكوين الرؤية المعرفية الخاصة.

٣ ـ المرونة وعكس متطلبات التطور الحضاري:

إن من الظواهر الحضارية والمعرفية المتكررة أن متطلبات الحياة، تدفع باستمرار نحو تطوير المعرفة، وإيجاد تنظيمات جديدة لها[١]. وفي غالب الأحيان كانت المؤسسات والدوائر العلمية تحاول ـ في أحسن أحوالها ـ تأمين استجابات لذلك، ولكن كانت هناك معاناة من مشكلة التنظير والتنهيج للمسائل والآراء الفرعية، وإلحاقها بالمقاصد العامة والقواعد الكلية، على نحو ما حدث في الفقه الإسلامي. الجامعات اليوم هي الجهة التي تطالَب بتلبية الحاجات المعرفية والمهنية التي يمليها التطور الحضاري وحل المشكلات التي يعاني منها الناس؛ وهذا يتطلب مرونة في نظم الجامعات، وجاهزية جيدة لتقرير المواد والمناهج، ووضع البرامج التي تفي بالمطلوب. وتقوم الجامعات الأمريكية والأوربية بتغيير مناهجها على نحو سريع؛ لتلاحق عالم الصناعة المتسارعة، وترسل بعض أساتذتها إلى المصانع والشركات من أجل تحسس نوعية الإعداد العلمي والمهني الذي يتطلبه العمل فيها حتى

---

(١) العلم هو عبارة عن معرفة منظمة.

تحقق الاستجابات الملائمة لذلك[1]. وقد قدمت إحدى الجامعات الأمريكية برنامجاً خاصاً عبر نظام هاتفي، يمكِّن الأطباء وهيئات التمريض من خلال الاتصال، والاستماع إلى أحدث المعلومات الطبية، كل في مجال تخصصه، الأمر الذي يؤدي إلى اتساع آفاق مهنة الطب وتجددها باستمرار في أذهان العاملين؛ ليكون عطاؤهم للمجتمع أكثر أمناً[2].

وقام أعضاء هيئة التدريس في بعض الجامعات السويدية بإعداد المقررات المطلوبة لمواجهة انخفاض العاملين في الزراعة من ١٨٪ إلى ٨٪ وتحولهم إلى قطاعات أخرى.

وفي ألمانيا أضافت بعض الكليات مقررات، تتناول حياة المواطن في الأسرة والمنزل والسياسة والفنون والبيئة. وتقدم هذه المقررات بمرونة مناسبة لحاجات المجتمع[3].

أما جامعاتنا فإن شفافية أكثرها لمثل هذه المسائل، ما زالت ضعيفة أو معدومة، وبعضها يعيش خارج العصر؛ لأن القائمين عليها لم يفكروا في يوم من الأيام في إعادة صياغة رسالتهم التعليمية، أو في تطوير أدائهم بما يلبي واقع الحياة من حولهم. ولذا فإنها قد فرضت على نفسها عزلة طوعية، وهمشت اهتمام المجتمع بها، بل إن كثيراً من طلابها يشعرون بقلة جدوى كثير من العلوم التي يتعلمونها فيها!

إن جامعاتنا بحاجة إلى إيجاد درجة من التوتر في علاقتها بالناس، وفي علاقتها بالتطور الحضاري الجاري، وفي علاقتها بالجامعات ذات الخبرة في الاستجابة لتداعيات الوسط الذي تعمل فيه.

إن المنهاج ينبغي أن يظل محافظاً على علاقة متوازنة بالنظريات

---

(١) انظر مقدمات في البعث الحضاري: ٧٠.
(٢) التنمية المهنية لأعضاء هيئة التدريس: ٥٣.
(٣) السابق: ٥٢.

والحقائق المعرفية، ورؤانا الحضارية الكلية، من جهة وبالتغييرات والمقتضيات التي يفرضها الارتقاء الحضاري والتعايش الاجتماعي من جهة أخرى. والخلل في هذه العلاقة، قد يؤدي إلى الجمود، أو الانحراف عن الأهداف الكلية.

٤ ـ الانفتاح المعرفي:

المعرفة تتضاعف اليوم بسرعة فائقة، وحتى تستوعبها العقول البشرية، ويمكن التحكم فيها، فإنه يجري تقسيمها إلى فروع دقيقة، وينمو كل فرع بسرعة أيضاً لينقسم إلى فروع عدة، وهكذا... وعلى سبيل المثال فإن السجل الأمريكي للعاملين في المجالات العلمية والفنية، يقدِّر عدد التخصصات في (العلوم الطبيعية) وحدها بألف تخصص، على حين كانت قبل خمسين سنة ثلاثين تخصصاً فقط[١]!

في مقابل هذا فإن تعقيدات الحياة الحديثة، توجب على كل شخص أن يطلع على كميات كبيرة من المعلومات المتعلقة بصحته ومهنته وشخصيته وبيئته... وتشعب العلم يفرض على كل متخصص أن يهتم على نحو أدق وأعمق في مجال أكثر ضيقاً وتحديداً، حتى يستطيع أن يضيف شيئاً جديداً لما هو سائد في تخصصه. هذه الوضعية، أوقعت الجامعات في حيرة من أمرها: هل تهتم بالتخصص، أو تهتم بإعطاء معلومات وخبرات يحتاجها الطالب في حياته العامة على نحو ما ذكرنا؟

في اعتقادي أننا ما دمنا نعد الطالب ليحيا (الحياة الطيبة) وليكون أكثر كفاءة ومشاركة في الحياة العامة ـ فإنه لا سبيل أمام جامعاتنا سوى أن تتفحص بعمق المواد والمقررات التي يحتاج إليها أصحاب التخصصات (العلمية) مما يشكل البعد الفلسفي والأخلاقي والإنساني لتخصصاتهم؛ كما أن عليها أن تتعرف على حاجات أصحاب التخصصات (الإنسانية) من العلوم

---

(١) التعليم والتعلم في الجامعات: ١٣.

الطبيعية والبحتة من أجل تجسير التفاهم المعرفي، والانسجام القيمي بين أصحاب التخصصات المختلفة، وعلى سبيل المثال فإن دارس (علوم الدعوة) بحاجة إلى الاطلاع على بعض المقررات في العلوم الإعلامية والسياسية والنفسية والاجتماعية. ودارس الطب بحاجة إلى دراسة مادة في الشريعة لمعرفة بعض الأحكام والآداب المتعلقة ببعض المسائل الطبية، كما أنه بحاجة إلى دراسة مقرر في علم النفس الاجتماعي. ودارس الهندسة المعمارية بحاجة إلى دراسة مادة في الاقتصاد، وأخرى في العادات والتقاليد السائدة في البيئة من أجل مراعاتها في تصاميم البناء.

بالإضافة إلى كل ما سبق فإن على جامعاتنا أن تقدم لطلابها بعض المقررات التي تعزز التفاهم حول التغيرات الاجتماعية والسياسية الجارية، وحول آفاق الإصلاح والارتقاء المتاحة، وتلك المطلوبة؛ فطلابنا بحاجة إلى معارف حول سنن الله - جل وعلا - في الأنفس والآفاق والمجتمعات، وحول علاقة الاقتصاد بالأخلاق، والسياسة بالاجتماع، وحول المتطلبات الأخلاقية والمهنية للتحول الاجتماعي والنهوض الصناعي... حتى لا تكون هذه المواد الثقافية العامة على حساب التمكن في التخصص فإن علينا أن نغير في أساليب التعليم، وأن نتجه إلى أن يشتغل الطالب أكثر فأكثر، ويعلم نفسه بنفسه، أي استثمار الأوقات الضائعة، والطاقات الكامنة في ذوات طلابنا.



إضاءة:

لا ولاية للأمة على نفسها في ظروف متدهورة.

بعض آفاق الإصلاح:

لم نستعرض في الصفحات الماضية كل ما يتعلق بالتعليم الجامعي، وربما تجاوزت بعض الأمور الجديرة بالبحث والاهتمام، لكن خوف الإطالة يلجم القلم عن الخوض في قضايا كثيرة مهمة. إن من واجبنا أن نتلمس ـ دون كلل ـ ما يمكن عمله في سبيل تطوير الجامعات في عالمنا الإسلامي؛ حيث إن التحديات المتجددة والهائلة، لا تهدد جامعاتنا بالجمود فحسب بل بأن تفقد مواقعها الحالية.

أعتقد أن تكوين نوع من الوعي حول بعض مشكلاتنا هو المرحلة الأولى في طريق النفاذ إلى حلول لها. وليس من شأني أن أجنح إلى طلب ما لا قبل لنا به، وإنما أتألم لتضييع ما هو متاح من فرص التطور والارتقاء بمؤسساتنا التعليمية إلى ما ينبغي أن تكون عليه!

لا نستطيع هنا أن نتناول كل الجوانب والمسائل التي نرى أنها بحاجة إلى معالجات جادة وحاسمة؛ لذا فسنحاول تسليط الضوء على ما نراه ملحاً منها، وذلك على النحو التالي:

ـ نفقات التعليم الجامعي:

لا يغيب عن بالنا أن التعليم الجامعي بكل فروعه وجوانبه وقضاياه، هو جزء من كل، بل إنه كثيراً ما يشكل (مرآة) تعكس الوضعية العامة للمجتمع بكل دقة، ولذا فإن من غير المتوقع أن تستطيع الشعوب الفقيرة جدًا أن تشيد جامعات ممتازة، حيث إن ذلك مكلف جدًا اليوم، والمال الذي يحتاجه مطلوب لقطاعات أخرى مثل الصحة والتعليم الأساسي

ومشروعات البنية الأساسية، وقبل ذلك رغيف الخبز!

سيكون من الخطأ البالغ أن نعتقد أن المال سيحل كل المشكلات، كما سيكون من غير الصواب أيضاً الاعتقاد أن القصور المالي والاقتصادي لدى شعوب العالم، معزول عن قصورها التربوي والسياسي والاجتماعي. وهذا يعني أن النهوض بالتعليم الجامعي، سيحتاج إلى (حلول مركبة) ليس المال سوى جزء منها.

إن الدول النامية مبتلاة بشهية لا حدود لها لتكديس السلاح، وتفيد بعض الإحصاءات أن البلدان الـ(٤٦) الأقل نمواً في العالم تنفق على بناء قدراتها العسكرية ما يعادل نفقاتها على قطاعي الصحة والتعليم مجتمعين[١]. وهذا يدل على أن الموارد الشحيحة جدًّا تلقى أعلى درجات الهدر وسوء الإدارة!.

التعليم الجامعي ـ بطبيعته ـ عالي التكاليف، وبعض الدراسات يفيد أن تكاليفه تصل إلى نحو من سبعة عشر ضعفاً من تكاليف التعليم الابتدائي[٢]. ومع هذا فإن انخفاض الناتج الوطني لمعظم الدول الإسلامية، جعل أكثر ما ينفق على التعليم الجامعي، لا يذهب إلى مراكز البحوث أو التجهيزات والوسائل التقنية، وإنما إلى أجور المدرسين؛ مما جعل ما يفيض لخدمة البحث العلمي والتدريب محدوداً جدًّا، قد لا يصل في بعض الأحيان إلى ١٠٪. وعلى كل حال فإن ما ينفق على (الطالب الجامعي) في معظم الجامعات في العالم الإسلامي، محدود جدًّا إذا ما قورن بما يتم إنفاقه في دول أخرى، بسبب ضعف التجهيزات، وقلة ما ينفق على البحوث والخدمات المساندة.

ـ أفق متاح:

لا نعتقد أن بين أيدينا حلولاً جذرية لمشكلة كبرى مثل مشكلة (تمويل

---

(١) مجلة المعرفة: العدد (٢١) ص: ٥٠.

(٢) السابق...

التعليم الجامعي)؛ فمن السهل اليوم أن يخرج من دائرة الاهتمام، ليبدو وكأنه قطاع ترفي أو ثانوي، وذلك بسبب انخفاض أدائه وشيوع البطالة بين خريجيه؛ مما يشجع على صرف الأموال إلى قطاعات أخرى تبدو أكثر أهمية للحياة العامة.

وفي الحقيقة فإن حيوية التعليم الجامعي وأهميته لا تبدو واضحة إلا إذا وضعناه في سياق منظومة تنموية وحضارية جديدة.

في بعض الدول أثبت التعليم الجامعي أنه أقدر المراحل التعليمية على جمع الأموال والتبرعات لدعم برامجه ومشروعاته التعليمية والبحثية[١]. ويمكن لنا أن نحسن من موارد التعليم الجامعي ـ إن أردنا ـ من خلال عدد من التشريعات والتنظيمات والأنشطة، ونذكر منها على سبيل التمثيل الآتي:

١ ـ من الواضح أن الحكومات لن تستطيع في المستقبل أن تقوم وحدها بتغطية نفقات التعليم الجامعي في ظل اتساعه والإقبال عليه وارتفاع تكاليفه، ولذا فلا بد من مساهمة الناس فيه. ولأمة الإسلام سجل رائع في هذا الباب، فقد كان من المألوف أن ينفق أهل الحي أو أهل القرية على طلاب الحلقات العلمية التي كان يقيمها كبار العلماء، وكان الإمساك عن الإنفاق في ذلك يعد أمراً مستغرباً، كما أن كثيراً من الأثرياء كانوا يسهمون في تفريغ كثير من العلماء للتعليم ونشر المعرفة. ومشاركة الأهالي كانت السبب في الحركة العلمية الهائلة في تاريخنا، وهي اليوم السبب في الحركة العلمية النشطة في العالم المتقدم كله. إن الجامعات الأمريكية تجتذب أفضل الكفاءات العلمية اليوم في العالم؛ لأن كثيراً من الأسر الثرية هناك تملك الرغبة في إنفاق المال، وكثير من الجامعات الكبرى قامت ـ ولا زالت ـ على تبرعات بعض الأثرياء. وأمة الإسلام أولى بذلك، وأعتقد أن الوعي الإسلامي في حالة من السبات تجاه الاهتمام بالثقافة والمعرفة،

---

(١) أزمة العالم في التعليم: ١٩٨.

لكنه إذا أوقظ فإنه يستيقظ، وسيكون هناك خير عظيم!

إن على الجامعات أن تنشط في كل سبيل لجمع الأموال، وعلى الوسائل الإعلامية أن تساعدها على ذلك؛ وهناك أبواب كثيرة في هذا الشأن، ومن تلك الأبواب أن تقوم الجامعات بإحداث كليات وأقسام و(كراسي) علمية وتدريسية بأسماء بعض الأسر أو الأفراد، ممن يسهمون في تمويل أنشطتها، وهذا موجود لكنه ضعيف جدًّا، وربما كانت البداية في السعي إلى إيجاد تشريعات تسمح لها بالقيام بذلك. ثم إن عليها بعد ذلك أن تُحدث من الأطر والبرامج ما يسمح باستيعاب كل أحجام التبرعات مهما كانت صغيرة أو كبيرة، ثم الاتصال بالأثرياء وأولياء الأمور لمساعدتها عن طريق الهبات أو الوقف أو الوصايا أو إقامة المباني وتجهيزها...

إذا كنا غير قادرين على التعلم من مبادئنا أو تاريخنا، فإننا نستطيع أخذ الخبرة من الآخرين الذين يعيشون بيننا، ففي فلسطين المحتلة يدهش المرء من كثرة ما يلاحظه من الجهات غير الرسمية التي تسهم في تشييد المؤسسات التعليمية وتمويلها والإشراف عليها وإداراتها؛ فالأحزاب السياسية والهيئات والمنظمات المختلفة، تساعد بفعالية في دفع الحركة التعليمية ورعايتها وتقديم الخدمات لها[١].

٢ ـ حين تخير أي دولة بين توجيه مواردها المالية المحدودة إلى التعليم الأساسي وبين توجيهها إلى التعليم العالي، فإنها ولا شك ستختار إيثار توجيهها إلى التعليم الأساسي، لكن يمكن للجامعات أن تعوض النقص من خلال إجراء البحوث والدراسات والاستشارات للشركات والمؤسسات والمصانع، ويمكنها أن تسعى إلى تسويق منتجاتها البحثية، والمساهمة في التدريب والخدمات الاجتماعية المختلفة وتأمين بعض الموارد من وراء

(١) مجلة المعرفة العدد (١٩): ٧٠.

ذلك؛ لكن النجاح في هذا يحتاج إلى أن يكون هناك ـ على المستوى العام ـ توجه إلى الصناعة والإنتاج المحلي بدل (التجارة). وإن من المؤسف أن تجد دولاً إسلامية كثيرة، فيها أحدث المعدات الطبية، لكن ليس فيها مختبر أبحاث واحد، أو مصنع واحد للآلات والتجهيزات الطبية!!

إن الجامعات لن تجد أي مكان لأبحاثها في المطاعم أو محلات الأزياء أو المتاجر الكبرى، ولذا فإنه لا بد من قيام صناعات تعتمد على البحث المحلي، ولو كانت صناعات غير متقدمة؛ وكل أحوال جامعات الدنيا تؤكد هذه الحقيقة، فهل نستوعب الدرس؟

٣ ـ يبدو أنه لا بد في النهاية من فرض بعض الرسوم على التعليم الجامعي، فتقديمه على نحو مجاني في كثير من الدول أدى إلى أن يلجه كل من لا يجد له في سوق العمل موضعاً، كما أدى إلى ما ذكرناه من انحطاط مستواه نتيجة انخفاض مستوى المتقدمين إليه، ونتيجة عجزه عن تقديم خدمات وبرامج جيدة. ويمكن أن تكون الرسوم على نحو تصاعدي كلما ارتقت الكلية، وكلما طالت مدة الدراسة فيها على ما هو موجود في كثير من الدول، لكن علينا أن نلاحظ أمرين:

الأول: هو ألا تؤدي تلك الرسوم إلى انخفاض الأعداد المطلوبة من المثقفين الذين نحتاجهم فعلاً في تثقيف المجتمع وهدايته، وتقديم الخدمات العلمية له.

الثاني: ألا يؤدي ذلك إلى تمايز طبقي واسع؛ فيحرم بعض الجادين والمتميزين من التعليم الجامعي؛ لأنهم فقراء، ويتاح لغيرهم بسبب قدرة أهليهم على الدفع. ولتلافي هذا فإن بالإمكان وضع برامج واسعة، تقدم منحاً للطلاب المتفوقين، ولأبناء الفقراء، ويمكن لتلك البرامج أن تغطى من قبل بعض الهيئات والمنظمات الخيرية، كما يمكن أن تغطى من قبل بعض الوزارات والهيئات الحكومية. في تركيا ـ مثلاً ـ رابطة تجمع بين الآباء والمعلمين، وتقوم تلك الرابطة بالمساهمة في تقديم المساعدة للطلاب

المحتاجين إلى جانب دعم ميزانيات المباني التعليمية[١].

وبعد هذا وذاك فإن على الجامعات أن تستفيد من مبانيها وتجهيزاتها الموجودة على نحو أفضل مما هو موجود الآن من أجل تخفيض التكلفة دون أن يؤثر على مستوى التعليم.

بطالة المثقفين:

إن معايير البطالة في العالم الغربي، تختلف عن معايير البطالة في الدول النامية، كما أنه ليس لدى هذه الأخيرة تقارير أو إحصاءات دقيقة حول العاطلين عن العمل، حيث لا تصرف لهم معونات خاصة، ومن ثم فإنه ليس هناك ـ في الغالب ـ جهة تتولى القيام بالمسوحات التي تبلور حالة البطالة. ومع هذا فإن هناك ما يشبه الإجماع على أن نسب العاطلين عن العمل بين خريجي الجامعات آخذة بالازدياد في معظم الدول النامية. وإلى جانب هذا هناك قناعات بأن نسبة كبيرة من المتخرجين حديثاً من التعليم الثانوي والجامعي، والذين قد تم استخدامهم، قد قبلوا وظائف تعد حسب المعايير التي كانت سابقاً، أقل من مؤهلاتهم التعليمية[٢].

كان الناس حين يرون بطالة طلاب الثانوي، يطالبون بزيادة فرص التعليم العالي، إلى أن صار خريجو الجامعات، لا يجدون عملاً؛ واليوم على من يريد أن يجد عملاً ملائماً أن يدرس (الماجستير) و(الدكتوراة) وإذا ظل الأمر على هذه الحال، فلا أدري بعد عشر سنوات ما الشهادة التي على حاملي (الدكتوراة) أن ينالوها حتى يجدوا عملاً يرتزقون منه؟!

تذكر بعض الدراسات المسحية في مصر أن حجم بطالة المتعلمين فيها ممن لم يسبق لهم العمل يصل إلى أكثر من مليون ونصف مواطن، وهو ما

---

(١) نظام التعليم في تركيا: ١١٩.

(٢) أزمة العالم في التعليم: ٢٥٧.

يمثل حوالي ٩٠٪ من حجم البطالة فيها[١].

إن سبب تزايد البطالة في صفوف المتعلمين يعود إلى التوسع المذهل في التعليم في كثير من البلدان النامية، مما جعل معدل عدد الخريجين سنوياً يزيد على معدل فرص العمل المتاحة. التعليم لا يؤدي إلى البطالة، وإنما يغير نوعيتها، حين يحوّل العاطلين غير المتعلمين إلى عاطلين متعلمين، وبهذا المعنى كثيراً ما يكون التعليم وسيلة لتأجيل البطالة. بل إن بعضهم عرّف التعليم العالي بأنه السبيل لتأجيل البطالة عدداً من السنوات[٢]!

مؤشرات المستقبل:

لا ندري على وجه التحديد الوضعية التي سيصير إليها الخريجون من الآن فصاعداً؛ لأن ذلك يتوقف على حجم الأعداد التي ستقذفها الجامعات والمعاهد العليا، كما يتوقف على حركة النمو الاقتصادي، ومدى قدرتها على الاستيعاب؛ لكن هذا لا يحرمنا من رؤية بعض المؤشرات العامة في هذه المسألة.

تقدر بعض الدراسات أن فئة الكبار الأقل سناً في القوى العاملة (سن ١٨ ـ ٢٣ سنة)، سوف تشهد انكماشاً في العالم المتقدم بنسبة تزيد على ١٠٪ وذلك بين عامي (١٩٨٠ ـ ٢٠٠٠) على حين تزيد الفئة نفسها في الأقاليم الأقل نمواً بنسبة تزيد على ٤٠٪. ومن ثم فإن مشكلة إتاحة وظائف جديدة لهذه الفئة العمرية، سوف تنفرج على نحوٍ ما في الشمال على حين أنها سوف تتعقد كثيراً في الجنوب[٣].

إن التعليم الجامعي سيظل يتسع، وستظل نسبة المتخرجين فيه إلى مجموع السكان في حالة من الارتفاع الدائم خلال السنوات العشر القادمة ـ

---

(١) التعليم وتحديات القرن (٢١): ٢٦٢.

(٢) التربية في البلاد العربية: ١٧٩.

(٣) أزمة العالم في التعليم: ٢٦٣.

على الأقل ـ فكيف يمكن التخفيف من وطأة بطالة الجامعيين؟

في البداية علينا ألا نتوقع أن الدول المتقدمة، سوف تساعدنا في إيجاد وظائف لأبنائنا، بل إن علينا أن نتوقع العكس، فاتفاقية (الجات) تقضي بفتح الطرق والأبواب أمام فوائض الدول الصناعية من منتجات ومعلومات وخبرات وأموال على حين أرتجت الأبواب أمام فائض العالم النامي: (العمالة)!!

في اعتقادي أن بإمكاننا أن نفعل أشياء كثيرة للحيلولة دون تكدس الباحثين عن وظيفة من خريجي الجامعات، منها:

١ ـ على الجهات المسؤولة عن التوظيف الحكومي بالتعاون مع الغرف التجارية والصناعية وروابط المثقفين أن تبصّر الناشئة بالحاجات الحقيقية لسوق العمل، كما ينبغي أن ينشأ نوع من التعاون الحي بين الجامعات وهذه الجهات؛ فتقلص الجامعات من القبول في الأقسام التي لا يحتاج المجتمع إلى خريجيها، وتوسع القبول، وتطور البرامج في الأقسام التي عليها طلب، وذلك من أجل المواءمة بين ما توفره الجامعات، وما يحتاجه سوق العمل. وأعتقد أن إيجاد (بنك) معلومات حول هذا الموضوع سيكون ضرورياً لنشر ثقافة جيدة حول العمل والبطالة.

٢ ـ فك الارتباط بين الشهادة والوظيفة؛ فهناك تضخم هائل في جميع أجهزة التوظيف، في كثير من البلدان، فالدراسة والشهادة لتهذيب النفس، وتحسين الفهم، وزيادة الخبرة الحياتية، وهي بعد ذلك تساعد على العثور على عمل، وقد لا تساعد. وتاريخنا الإسلامي مملوء بالنماذج العلمية الرفيعة التي لم تكن ترتزق من وراء التعليم أو المعرفة أو المهن العلمية؛ بل يمكن القول: إن الربط بين العلم والوظائف، قد أدى إلى إضفاء الصبغة التجارية على أكثر أنشطة التعلم، وأدى بالتالي إلى انحطاطها!

إن فك الارتباط بين الشهادة والوظيفة، سيجعل الطلاب أكثر دأباً وحرصاً على متابعة سوق العمل، واتجاهات العرض والطلب فيها، وعلى

اختيار تخصصاتهم بعناية، والتهيؤ الدائم إلى العودة إلى مقاعد الدراسة من أجل اكتساب خبرات جديدة والتدرب على المهن التي يحتاجها الاقتصاد الوطني[1].

٣ ـ من التقاليد المحمودة في بعض البلدان ـ دمشق مثلاً ـ أن يتعلم الناشئ في إجازة الصيف مهنة أو حرفة، أو يكتسب خبرة في ميدان تجاري أو خدمي، مما يجعل الشاب يتعرف على واقع الحياة واتجاهات السوق في وقت مبكر جداً؛ مما يساعده على الحصول على عمل في حالة كساد تخصصه العلمي الذي تلقاه في الجامعات. وهذه مسؤولية تقع على الأسر أولاً، كما أنه بإمكان الجامعات والمعاهد والمؤسسات التعليمية المختلفة أن تقيم البرامج والدورات المسائية القصيرة التي يتعلم فيها الأشبال والشباب بعض المهن في مجالات الكهرباء والإلكترونيات والحاسب الآلي وغير ذلك مما يحتاجه سوق العمل. . .

في بريطانيا ـ مثلاً ـ تقوم بعض الجامعات بإعداد برامج خاصة للعاطلين عن العمل والشباب الذين أكملوا الفترة الإلزامية من التعليم العام، وذلك لتزويدهم بالمهارات الكافية للبدء في أعمال حرة، وكذا فتح أقسام خاصة للكبار وفصول للمسجونين[2].

في ظل بطالة المتعلمين أسدى فلاح من (زامبيا) نصيحة لابنه قال فيها: «إذا لم تستطع الحصول على عمل عليك أن تحمل فأسك، وتحاول استنبات شيء تأكله. خذ تلك الفأس، وشيد مسكنك. تستطيع أن تفعل شيئاً آخر إذا كان لديك القوة أن تضع خلية نحل على فرع شجيرة تحصل على بعض العسل، سوف يساعدك ذلك. وهكذا نعيش نحن كبار السن. وإذا ظللت على ما أنت عليه (طامعاً في وظيفة) كيف ستعيش إذن»؟؟[3].

---

(١) التربية العربية: ٧٧.

(٢) أنظمة التعليم وتحديات العصر: ٨٩.

(٣) أزمة التعليم في العالم: ٢٣٨.

٤ ـ إن إيجاد فرص العمل لهذه العشرات من الملايين التي تدفع بها الأرحام سنوياً، ينبغي أن يكون شغلنا الشاغل، فالبطالة، لا تسبب شحاً في الموارد الشخصية للعاطلين فحسب، وإنما تسبب لهم ارتكاسات نفسية واجتماعية خطيرة. والمسؤولية يجب أن تكون عامة، لكن الخلاص من هذه المشكلة، أو كسر حدتها، يحتاج إلى قرارات جذرية في تغيير (بنية الاقتصاد) ومفاهيم العمل والاستهلاك، إلى جانب الاستفادة من أوقات الفراغ، والاستفادة من خبرات الأمم الأخرى في معاجلة هذه المسألة.

إن الشباب بحاجة إلى من يرشدهم، ويساعدهم، وينبغي أن يكون هناك هيئات عديدة لدعم (المشروعات الصغيرة) التي يمكن أن ينفذها، كما ينبغي على الحكومات أن تتجه إلى إحلال (التقنيات المتوسطة)[1] محل التقنيات العالية (الأتمة) حتى يمكن استيعاب أعداد كبيرة من الشباب في المصانع والشركات، وتوفير الكثير من المال الذي يدفع في شراء المعدات البالغة التطور.

على الشباب بعد هذا وذاك أن يعلم جيداً أنه إذا لم يساعد نفسه، فلن يساعده أحد.

تجاوز الذات:

إن الجمود وضعف القدرة على التكيف في المؤسسات التعليمية ـ على درجات متفاوتة ـ يمثل ظاهرة عالمية، وإن المستغرب ألا تستجيب الجامعات للتغييرات التي تقوم هي بإحداثها!

إن أمام جامعاتنا تحديات كثيرة، من أهمها العمل على حماية نفسها من مرض (تصلب الشرايين)، وذلك من خلال التأكد من القيام بوظائفها على النحو المطلوب، والتأكد من أنها تحقق الأهداف التي شيدت من أجلها على نحو جيد.

---

(١) انظر إن شئت كتابنا «مدخل إلى التنمية المتكاملة» فقد فصلنا هذا الأمر فيه.

أعتقد أن علينا أن نحدث تغييرات كثيرة في أوضاع تعليمنا العالي، قد لا يتسع المقام هنا للتفصيل فيها، فلنتحدث عن أمرين أرى أن لهما أهمية خاصة، هما:

١ ـ إن مرض القطرية الذي أصاب كثيراً من البلدان العربية والإسلامية، قد انعكس على كل جوانب حياتها ومع اعترافنا بالخصوصيات المختلفة لكل دولة، إلا أن الخصوصية حين تعني إضعاف التعاون فيما يعود بالنفع على الجميع، فإنها تتحول إلى مرض، وإلى ضعف وارتباك، وانغلاق. وهذا ما يحدث لكثير من جامعاتنا؛ فلدينا اليوم العشرات من كليات الطب والهندسة والعلوم والمئات من أقسام اللغة العربية والجغرافيا والتاريخ وعلم النفس... لكن السمة المشتركة بين السواد الأعظم منها هو (الضعف) على المستوى البحثي وعلى المستوى التعليمي، والسبب في ذلك هو قلة الموارد. وانعدام النماذج الراقية التي يمكن أن تقتدي بها الجامعات والكليات الضعيفة.

الإمكانات المتاحة، قد لا تساعد على إحداث نقلة نوعية للارتقاء بها؛ ولذا فإنه قد يكون من المداخل المهمة للارتقاء بها، وتطويرها بما يتناسب مع التغيرات السريعة ـ إيجاد جامعات ومعاهد ومراكز بحوث إقليمية على أعلى المستويات، تكون مهمتها الأساسية ليست تخريج (موظفين) ولا مدرسين، وإنما إيجاد (مناخ علمي) وإنتاج بحوث رائدة، وتكوين مرجعيات عالية المستوى في فروع العلم كافة، وبذلك نحد من الابتعاث، ونوطن (المعرفة المتقدمة) في بلاد المسلمين. إننا نريد جامعات فائقة، تشكل نماذج راقية، لما يمكن أن تفعله الجامعات الأخرى، وهذا لن يتم إلا من خلال التخصص والتعاون.

بالإمكان لكل دولة إسلامية في قطر من الأقطار أن تحتضن جامعة من تلك الجامعات أو مركزاً من المراكز الكبرى للبحوث، جامعة في دولة للعلوم الطبية، وجامعة في دولة للعلوم الهندسية، وجامعة في ثالثة لعلوم

الكيمياء، وجامعة في دولة رابعة للفيزياء النووية والنظائر المشعة، وجامعة في دولة خامسة للمواد الجديدة، وجامعة في دولة سادسة للدراسات الشرعية، وأخرى للدراسات الإنسانية وهكذا...

ويمكن لهذه الجامعات أن تتقاضى رسوماً مالية مقابل ما تقدمه من معرفة فائقة؛ لأنها حينئذ سوف تجتذب كل أولئك الذين يدفعون الأموال الطائلة في جامعات أمريكا وأوربا. ويمكن أن يشكّل لكل جامعة مجلس أمناء من كبار العلماء من أجل رسم سياساتها، والمحافظة على مستويات عالية لأدائها.

العلماء موجودون، والطلاب موجودون، والأموال وخبرات التنظيم موجودة، وبقي شيء واحد هو المبادرة والإرادة، فهل نتجاوز العقبة؟

٢ ـ ما دامت المهن وفرص العمل قد ارتبطت إلى حد بعيد بالتعليم التقني والعالي، وما دام العيش في الحياة بكفاءة وفاعلية ارتبط بمقدار جيد من المعلومات يجب أن يحصل عليه الفرد ـ فإن من واجب كل القادرين توفير أكبر عدد من الأطر التي تساعد الشباب على طلب العلم والتسلح به، وإن كثرة ما أتيح من وسائل الاتصال، ووسائط نقل المعرفة، قد سهلت وقربت أشكالاً من التعلم، كانت تعد قبل ثلاثين سنة مما يفوق التصور والخيال!

كانت (بريطانيا) سباقة إلى إنشاء (جامعة مفتوحة) عام ١٩٧١، وذلك لإتاحة فرصة التعلم لأولئك الذين حرموا من المعرفة بشكلها التقليدي. ويسجل في هذه الجامعة سنوياً أكثر من ٧٥ ألف طالب، ويقوم الطلاب بالدراسة عن طريق كتب مقررة ترسل إليهم بالبريد، وكذلك بعض الواجبات التي يكلفون بها، بالإضافة إلى قدر يسير من البرامج التلفازية والإذاعية[1].

وعلى خطى هذه الجامعة أسست جامعة محمد إقبال في الباكستان،

---

(١) التعليم والتعلم في الجامعات: ١٥، ١٦.

وذلك عام ١٩٧٤، وتقدم هذه الجامعة الآن ١١٤ مادة، ويدرس فيها قرابة مئة ألف طالب[١].

إن الحاجة تزداد يوماً بعد يوم لتوفير كل أشكال التعلم عن بُعْدٍ دون أن ينتقل الطالب، ودون أن يتفرغ، ولا سيما أن شبكات نقل المعلومات، تتكفل اليوم بإيصال المعلومات للراغبين في ذلك في أي مكان كانوا في الأرض.

إن على كل جامعة من جامعاتنا اليوم أن توجد إطاراً يتيح لبعض الطلاب أن يتعلموا عن طريق الانتساب والدراسة بالمراسلة، وستستطيع الجامعات أن تحصل من وراء ذلك على أموال كثيرة، تساعدها على النهوض بمهامها الجليلة. والله المستعان.



إضاءة:

إن أفق الغريزة لا يلامس المهارات الراقية والمعقدة؛ ولذا فإنه لا بد من التعلم والتدريب.

---

(١) انظر معلومات أوفى عنها في: (الجامعات الإسلامية) ٣٣٩ وما بعدها.



حول البحث العلمي[1]

١ـ أهمية البحث العلمي.

٢ـ واقع النهوض العلمي ومشكلاته.

٣ـ النهوض بالبحث العلمي.

---

(١) كنا قد عرضنا على نحو خاطف لشيء من الحديث عن البحث العلمي عند حديثنا عن واقع الجامعات ومهماتها لكونها الجهة الأكثر التصاقاً بها. وهنا جاء أوان الحديث المفصل عنه.

١ ـ أهمية البحث العلمي

يقول (جونيور): إن البحث العلمي عبارة عن «دراسة أو اختبار ناقد للكشف عن حقائق جديدة، أو لتنقيح نتائج مسلَّم بها، أو لإعادة النظر فيها».

وتعرفه ثريا عبد الفتاح تعريفاً إجرائياً، فتقول: «إنه محاولة لاكتشاف المعرفة والتنقيب عنها، وتنميتها وفحصها، وتحقيقها بتقصٍ دقيق ونقد عميق، ثم عرضها عرضاً كاملاً بذكاء وإدراك»[١].

يصنف البحث العلمي عادة تحت نوعين، هما: البحث الأساسي والبحث التطبيقي. والحدود بينهما ليست واضحة دائماً.

وتعرف (اليونسكو) البحث الأساسي بأنه «نشاط بحثي موجَّه نحو زيادة المعرفة العلمية، أو اكتشاف حقول علمية جديدة، دون الاهتمام بأي هدف تطبيقي».

أما البحث التطبيقي فتعرفه بأنه: نشاط بحثي موجَّه نحو زيادة المعرفة العلمية أو اكتشاف حقول علمية متقدمة بهدف تطبيقي مباشر»[٢].

في ظل حياة شديدة التعقيد، ونظم حضارية، يزداد تداخلها باطراد، صار تصور المشكلات والعثور على حلول لها يعتمد أكثر فأكثر على البحث العلمي؛ فالتقدم الحضاري، جعل إدراك ما ينبغي عمله من أجل (حياة طيبة) بحاجة إلى فيوض من البحوث والدراسات في ميادين الحياة المختلفة، كما

(١) التنمية التكنولوجية: ١٥٦.

(٢) السابق: ١٥٧.

أنه إلى جانب ذلك أوجد مشكلات هائلة، تجب مواجهتها، وإيجاد حلول لها، وإلا انحبس التقدم الحضاري، وتفاقمت الأزمات. من إبداع حلول جديدة، ومواجهة مشكلات متجددة، تتكون فيزياء التقدم العلمي والحضاري. وهذه الفيزياء تجعل الدول الضعيفة في مجال البحث العلمي في مأزق مزدوج؛ فهي تعتمد على بحوث الدول المتقدمة في تحسين حياتها، كما تعتمد عليها في مواجهة مشكلاتها أيضاً!

إن الثورة الصناعية في الغرب لم تعتمد في البداية على البحث العلمي، ولا على القوانين العلمية المتقدمة، لكن التقدم التقني فيما بعد صار يعتمد على نحو مطرد على كفاءة البحث العلمي، وكثرة العاملين فيه، والإمكانات التي تهيأ له. وعن طريق التقدم التقني تمكنت الدول الاستعمارية من السيطرة على الدول المتخلفة، ونهب خيراتها، وتغيير عقول أبنائها... وهي مضطرة أن تنفق المزيد من الأموال على البحث العلمي حتى تضمن استمرار التقدم التقني والسيطرة على الأمم الضعيفة؛ ولذا صار حجم ما يتم إنفاقه على البحث العلمي في أي بلد أحد المؤشرات المهمة على تقدم البلد وقوته ورفاهية أبنائه.

إن الأموال التي تنفق على البحث العلمي، تؤتي ثمارها أضعافاً مضاعفة، حيث عن طريقه يتم استثمار المواد الخام والقوانين التي بثها الخالق - جل وعلا - في الكون، بالإضافة إلى الإمكانات العقلية التي وهبها لبني البشر، وقد أثبتت دراسة شهيرة أن الأبحاث في الزراعة أعطت ربحية على مدى ٤٥ عاماً، تزيد على ٧٠٠٪ في العام في دولة متقدمة مثل (أمريكا)، وما يقرب من ٢٩٠٪ في بلد نامٍ مثل (المكسيك)[١].

يذكر أحد الباحثين أن اليابان تستورد الطن الخام من (الألمنيوم) من دولة البحرين بـ(٨٠٠) دولار، وبعد تصنيعه تصدره، وتقبض ثمناً له نحواً

(١) تشجيع البحث العلمي: ٤٣ والتعليم مشروع اقتصادي: ١٤.

من مئة ألف دولار! وهذا الفارق الضخم بين سعر الشراء والبيع، يأتي من ثمار البحوث التطبيقية في مجال التصنيع.

إن البحث العلمي، يعد ضمانة للاستمرار في الانتعاش الاقتصادي، ومن غيره سيكون كل ما تم إنجازه معرضاً للخطر؛ وقد أشرنا من قبل أن دول جنوب شرق آسيا، حققت في العقدين الماضيين مؤشرات تنموية مذهلة، لكن ذلك لم يتم من خلال إسهام البحث العلمي فيها، ولذا فإنها ستظل مهددة بزوابع اقتصادية حادة[١].

إن ضآلة البحث العلمي في العالم الإسلامي، والتي نتج عنها ضمور شديد في التقدم التقني، تعد من الأسباب الرئيسة التي ساعدت على انتشار الفقر الشديد بين سكانه، فمن بين ٣٦ دولة (معدمة) في العالم هناك ٢٥ دولة إسلامية، يبلغ فيها إجمالي دخل الفرد أقل من مئة دولار في السنة، ونسبة الأمية تزيد على ٨٠٪[٢].

لكن علينا بعد كل هذا أن نقول: إن البحث العلمي لن يقدم حلولاً خارقة، إنه يقدم معرفة منظمة أكثر، ولكن لا يمكنه أن يقدم حلولاً فورية للمشكلات الأكثر عمقاً. البحث الجيد يقدم معلومات، وتحليلات أفضل، ولكنها دائماً غير كاملة. إنه يقدم عنصراً صغيراً ولكن لا يمكن إهماله. إنه يساعد على تحديد مدى الاختيارات، لكنه لا يصنع هذه الاختيارات[٣].

❀ ❀ ❀

إضاءة:

إن البداية الصحيحة لكل نهضة حضارية، تتمثل في الارتقاء بالعلاقة بين العبد وربه.

---

(١) أثناء كتابة هذا البحث تمكن بعض الغربيين - ولا سيما اليهودي الأمريكي جورج سيروس - من خلال المضاربة بعملات عدد من دول شرق آسيا من إحداث زلزال كبير في اقتصادها، وهبطت أسعار عملاتها أكثر من ٣٠٪.

(٢) على مشارف القرن الحادي والعشرين: ٣١٥.

(٣) دور الجامعات في عالم متغير: ٦٥.

٢ - واقع البحث العلمي ومشكلاته

على المستوى العام لا يخلو أي مجال من المجالات المعرفية والعملية من بعض المشكلات، فالتقدم يخلّف دائماً مشكلات، كما أن القعود والتراخي والفوضى، تسبب أيضاً مشكلات، لكن طبيعة تلك المشكلات وآثارها وأعراضها تختلف اختلافاً جذرياً. سنحاول هنا رسم أبعاد واقع البحث العلمي في العالم الإسلامي من خلال مؤشرات واقعه الخاص، ومن خلال مقارنة ذلك الواقع بأوضاع البحث العلمي في بعض البلدان غير الإسلامية؛ حيث لا يمكن اليوم ونحن نعيش في عالم واحد أن نقوّم أي واقع، وأي إنجاز بعيداً عما هو موجود في أجزاء العالم الأخرى.

وإليك أهم ملامح ذلك على النحو الآتي:

١ - **إن الأمم لا تنفق على البحث العلمي بسخاء إلا إذا كانت مدركة لوظيفته الأساسية في حياتها.** ولا يكفي الإدراك، بل لا بد من الشعور بالحاجة الماسَّة إليه. ومن الجلي أن الهدف العام للبحث العلمي؛ يتركز في تطوير المجتمع والارتقاء به، وحل مشكلاته المختلفة. فإذا لم يستطع (البحث العلمي) أن يفعل ذلك، فإنه لا مفر أمامه من أن يتخلف، ويحيا على هامش النظام العلمي والتقني؛ وهذا ما هو حاصل الآن في معظم - إن لم نقل في جميع - أرجاء عالمنا الإسلامي الكبير.

قد ظن كثيرون من بناة النظم الوطنية للبحث والتطوير في العالم الإسلامي أن نقل العلوم، وما يرتبط بها من تقنيات، أمر سهل، يخضع لمفاهيم (العولمة) والتبادل الحر، فنزعوا عنها بذلك سماتها وحيثياتها

الخاصة، وفصلوا بذلك بينها، وبين التوجهات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية السائدة؛ مما أدى إلى خروجها عن النسق التنموي العام، وجعل الشعور بالحاجة إليها ضعيفاً. وهذا على العكس مما حدث في أوربا واليابان، حيث قاد الاتصال المثمر بين العلوم والتقنية، وبين التنمية والاقتصاد والأهداف السياسية إلى التحول الاجتماعي والاقتصادي المذهل الذي تم تحقيقه[١].

إن النظام العلمي التقني - في النموذج التقليدي - يقوم على أربع مراحل، هي: **مرحلة البحث الأساسي**، ثم **مرحلة البحث التطبيقي**، ثم **مرحلة التطوير**، ثم **مرحلة الإنتاج**[٢].

التماسك والتواصل بين هذه المراحل ضروري جداً، حيث إن ذلك هو الطريق الوحيد للاستفادة من البحوث العلمية، وتوجيهها في خدمة المجتمع. الحاصل اليوم لدى الدول النامية، هو أن العلم فيها نشأ مرتبطاً بالغرب، كما أن تلك الدول تعتمد في تصنيعها، وتطوير صناعاتها على التقنية المستوردة، مما جعل ما يتم فيها من بحوث علمية أساسية ضعيف الصلة بالتطور التقني الحاصل، ومعزولاً عن مواجهة المشكلات الناشئة عنه[٣].

إن معظم الشركات والمؤسسات الصناعية في العالم الإسلامي، هي من الحجم المتوسط والصغير، وذات مستوى تقني منخفض، فهي غير قادرة على الاستفادة من البحوث التي تتم في مراكز البحوث المحلية في الجامعات وغيرها، كما أنها تعاني من نقص في المهارات الفنية ذات الخلفية البحثية، التي تمكن من الاستفادة من البحوث التطويرية، وإجراء حوارات مع الباحثين. ويضاف إلى هذا أن معظم المصانع والشركات الصناعية، تعمل في أطر اقتصادية محلية ومغلقة، وتستهدف إنتاج سلع تحل محل

---

(١) انظر تشجيع البحث العلمي: ١٢، ١٣.

(٢) رؤية مستقبلية لدور التعليم والبحث العلمي: ٩٥.

(٣) انظر تشجيع البحث العلمي: ١٩.

السلع المستوردة، فالنوعية ليست مما تستهدفه، كما أنها ليست شرطاً لبقائها. وهذا كله يجعل شعورها بالحاجة إلى الاتصال بمراكز البحوث معدومة. ويمكن أن نقول: إن القطيعة تتجاوز حدود العلاقة بين الجهات الصناعية، وبين الجهات التي تجري البحوث إلى ما هو أخطر؛ فكثير من الجهات الحكومية، تتخذ قراراتها دون الاسترشاد بآراء المختصين وبحوثهم، كما أنها لا تقوم - في أكثر الأمر - بتكليف مراكز البحوث في بلادها بإجراء البحوث التي تساعدها على اتخاذ القرار؛ مما جعل كثيراً من القرارات الحكومية بعيداً عن معطيات البحوث، وكثيراً من البحوث بعيداً عن قرارات الدولة، وكثيراً من البحوث بعيداً عن حاجات الواقع.

والخلاصة أن فقد البحوث العلمية لوظيفتها الاجتماعية جعلها أشبه بصيحة في واد، أو نفخة في رماد!

٢ - إذا أردنا أن نعرف مدى إحساس الدول والشعوب الإسلامية بأهمية (البحث العلمي) فإن علينا أن ننظر إلى حجم الإنفاق عليه، فالناس دائماً يصرفون جهودهم وأموالهم إلى ما يعدونه من أولوياتهم، وفي هذا السياق نجد أن الإنفاق على البحث العلمي، منخفض لدينا على نحو مريع إذا ما قورن بما تنفقه الدول المتقدمة وبعض الدول النامية. وهناك إحصاءات وأرقام كثيرة عن ذلك، وكلها يُظهر أن (البحث العلمي) بكل أشكاله، لا يحتل ما يستحقه من العناية والاهتمام. من تلك الأرقام ما يشير إلى أن اليهود في فلسطين السليبة، هم أكثر أمم الأرض إنفاقاً على البحوث الأساسية والتطبيقة وبحوث التطوير؛ فهم ينفقون ٣٪ من مجمل الدخل الوطني، تليهم أمريكا التي تنفق ٢,٩٪ من دخلها الوطني، ثم اليابان ٢,٨٪. أما العرب - مثلاً - فإنهم ينفقون على البحث العلمي نحواً من ٠,٣٪[١] أي عشر ما ينفقه اليهود! وعلينا أن نتذكر أيضاً أن الدول المتقدمة تتمتع بدخول

(١) تشجيع البحث العلمي: ٨١.

وطنية عالية جداً، فما تنفقه الولايات المتحدة يزيد على ٦٤ مليار دولار، وهو مبلغ يزيد خمسين مرة على ما تنفقه الدول العربية مجتمعة مع أن سكانها الآن نحو من سكان الولايات المتحدة!

وتصور بعض الإحصاءات (العرب) على أنهم أبخل أمم الأرض في الإنفاق على البحث العلمي، فعلى حين تنفق أمريكا على كل باحث ٧٦٠٠٠ دولار (شاملة المباني والتجهيزات والمواد) وتنفق أوربا ٧٥٠٠٠، وأفريقيا ٥١٠٠٠، وآسيا ٤٥٠٠٠ تنفق الأقطار العربية نحواً من ٣٠٠٠٠ دولار[١].

وتذكر بعض الدراسات أن ما ينفق على البحوث في المنطقة العربية يقدر بحوالي ٣ دولارات للفرد سنوياً، على حين تنفق الولايات المتحدة - مثلاً - نحواً من ١٦٠ دولاراً[٢]. ويقدر بعض الباحثين أن (إسرائيل) وحدها تنفق على البحث العلمي ضعف ما تنفقه الدول العربية مجتمعة[٣]!

ومن وجه آخر فإن كثيراً من مراكز البحوث، قد تحول تدريجياً إلى ما يشبه (الدواوين الحكومية)، فقد تكدس فيها الباحثون؛ مما جعل مرتباتهم، تستهلك نحواً من ٧٠٪ من المخصصات المالية لتلك المراكز[٤]. وكنا قد ذكرنا الوضع المأساوي للبحث العلمي في الجامعات، مما يشكل موضوعاً محزناً للقراءة!

٣ - يعاني الباحثون في معظم أقطار عالمنا الإسلامي من ندرة المعلومات التي يحتاجونها في إنتاج بحوثهم. ومن الواضح اليوم أنه لم يعد بالإمكان معالجة أية قضية من غير معلومات وإحصاءات تمكن من فهم الواقع وتطوراته، حتى في العلوم الإنسانية، فإن المعلومات مهمة، حيث

---

(١) رؤية مستقبلية لدور التعليم والبحث العلمي: ٩٥.
(٢) تشجيع البحث العلمي: ٨١.
(٣) بحوث مؤتمر التعليم وتحديات القرن (٢١): ٤٣.
(٤) جريدة الشرق الأوسط العدد ٦٧٢٠ الصادر في ٢٢/٤/١٩٩٧.

إنها تخفف من مشكلات التحيز التي يولدها الهوى والثقافة واللغة.

توافر المعلومات وتسايلها من المؤشرات الدقيقة على تقدم الدولة، إذ ليس هناك دولة واحدة متقدمة، تعاني من شح المعلومات، أو يعاني الباحثون فيها من الحصول عليها.

وعلى العكس من هذا تماماً، فإن من السمات الظاهرة لكل الدول النامية عدم توفر معلومات كافية عن أي شيء؛ فهناك إصرار أن يبقى كل شيء مستوراً! يقول أحد المسؤولين عن الجهاز المركزي للإحصاء في مصر: «إن الإحصاءات في العالم العربي، تفتقد دائماً عنصري السرعة في الأداء والدقة في التفاصيل، بالإضافة إلى عدم الالتزام بالتعريفات الإحصائية على المستوى العربي. البيانات حتى لو لم تعلنها الدولة، يجب أن تكون تحت أيدي الأجهزة التنفيذية وصانعي القرار، حتى تكون هناك مؤشرات دقيقة لتحديد وتوصيف الأوضاع الآنية، وكذلك إمكانية التعرف على الماضي لتفسير هذه الأوضاع، وهذا يتطلب إحصاءً شفافاً ودقيقاً»[١].

حتى نعرف الفارق الهائل في تدفق المعلومات بين دولة ودولة أخرى، نشير إلى أن السويديين، يستطيعون تحديد عدد السكان بشكل يومي، لأنهم يسجلون المواليد والوفيات خلال ثلاث ساعات. أما في مصر ـ مثلاً ـ فإن جمع البيانات للتعداد السكاني بالإضافة إلى تحليلها، يستغرق نحواً من ثلاث سنوات، وعند صدور البيانات النهائية تكون قد فقدت قيمتها بسبب تقادمها وتغير الواقع، ويضاف إلى هذا أن كثيراً من البيانات الصادرة، عن الجهات الرسمية، تختلف أسسها من فترة إلى أخرى، فتصبح المقارنة بينها غير دقيقة[٢].

إن المعلومات لدينا شحيحة، ومع هذا فإدارتها سيئة، فانسيابها من

---

(١) جريدة الباحث العربي عدد رمضان ١٤١٧هـ.

(٢) السابق...

القمة إلى القاعدة، ومن القاعدة إلى القمة سيِّئ، وهذا يسبب معاناة هائلة للباحثين، ويحرم أصحاب القرار من الاستبصار بنتائج البحوث والمعلومات التي تقدمها.

في مرحلة ما بعد الثورة الصناعية، صار انسياب المعلومات المتعلقة بالتقدم العلمي، يسير ابتداء من العلم في اتجاه التقانة، ومن التقانة باتجاه الإنتاج؛ ويحث الإنتاج من جهته على المزيد من البحث العلمي، بسبب الحاجة إلى التعديل والتطوير؛ وذلك لأن العلم يولد نماذج جديدة، والنماذج الجديدة، تمكِّن العلم من إعادة طروحاته، وتثير كوامنه، وتجدد علاقاته[١].

وبما أن هذه السلسلة من حلقات التقدم العلمي والتقني غير مترابطة لدينا، فإن المعلومات المتوفرة عند الباحثين والتقنيين والمنتجين معزول بعضها عن بعض، مما يحرمها جميعاً من فوائد التغذية المرتدة!

٤ ـ تعاني مؤسسات البحث العلمي ومراكزه لدينا من أنها لم تستطع أن تصنع من نفسها (بيئات علمية)، كما أنها لم تستطع أن تؤسس لتقاليد بحثية عريقة، تمنح البحث العلمي روح الصدق والتضحية والحساسية للحاجات الاجتماعية، والاستجابة للتحديات العالمية التي تواجه الأمة. أضف إلى هذا أن الروح العلمية المتوثبة مفقودة أيضاً، فالبحوث التي يتم إجراؤها، لا تتعرض للنقد، مع أن العلم لا يتقدم بغير النقد، وقدح الفكرة بالفكرة، وتحقيق البحث بالبحث. إن البيئة العلمية محدد جوهري لترسيخ أخلاقيات البحث الحر، كما أنها تشكل المؤسسة الاجتماعية الأهم التي يمكن أن تضع قيوداً على الحركة الحرة للباحثين، بما يقلل من كون أخلاقيات البحث مسألة ذاتية أو اختياراً حراً للباحثين.

إن البيئة العلمية التي لا تنتج باحثاً خلوقاً، يتعشق المعرفة، ويسعى للحقيقة بتلقائية وعفوية، هي بيئات علمية مهترئة، وعاجزة عن القيام بتنظيم

(١) رؤية مستقبلية لدور التعليم والبحث العلمي: ٧٨.

العلم على أنه نشاط مجتمعي جاد ورصين ومسؤول؛ مما يؤدي إلى اضمحلال وظيفة النشر، وانعدام القراءة الفاحصة الناقدة. حين تكون البيئة العلمية مريضة ومثبطة للهمم يكون تكوين الباحث الجاد أمراً في غاية الصعوبة، وليس أمام من يريد أن يكون شيئاً مختلفاً سوى أن يبذل جهداً استثنائياً في شق طريق مهجورة، أو أن يهجر بلاده، ليعمل في مركز علمي في دولة متقدمة[١]، وهذا ما يفعله كثير من العلماء والباحثين!

إضافة إلى كل ما سبق، فإن الأحوال السياسية والاجتماعية السائدة في معظم البلاد الإسلامية، لا تشجع الباحثين على النقد الاجتماعي، مع أن مباشرة النقد الإجتماعي، هي التي تنقل العالم إلى درجة مفكر. كما أن أهم أهداف الباحث أو المفكر أن يستخلص من بحثه رسالة ينقلها إلى الناس، وينشرها بينهم[٢]؛ وعلى من يصر أن يفعل ذلك في كل وقت أن يكون مستعداً لشظف العيش والتهميش والحصار الإعلامي!

كثيراً ما يحلو لبعض الباحثين أن ينسبوا انعدام الروح العلمية إلى سيطرة ثقافتنا التراثية على مناهج البحث وعقول الباحثين، ويدّعون أن تلك الثقافة ثقافة سحرية أو بيانية، وهي في الجملة لا تشجع التفكير العقلاني، ولا البحث الحر.

يقولون هذا مع أن كثيراً ممن يعمل في مراكز البحث العلمي في البلاد الإسلامية، بعيدون عن الثقافة الإسلامية، كما أن كثيراً منهم تلقوا تعليمهم وتدريبهم في جامعات غربية، لكن ذلك لم يجعل منهم باحثين متميزين!

لعل البحث الجدي في أسباب انعدام الروح العلمية والإبداعية، يُظهر أن هذه القطيعة مع التراث، ومع الثقافة الإسلامية، هي مصدر غياب الحافز على البحث الجاد، وهي أصل الاستسلام لأخذ علوم الغرب ومناهجه دون

---

(١) جريدة الباحث العربي عدد رمضان ١٤١٧هـ.

(٢) السابق.

تمحيص أو تطوير، أي الدفع إلى الاغتباط باستيراد كل ما هو مجهز أو معلب مع عزلته عن أي سياق تاريخي أو أية ثقافة عالمية كانت أو محلية[1].

إن في بلاد الغرب الكثير من الطاقات العلمية الإسلامية المبدعة، وبعضها متشبع بالثقافة الإسلامية؛ مما يدل على أن ضعف الروح العلمية، لا يعود إلى العقلية التراثية أو الثقافة التقليدية، وإنما يعود إلى عدم توفر الشروط الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تحتاج إليها أية حركة علمية حقيقية.

٥ ـ إن كل الحيثيات والمشكلات التي تحدثنا عنها، أدت إلى تضاؤل الإنتاج العلمي والبحثي في عالمنا الإسلامي؛ مما جعلنا في ذيل الأمم، وقد كنا يوماً شهداء على الناس في البحث والإبداع! يمكن أن يقال: إن البحث العلمي في العالم الإسلامي، قد دخل في (جدلية رديئة)، فالحكومات تستنجد في حل مشكلاتها التقنية ـ غالباً ـ ببيوت الخبرة الخارجية، وتعتمد في تطوير صناعاتها على مراكز البحوث الأجنبية، وذلك لا ينبع من فراغ دائماً، فالحقيقة أن كثيراً من مراكز البحوث لدينا يرفع لافتات أكبر من حجمه بكثير[2]. ومراكز البحوث من وجه آخر عاجزة عن تطوير نفسها لإعراض الشركات والمصانع الأهلية والحكومات عنها، وشح الإمكانات التي بين يديها!

ولا ننسى أن ضيق سوق التقنية في العالم الإسلامي، وعدم وجود سوق إسلامية مشتركة، تشجع استهلاك المنتجات الإسلامية، يعد عائقاً إضافياً أمام مراكز البحوث والمؤسسات الصناعية معاً. فالبحث الجاد عالي التكلفة، ولن يندفع أحد إلى عمليات التطوير إلا إذا كان هناك أمل باسترجاع الأموال التي تنفق عليه من خلال كثافة المبيعات.

---

(١) انظر اغتيال العقل: ٢٤٦.

(٢) رؤية مستقبلية لدور التعليم والبحث العلمي: ١٢٢.

المؤشرات التي تدل على ضآلة الإنتاج البحثي بالنسبة لعدد السكان المسلمين كثيرة، فالجوائز العالمية وبراءات الاختراع التي ينالها أو يسجلها مسلمون قليلة جداً. وتفيد إحدى الدراسات أن ما تنجزه جامعة (هارفارد) الأمريكية وحدها من أبحاث في المجالات الإنسانية والتقنية، يساوي مجموع ما تنجزه الجامعات العربية مجتمعة[١]!

إن الذي يتابع ما يطرح من معالجات لموضوع تأزم البحث العلمي، وما يعقد من مؤتمرات، يشعر أننا مرتبكون في هذا الأمر ارتباكاً عظيماً؛ في سبيل الخروج من الأزمة نعقد اجتماعات أكثر، ونستشير مزيداً من الخبراء، ونعيد كتابة التوصيات والإرشادات، وفي النهاية لا يؤدي كل هذا إلا إلى أكوام جديدة من الوثائق، وضياع مزيد من الجهد والوقت والمال[٢]. وهذا مع اعتقادي أن موضوع البحث العلمي سهل المعالجة إذا ما قورن بمعالجة قضايا السياسة أو التربية أو التفسخ الاجتماعي، نظراً لمحدودية مجالاته، وضعف نضج الأشخاص الذين يجري التعامل معهم في مضماره، لكن الخطوة الأولى، تظل متوقفة دائماً على (الإرادة) فهل نريد أن نفعل شيئاً؟؟

❃ ❃ ❃

إضاءة:

إن عملية الاكتشاف، هي في الوقت ذاته عملية اختراع، والمعرفة هي صناعة الإنسان.

---

(١) مرآة الجامعة جمادى الآخرة ١٤١٨.

(٢) تشجيع البحث العلمي: ١١.

٣ ـ النهوض بالبحث العلمي

إذا كنا نعتقد أن لكل أمة فلسفتها في الحياة، كما أن لها إمكاناتها وظروفها ومشكلاتها ـ وجب أن يكون لها أيضاً بحوثها ودراساتها الخاصة. لا يعني هذا ـ بالطبع ـ غض الطرف عن خبرات العالم في هذا الشأن، وإنما يعني شفافية الجهود والدراسات البحثية لمجمل رؤية أمة الإسلام للحياة والإنسان، والاستجابة لطموحاتها، والمساهمة في حل المشكلات التي تعاني منها مجتمعاتها.

في غالب الأحيان تتمحور جهود النهوض بأي شيء في الحياة حول توجيه الإمكانات المتاحة إلى المجالات ذات الأهمية والأولوية، وحول تنظيم جوانب العمل المختلفة وتدعيمها. وهذا ما يحتاجه (البحث العملي) في عالمنا الإسلامي. ولعلنا نتحدث عن هاتين المسألتين ومسائل أخرى مما يتعلق بتحسين أوضاع البحث العلمي في الصفحات التالية:

١ ـ توجيه البحث العلمي:

لا نستطيع في البداية أن نقول: إن الشعوب الإسلامية، تملك إمكانات متساوية، أو تواجه مشكلات متجانسة؛ فالأقليات الإسلامية التي تشكل نسبة لا يستهان بها من العالم الإسلامي لها شجون وهموم مختلفة عن هموم الشعوب الإسلامية التي تعيش في المنطقة العربية أو في أندونوسيا أو الباكستان.. وهذا يقتضي ـ بالطبع ـ اختلاف المجالات التي يوجه إليها البحث العملي بين دولة وأخرى وتجمع إسلامي وآخر. وتظل مع ذلك هناك مجالات وقضايا كثيرة، تمس الحاجة فيها إلى تركيز البحوث والدراسات

العلمية لدى جميع الشعوب والدول الإسلامية، وذلك بسبب الرؤية المشتركة للحياة وبسبب الطموحات والتحديات المشتركة. وأعتقد أن مما يستحق توجيه البحوث إليه لدى كثير من الشعوب والأقليات الإسلامية المجالات الآتية:

أ ـ الالتزم والتدين:

إن قضية التدين، تمثل محوراً جوهرياً في حياة كل مسلم، فالالتزام هو الحيوية التي تتغلغل في كيان المسلم، وتصبغ وجوده، وتشكل رؤيته لكل الأشياء... وعلى الرغم من ذلك فإنه ليس هناك مسألة أهملها (البحث العملي) كهذه المسألة!

مهما يكن توجه الحكومة التي تسيِّر أمور شعب مسلم، فإنها تظل بحاجة ماسة إلى أن تعرف وتفهم درجة التزام شعبها وتوجهاته إلى جانب إدراك البنية العميقة التي تحدد موقفه من الإصلاحات والمشكلات الاجتماعية المختلفة. الأحزاب والجماعات والمنظمات المختلفة يعنيها الأمر كما يعني الحكومات على نحو متطابق.

إن حاجة الجماعات والحركات الإصلاحية إلى الحصول على دروس ومستخلصات علمية حول درجة (الالتزام) في مجتمعاتها ماسَّة جداً؛ لأن توفر معلومات جيدة حوله، سوف يوفر عليها الكثير الكثير من الجهود، ويساعدها على تقويم أدائها، كما سيزيد في بصيرتها للمهام والمسؤوليات الملقاة عليها.

إن من المؤسف أننا لا نكاد نرى جماعة إسلامية، أقامت مركز بحوث خاصاً بها، كما أن أبناءها وأتباعها المشتغلين بالبحث العلمي، قلما يقومون بدراسات تثري رؤية جماعتهم أو منظمتهم لواقع التدين ومتطلباته، كما أن من النادر أن تقوم جماعة إسلامية بتمويل بحوث أو دراسات تخدم ذلك!

إن استجابة الناس للجهود الإصلاحية لا تتم في فراغ، وإنما تحتاج

إلى توفر شروط ومناخات معينة، تختلف من بيئة إلى أخرى اختلافاً بيناً، والوقوف عليها لا يمكن أن يتهيأ من خلال التأمل والتمثل الذهني، وإنما من خلال فيض من البرامج البحثية، والدراسات النظرية والميدانية. إننا نأمل أن نرى الكليات الشرعية، والجمعيات الخيرية والجماعات الإسلامية وقد خصصت جزءاً من جهودها وأموالها لإثراء الخبرة وبلورة المفاهيم في واقع (الالتزام) ونشر ما يتحصل لديها من ذلك وتثقيف الناس به. وإذا ما تم هذا، فإننا نتوقع أن نرى نقلة نوعية في اتجاه الإيمان والاستقامة والتقدم الاجتماعي.

ب ـ الحياة الطيبة:

تولد الحياة الطيبة من بوتقة نسيج معقّد من العناصر الروحية والمادية، وسيكون فهم ذلك النسيج مستعصياً على الناس إذا ما أرادوا مقاربته على نحو فج أو تلقائي؛ مما يوجب على أهل كل بلد أن يتلمسوا ما يوفر الحياة الهانئة على نحو منفرد.

إن القلق وسوء الأخلاق والفقر وإجهاض كثير من الجهود التربوية، وفساد الذمم وتفاقم الأنانية، والتحلل الأسري والاجتماعي... كل ذلك، لا ينتشر في المجتمعات على شكل متساو، ولا يؤثر كذلك في مشاعر الناس على نحو متماثل؛ مما يجعل الحاجة ماسَّة إلى إدراكه عن طريق دراسات معمقة خاصة؛ حيث إن كثيراً من ذلك هو وليد الروح والنظم الحضارية المعاصرة. والغرب الذي غمر العالم بفلسفته وإنتاجه، يعالج هذه المشكلات عن طريق البحث العلمي، وسيكون من التبسيط المبالغ فيه أن نعالجها بطرق وأدوات تم إنتاجها عن طريق الأفكار السطحية أو التجارب والخبرات البدائية؛ إذ من المعروف أن معالجة المشكلات بحاجة إلى مستوى فكري وتنظيمي وأداتي أرقى من المستوى الذي كان سائداً عند بزوغها.

إن معرفة الشروط التي يجب توفيرها من أجل جعل الإنسان مستقيماً وناجحاً وسعيداً، تتوقف على توفير معلومات وأفكار تتصل بتكوينات ثقافية

متباعدة، وموزعة على محاور مشتّتة؛ محاور عقدية ومعرفية واقتصادية وسياسية ومهنية. . ، مما يجعل القبض عليها مرتبطاً بذكاء الدراسات والبحوث العلمية التي نجريها حولها وبكثافتها ورشدها.

ج ـ التراث[1]:

يشكل تراثنا مكوناً أساسياً في ثقافتنا الحاضرة، كما يشكل الجزء الأكبر من منظوماتنا العقلية والشعورية والرمزية، ولكنه لا ينفرد بتشكيل كل ذلك. إنه تراث ضخم جدًا، فهو مستطيل في الزمان ومستعرض في المكان. وهذا الثراء يمكن أن يشكّل عامل إرباك واختلاط، فالتراث ـ كالثقافة ـ بإمكانه أن يحفز على العمل، ويرشد إلى الوجهة الصحيحة، كما أن بإمكانه أن يبرمج عقل الأمة برمجة خاطئة، ويمدها بنماذج ومؤشرات ومواد تحجب رؤيتها للمنهج الرباني الصافي والبعيد من الشوائب، كما تحجبها عن رؤية الواقع والاستجابة الصحيحة لتحدياته.

إن مجمل الانكسارات والتراجعات الحضارية التي أصابت الأمة على مدار قرون عديدة، ينبغي أن يحفزنا على نحو استثنائي للتساؤل عن جذور تلك الانكسارات، وعن إسهام التاريخ والموروثات الثقافية في صنعها. إنني أعتقد أن أفضل ما في تراثنا قد نُشر ـ على نحو عام ـ وأن حركة نشر التراث لن تتوقف عند حد، مما ينبغي أن نوجه جزءاً كبيراً من جهودنا اليوم لـ(البحث في التراث) بدل الاهتمام شبه المطلق بنشره.

إن البحث في التراث، يعني أن نرقب بعمق تكوينه وظروف ذلك التكوين والمنحنيات الحادة التي مر بها، كما يعني أن نحاكمه إلى قطعيات المنهج الرباني، وأن ننظر إليه من زاوية صلاحيته لتطوير حياتنا نحو الأفضل، وملاءمته لإحداث التوثب الشعوري والذهني الذي نحتاج إليه في تحقيق وجودنا.

---

(١) ارجع إن شئت إلى ما كتبناه حول التراث والموقف منه في الجزء الثاني من هذه السلسلة ص: ٢٩.

إن كل أمم الأرض تفعل ما ندعو إليه حين تدخل في أزمات، أو تعاني من نكسات حضارية، بل إن خسارة حرب واحدة، قد تدفع إلى قراءة التراث قراءة جديدة انطلاقاً من دوره الخطير في تنظيم ردود الأفعال، وتوجيه الفكر، وتحديد الأساليب والأدوات المستخدمة في المواجهة؛ فقد ظل الشعب الصيني على مدى تاريخه، يمارس عبادة الأجداد، ويقدس الماضي تقديساً هائلاً، ومع هذا فإن (حرب الأفيون) التي وقعت بين عامي (١٨٤٠ ـ ١٨٤٢) والتي ألحق الإنجليز فيها هزيمة حاسمة بالصين ـ تشكل خطاً فاصلاً في تاريخ الفكر الصيني، حيث اندفع المفكرون الصينيون إلى إعادة تقويم أساس حضارتهم وثقافتهم نفسه، وتساءلوا: ما الذي يعيب تراثنا بحيث يسمح للقوى الأجنبية بإلحاق الهزيمة بنا واستعمارنا بهذه السهولة؟ ولم تكن الإجابة واضحة، ووقفوا مواقف شتى من ذلك[١].

إن الأزمة الحضارية الخانقة التي يشعر بها السواد الأعظم من المسلمين، ستؤدي قطعاً إلى قراءات جديدة للتراث؛ ونحن لا نخاف تلك القراءات، لكن نخاف من تخاذل أهل الخير عن المساهمة في ذلك، فيتركون المجال لأهل الأهواء ومشوهي الثقافة، فيتخذون من تلك القراءات أدوات لتشكيك الناس في دينهم، وتأسيس منهجية للتقويم والإصلاح بعيدة عن المنهج الرباني الذي نعتقد أنه يشكل الإطار الفذ للنهوض الصحيح. إن موقف أكثر المشتغلين بالدراسات الإسلامية، هو الاشتغال بالنقل مع اهتمام ضعيف بالفهم والتحليل والتعليل والربط والاستنتاج، واستخراج المستخلصات والدروس الحضارية. إن فائدتنا من تكديس المعلومات والأخبار والأقوال ستكونُ محدودة ما لم نمتلك رؤية نقدية فاحصة للانتفاع بذلك وتوظيفه في حياتنا المعاصرة.

في التراث كنوز، وفيه أيضاً جوانب ومواقف واتجاهات، يكتنفها

---

(١) الفكر الشرقي القديم: ٤٢٥.

الخطل والقصور؛ والبحث العلمي الجاد، هو الذي يبصرنا بجوهر كل ذلك.

د ـ الصناعة:

هذا المجال من المجالات التي ينبغي توجيه حركة البحث العلمي نحوها، فالقاسم المشترك بين الدول الإسلامية، هو (التخلف الصناعي) وصار ذلك يشكل (عقدة نقص) لدى المسلم، حيث يعد التقدم الصناعي تلخيصاً مركزاً لما يحرزه المجتمع من تقدم في جوانب عديدة، مثل الاستقرار السياسي، والتنظيم الإداري، ومستوى التعليم والتدريب، والإحساس بالوقت... وينعكس التقدم الصناعي على نحو جوهري على التقدم الزراعي أيضاً؛ إذ باتت الزراعة تعتمد أكثر فأكثر على الصناعة في جميع مراحل إنتاجها والاستفادة منها. أضف إلى هذا أن المستوردات الصناعية من الخارج، تستنزف معظم ما يتوفر لدى الدول الإسلامية من عملات صعبة. ولا ننسى أن من أسباب انتشار البطالة ضيق الفرص والوظائف الصناعية.

إن حاجة الدول الإسلامية من البحوث، تختلف عن حاجات الدول المتقدمة، ويمكن القول: إن الدول الإسلامية، تحتاج في البداية إلى نوعين أساسيين من البحوث:

١ ـ نوع من البحوث يمكِّننا من الوقوف على حجم الموارد المتاحة وتقديرها، حيث إن من المهم لنا أن نعرف أين نقف. التربية والثروات المعدنية والبحرية ومصادر المياه والقوى العاملة والصحة العامة، والعديد من مثل ذلك: ما الذي يمكن الاعتماد عليه، وما الذي ينبغي أن يحسب حسابه، ما نقاط الضعف في كل ذلك، وما نقاط القوة؟ الكشف عن ذلك، لا يحتاج إلى بحوث أصيلة ذات سمة أساسية، بمقدار حاجته إلى التنظيم وتوفير الأشخاص ذوي الكفاية.

٢ ـ نوع من البحوث، لا يستهدف القوانين العلمية الأساسية، ولكنه يستكشف طريقة تكييف العمليات الصناعية والزراعية المعروفة والمستخدمة في البلاد الأخرى مع الظروف المحلية. وهذا النوع من البحوث المكيَّفة، يعد موجهاً نحو تطبيق معلومات تقنية جاهزة على خصائص المناخ الكيمائية والجيولوجية التي يتميز بها الموقف أو الإنتاج المحلي. هذا النمط من البحوث لا يتطلب عبقرية عالية، ولكنه يحتاج إلى نظام علمي جيد، وإلى توفير الإمكانات والمعدات التي يحتاجها.

أما البحوث الأساسية، فهي مكلفة، وتتطلب استعداداً وحساسية كثيراً ما تكون نادرة في الدول النامية[1]. لذا يجب أن تؤخر إلى مرحلة تالية.

٢ ـ دعم البحث العلمي وتنظيمه:

تدل الخبرات الحضارية المتراكمة **أن قصور الأمم في المجال الاقتصادي** ليس أصيلاً، وإنما هو في أكثر الأمر **انعكاس لقصورها في المجال الأخلاقي والسياسي والاجتماعي**، وأستطيع هنا القول: إن ضعف البحث العلمي في العالم الإسلامي، لا يعود في المقام الأول إلى ضعف الإمكانات، وإنما إلى عدم إدراك أهميته والعناية به، وإلى سوء تنظيمه، وإهمال ترشيده وتوجيهه.

إن النهوض بـ(البحث العلمي) يحتاج إلى دعم، ويحتاج إلى تنظيم، كما يحتاج إلى (اللمسة العلمية) والأجواء المشجعة، ولعلنا نجمل المهم من ذلك في المفردات التالية:

أ ـ إن البحث العلمي، يحتاج أولاً إلى **مال** من أجل تفريغ الباحثين، **وتأمين المواد والتجهيزات المختلفة**، وإن ما يتم إنفاقه الآن في معظم دولنا الإسلامية، لا يساوي أكثر من ١٠٪ مما تنفقه الدول المتقدمة، ولذا فإنه

---

(١) التربية والتقدم الاجتماعي والاقتصادي: ٢٦٧.

يجب تخصيص ما بين ٢٪ و٣٪ من الدخل الوطني لدعم البحث العلمي، وهذا لن يحتاج إلى ضغط شديد في المصروفات في أي قطاع من القطاعات، حيث إن التقنيات الجاهزة والآلات التي نستوردها، تستهلك أموالاً ضخمة، يصعب تحديد حجمها. ولو نظر المسلمون فيما ينفقونه على شراء (قطع الغيار) وحدها للمركبات والمصانع والأسلحة التي بحوزتهم لوجدوا أنهم يدفعون أرقاماً فلكية في سبيل تأمين ذلك! أضف إلى ذلك ملايين فرص العمل التي يوفرها ذلك للدول المتقدمة، على حين يبحث عشرات الملايين من أبناء المسلمين عن فرص عمل تؤمن لهم الحد الأدنى من أسباب البقاء.

لا ريب أن زيادة الإنفاق على البحث العلمي، ستؤدي إلى بعض الإرباك في ميزانيات بعض البلاد الإسلامية في البداية، لكن هذا ما حدث لكل الأمم التي نظرت إلى المستقبل، وسعت إلى امتلاك زمام المبادرة فيما يتعلق بقضاياها الخطيرة، إن وضع الإنفاق على البحث العلمي يشبه وضع الذي يعطل أرضه بضع سنوات عن الإنتاج في سبيل انتظار إثمار الأشجار التي غرسها، لكن حين تثمر، فإنها تعوضه أضعافاً مضاعفة عن كل ما فات.

ب ـ إن البحث العلمي لن يتحسن، ولن ينهض عند توفير المال وحده ما لم يتم إيجاد عدد من التشريعات والتنظيمات التي تجعل الناس يشعرون بالحاجة إليه، بل يرغمون على العودة إلى مؤسساته من أجل حل المشكلات المختلفة التي يواجهونها. إن البداية في ذلك، يجب أن تكون بوضع خطة بعيدة المدى للبحث والتطوير في كل بلد إسلامي، وتكون هذه الخطة منسجمة مع خطط التنمية الاجتماعية والاقتصادية فيه. وينبغي تقسيمها إلى خطط خمسية[١]. ويتم في كل خطة تحديد نوعية البحوث التي سيتم

---

(١) انظر رؤية مستقبلية لدور التعليم والبحث العلمي: ٥.

إجراؤها، والأهداف العلمية والصناعية التي تسعى إلى الوصول إليها. ولا يخفى أن الناس في العالم النامي، يعانون من (عقدة الخواجه) لذا فإن أكثر المصانع والشركات لن تلجأ إلى مراكز البحث الوطنية إلا إذا كانت هناك تشريعات تلزمها بذلك؛ ولذا فإن من المهم إيجاد قرارات صارمة وواضحة بمنع الرجوع إلى أي مؤسسة بحثية أجنبية ما لم يتم الرجوع أولاً إلى المؤسسات والمراكز المحلية. وهذا ينبغي أن يُلزم الجهات الحكومية والأهلية معاً. ولا بد من أن يُحدث هذا بعض المشكلات في البداية، لكن كل شيء سيكون فيما بعد في إطاره الصحيح.

إن القيام بوضع خطة بعيدة المدى للبحث العلمي يقتضي وجود جهة عليا تشرف عليه، وهذا ضروري في هذه المرحلة إلى أن تترسخ لدينا تقاليد وأعراف بحثية، تضيء الطريق أمام الباحثين، وتزيد من الجدية التلقائية لديهم.

إن كثيراً من الجامعات ومراكز البحوث يقوم بعمل أبحاث، لا يستفيد منها أحد، كما أن كثيراً منها، ينشر معلومات عن حركة البحث فيه، أقل ما يقال فيها إنها (دعائية) والذي يسبر أغوارها يجد أنها خاوية على عروشها، إلا من بعض الإنتاج الثقافي الذي لا يمت إلى البحث العلمي بأي صلة! لعل ذلك يعود إلى أنه ليست هناك أية جهة، تحاسبها على قصورها البحثي، وترشِّد مسيرتها. إن الأمر على ما يبدو بحاجة إلى (مجلس علمي) على مستوى كل قطر، يختاره المشتغلون بالبحث العلمي، وتكون له سلطة رسم سياسات البحث العلمي، وتوجيهه، وتقدير احتياجاته، ومتابعة أنشطته، وتوزيعها على الجامعات والمراكز البحثية المختلفة، إلى جانب تقويمها، والإشراف على العلاقات التي يجب أن تقام بين مؤسسات البحث العلمي والجهات المستفيدة منه.

ج ـ كثير من الدول الإسلامية يعتمد سياسات (الحزمة التقنية الكاملة) حيث تستورد مكونات مشروعاتها كاملة دون أن تلتفت إلى البحث فيما

يمكن تصنيعه محلياً منها. في دول إسلامية أخرى الكثير من الأنشطة الصناعية المتنوعة، لكن تلك الأنشطة قائمة على الخبرة التقنية المكتسبة من الممارسة البعيدة عن أية معطيات بحثية خاصة؛ حيث إن أكثر القائمين على تلك الصناعات من أصحاب الورش أشباه الأميين، والذين لا يعرفون أي شيء عن البحوث التطبيقية أو التطويرية، وهذا هو سر عدم نمو صناعاتهم؛ إذ إن التطور التقني لا يحدث ما لم تعبِّد البحوث والدراسات الطريق أمامه. في الحالتين الأولى والثانية يجد المشتغلون بالبحث العمي أنفسهم معزولين عن حركة النمو الصناعي!

إن البحث العلمي سوف ينشط حين تتخذ قرارات سياسية كبرى بالتوجيه إلى إقامة صناعات محلية، لا تقوم على الممارسة المتوارثة، وإنما على نتائج البحوث والدراسات الحديثة. أضف إلى هذا أنه لا بد من إرساء معايير للجودة تحد من إنتاج السلع الرديئة التي يتم إنتاجها وفق خبرات شائعة لم تحظ بأي اختبار أو تجريب. إلى جانب هذا فإن توجه الدولة إلى الصناعة من أجل التصدير سيزج السلع والمصنوعات المحلية في خضم المنافسة العالمية، وهذا سيدفعها دفعاً إلى الالتجاء إلى مراكز البحوث لمساعدتها على خوض المنافسة التي ستلقاها هناك. وهذا يعني أن التصنيع من أجل سد الحاجات المحلية فقط كان سبباً مهماً من أسباب انخفاض كثير مما تنتجه الشعوب الإسلامية، وسبباً من أسباب الإعراض عن توظيف البحث العلمي في المجال الصناعي.

إن الدول الغربية والمتقدمة، تقاتل اليوم من أجل فتح أسواق لمنتجاتها، وعلى المسلمين أن يستخدموا كل ما لديهم من قوة لتنشيط صادراتهم، وذلك بإعطاء المنتجات الإسلامية ميزات تجارية، تسهل دخولها إلى البلدان الإسلامية. إن من المهم أن يشعر المشتغلون بالبحث العلمي بأن لهم وظائف ملموسة في التنمية، وهذا لن يتم إلا من خلال إدخال البحوث العليمة بقوة في النشاط الإنتاجي والاقتصادي.

د ـ لا تتعرف الأمم على خصائص ثقافتها إلا حين تكون تلك الثقافة مهددة بالزوال؛ ولذا فالتلقائية والعفوية هي الأساس في حياة الشعوب. والأصل في العلاقة بين قيادات المعرفة وقيادات الصناعة والإنتاج، أن تقوم على المبادرات الفردية والإحساس بالمصالح المشتركة، على نحو ما يقوم من علاقات بين التجار في الأسواق. وهذا ما نجده في بلد متقدم مثل (سويسرا) حيث إن الصلات فيه بين الصناعة والجامعة، لا تعود إلى أية مبادرة حكومية؛ فقد تطورت العلاقة بينهما على مدى فترات طويلة، وارتكزت أساساً على العضوية في النوادي العامة، وعلى تبادل الخبرات العلمية[1]. لكن حين يعرف الناس أهمية تلك الروابط، فإنه لا بد آنذاك من مبادرة بعض الجهات إلى تنظيمها وتقنينها، ما دام البحث العلمي، لا يجد نفسه إلا لدى الجهات التي تحوله إلى اختراع وابتكار، وما دام التقدم التقني لا يستطيع الاستمرار في سبيله، ما لم يسبق بالبحوث، والكشوفات العلمية.

في معهد (زيورخ) الفيدرالي للتقنية نظمت العلاقات تنظيماً جيداً، وتضمنت إشراك الصناعة في المجالس المسؤولة عن تحديث المناهج واختيار الأساتذة، إلى جانب تعيين بعض رجال الصناعة محاضرين دائمين طول الوقت، وتمويل الصناعة للبحوث والإنفاق على المعيدين، وإعطاء تصاريح إجراء بحوث ذات صبغة استراتيجية، حيث تقوم الجهات الصناعية بتمويلها[2]. إن الحكومات ستظل عاجزة عن الوفاء بكل متطلبات البحث العلمي؛ والتنسيق بين مراكزه والمراكز الصناعية، سوف يوفر الدعم الذي يحتاجه استمراره وتطويره، ولكن المؤسف أن (التنسيق) هو الحلقة الأضعف في جميع مجالات حياتنا، لأنه يتطلب درجة من الشفافية لم نبلغها بعد!.

هـ ـ من غير الممكن أن ينهض البحث العلمي وينمو في ظل مجتمع، لا يهتم بالبحث عن الحقيقة، ولا يطور وسائله للقبض عليها. سوف يتوفر

---

(١) تشجيع البحث العلمي: ٢٢٤.

(٢) السابق: ٢٢٥.

الوسط المشجع حين يكون الشوق إلى اكتشاف المجهول حيوية تتغلغل في سائر أوصال المجتمع، فتندفع حركته كلها بحافز منه، وما لم يتأسس ذلك، فإن الباحثين سيكونون كمن يغني بين القبور!

بناء مناخات ملائمة للتقدم العلمي، يتطلب تنوع الأطر التي يجري فيها البحث العلمي، كما يتطلب تعدد الجهات التي تشجع عليه، وتقدم له الخدمات؛ مما يؤدي إلى إشاعة الروح العلمية، واستثمار الطاقات الكامنة مهما كان حجمها، وأرى أن مما يساعد على ذلك:

١ ـ المرونة في إقامة الأطر التي تجري فيها البحوث العلمية، حيث إن المهم دائماً ليس الشكليات وإنما النتائج الجيدة. وفي هذا الصدد فإن مما يجعل المجتمع يغتني بالبحث والباحثين سن تشريعات وتنظيمات جديدة تساعد كل جهة على أن تشكل لديها (وحدة بحوث) تعنىٰ بإجراء الدراسات والمسوح الملائمة لطبيعة عملها. وتتشكل وحدة البحوث من أستاذ متخصص في مجال بحوث الوحدة واثنين من الأساتذة المساعدين وعدد من الطلاب أو الموظفين، قد يكونون ثلاثة أو خمسة أو أكثر قليلاً. ويجري الطلاب بحوثاً، ينالون عليها درجة (الماجستير) أو (الدكتوراه) كما يمكن أن يجري الموظفون بحوثاً لا تستهدف نيل شهادة بعينها، وإنما الإسهام في إثراء البحث العلمي، وخدمة الجهة التي أقامت الوحدة. وعلى هذا فإنه ينبغي أن تقيم جمعية خيرية في بلد وحدة لإجراء البحوث الاجتماعية المتعلقة بالفقر والمرض والطلاق والاستهلاك والإدمان والإسراف. . .، على حين تجري جماعة إسلامية بحوثاً تتعلق بالالتزام والانحراف والدعوة والاتصال. . . وتجري وحدة تابعة لمصنع كيميائي بحوثاً تتعلق بالمواد التي ينتجها المصنع وهكذا. . .

في فرنسا تمت أعمال شبيهة لما ذكرناه، ففي عام ١٩٦٨ تم إنشاء ٦٢٦ وحدة من وحدات التدريس والبحث العلمي، وكل وحدة مكونة من أستاذ ومساعد له، برتبة أقل من رتبة الأستاذية وعدد من الطلاب. وكل

وحدة متخصصة في فرع معين. وبإمكان عدد من هذه الوحدات أن تتحد لتنشأ منها جامعة واحدة، وهذا ما حدث فعلاً، فقد تكوّن من تلك الوحدات أربعون جامعة من الجامعات الحديثة المتخصصة، وذلك في عام ١٩٦٩. ويجري في تلك الوحدات نسبة كبيرة من البحوث التي تجري على المستوى الوطني في فرنسا[١].

ميزة هذا النوع من الأطر البحثية أنه يمكّن عدداً كبيراً من الجهات في خدمة عملها وتخصصها عن طريق الدراسات والإحصاءات والبحوث، كما أنه يتيح لجهات كثيرة الإنفاق، على البحث العلمي عوضاً عن أن يقع عبئه على جامعات تنوء بنفقات التدريس. والأهم من ذلك أن اللمسة العلمية والشفافية الإحصائية، تصبح من السمات البارزة في المجتمع.

٢ - إن من طبيعة الإنجازات الكبرى أنها تتأبى على التأطير والسجن في أوعية محدودة، وتكاد تكون قضية المعرفة أكبر قضية، تحتاج إلى جهود الناس جميعاً؛ لأن الاستنارة العامة لدى الناس هي السبيل لدعم المبدعين والعلماء والباحثين. وإيجاد تلك الاستنارة يتطلب الكثير الكثير من الأنشطة غير المدرسية وغير الرسمية؛ حتى يجد الشاب نفسه محاطاً بالأنشطة العلمية التي تكسبه المعرفة في أجواء حرة وممتعة.

من الأطر الكثيرة التي تمكن من ممارسة الأنشطة المعرفية ما يسمى بـ(الأندية العلمية)[٢] والتي تعنىٰ بتحسين فهم العلوم وتطبيقاتها لدى أعضاء النادي، وإكساب الطلاب مزيداً من الواقعية عن طريق العمل في المختبرات وزيارة المصانع والمزارع، إلى جانب الاستثمار الجيد لأوقات فراغ الطلاب.

في فرنسا أسهمت حركة شباب العلوم في تنمية البحث العلمي من خلال تقديم مفهوم (النادي المخبري) حيث إن لهذا النوع من النوادي مباني

---

(١) التعليم العالي في المملكة العربية السعودية: ٩.

(٢) انظر تفصيلات أوفى في (تشجيع البحث العلمي): ١٨٧ وما بعدها.

واسعة ومجهزة تجهيزاً جيداً، يسمح بإجراء بحوث لمشروعات على درجة كبيرة من التعقيد.

هناك أيضاً (معسكرات العلوم) حيث تقام في عدد من الأقطار معسكرات الشباب العلمي في خيام دائمة، ويتركز العمل في تلك المخيمات على البيئة، فتدرس (جيولوجية) المكان ونباتاته والحشرات الموجودة فيه إلى جانب الأحياء البحرية والحفريات وتلوث البيئة... المتاحف العلمية إطار آخر غير مدرسي لبناء أجواء البحث العلمي. وقد صارت بعض المتاحف في الدول المتقدمة، تقوم بتقديم برامج على مستويات عدة، تهدف إلى تعريف الأطفال والأشبال على مفاهيم العلم والتقنية. وعلى سبيل المثال فإن المستوى الثاني في متحف (بوسطن) يقدم برنامج (المكتشفين في العلم) وهم فئة تتراوح أعمارهم بين العاشرة والسادسة عشرة. ويجب أن يزكي المعلمون الطلاب الصالحين لهذا البرنامج. ويستخدم في هذا البرنامج أدوات تعليمية جديدة وشروح وتجارب ومحاضرات تغطي قطاعاً واسعاً من موضوعات العلم. ويرعى المستوى الثالث (تخوم العلم) ويسعى إلى الاستفادة من التركيز الشديد وغير العادي على مشاهير العلماء في المنطقة، حيث يقدمون مكتشفاتهم، ويبحثونها مع أفضل العقول العلمية الشابة في المنطقة.

حين ننظر فيما نبذله في خدمة البحث العلمي مقارناً مع ما يفعله غيرنا، فسوف نجد أننا ما زلنا في بداية الطريق أو فيما قبل البداية!

في الختام لعلي استطعت الإيضاح أنّ مسألة (البحث العلمي) من المسائل الحيوية جداً التي تستحق التفكير والاهتمام، والتضحية والعطاء إلى جانب المزيد من التنظيم والتحفيز؛ والله المستعان.



إضاءة:

الأمة التي تعجز عن توظيف تراثها النفسي والاجتماعي، ستكون أشد عجزاً عن الانتفاع بتراث الآخرين ومنجزاتهم.

حول
التعليم المهني والتقني

١ ـ أهمية التعليم المهني .

٢ ـ واقع التعليم المهني .

٣ ـ الارتقاء بالتعليم المهني والتقني .

٤ ـ التدريب .



١ ـ أهمية التعليم المهني والتقني

كانت متطلبات العيش في الماضي السحيق محدودة جداً، ولذا فإن الواحد من الناس كان يقوم بمعظم حاجاته من كل شيء. ومع ارتقاء الإنسان في مدارج الحضارة أخذت أساليب الحياة تتعقد شيئاً فشيئاً، كما ارتقت إمكانات تحقيق الرفاهية، وزاد اعتماد الناس بعضهم على بعض مما جعل تقسيم العمل، يزداد شمولاً وعمقاً، مما ساعد على الارتقاء بمعايير الجودة والإتقان على نحو مستمر ومتجدد[١].

إن التنافس الشديد بين الشركات الصناعية على إنتاج أشياء أعلى جودة وأقل تكلفة قد فرض مستويات غير مسبوقة في جودة الأداء المهني، واستخدام أساليب وأدوات تقنية في منتهى التطور والتقدم، وأخذت ظاهرة (الأتمتة) في الانتشار لتعبر عن كل ذلك.

إن مهمة (العلم) أن يرتاد آفاق المجهول، ويكشف السنن، ويحلل العوامل المتشابكة للظواهر المختلفة... لكن هذا كله لا يؤدي إلى تحسين نوعية الحياة على نحو ملموس ما لم يترجم إلى تطبيقات عملية، ويتجسد في أساليب ووسائل، توفر الراحة للناس، وهذا ما ينجبه اللقاء السعيد بين العلوم النظرية وبين الممارسات المهنية والتقنية.

هناك إلى جانب التعليم المهني التعليم التقني، ووضع حدود فاصلة

(١) كان العرب على الرغم من بعدهم عن الصنائع يملكون الإحساس بماهية إتقان الصناعات والمهن، قال ابن منظور في تعريف المهنة: «إنها الحذق في الخدمة والعمل ونحوه» اللسان: مهن.

بينهما على نحو صارم غير ممكن، إلا أنه يمكن القول: إن التعليم المهني يستهدف - في الغالب - تعليم صنعة أو حرفة للمنخرطين فيه، وهو يستخدم في ذلك آلات أقل تعقيداً، ويكون اعتماده على النظريات العلمية الحديثة أقل.

أما التعليم التقني، فإنه يستهدف إيجاد طبقة وسطى بين المهندسين والعلماء من جهة، وبين العمال المهرة من جهة أخرى. إنه - في أعلى مستوياته - الأسلوب الذي يحاول الكشف عن مدى إمكانية تحويل الأفكار والاكتشافات العلمية إلى نظم جديدة وإلى مصنوعات ومخترعات مادية ملموسة. وهو في سبيل ذلك لا يستخدم الأدوات والطرق المتطورة فحسب، بل يصنّع ما يساعده على بلوغ غاياته. إن كثيراً مما نقوله عن التعليم المهني ينطبق على التعليم التقني، حيث إنهما يشكلان درجتين من استثمار العلوم البحتة والمزج بينهما وبين الخبرات والمواد على نحو مبدع.

إن حاجة أمة الإسلام إلى التعليم التقني والمهني ذات بعدين: بعد ثقافي فكري، وبعد اقتصادي معيشي.

أما البعد الثقافي الفكري، فإن أهميته تتجلى في أن التعليم التقني، يشكل الأرضية التي تتلاقى عليها إشراقات الفكر - بكل ما تنطوي عليه هذه الكلمة من جموح ومثالية - مع قوانين الطبيعة بكل ما تحتوي عليه من صلابة وصرامة. وهذا التلاقي يساعد على تحييد كل الأفكار التي هي من قبيل الأوهام، والتي لا تقبل التجسيد في واقع محقّق بسبب رفض نواميس الوجود وسننه لها. ذاك التلاقي يكشف من وجه آخر من خلال التجارب المصاحبة عن آفاق واسعة المدى لما يمكن أن ينفتح أمام العقل البشري من مسارب الإبداع والتجديد. إن التعليم المهني والتقني، يعزز ثقة الإنسان بنفسه، حيث يمكنه من السيطرة على الأشياء وفهم العلاقات القائمة بينها، واستثمارها على أفضل وجه. ولعل من ثمرات رسوخ هذا النوع من التعليم غرس الامتثال للأنظمة والقوانين السارية، حيث يتولد شعور عميق لدى

طلابه بضرورة الانصياع لآمر النظم الحياتية المختلفة، وهذا ما أشعر أن حاجتنا ماسَّة إليه.

أما البعد الاقتصادي المعيشي، فإن إلقاء نظرة واحدة على ما تم إنجازه في المجال الصناعي، يعد كافياً لتعريف الناس بأهمية التعليم المهني والتقني، فالدول الصناعية، هي التي تقود الحضارة، وهي التي تملي شروط العيش على الأمم الأخرى. أضف إلى هذا أن هناك أعداداً ضخمة من الشباب، لا يجدون أية فرصة للعمل بسبب ضعف الصناعة، وبسبب عدم إتقان الواحد منهم لأية حرفة أو مهنة يكتسب من ورائها رزقه. وقد كانت العرب تسمى مهنة الرجل (ضيعة) لأنه يضيع من دونها؛ وهذا ما يواجهه كثير من الشباب اليوم، حيث وجدوا أن العلم الذي تلقوه في المدارس، لا يتناسب مع حاجات سوق العمل؛ مما دفع كثيراً منهم إلى الانحراف أو التسكع في الشوارع أو الهجرة من بلده...

إن التعليم المهني والتقني، أمسى أداة فعالة لتحسين شروط الوجود الإنساني، كما أمسى أداة تحرير من طائفة من العبوديات، وأداة للتغيير والتجديد، ولذا فإن النهوض به يمثل ضرورة ملحة، لا تقبل التأجيل.

إن هناك الكثير من المغريات بذكر الكثير من ميزات التعليم المهني والتقني، وسيكون جديراً بها، إلا أن علينا ألا ننسى أن أي فرع من فروع التعليم يظل ضرورياً لنمو الحياة، لكنه لن يكون سوى تنظيم فرعي داخل التشكيلة التنموية الكبرى، وحين يعيش بلد من البلدان في أجواء تشهد انحباساً في التنمية؛ فإن من السهل أن يجد الآلاف من الفنيين والتقنيين والعمال المهرة أنفسهم خارج سوق العمل على نحو ما يجري الآن لخريجي الكليات النظرية. وهذا واضح في بلد مثل (مصر). وعندما انهار الاتحاد السوفياتي، وتخلصت الدولة هناك من أوهام الدولة العظمى وجد الملايين من علمائها وتقنييها ـ والذين أعدوا أفضل إعداد ـ أنفسهم من دون أي عمل. إن نمو هذا النوع من التعليم يجب أن يكون تعبيراً عن الاستجابة

لطلب خطط التنمية التي تعتمد التركيز على الصناعة، وليس على الزراعة أو التجارة، كما تعتمد التركيز على المحلي عوضاً عن المستورد؛ إنه في مقام العربة لا الحصان.

❁ ❁ ❁

إضاءة:

ليست المعاصرة نقلاً لتجربة، وإنما هي إيجاد (ديناميكية) إبداع وتجديد ذاتيين وتركيب منهج إيجاد التقنيات وتصميمها.

٢ ـ واقع التعليم المهني والتقني

يتفاوت وضع التعليم المهني والتقني بين بلد إسلامي وآخر بحسب الظروف والمراحل الحضارية التي يمر بها كل بلد؛ حيث لا يمكن إجراء مقارنة بين وضعيته في بلد إسلامي مثل موريتانيا أو أفغانستان ووضعيته في بلد مثل ماليزيا أو تركيا. ومهما كان التفاوت فإن حالته العامة، ليست مُرضية، وهو يقف على هامش نظم التعليم المهني والتقني في العالم. الأرقام والمعلومات التي تصور أوضاعه محدودة، ولكنها على كل حال ترسم صورة باهتة له بالمقارنة لما عليه التعليم في العالم من حولنا. وتشير بعض الدراسات والإحصاءات أن نسبة الذين يدرسون تخصصات (أكاديمية) كانت في الوطن العربي عام ١٩٧٠ : ٨٦,٨٪ على حين كانت نسبة التعليم المهني ١١,١٪ ونسبة التعليم الذي يُعدُّ المعلمين ٢,١٪ وفي عام ١٩٨٤ ارتفعت نسبة التعليم (الأكاديمي) لتمثل ٨٨٪ على حين انخفضت نسبة إعداد المعلمين لتمثل ١,٨٪ ونسبة التعليم المهني لتمثل ١٠,٣٪. وإذا قارنا ذلك بما كان في ذلك الوقت في بعض مناطق العالم، وجدنا أن الفرق شاسع، حيث كانت نسبة التعليم المهني في أمريكا اللاتينية ٢٣,١٪ وفي أوروبا ٢٣,٩٪[١].

وتقدم دراسات أخرى تفصيلاً أكثر، ومما تفيده أن نسبة أعداد الملتحقين بالتعليم التقني إلى مجموع أعداد الملتحقين بالتعليم الثانوي (بعد المرحلة المتوسطة) تتراوح بين ٢,٠٦٪ و ٦,٨٧٪ في بعض البلدان مثل قطر

---

(١) مستقبل التعليم والبطالة في الوطن العربي: ٣٧.

والمغرب والإمارات العربية المتحدة وبين ٣١,٧٪ في البحرين و ٥٦,٥٪ في مصر. إلا أن الإحصاءات المتعلقة بهذا النوع من التعليم تفيد أيضاً أن ٥١٪ من الدارسين فيه ينتسبون إلى فروع تجارية وإدارة مشروعات، و ٣٨٪ يتخصصون في فروع صناعية. ويحتل التعليم الزراعي المرتبة الثالثة في سائر بلدان الوطن العربي بعد التعليم التجاري والصناعي[١].

في تركيا يحظى التعليم المهني باهتمام خاص، وقد قفز قفزات هائلة خلال مدة وجيزة، فعلى حين كان عدد طلاب التعليم الفني والمهني عام ١٩٧٣ نحواً من ١٧١,٨٠٠ طالب بلغ عام ١٩٨٧ نحواً من ٧٢٠,٠٠٠ طالب. وبذلك يكون قد تجاوز التعليم الجامعي الذي بلغ في ذلك العام نحواً من ٥٩٤,٦٦٢ طالب. في عام ١٩٨٨ كانت نسبة ما ينفق على التعليم الثانوي العام في حدود ١٥,٣٪ من ميزانية التعليم على حين خصص للتعليم الثانوي الفني ١٣,٨٪. ولكن التعليم في تركيا مبتلى بالبلوى العامة التي ابتلي بها التعليم في العالم النامي كله ألا وهي ضآلة ما ينفق على التجهيزات والوسائل والمواد بالنسبة لما يخصص لأجور المعلمين، حيث تفيد بعض الدراسات أن ٨٤,٥٪ من ميزانية التعليم في تركيا موضوع تحت بند الأجور والمكافآت[٢].

حتى نعرف موقعنا في الصورة العالمية للتعليم المهني والتقني، فإن من المفيد أن نذكر أن نسبة الطلاب الذي يدرسون في المدارس المهنية في (الصين) تشكل ٣٦٪ من مجمل الطلاب الذين يدرسون في مراحل التعليم الثانوي[٣].

أما في (ألمانيا) فإن التعليم المهني، يثير الإعجاب، حيث تنتشر المعاهد المهنية والتقنية في طول البلاد وعرضها، وتبلغ نسبة خريجيها إلى

---

(١) رؤية مستقبلية لدور التعليم والبحث العلمي: ٣٣.
(٢) نظام التعليم في تركيا: ١١٩.
(٣) تطور التربية في الصين: ٣٩.

نسبة خريجي الجامعات نحواً من ٣٥٪[1].

ومع هذا كله فإن الأرقام لا تحكي سوى الكم، وأما الكيف فتعكسه النتائج والأحوال العامة. ولو دققنا النظر في الأحوال الصناعية وأحوال المهن والحرف إلى جانب إلقاء نظرة على نسبة ما يصنع محلياً من جملة ما يستهلك ـ لوجدنا أننا نحتاج إلى الكثير الكثير من العمل على هذا الصعيد حتى يتحقق المستوى المقبول منه.



إضاءة:

تتكون سعادة المرء من حجم المطابقة بين سلوكه ومعتقداته.

(١) مجلة المعرفة عدد شعبان ١٤١٧ ص٩٦.

أسباب ضعف التعليم المهني:

قبل الإسلام كان العرب ينظرون ـ كما كانت تنظر شعوب أخرى ـ إلى الحرف والمهن والأعمال اليدوية المختلفة نظرة ازدراء، والمهنيون على نحو عام هم عماد الطبقة التي تتولى خدمة المجتمع، وهناك طبقتان أخريان، هما طبقة (الشجعان) وطبقة التجار التي تمثل الثراء والنفوذ في المجتمع. أما الشجعان فيقودون حملات النهب والسلب والغزو، وكانت أحب الأموال إلى العرب تلك التي يكسبونها من وراء التجارة ومن وراء الغزو والقتال. امتلاء حواضر الجزيرة العربية ـ مكة والمدنية والطائف ـ بالمهنيين من الأعاجم، كان يرمز إلى هذه الحقيقة الراسخة.

جاء الإسلام، وكان يهدف في جملة ما يهدف إليه إلى إعادة تشكيل ثقافة البشر، وتأسيس مفاهيم وأعراف ونظم جديدة، تقوم على احترام الناس وتقديرهم على أساس ما يتمتعون به من استقامة وتقوى ونفع للعباد: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1]. وقد قدّم سلوك النبي ﷺ في بيته ومع أصحابه نموذجاً حياً للتشجيع على العمل اليدوي، فقد كان يرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويساعد أهله في بعض شؤون المنزل. وقد انفعل المسلمون في البداية مع كل ذلك، لكن الأمر لم يدم طويلاً حيث جاءت حركة الفتوح بمئات الألوف من العبيد وغيرهم ممن وفد إلى الجزيرة والحواضر الإسلامية الكبرى، وكان أولئك يتقنون الكثير من المهن، مما جعل العرب يشعرون بعدم الحاجة إلى امتهان

---

(١) سورة الحجرات، آية ١٣.

الحرف ما دام هناك من يقوم بشؤونهم المختلفة! والخلاصة أن ازدراء المهن عاد من جديد إلى حياة الناس[1]، ورسَّخ ذلك اتصال المسلمين على نطاق واسع بالتراث الإغريقي الذي يميل إلى الاهتمام بالعلوم البحتة المجردة عن أي تطبيق، بل إنهم كانوا يرون أن الإنسان التقني، يعارض الإنسان بالمعنى الصحيح معارضة تامة، وهذا على خلاف ما كان لدى الرومان الذين كان اهتمامهم بالعلم المجرد أقل بكثير من اهتمامهم بالتقنيات[2].

إن تغيير موقف ثقافة مجتمع حيال أمر ما ليس بالأمر السهل، وهو محتاج قبل كل شيء إلى نماذج ملموسة تقوده إلى الوضعية الأمثل. إن غلبة الجهل على كثير ممن يمارس المهن نفّر كثيراً من الناس منها؛ مما رسخ في ثقافتنا أن العلوم المهنية والتقنية هي منتجات فرعية للمعرفة المتقدمة، واتصالها بالثقافة اتصال غير مباشر. أضف إلى هذا أن القيادات الاجتماعية لم تقدم أية مبادرة في هذا الشأن؛ فالثقافة الحرة، هي من حق الذين يفكرون للأمة ويقودونها، ومن حق أبنائهم أيضاً. أما الذين يدرسون في التعليم المهني، فإن عليهم أن يعدوا أنفسهم للانخراط في سلك الأعمال الخدمية!

ومن وجه آخر فإن التعليم المهني مكلف جداً، ويحتاج إلى أموال طائلة، كما يحتاج إلى صبر حتى يؤتي ثماره، ونحن نفقد الأموال في بعض الأحيان، ونفقد إرادة توجيهها التوجيه الراشد في أحيان أخرى، ونفقد الصبر وطول النَفَس في البناء الحضاري في كل الأوقات!

حين يكون هناك بطالة لخريجي هذا النوع من التعليم، فإن الناس، سيعزفون عن إرسال أولادهم إليه؛ لأنهم يشعرون أنهم سيخسرون الدخل

---

(١) يقول الفرزدق معيراً جريراً بأبيه القين (الحداد) قائلاً: .
إني بنى لي في المكارم أوّلي ونفخت كيرك في الزمان الأولِ
(٢) الثقافة الفردية وثقافة الجمهور: ١١٦.

المادي والمنزلة الاجتماعية والوظيفة الجيدة، ولا يقدم نبيه فطن على ذلك إلا مضطراً.

❀ ❀ ❀

إضاءة:

إن (صناعة المعلومات)، أعادت للعنصر البشري أهميته من جديد، لكن ذلك كان للدماغ، وليس للروح.

٣ ـ الارتقاء بالتعليم المهني والتقني

إن ضعف التعليم المهني والتقني في العالم الإسلامي، لا يشكل ظاهرة بسيطة، يمكن الخلاص منها ببلورة فكرة أو اتخاذ قرار على مستوى عال... فهو ظاهرة شديدة التعقيد، وعلى اتصال بجوانب فكرية ونفسية واجتماعية واقتصادية عديدة، فعمل الرجل اليوم واختصاصه يحتل مكانة قريبة من تلك المكانة التي كان يحتلها نسبه في يوم من الأيام.

ولذا فإن النهوض بالتعليم المهني، يحتاج إلى مجموعة من (الحلول المركبة) وإلى التقدم في العديد من المجالات. وفي الصفحات التالية تسليط للضوء على أهم ما نراه من ذلك من خلال الآتي:

١ ـ إضفاء اللمسة الثقافية:

للخيال والتجريد والتنظير والثقافة الواسعة تأثيرات هائلة في الإنسان، ويتمتع التعليم غير المهني برصيد ضخم من كل ذلك. وقد ساهمت الجامعات الكبرى التي تقدم العلوم النظرية في ذلك، كما أن الوجاهة والظهور الإعلامي ـ في بيئتنا العربية على الأقل ـ تكون من حظ (الأكاديميين) وليس التقنيين أو المهنيين. وهناك إلى جانب هذا صورة قاتمة عن ثقافة المهنيين وسعة أفقهم...؛ فهم أصحاب جهد عضلي، وما يقومون به يقوم على القليل من التحصيل العلمي، وخبرتهم في الحياة العامة محدودة، وربما كانوا بحاجة إلى نوع من التهذيب والحساسية الاجتماعية... هذه الصورة المنطبعة في أذهان كثير من الناس عن التعليم المهني والمهنيين ـ بقطع النظر عن صحتها ـ بحاجة إلى تغيير إذا ما أردنا

للتعليم المهني أن يتمتع بجاذبية أكبر. وأعتقد أنه يمكن عمل الكثير في هذه السبيل، من خلال تقرير مواد ذات بعد ثقافي نظري غير تطبيقي، يمتلك الطالب من خلالها لوناً ثقافياً ذا بعد إنساني، وذلك كأن تقرر مادة تحكي نشأة المهنة موضوع التخصص، وأهم الأطوار التي مرت بها، وبعض الطرائف والأشعار والأمثال الشعبية المتعلقة بها. وكذلك تقرير مادة توضح الآفاق المستقبلية لتلك المهنة، ومستلزمات ازدهارها وجعل إنتاجها اقتصادياً، وبحث العلاقات الاعتمادية بينها وبين بعض المهن الأخرى، وكذلك حجم البطالة الموجودة فيها، ومعوقات نموها.

ومما يفيد في هذا الباب أيضاً تقرير مساق يوضح الأبعاد الأخلاقية والإنسانية للتقنية على نحو عام ولا سيما (التقانة الحيوية) والهندسة الجينية، وما شاكل ذلك، مما يشكل تبصيراً بالاستخدام الأرشد للآلة وانعكاسات ذلك الاستخدام على الناس على المستويات النفسية والاجتماعية والاقتصادية.

هذه المواد وأخرى شبيهة بها ستوسع أفق طالب التعليم المهني والتقني، وستوجد لديه حساسية ثقافية وأخلاقية، هو بحاجة إليها للمشاركة في فهم الحياة العامة والتفاعل معها. إن المهمة التي تنتظرنا ليست مقصورة على إعداد الفرد إعداداً مهنياً جيداً، وإنما تهيئته ليكون لبنة صالحة في البنيان الاجتماعي.

٢ ـ الارتباط المبكر بالعمل اليدوي:

إن الله ـ جل وعلا ـ خلق اليدين لتعملا في كل ما يعود بالنفع على بني البشر، وإن كثرة استخدامهما في جوانب حياتنا المختلفة، هو الذي سيساعد على تنمية مشاعر الاندماج في الأعمال المهنية المختلفة. ينبغي أن تكون البداية في بيوتنا، حيث إن كل بيت، ينبغي أن يحوي (حقيبة عتاد) تمكن أصحابه من إصلاح الأعطال البسيطة في تجهيزات المنزل المختلفة؛ فليس من اللائق أن يكون المرء كَلّاً على غيره في أمور يمكن أن يقوم بها

بنفسه. حين يرى الطفل أباه وأمه يباشران بعض الأعمال المهنية، فإنه لن يجد غضاضة في أن يلتحق بالتعليم الفني في المستقبل.

التعليم الابتدائي، لا ينبغي له أن يكون معزولاً عن التطبيق العملي، فنحن بحاجة إلى غرس حب العمل اليدوي في نفوس الطلاب، كما أننا بحاجة إلى اكتشاف مهاراتهم المهنية؛ ولذا فإن من المهم أن يكون هناك حصص لبعض الأعمال الخشبية والمعدنية، وهذا لن يتم إلا من خلال إلحاق ورش صغيرة بالمدارس الابتدائية، وتوفير المواد لها. وسيساعد على ذلك أيضاً زيارة الحقول والمصانع والورش المهنية.

إن اليهود يعانون من نحو ما نعاني منه من النفور من العمل اليدوي، وفي هذا يقول (جوردن) المعروف بأنه صاحب فلسفة (دين العمل): لقد اعتدنا نحن اليهود كل أشكال الحياة ما عدا حياة العمل الذي هو عنصر الحياة القومية. لقد نشأ عندنا نحن اليهود ميل لاحتقار العمل اليدوي، وإن القول المشهور في التلمود: إنه عندما ينفذ اليهود إرادة الله، سيقوم الآخرون بتنفيذ أعمالهم لهم - لهو خير معبِّر عن طبيعتنا، حيث أصبح ذلك شعوراً غريزياً فينا[١]. إلى جانب هذا عانى اليهود من الشتات، وفقد شعور الارتباط بالأرض، فكانوا يمارسون في الغالب التجارة؛ وانطلاقاً من هذا وذاك كانت أول مدرسة ثانوية يهودية في فلسطين المحتلة، ثانوية زراعية. وفي مدارسهم الابتدائية العديد من الحصص التي يتعلم فيها الطلاب الأعمال المهنية المختلفة[٢]. وقد نجح اليهود في تغيير موقف أبنائهم من التعليم المهني والتقني إلى حدود جواز تصنيف دولتهم في فلسطين السليبة ضمن الدول الصناعية المتقدمة، واقتصادها اليوم، يضارع اقتصاد دولة أوروبية صغيرة مثل هولندا أو بلجيكا!.

---

(١) التربية اليهودية في فلسطين المحتلة: ٤٩.

(٢) السابق: ٧٩.

الكتاب المدرسي، يجب أن يتلاءم مع هذا التوجه، فالأمثلة والشواهد والقصص والصور، يمكن أن تساعد على غرس حب العمل اليدوي، حين تركز على أشكال النجاح في ميادينه، وحين تكشف عن أهميته في حياتنا المعاصرة.

٣ ـ الشفافية نحو سوق العمل:

لعل مما صد كثيراً من الشباب عن الاتجاه إلى التعليم المهني ما يرونه من بطالة أصحاب المهن وسوء أحوالهم، وهذا ناتج على نحو أساسي من قصور خطط التنمية، وقلة المعلومات حول سوق العمل؛ حيث إنه لا يتوفر في أكثر الأحيان معلومات كافية عن حركة سوق العمل وعن حاجاته وآفاقه المستقبلية، مما يجعل كثيراً من خريجي التعليم المهني، يُصدمون عند التخرج بوجود أعداد مكدسة من زملائهم، تعاني من البطالة. ومن وجه آخر فإن من واجب المعاهد المهنية أن تتحسس متطلبات السوق من المهن، وتحاول تقديم برامج قصيرة مستحدثة لإعداد طلابها للاستجابة للتطورات الاقتصادية السريعة، وما تمليه من تكثيف الطلب على بعض المهن دون بعضها الآخر. لا بد من وجه آخر أن تكون مناهج التعليم المهني مصممة بطريقة تساعد على تكوين (المرونة المهنية) لدى الطلاب بحيث تمكنهم من خلال فلسفتها ونوعيتها من الانتقال من مهنة إلى أخرى حسب الحاجات المتجددة للتنمية والحياة الحضرية؛ فالتطورات الهائلة للمنتجات التقنية، تفرض حراكاً اجتماعياً ومهنياً مكافئاً، وتدريباً متنقلاً ومتطوراً، وإلا فمن السهل أن تقذف أمواج التطور العلمي والصناعي المذهل بأعداد هائلة من المهنيين والتقنيين خارج سوق العمل، ليجدوا أن تخصصاتهم لم يعد لها أي معنى.

٤ ـ تبسيط المعارف المهنية وإشاعتها:

كل النظم والهيئات والمؤسسات التي تعزل نفسها عن التيار

الاجتماعي، تحجم نشاطها، وتقلل من فاعليتها. وإذا ما أردنا للتعليم المهني والتقني أن ينتعش، ويتطور، فلا بد من السعي إلى جعله حاضراً وقريباً من تناول الجماهير له؛ حتى يتأسس لديها الوعي بأهمية هذا اللون من التعليم؛ مما يدفعهم إلى توجيه الشباب له. وأعتقد أن هذا يتطلب أموراً عديدة منها الأمران التاليان:

أ ـ إن الروابط المهنية المختلفة، تتحمل مسؤولية خاصة، فلا بد لها كي تتلقى الدعم الحكومي والشعبي للمهن والصناعات التي تنتمي إليها من أن تعرِّف بنفسها، وتطالب بحقوقها. وكم سيكون مفيداً أن يصدر أصحاب كل مهنة مجلة شهرية أو نشرة دورية، أو سلسلة مستمرة من الكتيبات الصغيرة التي تنشر الوعي بمهنتهم من خلال استعراض تاريخ المهنة واتجاهات نموها وجمالياتها، إلى جانب تقديم بعض التدريبات والمعلومات التي تمكِّن المواطن العادي من ممارسة بعض المهارات البسيطة التي تتصل بها، وعرض بعض الأدوات التي صنعت أو طورت محلياً، مما يستخدم في حرفتهم؛ وكذلك إقامة المعارض الثابتة والمتنقلة التي تشرح للجمهور بطريقة حية كل ذلك.

ب ـ على الأجهزة الإعلامية المختلفة مسؤولية كبرى في دعم التعليم المهني، حيث إن بإمكانها أن تساهم مساهمة فعالة في شرح كل ما ذكرناه آنفاً، وأن تضيف إلى ذلك إجراء المقابلات مع المهنيين، وتخصيص بعض الحلقات في التلفاز والإذاعة لذلك، كما أن بإمكان بعض الصحف اليومية أن تخصص بعض الزوايا والملحقات لذلك. إن القصد من كل هذا ليس نفع المهنيين فحسب وإنما إلى جانب ذلك نفع مجتمع، هو بحاجة إلى أن يتعلم كيف يقوم بشؤون نفسه، ويهيِّئ فرص العمل المناسبة لأبنائه.

٥ ـ **إن التعليم المهني** ـ كما أسلفنا ـ عالي التكلفة، وأكثر الحكومات في العالم الإسلامي مشغولة بافتتاح المدارس الجديدة لتعليم الأجيال المتدفقة، وتجفيف منابع الأمية. وحين تخير أية حكومة بين الإنفاق على

فتح مدرسة مهنية، وفتح مدرسة ابتدائية، فإنها ستجد أن تلبية الخيار الثاني أكثر إلحاحاً. والتعليم المهني ـ بالطبع ـ غير قادر على تطوير نفسه ما لم يتلق المساندة الاجتماعية، وقبل ذلك الدعم الحكومي من خلال زيادة ميزانياته، ومن خلال التحول من نظام التجارة والاستيراد من الخارج إلى نظام الصناعة المحلية مهما كانت بدائية ومتواضعة. وستستطيع الحكومات عمل ذلك في إطار خطة تنموية شاملة وطموحة.

ومن وجه آخر فإن أهل الخير ينفقون الكثير من الأموال على إطعام الفقراء، ومعالجة المرضى، وقضاء الحاجات العاجلة، وهذا كله ضروري، ويجب أن يستمر، لكن التجربة علمتنا أن إنفاق الأموال على هذا النحو قد شجع الكثير من الفقراء على الكسل والاتكال على غيرهم، كما أن المتوفر من المال لا يمكنه حل مشكلات الفقراء على نحو جذري، ولذا فلا بد من تخصيص نسبة لا تقل عن ٢٥٪ من أموال البر لإنشاء مراكز للتدريب وورش لتعليم حرف لكل أولئك الذين وجدوا أنفسهم خارج سوق العمل، وكل أولئك الذين لم تسمح لهم ظروفهم السيئة بتعلم أية مهنة. وسيكون ذلك عظيم الفائدة للفقراء، حيث يؤدي إلى تغيير جذري في حياة الشاب، ويحوله من إنسان ينتظر الصدقات إلى إنسان عامل منتج. وكما تقول الحكمة الصينية: «إذا قدمت لي سمكة فقد هيأت لي قوت يوم، وإذا علمتني كيف أصيد، فقد ساعدتني على كسب قوت كل يوم»!.

❀ ❀ ❀

إضاءة:

إن الإنسان الذي يحمل نفسية (العبد) لا يستطيع أن يندمج اندماجاً إيجابياً في الجماعة التي يعيش فيها.

توطين التقنية

إذا أراد كل مسلم أن يعرف واقع التقنية في بلده وأمته، فلينظر حوله إلى وسائل النقل والاتصالات، وإلى الأسلحة والمصانع والدفاتر والأقلام التي يكتب بها، وإلى النظارات التي يرى من خلالها... وإذا فعل ذلك سيجد أنها ـ في غالب الأمر ـ من صنع أيد أجنبية، وفي مصانع وبلاد أجنبية، هذا وحده أبلغ من كل وصف وأدل من كل رقم! إذا أردنا بعض التفاصيل لواقع التقنية، فيمكن أن نستدل عليه من خلال بعض الأرقام والمؤشرات المحدودة، وعلى سبيل المثال، فإن العلماء والتقنيين لا يشكلون إلى مجمل السكان سوى نسبة ضئيلة، لا تكاد تذكر، فهم في بنغلادش (٢٠) في كل مليون، وفي مصر (١٩٠) على حين أنهم يشكلون في أمريكا الشمالية وأوروبا (٤٣٠٠) في المليون، وفي المعسكر الشرقي (٨٢٠٠) في المليون. ومعنى هذا أن نسبة العلماء والتقنيين في شعب مثل الشعب الأمريكي، تصل إلى مائة ضعف مما هي عليه في دولة إسلامية كبيرة مثل مصر؛ وهي من أغنى الدول الإسلامية وأكثرها وفرة في أعداد العلماء والتقنيين[١].

إن الفقر الأساسي في الصناعات الإسلامية، يتركز في مجالين خطيرين، هما:

مجال الصناعات الثقيلة، ومجال الصناعات الإلكترونية والمتقدمة، وما ذلك إلا لأن هذين النوعين من الصناعات، يتطلبان رؤوس أموال ضخمة،

---

(١) قضية التخلف العلمي والتقني: ١٢٢.

إلى جانب بحوث ودراسات علمية متقدمة، وهذا وذاك شحيحان في معظم دول العالم الإسلامي.

إذا ما أردنا أن نعرف ماذا يمكن أن تفعله (التقنية) في دولة من الدول، فلننظر إلى حال دولة من الدول المتقدمة، ولتكن (ألمانيا) التي ليس لها من السكان سوى ٦١ مليون نسمة[١]، أي مثل (مصر) ولكن ليس لها سوى ربع مساحة مصر، أي ٢٥٠ ألف كم.[٢] هذه الدولة المتوسطة الحجم بلغ ناتجها القومي عام ١٩٨٧ نحواً من ١٣٢٧ مليار دولار، وبلغت قيمة صادراتها نحواً من ٣٢٤ مليار دولار، أغلبها منتجات صناعية، على حين أن الناتج القومي لمصر في ذلك العام كان نحواً من ٢٥ مليار دولار[٢] أي (١) إلى (٥٠) من إنتاج ألمانيا!!

هل من مخرج؟

إن التطورات الهائلة التي تشهدها التقنية على مستوى العالم سلاح ذو حدين، فإذا ما أغمضنا العين عنها، فإن النتيجة ستكون مأساوية بكل ما تعنيه الكلمة، وإذا تفتحنا عليها، وعرفنا كيف نستفيد منها، فإننا سنختصر الكثير الكثير من الزمن والجهد المطلوب لردم الهوة بيننا وبين العالم الصناعي. ولعلنا نقدم في هذا الشأن ما نظنه يساعد على ذلك في الحروف الصغيرة الآتية:

١ ـ إعادة تنظيم البحث العلمي، والتركيز على البحوث التطبيقية التي تستهدف حل مشكلة إنتاجية، أو تطوير منتج، أو إيجاد شكل أو نوع صناعي جديد. وهذا يعني تقليص الدعم بل الرفض لكل البحوث التي لا ندري ماذا نصنع بها، وتلك البحوث التي تعالج قضايا هامشية، أو بعيدة عن طلب احتياجاتنا في المرحلة الحالية.

---

(١) كان هذا قبل توحيد شطري ألمانيا.

(٢) انظر: كتاب المعلومات عام ١٩٩١ ص٣٧٩ ومجلة المعرفة العدد (١٧): شعبان عام ١٤١٧ ص: ٩٤.

يذكرنا هذا بقصة اليابان مع الطفرة التقنية التي أحدثها طالب واحد قرر أن يتجاوز إغراءات الشهادة، والبحوث التي لا معنى لها إلى إيجاد شيء يعد بداية لتحول صناعي هائل. هذا الطالب هو (تاكيو أوساهيرا) الذي أوفدته حكومته لنيل درجة الدكتوراة في أصول (الميكانيكا) من جامعة (هامبورج) في ألمانيا. لقد ترك ذلك، وتعلم كيف يفك محركاً، ويعيد تركيبه، ثم تعلم كيف يصنع كل آلة فيه بإمكانات شبه ذاتية. وبعد ثماني سنوات عاد إلى اليابان وقد اشترى أدوات مصنع محركات كامل بخمسة آلاف جنيه إنجليزية، أرسلها له (الميكادو) من ماله الخاص. وحين وصل إلى (نجازاكي) قيل له: إن (الميكادو) يرغب في رؤيتك. فقال: لن أستحق مقابلته إلا بعد أن أنشئ مصنعاً كاملاً للمحركات. استغرق تشييد المصنع تسع سنوات. وفي يوم من الأيام حمل مساعد له عشرة محركات صنعت في اليابان قطعة قطعة إلى قصر (الميكادو) وهناك تم تشغيلها، ووجد الميكادو في هديرها أعذب صوت سمعه في حياته[1].

لو أن (أوساهيرا) فعل كما يفعل كل أولئك الذين توفدهم البلاد الإسلامية لدراسة الهندسة في الغرب، فربما تأخرت صناعة المحرك الياباني عقوداً من الزمان.

هذا يؤكد ما كنا ذكرناه من قبل من ضرورة وجود هيئة تشرف على البحث العلمي في كل قطر إسلامي، وتنسق بين جهاته، وتدعم البحوث ذات الأولوية، وتصرف الباحثين عن تلك البحوث والدراسات التي ليس هناك أرضيات تقنية وصناعية للاستفادة منها.

٢ ـ إن الأجهزة التي تُصنَّع حديثاً تميل إلى التعقيد الشديد يوماً بعد يوم بدوافع تجارية وتقنية، وتدفقها بهذه الصورة شبه المطلقة، سيجعل من المستحيل استيعابها وفهم آلية عملها والتدرب على إصلاحها وصيانتها فضلاً

(١) انظر: تفاصيل أوسع في (دراسة في البناء الحضاري): ٨٨ وما بعدها.

عن تقليدها. ولذا فإن عدداً من المفكرين والباحثين يرون أنه لا بد من فرض قيود على استيراد التقنيات المتقدمة؛ حتى يتولد الحافز لصيانة الموجود الآن منها والإبداع في إيجاد قطع الغيار لها. ويؤكد ما نقوله أن ورش الصيانة في بعض الدول الإسلامية الفقيرة، قد استطاعت أن تخطو خطوات جيدة في التعامل مع الأجهزة المختلفة، وإن بعض أبناء الدول الصناعية الذين اعتادوا على إصلاح سياراتهم الخاصة في ورشة حديثة، يقومون بنزع الجزء المعطوب وإحلال آخر جديد محله، وإن الدهشة تعتريهم حين يزورون تلك الدول الفقيرة، مثل بنغلادش وأندونوسيا، ويكتشفون كيف تتم عمليات الإصلاح، فجميع المركبات تظل صالحة للعمل في الدول النامية بوساطة رجال أميين، يساعدهم بعض الفتيان؛ ونظراً لعدم توفر قطع الغيار، فإن المهارات الميكانيكية المكتسبة لهؤلاء أعظم من مهارات خريجي المدارس الصناعية في الدول الغنية، وإن العمر الافتراضي للعربات في الدول النامية أكبر غالباً بثلاث أو أربع مرات من عمرها الافتراضي في الدول الصناعية[1].

هناك من رجالات الصناعة من يدعو إلى استيراد أجهزة ومصانع مستعملة؛ فهي أقل تقدماً فيكون استيعابها أسهل، وسعرها أقل، وهي أقل (أتمة) فاستيعابها للأيدي العاملة أكثر، وهي تتيح فرصة كبيرة للتدرب على الصيانة وصناعة قطع الغيار. وهذا يستحق التأمل والمناقشة. لا بد لنا أن نكف عن سياسات تكديس السلع، وأن نكبح من جماح أنفسنا إلى المرفهات والكماليات إذا ما أردنا أن نصنع شيئاً للأجيال القادمة.

٣ ـ إن التوجه إلى التصنيع والتطوير، يتطلب أموالاً طائلة في البداية، ويتطلب حماية جمركية وضريبية من قبل الدولة، حيث لا تقوى المنتجات الصناعية المحلية في البداية على منافسة السلع الأجنبية، لا في مستوى

---

(١) أزمة العالم في التعليم من منظور الثمانينيات: ٨٤.

الجودة، ولا في رخص الأسعار. وهنا تبرز مسؤولية الدولة في فرض ضرائب ملائمة على كثير من المستوردات حتى توجد الحافز لدى شعبها في التصنيع، وينبغي أن تتصاعد الضرائب كلما كان البديل المحلي ممكن التوفير، أو كانت السلعة أكثر إغراقاً في الكمالية. ويقابل هذا إعفاء المواد الأولية التي تستخدم في الصناعة من أية رسوم.

وهذا كله يشجع الناس على الانتقال والتحول من التجارة إلى الصناعة، ومن الاعتماد على الآخرين إلى الاعتماد على الإمكانات الذاتية. إن الدول الكبرى تخوض حروباً معلنة وخفية من أجل فتح أسواق لمنتجاتها، ومن أجل الحصول على المواد الخام بأسعار رخيصة؛ والدول النامية أولى بالسعي إلى حماية منتجاتها، وتيسير سبل النمو لها.

٤ ـ تقدم اليابان وكوريا وباقي النمور الآسيوية دروساً ذات مغزى في سرعة الاستفادة من خبرات الآخرين ونقلها وتوطينها. وقصة الياباني (أوساهيرا) الذي أدخل صناعة المحركات إلى اليابان، ليست تعبيراً عن حادث شاذ، وإنما هي واحدة من مفردات سيرة ذاتية لشعب بأكمله؛ فالشعب الياباني يجيد (التقليد) على نحو باهر، ويعده مدخلاً للإبداع الذاتي. ومما يحكيه التاريخ أن تجار السلاح الأوروبيين كانوا يمرون بسفنهم على بلاد الشرق الأقصى في القرن التاسع عشر، وفي عام مروا على بلاد (الملايو)[١] التي يقطنها المسلمون، وباعوهم أسلحة كثيرة، ثم مروا على اليابان، وباعوا أهلها بعض الأسلحة. وفي العام الثاني مروا على الملايو، فطلبوا مزيداً من الأسلحة، أما اليابانيون فلم يشتروا منهم شيئاً... لقد قلدوها، وصنعوها، ولم يعودوا في حاجة إلى شرائها[٢]!!.

إن التقليد الصناعي، أو ما يسمى بـ (الهندسة العكسية) يعد من أكثر

---

(١) الشعب الذي يسكن أندونوسيا وماليزيا وسنغافورة و(فطاني) في جنوب تايلاند.

(٢) مقدمات في البعث الحضاري: ١١٥.

الوسائل فاعلية في تطوير القدرة التقنية للبلدان المستوردة للتقنية المتطورة، حيث يتم التعرف على وحدة إنتاج معينة عن طريق تفكيكها إلى أجزائها الأولية، واكتشاف المواصفات التفصيلية لهذه الأجزاء وطبيعة الترابط بينها، كما يتم التعرف على المواد المستخدمة في إنتاجها عن طريق تحليل مكوناتها[١].

إن هذا كله لا يتم إلا من خلال فهم كامل للوظائف التي تقوم بها الأجزاء المختلفة لمنتج ما، ونظريات هذه الوظائف ونوعيات المواد المختلفة لهذه الأجزاء وخصائصها الطبيعية والميكانيكية. وهذا يشكل أكثر ما تجب معرفته. لكن ستظل هناك خبايا تقنية، تعد من دقائق التقنية الحديثة، وليس الحصول عليها سهلاً، حتى لو حصلنا على رخص إنتاج لها، ولا بد لفهم ذلك من محاولات معملية، حتى يمكن الوصول إلى المواصفات المرجوة.

وقد رأى بعض زوار اليابان عندما دخلوا مصنعاً للسيارات هناك باب سيارة أمريكية تحت الاختبار؛ حتى يقيسوا عمر الباب وعمر أجزائه المختلفة[٢].

إن التقليد القائم على ما ذكرناه من فهم الوظائف وخصائص المواد.. ليس في الحقيقة تقليداً، وإنما هو إبداع في إطار سابق، وهو من السبل المهمة لإبداع مستقل وكامل إذا ما تم تكثيف البحوث والتجارب على ما يتم إنتاجه. وهو غير (التجميع) الذي يقوم به الكثير من المصانع في بلاد المسلمين. حتى يتم هذا لا بد من أن تلزم الحكومات المصانع الكبرى بإقامة مراكز للأبحاث والتطوير خاصة بها؛ ويمكن تحديد نسبة تدريجية من أجزاء المنتج عن طريق (التجميع) يجب أن تصنع محلياً؛ ويمكن ربط تراخيص الإنشاء بالالتزام بذلك.

---

(١) على مشارف القرن الحادي والعشرين: ٣٢٣.

(٢) مقدمات في البعث الحضاري: ١١٧.

ما لم يتم تنسيق الجهود البحثية مع الجهود التصنيعية وفتح قنوات اتصال وتعاون بينها، فإن الصناعة ستبقى جسداً بلا روح، وسيبقى البحث العلمي روحاً بلا جسد!

قد بزغت اليوم شمس عهد جديد، تحتل فيه وسائل الاتصال والمعلومات المتسايلة والمواد الجديدة والتقنيات البالغة الدقة. . . موضع الصدارة، وبات علينا أن نعرف بعمق موقفنا من هذه الأمور قبل أن يصبح الحديث عن ردم الهوة بيننا وبين الآخرين من دواعي السخرية والاستهزاء!.



إضاءة:

إن التبعية بنت الضعف، ولن يولد الاستقلال إلا من رحم القوة.

التدريب

إن الله ـ جل وعلا ـ وهب بني البشر طاقات هائلة، وهذه الطاقات كفيلة إذا ما استخدمت استخداماً راشداً ببلوغ أشياء تفوق الخيال؛ لكن أكثر هذه الطاقات كامن يحتاج إلى اكتشاف واستخراج وتنمية ورعاية. والقيام بما كلفنا الله ـ تعالى ـ به من شؤون الدنيا والآخرة، يتطلب بلورة (ذاتيةً) جديدةً، والتي هي مجموعة سمات وطاقات ومهارات. إن ما يحتمل أن يبلغه كل واحد منا، بل إن ما هو حاصل الآن يظل محدود القيمة ما لم نكتشف آفاق ارتباطه بالإمكانات المحتملة، أي إدراك النهايات القصوى لارتقائه وتطوره.

إن مفهوم (الذاتية) من المفاهيم التي أصابها التشويه، حيث يعتقد كثيرون منا أنها بنية جامدة ثابتة ونهائية، وهذا دعا كثيرين إلى الكسل والسلبية والرضا بما هم عليه، على أنه ضربة لازب لا حيلة لهم تجاهه؛ على حين أن الذاتية شيء قابل للضمور، وقابل للنمو، قابل للسمو إلى أعلى عليين، والانحدار إلى أسفل سافلين.

إن الذات الفاضلة معنى يتجسد في الاختيار الأخلاقي الراشد، وتحمل المسؤولية والمبادرة إلى فعل الخيرات، وسعة الحيلة وحسن تصريف الأمور، وأداء الأعمال بجودة عالية وإتقان فذ. إنها تتجسد في المنجزات العظيمة التي نحققها والمآرب الرفيعة التي نبلغها، فهي في حالة من الصيرورة والتشكل الدائم في ضوء ما نختار وما نعمل، وما نملك من خبرات ومهارات. وحين نفهم (الذاتية) على هذا النحو، فإن كل السبل تنفتح أمامنا لنكون غداً شيئاً مختلفاً عما نحن عليه اليوم!

إن (التدريب) يشكل مدخلاً رئيساً إلى تحسين إمكاناتنا الحالية، وتحسين أدائنا، وهو الوسيلة الفعالة في بلوغ الأهداف التي نرسمها. إن من المجمع عليه الآن أن ما يتعلمه المرء وما يكتسبه من مهارات، أهم بكثير مما ورثه عن آبائه من ذكاء وألمعية؛ فالتقدم العلمي الهائل وما أفرزه من وضعيات واعتبارات مختلفة، جعل كل ما هو فطري ضئيلاً وقليل الجدوى في التعامل مع الأشياء والنظم المعقدة.

إن التدريب عبارة عن نشاط منظم، يركز على الفرد لتحقيق تغير في معارفه ومهاراته وقدراته لمقابلة احتياجات محددة في الوضع الحاضر أو المستقبلي، في ضوء متطلبات العمل الذي يقوم به المرء وفي ضوء تطلعاته المستقبلية للوظيفة التي يقوم بها في المجتمع[1].

إن الإنسان بحاجة دائمة إلى البحث عما يساعده على التلاؤم مع المهمات الجديدة، ومن أجل الاستمرار في التحسين.

إن الحاجة إلى التدريب تنبع من اعتبارات عديدة، نذكر منها:

١ ـ إن المعلومات التي كانت بحوزة المدرس أو الموظف أو العامل قبل الانخراط في العمل، تتآكل مع مرور الأيام، فيضيق نطاق المعرفة لديه، ويحتفظ بالحد الأدنى الذي يساعده على أداء مهنته على نحو قاصر أو شبه مقبول. طول الخدمة يؤدي إلى التكرار والرتابة، مما يقتل روح الإبداع والتجديد والاستمتاع بالعمل. بإمكان التدريب أن يشعر المتدرب باكتساب معلومات ومهارات وطرق جديدة، لا عهد له بها، كما أن بإمكانه أن ينعش معلومات ومعارف ذبلت، أو أضحت بعيدة عن منطقة الخبرة. كل العلوم تبدأ على شكل ملاحظات فلسفية، ومع الأيام (تتقولب) لتصبح فنوناً، ولتفقد بالتالي رفرفتها، وتألقها وحريتها. ومن مهمات التدريب أن يخفف من أضرار ذلك، وأن يوسع الآفاق من جديد أمام خبراتنا ومهاراتنا، كي نتمكن من تجديدها ومنحها أبعاداً جديدة.

---

(١) دور التدريب في تطوير العمل الإداري: ١٠.

٢ ـ الذين لا يشعرون بالحاجة إلى التدريب، هم أولئك الذين يعيشون على هامش الحياة، وكلما اقتربت الأمة من بؤرة الحياة المعاصرة، شعرت أن حاجتها إلى التدريب والتطور أشد؛ ولذا فمن غير المستغرب أن تكون (أمريكا) على رأس قائمة الدول المهتمة بالتدريب، حيث تنفق عليه بسخاء بالغ. وتذكر بعض الإحصاءات أن أمريكا حكومة وشعباً، تنفق على التدريب سنوياً ١٢٠ مليار دولار[١]. هذه الأموال الهائلة، لا يتم إنفاقها؛ لأن أصحابها ليسوا بحاجة إليها، ولكن لأنه لا سبيل إلى النجاح في المنافسة والاستمرار في التقدم إلا بتحسين أداء الإنسان، وتغيير قيمه واتجاهاته وترشيد علاقاته.

إن التدريب نشأ في البداية من أجل الذين أخفقوا في حياتهم المهنية، وصاروا عالة على مجتمعهم. وكان يُعتقد على نطاق واسع أن التدريب لخدمة المتدرب، ومن ثم فإن تكاليفه كانت تضاف إلى أكلاف الإنتاج، لكن تبين فيما بعد أن التدريب نوع من الاستثمار في الإنسان، لا يهدف إلى نفعه بمقدار ما يهدف إلى تحسين الإنتاجية.

٣ ـ التطور السريع الذي يعيش فيه العالم اليوم، يوجِد في كل ساعة آلات جديدة ومواد جديدة، ويكتشف ويبني قوانين ونظماً جديدة، واستيعاب كل ذلك يحتاج إلى أن يسعى الناس إلى التدريب مهما كانت المشاق أو الأكلاف التي سيدفعونها. أضف إلى هذا أن المنافسة العالمية في الأسواق، جعلت كثيراً من الأعمال يفقد مكانته، مما أوجد أعداداً كبيرة من العاطلين عن العمل. وقد انتهى الزمان الذي يتوارث فيه الأحفاد مهن الأجداد، وصار لزاماً على كل واحد منا أن يطور من المهارات ما يمكِّنه من البقاء في عمله، أو يمكنه من الانتقال إلى عمل جديد، تتطلبه حركة التنمية في بلده. ومن التقاليد المحمودة في اليابان أن الشركات هناك لا تسرِّح عمالها إذا

---

(١) تحويل التدريب: ٢٣.

كسدت المنتجات التي يقومون بصناعتها، وإنما تعيد تأهيلهم وتدريبهم من جديد؛ لتشغلهم في خطوط إنتاج جديدة.

بكلمة مركزة نقول: ما دام كل شيء من حولنا يتغير، فإنه لا بد لنا أن نستجيب على نحو صحيح لذلك التغير، وسبيلنا إلى ذلك هي أن نكتشف إمكاناتنا، ونطور مهاراتنا، وإذا لم نفعل ذلك، لم نستطع أن نحافظ على مواقعنا النسبية، وكان علينا أن نستعد للتراجع، وأن نتحمل نتائجه عن طيب خاطر!.



إضاءة:

إن دولة الإسلام أول دولة في التاريخ، تخوض حرباً شاملة من أجل الفقراء.

تعميم التدريب:

إن قضية التدريب، ينبغي أن تصبح من القضايا المهمة في حياة مجتمعاتنا؛ حيث يرفع كثير من الناس شعار: «الإنسان هو الثروة الكبرى» وهذا حق لكن بإمكان الإنسان أيضاً أن يصبح كَلاًّ على الآخرين، وعبئاً على مجتمعه، نظراً لفقده الحماسة أو الأهلية لإنجاز شيء جيد.

مهما كانت إمكانات الدولة فإنها لا تستطيع أن تقوم بهذه المهمة الضخمة، والناس وحدهم لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك أيضاً؛ ولذا فلا بد من تضافر الجهود في جميع المجالات وعلى كل المستويات لتلبية احتياجات الحياة الحديثة من التدريب والتطوير والتعليم.

إن التدريب هو في الأساس نشاط عملي تمريني، لكن حتى يصبح حقيقة واقعة لا بد من استناده إلى خلفية ثقافية شعبية تحفز عليه. ولذا فإن انتشاره يحتاج إلى تكامل أمرين:

الثقافة والأنظمة: تتشكل ثقافة الاهتمام بالتدريب عن طريق القيم والأعراف والأفكار المتداولة في المجتمع؛ إذ إن من الملاحظ في المجتمعات الصناعية اهتمام الناس بالنجاح والإنجاز والمنافسة والتحصيل وإثبات الذات والاستمرار في التفوق... وهذا كله يجعل للتدريب والتعليم قيمة عظيمة في نفوس الناس، ويشكل لديهم على المدى البعيد سلوكاً جديداً نحوهما، كما أن الشركات والمؤسسات القائمة في تلك المجتمعات، تعمل أيضاً بمنطق التنافس والتسابق على النجاح، ومن ثم فإنها تشجع أفرادها ومنسوبيها على اكتساب الجديد من المعلومات والمهارات والاتجاهات، وتتابعهم في ذلك، وتقيس مقدار ما حصلوه فعلاً منها، وتقوّم

العائد الذي يعود عليهم وعليها نتيجة لذلك[1].

أما في المجتمعات النامية فإن الناس لم يتعودوا الاستجابة للتغيرات الكثيرة، ومن ثم فإن شعورهم بالحاجة إلى التدريب، سيظل ضعيفاً، كما أن الأطر التدريبية قليلة الانتشار والتنوع، مما يقتل طموحات بعض الأفراد إلى تحسين ذواتهم وتطوير مهاراتهم. وتكمل القوانين والنظم الدور الذي تقوم به الثقافة، بل إنه يمكن القول: إن النظم تصنع الثقافة[2]؛ فالناس بطبعهم ميالون إلى الدعة والراحة، ويظلون جاهلين بفوائد الجهود التي قد يبذلونها في صقل ذواتهم، ما لم يُحملوا على العمل حملاً. حين يوجد القانون الملزم بدرجة أو بنوع معين من التأهيل، فإنهم سوف يندفعون إلى التدريب؛ فإذا اشترطت مؤسسة أو شركة ما للتوظيف معرفة المتقدم باستخدام الحاسوب، فإن كل من يرغب في العمل، سيحاول تحقيق هذا الشرط. وحين تنيط جهة ما بقاء العامل فيها أو ترقيته بتعلم تشغيل الأجهزة الجديدة، فإن كل الراغبين في الاستمرار فيها، سوف يبذلون الجهد، ويتلقون التدريب الذي يمكنهم من ذلك.

إن هناك اليوم معايير عالمية للجودة والأداء والإنجاز، وتلك المعايير تفرض نفسها شيئاً فشيئاً، وهي تتطلب منا استجابة ملائمة من أجل جعل كيفيات (الإنجاز) وشروطه لدينا مقاربة لما هو سائد في العالم المتقدم. وهذا مما يمكن أن نستفيده اليوم من (العولمة) وإلا فمن الممكن أن تنالنا كل شرورها دون أن ننال شيئاً من منافعها.

لا ينبغي أن نظن أن الهدف من التدريب محصور في إتقان مهنة أو إدارة آلة، أو كسب عميل أو زبون، مما هو مشهور في مجالات الصناعة

---

(١) دور التدريب في تطوير العمل الإداري: ١٢٢.

(٢) سن قانون قديم في بريطانيا بترتيب غرامة مالية على كل من يتجاوز موقعه في السرى (الطابور) ومنذ سنة تم إلغاء ذلك القانون بعد أن صار الالتزام بذلك جزءاً من ثقافة الناس، ولم تعد ثمة حاجة إلى ذلك القانون.

والتجارة والأعمال؛ فالأمر أوسع من ذلك بكثير، فالنهوض ينبغي أن يشمل كل جوانب الحياة، وهو بحاجة دائمة إلى المعرفة والتدريب.

نحن بحاجة إلى من يعلمنا **فن الحوار، وفن الصمت**، ومن يعلمنا **الكف عن الإدمان على بعض الأشياء** وبعض التصرفات.

كما أننا بحاجة إلى من يدربنا على **إدارة الوقت**، وإدارة أعمالنا عن طريق الهاتف، وعن طريق الأهداف وطريق التفويض، ومن يدربنا على رسم الأهداف، وعلى التخلي عن النزعات العدوانية، ومن يدربنا على حل مشكلاتنا عن طريق التفاوض ومقايضة المصالح، ومن يدربنا على القراءة المثمرة والتفكير المبدع... وحين نحرز تقدماً في هذه الأصعدة، فإننا سنجد أن معالم حياتنا كلها قد تغيرت، وصارت فرص النجاح والارتقاء أفضل بكثير مما هي عليه الآن.

إن للإعلام وظيفة مميزة في مجال التعليم والتدريب، حيث إن بإمكانه أن يصل إلى مئات الملايين من البشر، وله من الجاذبية وقوة التأثير ما يمكنه من تغيير حياة الكثيرين من الناس. قد استطاعت الوسائل الإعلامية عن طريق برامج (فن الطبخ) تغيير الكثير من أساليب إعداد الطعام، وإدخال الكثير من أنواعه إلى مطابخ الناس، بل تشكيل ذائقة جديدة لديهم. وهذا يعني أن الإعلام يستطيع أن يغير حياة الناس في جميع المجالات. من اللافت للانتباه أنه كان في أمريكا عام ١٩٥٨ (٣٢) محطة تلفازية تعنى بالتعليم والتدريب[١]! ومعظم دولنا الإسلامية خالية من أية محطة تعليمية أو تدريبية إلى اليوم!.

❊ ❊ ❊

إضاءة:

ليست المدنية سوى البحث الدائم عن حلول سلمية ومشروعة للمشكلات العمرانية والاجتماعية المختلفة.

---

(١) التدريب: الأصول والمبادئ العلمية: ٤١.

فاعلية التدريب:

لا يقتصر التدريب على إكساب المتدرب بعض المهارات فحسب، وإنما يتجاوز ذلك في أحيان كثيرة إلى إحداث تغييرات واسعة في عادات المتدرب النفسية والعقلية، وهذا يجعل قبول المرء للتدريب ومقتضياته مشوباً بالتعقيد والصعوبة. ومن المألوف جداً أن يشعر المرء بالاغتباط لما يسمعه ويراه، ويمارسه، ولكن بعد مدة تخمد انفعالاته، وتخف حماسته لذلك. وهناك ما يشير إلى أن ١٠٪ فقط من الأموال التي تنفق على التدريب، تؤتي ثمارها في مجال التدريب. وفي بحث منهجي حول تحويل التدريب ورصد آثاره في تغيير السلوك، تبين أن رؤساء العمال الذين تدربوا على مبادئ وأساليب القيادة، قد تأثروا ببرامج التدريب، وغيروا في سلوكاتهم بما يتناسب مع التدريب الذي تلقوه، ولكن بعد الانتظام في العمل بعض الوقت ارتدَّ معظمهم إلى السلوك الأصلي الذي كانوا عليه قبل الالتحاق ببرنامج التدريب[١].

هناك أمور عديدة، تساعد على جعل التدريب فعالاً، كما تساعد على بقاء آثاره مدةً أطولَ، منها:

١ ـ ينبغي أن يتعلم المتدرب المحتوى الخاص ببرنامج التدريب، أي أن يستوعب المعلومات النظرية التي تقوم عليها الممارسة العملية للبرنامج التدريبي؛ فذلك الاستيعاب هو الذي يوسع فهم المتدرب لغايات البرنامج

(١) تحويل التدريب: ٢٥.

والأسس العلمية التي يقوم عليها، ولذا فينبغي أن يوزَّع على المتدربين كتيب أو شريط يوضح مضمون البرنامج التدريبي.

٢ ـ أن يكون محتوى البرنامج قابلاً للتطبيق، ومهماً للمتدرب نظراً لعلاقته بطبيعة عمله.

٣ ـ أن يكون هناك ما يحفز على تغيير السلوك استجابة للتدريب، حيث إن من غير المعتاد أن يستمر تغيير العادات وتنظيم العمل وبذل مزيد من الجهد من غير ثواب أو عقاب.

٤ ـ إيجاد تغييرات في بيئة العمل، تدعم نتائج التدريب، وتساعد على استمرارها؛ فالعامل الذي يطلب منه من خلال برنامج تدريبي المزيد من الإخلاص والتنظيم، لا يستجيب لذلك في ظل إدارة تهضمه حقه، أو لا توفر له الأدوات التي تساعده على ذلك.

٥ ـ إن أفضل مساعد على استمرار آثار التدريب، هو التقويم المستمر للأداء ومراقبة مستوياته، ودعمه ببعض البرامج التدريبية القصيرة؛ فالمتدرب مثل الرياضي، فهو حتى يحافظ على لياقته بحاجة إلى الاستمرار في التدريب، وإلا ترهل جسمه وفقد مكاسبه[١].

إن علينا أن ندرك بعمق أنه لا خيار لنا في الإصرار على الاستمرار في الارتقاء والتقدم، ولكن لذلك ثمنه الذي يجب دفعه؛ ولا راحة لمؤمن إلا بلقاء ربه.

إضاءة:

إن الإبداع ليس سوى التحرر من أسر النمطية وحتميات الطبيعة ومقولات التاريخ.

---

(١) انظر: دور التدريب في تطوير العمل الإداري: ٢١، وتحويل التدريب: ٢٦.

حول
أزمة التعليم وآفاق المستقبل

١ - أزمة التعليم.

٢ - آفاق المستقبل.



أزمة التعليم

ليست الشكوى من سوء الأحوال شيئاً جديداً على المجتمعات البشرية، لكن من الواضح أن هناك نوعاً من الارتباط بين ما يحدث من تقدم حضاري، وبين ارتفاع وتيرة الأزمات؛ وذلك بسبب اتساع طموحات الناس، وبسبب الأعراض الجانبية التي يفرزها الفراغ والرخاء، وبسبب التغير السريع الذي يصعب على الجملة العصبية تحمله، إلى جانب أسباب أخرى.

إن الدول التي تقود التقدم، هي التي تنشر الوعي، وتقنن المعايير المساعدة على إدراك حجم المشكلات، كما تدل على الآفاق التي يمكن ارتيادها في سبيل الخلاص منها. وكان مما اعتمدته في ذلك اللجوء إلى (التعليم) على أنه المدخل الأساسي للخلاص من المشكلات، وللارتقاء في معارج التقدم. وهذا في الحقيقة أدى إلى زيادة الطلب على التعليم إلى حدود تعجز عنه الإمكانات المتاحة لمعظم الدول المتقدمة والنامية. يمكن القول على نحو عام: إن الجميع يشكون من انخفاض مستوى التعليم، لكن نوعية الشكوى تختلف، فالدول المتقدمة تشكو من عدم تحقيق التعليم للمستوى المطلوب لمزيد من السيطرة على الطبيعة، وعلى الأمم المنافسة، على حين أن شكوى الدول النامية من التخلف الكمي، مما يؤدي إلى انتشار الأمية الأبجدية والحضارية، ولم تجد بعدُ الفرصة للبحث في كيفية الارتقاء بالنوعية، كما هو شأن الدول المتقدمة. ونظراً لأن تطوير التعليم وتجويده يتطلب درجة راقية من التقدم السياسي والاقتصادي، فإن شكوى الدول النامية أعلى وتيرة وأوسع نطاقاً على الصعيد الاجتماعي.

إن حجم كل مشكلة مساوٍ للفرق القائم بين ما هو موجود وبين ما هو مطلوب، وأعتقد أن هذا الفرق في معظم البلاد الإسلامية كبير جداً؛ ومن الصعوبة بمكان أن نضع أيدينا عليه، لكن يمكن أن نشير إليه هنا إشارة عابرة تاركين التفاصيل إلى موضع آخر. وأحب أن أنوه أننا لا نستطيع أن نتحاشى في كل موضع تكرار بعض المعاني، ولذا فإن بعضاً مما سنقوله ربما سبقت الإشارة إليه، ولكن أردنا أن نركز الانتباه على أزمة التعليم ومستقبله باعتبار ذلك من المسائل التي تتطلب درجة عالية من الوعي.

أشارت دراسة حديثة قدمت إلى المؤتمر العربي للسكان أن ٢٥٪ من الطلاب العرب لا يكملون المرحلة الثانوية، وأن ١١٪ من الشباب العربي في سن (١٨ ـ ٢٥) كانوا مسجلين في الجامعات. وبلغت النسبة ٢٧,٢٥٪ في الأردن ولبنان مثلاً مقابل أقل من ٥٪ في السودان والصومال. وحققت تركيا وإيران معدلات مماثلة لمتوسط النسبة العربية. في حين تبلغ النسبة في الولايات المتحدة الأمريكية ٧٦٪ وفي أوروبا الغربية واليابان ٤٥,٢٨٪.

وفي حين أن حاملي إجازات الماجستير والدكتوراه لا يشكلون سوى ٤,٣٪ من خريجي التعليم العالي، تبلغ النسبة ١٣٪ في فرنسا و ١٨٪ في بريطانيا و ٢٢٪ عند اليهود في فلسطين. ومن جهة أخرى فإن ٣٥٪ فقط من الطلاب العرب يحملون إجازات علمية أو تقنية، في حين درس الباقي العلوم الإنسانية والاجتماعية[1].

هذا على مستوى (الكم)، وأما على مستوى (الكيف) فإننا نتحاشى دائماً المقارنة؛ لأنها تكشف المستور الذي لا نرغب في أن يطلع عليه أحد، ولكن هذا لا يمكن تحاشيه على نحو دائم.

في أكبر دراسة من نوعها جرت حتى الآن، خضع قرابة ٥٠٠ ألف طالب من طلاب الصف الثامن لامتحان في مادتي العلوم والرياضيات،

(١) مجلة المعرفة: العدد ١٩ شوال ١٤١٧ ص١٥٠.

وينتمي هؤلاء الطلاب إلى اثنتين وأربعين دولة، ولم يشترك في هذه الدراسة سوى طلاب دولتين من دول العالم الإسلامي، هما الكويت وإيران. وقد احتلت سنغافورة المركز الأول في المادتين، على حين احتلت اليابان المركز الثالث فيهما. أما الولايات المتحدة الأمريكية فقد احتلت في العلوم المركز (١٦) وفي الرياضيات المركز (٢٩). واحتل الطلبة اليهود في فلسطين المحتلة المرتبة (٢٣) في العلوم والمرتبة (٢١) في الرياضيات. أما دولة الكويت فقد احتلت المركز (٤٠) في المادتين على حين احتلت إيران المركز (٣٩) في الرياضيات والمركز (٣٨) في العلوم. ولم يأت بعد الكويت سوى دولتين هما كولومبيا، ثم جنوب أفريقيا[١]. ولا أعتقد لو أن مزيداً من أبناء المسلمين دخلوا في هذه المسابقة، ستكون النتائج أفضل من هذه!.

❁ ❁ ❁

إضاءة:

إذا لم تكن لك روح عصر كانت لك كل شروره.

(١) السابق: ١٠٢ ـ ١٠٤.

بعض جوانب الأزمة:

إن كل ما سنقوله هنا يتعلق بـ (التعليم العام) حيث كنا قد تحدثنا قبلُ على نحو موسع عن بعض أنواع التعليم، مثل التعليم الشرعي والجامعي والمهني. ولا نستطيع هنا أن نعرض لكل جوانب الأزمة، ولا نملك حدوداً تاريخية لبداياتها؛ فالأزمة التعليمية تجسيد لأزمة أمة. وإن ما سنقوله هنا، وما يقوله غيرنا عن أبعاد الأزمة التعليمة، لا يعدو أن يكون تشخيصاً تقريبياً، يهدف إلى إثارة الاهتمام وإيجاد درجة جيدة من الإدراك لجوانب القصور في جهودنا التربوية.

وهذه إلماحات خاطفة لما نعتقد أنه يشكل جوانب التأزم التعليمي:

١ ـ القصور الذاتي:

يعتقد كثير من المربين من آباء ومعلمين أن من مهامهم الأساسية أن ينقلوا إلى الأجيال الجديدة مضامين ما يؤمنون به من معتقدات وأفكار ونظم وعادات... وهذا في الحقيقة من الوظائف المهمة للتربية، لكنه ليس كل وظائفها؛ فإعداد الناشئة ليعيشوا عصرهم، ويحاولوا تشكيل بيئاتهم على نحو أفضل ـ وظيفة أساسية للتربية أيضاً. وهذا لا يتم إلا من خلال استيعاب الواقع على نحو جيد، ثم محاولة التكيف معه على بعض الأصعدة، وتطويره على أصعدة أخرى. إن المشكلة التي تواجه التربويين في هذا المضمار أنهم ليسوا القوى الأكثر تأثيراً في إيجاد الواقع والظروف التي يعيشها الناس، كما أنهم ليسوا الذين يصوغون تطلعات الناس وطموحاتهم، ولا مطالب العيش الكريم المفروضة عليهم؛ ولذا فإن النظم التعليمية التربوية

تجد نفسها مطالبة بالتعامل مع أوضاع كثيراً ما تكون خارجة عن منهجيتها وسيطرتها.

إن العقل ـ بطبيعته ـ لا يستطيع أن يستوعب الواقع ومعطياته إلا على مراحل، وهو يعاني من بطء إيقاعه في فهم المتغيرات المتلاحقة، واقتراح التكيفات المناسبة لها. وهذا كله زاد في مساحة الفجوة بين الواقع وبين الجهود التربوية والتعليمية التي تبذل للسيطرة عليه وتوجيهه.

إن الطبيعة الإنسانية، ليست متصلبة إلى حد التأبي على التأقلم، ولكن الناس عبر اشتباكهم مع ظروف الحياة المختلفة، يكتسبون من خلال مألوفاتهم وتركيباتهم الذهنية والنفسية طبيعة ثانية، تكاد تكون أكثر صلابة من طبيعتهم الأولى؛ وهذا يجعلهم يرتبكون حيال فهم المطلوب من التغيير والتطوير للتعامل مع المتغيرات الكثيرة والسريعة؛ ولا يستطيع رجال التربية والتعليم أن يبتعدوا كثيراً عن هذه الوضعية!.

إن بالإمكان القول: إن التحجر الذي نجده في كثير من النظم والمناهج التعليمية، يعود في الأصل إلى نوع من القصور في المضامين النفسية والفكرية لكثير من القائمين على المؤسسات التعليمية والعاملين فيها؛ فهم لا يدركون في كثير من الأحيان أن انعزالهم عن تيار التجديد، هو في جوهره سلسلة من التقلصات والتهميشات التي تجعل جهودهم التعليمية، تفقد وظائفها ومعانيها على نحو مستمر!.

إن القصور الذاتي للمؤسسات التعليمية، يعود في بعض جوانبه إلى عدم وضوح الخطوط الفاصلة بين ما يجب التخلي عنه ونبذه، وبين ما يجب التمسك به؛ وذلك على صعيد الأهداف والنظم والمناهج والوسائل؛ مما أفقدها القدرة على التلاؤم مع حاجات الواقع ومتطلبات العصر؛ وقبل ذلك العجز عن فهم طبيعة الروح الثقافية الجديدة التي عليها أن تشعها في عقول طلابها ونفوسهم، وفي البيئات الاجتماعية التي تقوم فيها.

٢ ـ الجانب الاجتماعي:

حاجة المجتمعات إلى التطور ملحَّة، لكن التطورات السريعة التي تشهدها الأمم المختلفة، قد أدت إلى تجديدات غير منضبطة، مما أدى إلى تفكيك النظم الثقافية والاجتماعية الموروثة. وقد وجد على مدار التاريخ نوع من الانسجام والتكامل بين القيم والمبادئ الإسلامية وبين النظم والمناهج التربوية والتعليمية القائمة في ديار الإسلام؛ فقد كان الركود وبطء التغير، يتيحان الوقت الكافي لذلك التكامل. أما اليوم فإن الوافدات الثقافية، ومتطلبات العيش، قد زادت من الطلب على نوع من التربية والتعليم لم نكن في الماضي مهيئين لتقديمه؛ مما أدى إلى اختلاط ضخم في المفاهيم والمثل والقيم؛ وهذا من شأنه أن يقلل من فاعلية النظم والمناهج القائمة، وأن يستدعي تغييرات كثيرة، ربما لا يسمح كثير من النظم السياسية القيام بها؛ مما يعكس أشكالاً من التأزمات الأخلاقية والاجتماعية...

إن جوهر كثير من الأزمات الاجتماعية، يعود إلى أسس أخلاقية؛ حيث إن اجتماع الناس بعضهم مع بعض، يولد بطبيعته توترات كثيرة، ويجعل بذلك من نفسه محكاً مهماً للكشف عن القيم والأخلاق التي تشربها الناس، وأصبحت جزءاً من ذواتهم. في حالة اختلاط المفاهيم ووهن الثقة بالقيم الموروثة، لا يجد التعليم نفسه عاجزاً عن إصلاح الخلل فحسب، بل إنه يصبح مجالاً من مجالات تجلياته وتجسده!.

إن من واجبات المدرسة أن تجعل من نفسها إطاراً لتحقيق ذات الطالب، فهي مسؤولة عن غرس روح الانتماء فيه إلى دينه وأمته، وعن منحه منهجاً يمكنه من فهم تحديات الواقع، وسبل الاستجابة لها؛ كما أنها مسؤولة عن أن توضح له ملامح (الهوية) التي ينبغي أن تتجسد في سلوكه وعلاقاته. فإذا ما أخفقت المدرسة في تحقيق قدر مقبول من كل ذلك، فإن الطالب سيحقق ذاته عن طريق انتماءات وسلوكات سيئة، كثيراً ما تتجسد في أنشطة إجرامية أو طائشة؛ ولذا فإن انتشار المخدرات والتدخين والعلاقات العاطفية المنحرفة والعدوان على الممتلكات العامة والانشغال بالرياضة

وبالتلفاز عن أداء الواجبات المدرسية... إن كل ذلك يدل دلالة واضحة على أن المدرسة لم تقم بما كان مؤملاً منها القيام به!.

من جوانب الأزمة الاجتماعية أن أكثر المعلمين والآباء والطلاب والقائمين على وسائل التثقيف والإعلام، قد تغيرت نظرتهم إلى العلم تغيراً كلياً؛ فقد كان من أدبياتنا ومن موروثاتنا الثقافية أن طلب العلم من أفضل القربات إلى الله ـ تعالى ـ والمسلم يتعلم ليعمل، وكان بعض الناس يتحرج من أن يتعلم أموراً، لا يقوى على العمل بها؛ وهذا كله أبقى التعلم في إطار أخلاقي، يشع بالاحتساب وطلب التقرب إلى الله ـ جل وعلا ـ؛ مما أضفى على العمليات التعليمية قدراً كبيراً من السمو والترفع عن المنافع الدنيوية والمادية. أما اليوم فإن المدارس تعلم الناشئة أن العلم يستهدف الحصول على الشهادة، والشهادة للوظيفة، والوظيفة لتحقيق الذات والحصول على الرفاهية... وهذا جعل أجواء طلب العلم مصبوغة بصبغة تجارية فاقعة، فلا أهداف سامية، ولا انتظار لمثوبة، ولا رغبة حقيقية في تحصيل علم نافع فضلاً عن التطلع للعمل به، ولكل ذلك استثناءات، لا تشكل ظاهرة لافتة.

النظر إلى العلم على أنه وسيلة لتحقيق مآرب دنيوية محضة، أفسد أشياء كثيرة في حياة الطلاب، وفي الحياة المدرسية؛ فقد انتشر الغش في المدارس[١]، ونشط بيع الأسئلة، كما انتشرت الدروس (الخاصة) ومع أن بعضها نابع من حاجة حقيقية إلا أن كثيراً منها تعبير واضح عن ظاهرة مرضية كضعف بعض المدرسين أو ازدحام الفصول... لكن الأسوأ من هذا كله أن بعض المعلمين أخذ يرسّب كل أولئك الطلاب الذين لا يدرسون عليه دروساً خاصة، ولا ينتفع من ورائهم!!

---

(١) تناقلت وكالات الأنباء مؤخراً أخبار مظاهرة طلابية في إحدى المدن الباكتسانية، يطالب القائمون عليها بالسماح بالغش بالمدارس، ويحتجون على منعه!!.

وهذا شوّه الكثير الكثير من معاني التربية والتعليم على نحو قد لا نراه في كثير من البلاد التي توصف عادة بالانحلال الخلقي والفساد الاجتماعي من دول الشرق والغرب!.

لا ننسى هنا ما حدث من تطور خطير في وظيفة المدرس وإحساسه بالمهام الملقاة عليه؛ فقد كان يشعر في الماضي أنه معلم ومرب وقدوة وأب لكل طالب، يقوم على تعليمه وكان أكثر المدرسين، يتصرف التصرف الذي ينسجم مع ذلك الإحساس. وبسبب ضغوط هائلة قزمت كل الرموز والوظائف الفاعلة في الحياة العامة، ومنها وظيفة المعلم؛ لتنحصر في إعطاء بعض المعلومات داخل قاعة الدرس وفق جدول محددا. هذا التهميش العنيف غيَّر نظرة المدرس إلى نفسه، وغيَّر نظرة المجتمع إليه، ودفع ثمن ذلك كله الطالب الذي فقد القدوة والمثل، وفقد العطف والسمو والنصح!!

هناك وجه آخر للأزمة التعليمية على الصعيد الاجتماعي، يتمثل في وجود طبقية واضحة في المدارس والمؤسسات التربوية؛ فعلى حين تزدحم المدارس في القرى والأحياء الفقيرة من المدن بالطلاب وبالمدرسين الأقل كفاءة مع شح في وسائل التعليم، تجد المدارس في الأحياء الراقية، تزخر بالإمكانات المختلفة. وأخذ التعليم الخاص يزيد من تفاقم المشكلة، حيث إن القادرين على الدفع من رجالات الأعمال وطبقة النخبة، يدفعون بأبنائهم إلى المدارس الخاصة التي توفر في العادة إمكانات أفضل من المدارس الحكومية. وهذا يجعل من التعليم الذي هو وسيلة دمج اجتماعي في الأصل أداة لتمزيق أوصال المجتمع والتهيئة لأوضاع الاستغلال والعبودية وانعدام تكافؤ الفرص. وهذا بسبب أن التعليم لم تصحبه إصلاحات سياسية واجتماعية واقتصادية بعيدة المدى[1].

إن كثيراً من المدارس الخاصة، يتعامل مع قضية التعليم من منظور

---

(١) انظر: أزمة العالم في التعليم: ٢٧٥.

تجاري بحت، فرِضا الطالب مقدم على رضا الأستاذ، والشكل مقدم على الجوهر؛ وهي من خلال (تدليل) الطالب المبالغ فيه تفسد من نفسه وخلقه أكثر مما تصلح[1]. وهذا كله يجري في بلاد المسلمين، على حين تتجه دول كبرى عديدة إلى المزيد من فرض الرقابة على مؤسسات التعليم، حتى تنقذها من براثن نظام التجارة، والشهية إلى الربح الفاحش!.

٣ ـ الجانب الاقتصادي:

تشهد المرافق في العالم النامي ضغوطاً، لا تقوى على حملها، ولا يستطيع التعليم أن يستثني نفسه منها. التأزم الاقتصادي يعود إلى عاملين رئيسين:

الأول: أن الزيادة السكانية في الدول النامية عالية جداً إذا ما قورنت بالزيادة في الدول الصناعية. والمعروف أن الرخاء المادي الذي يحدث في أي بلد، يؤدي على نحو آلي إلى تحسين الحالة الصحية، وتقليل الوفيات، مما يزيد في نسبة الأطفال في المجتمع، ويستلزم فتح المزيد من المدارس.

الثاني: هو انخفاض الناتج الوطني، إذا ما قورن بالناتج الوطني للدول المتقدمة؛ مما يجعل ما ينفق على التعليم منخفضاً مع تضخم نصيبه في الميزانيات الحكومية. فعلى الرغم من انخفاض أعداد من يدرس في رياض الأطفال، ومن يدرس في الجامعات مقارنة بنظرائهم في الدول الغنية، فإن الدول الإسلامية، تنوء بالأعباء المالية، وتئن من وطأة تكاليف التعليم (المحدود) الذي تقدمه؛ حيث إن بعضها، ينفق عليه ما يقرب من ٢٥٪ من ميزانياتها و ٦٪ من الناتج الوطني. وهذا حد يصعب تجاوزه؛ لأن القطاعات الأخرى تطالب أيضاً بنصيبها من ذلك الناتج[2].

تشير بعض الدراسات إلى أن الدول العربية ـ في مجموعها ـ كانت

---

(١) لكل إطلاقاتنا شواذ، تؤكد القاعدة ولا تجرحها.

(٢) التربية في البلاد العربية: ٨١.

تنفق عام ١٩٨٢ (١٢٩) دولاراً على كل فرد، على حين كانت أمريكا الشمالية تنفق على الفرد في ذلك العام نحواً من (٩١٨) دولاراً[1]. ويذكر أحد الباحثين أن ما ينفق في مصر على الطالب في التعليم الإلزامي يعادل ١/١٠ مما ينفق على الطالب اليهودي في (فلسطين المحتلة)[2]. ولا ينبغي أن يغيب عن الذهن أن الأموال القليلة المتوفرة للتعليم لا يتم إنفاق سوى جزء قليل منها على المباني والتجهيزات والمختبرات والمكتبات، فقد أظهرت بعض الإحصاءات أن ما ينفق على رواتب المعلمين والإداريين، يلتهم نحواً من ٨٦٪ من ميزانيات التعليم في بعض الدول العربية[3]. وهذه سمة مشتركة بين الدول النامية، وهذا يعني وجود بيئة تعليمية واهية وغير مواتية؛ فهناك أعداد هائلة من الطلاب ليس لهم أي مكان في مكتبة المدرسة، والنسبة العظمى منهم لا تجري أية تجربة علمية، بل إن هناك من لا يجد الكتاب المدرسي[4].

أضف إلى هذا أن الفصول مزدحمة جداً بالطلاب؛ مما أضعف حماسة المعلم لإعطاء الواجبات ومتابعة الطلاب. سوء الأحوال الاقتصادية انعكس على ساعات مكوث الطلاب في المدرسة، فعلى حين يقضي الطالب في الدول المتقدمة أكثر من ثماني ساعات يومياً، لا يتاح للطالب في الدول الإسلامية أكثر من ست ساعات، وهذه المدة آخذة في التناقص، حيث إن المدارس صارت تعمل فترتين وثلاث فترات في كثير من البلدان. وقد كشفت دراسة مصرية حديثة النقاب عن أن ٥٠٪ من مدارس المرحلة الابتدائية ونحواً من ٤٠٪ من المدارس المتوسطة تعمل فترتين. وفي دراسة أخرى أن ٣٨,٥٪ من مدارس القاهرة، تعمل ثلاث فترات، ونحواً من

---

(١) أزمة العالم في التعليم: ٩.

(٢) بحوث مؤتمر التعليم وتحديات القرن (٢١) ص٢٦٧.

(٣) مجلة المعرفة العدد ٢١ ص٥٨.

(٤) تحضير الطفل لعام (٢٠٠٠) ص٨٣. وقد ذكر وزير التعليم الإندونيسي في مقابلة معه أن وزارته لا تستطيع أن تؤمن إلا كتاباً واحداً لكل عشرة طلاب!.

٧,٧٪ من مدارسها يعمل بنظام الأربع فترات(!!) وبهذا قصر اليوم المدرسي، وانعدمت ممارسة الهوايات، وتم فقد علاقة (الوجه لوجه) بين المعلم والطالب[(١)].

نحن نؤمن أن مشكلات التعليم لا تنبع من ضعف الاقتصاد وحده، لكن مع هذا لا نختلف أن هناك الكثير من أزماته التي لا يمكن تجاوزها من غير توفير الأموال الضرورية لتهيئة المناخ الملائم للتعلم واكتساب الخبرات والمهارات.

٤ ـ المناهج:

إن الله ـ جل وعلا ـ أكرم أمة الإسلام بالرسالة الخاتمة التي حوت من النصح والإرشاد وتبيين الأمور ما يشكل كل الخطوط العريضة لصلاح الإنسان ونجاحه، لكن ذلك لا يغني الإنسان المسلم عن الاجتهاد في تحديد المناهج والأساليب التربوية التي تحقق غاية الشريعة في حياة بني البشر، وتساعد على تكوين الناشئة، وإعدادهم للعيش في حياة كريمة آمنة ومنتجة؛ ولكن ذلك لا يعدو أن يكون اجتهاداً، يخطئ ويصيب؛ وكل ما يقال الآن وغداً عن المناهج المثلى التي ينبغي أن نصير إليها هو الآخر اجتهاد؛ ولذا فإننا حين نوجه انتقاداً للمناهج الحالية، لا نعني تزكية المناهج التعليمية التي كانت سائدة قبل خمسة قرون، وأنها كانت ملائمة؛ فالجذور لأزمات المنهج قديمة، وذيولها ستظل ممتدة، وواجب أهل كل مؤسسة تربوية أن يدخلوا من التحسينات والتطويرات على مقدار ما يستطيعون.

لا يخفى أن تفاقم أزمة مناهجنا الحديثة، قد بدأ يوم أن أرسلت أوروبا جيوشاً من الإرساليات التعليمية والتبشيرية إلى بلاد المسلمين، وخصصت مؤسسات كثيرة لتقديم المعونات الفنية والمادية لبناء المدارس والكليات، ورسم المناهج والخطط الدراسية. وقد بعث الانبهار بالغرب

---

(١) بحوث مؤتمر التعليم الأساسي: ١٦.

على أن تقوم الدول الإسلامية بإرسال عشرات الألوف من أبنائها إلى البلدان الغربية، ليتلقوا الفلسفة الغربية في التعليم، وليتدربوا على إدارة المدارس، وبناء المناهج، وتصميم الاختبارات عند عودتهم إلى بلادهم. ومع أن ذلك لم يخل من بعض الفوائد، إلا أنه أحدث الكثير من الفوضى والتشويش والتشويه في رؤية الأمة للمناهج التربوية والتعليمية التي تحتاج إليها فعلاً، كما أنه أوجد نوعاً من الصراع داخل كل المؤسسات التربوية، ولا أظن أننا سنشهد نهاية قريبة لذلك. وقد كان هذا ضريبة التقصير والقصور الذي أصاب جهودنا التربوية عبر قرون سلفت!.

إن ما سنذكره من خلل في المناهج لا يمكن تعميمه على جميع البلدان الإسلامية، لا من حيث الكيف ولا من حيث الكم، ولكن يمكن القول: إنه ما من بلد إسلامي إلا وله حظ منه.

من ملامح تأزم المناهج:

١ ـ نحن نعتقد أن المناهج الجيدة، هي التي تصدر عن رؤية شاملة ومتكاملة لوظيفة الإنسان في الحياة، مع الأخذ بعين الاعتبار ما يحتاجه بناؤه الشخصي من مبادئ ومفاهيم ومعلومات ومهارات، والانتباه كذلك إلى متطلبات الاندماج في الحياة العامة، والمحافظة على النسيج الاجتماعي، بالإضافة إلى تكوين الانتماء لديه إلى الدائرة الأوسع دائرة الإنسانية، وتكوين الانسجام مع الكون والبيئة الطبيعية. وهذا كله لن يتم إلا إذا كان هناك نوع من التوحد في رؤية واضعي السياسات التربوية لهذه القضايا؛ وهذا ما نفتقده في كثير من الأحيان!

لقد ابتلي العالم الإسلامي بالتبعية الثقافية التي أربكت رؤيته لذاته ومحيطه، وقبل ذلك لأهدافه وغاياته العليا. ولذا فإننا نرى أن المناهج في بعض البلدان لا ترتبط بأهداف تحقيق العبودية لله ـ تعالى ـ والولاء له ولأمة الإسلام، وإنما تؤسس لدى الطالب الانتماء إلى الإقليم أو العنصر أو القوم. وبعضها يؤسس لديه روحاً تجارية نفعية كتلك التي يتشبع بها موظفو

العلاقات العامة ومندوبو المبيعات، فنشأ لديها جيل أناني ضيق الأفق، خامد العاطفة، عاجز عن الانفتاح على الدوائر الأوسع.

على المستوى الفلسفي والاقتصادي تأثرت بعض الدول بالاتجاه الاشتراكي، ودول أخرى بالاتجاه الليبرالي الرأسمالي، وقد انعكس ذلك على مناهجها جميعاً، بل وعلى نوعية العلاقات الاجتماعية والمؤسسات التربوية، وقد كان لذلك آثار سلبية عديدة على وحدة الأمة وتجانس فكر شبابها!.

٢ ـ الحصيلة التي يخرج بها الطالب في كثير من البلاد الإسلامية هي الشعور بأن بلده هو بلد الانتصارات العظيمة في كل مجالات الحياة، والشعور بأن تاريخه الوطني سلسلة من القفزات النوعية في مراقي التقدم والازدهار. وحين تضطر كتب التاريخ إلى ذكر واقعة هزيمة أو نكسة، فإن من النادر تفسير ذلك بالقصور الذاتي أو الاجتهاد الخاطئ؛ وغالباً ما يعزى ذلك إلى تآمر الأعداء أو خيانة شخص من الداخل!.

الدافع إلى هذا غالباً ما يكون خيّرًا، حيث يأمل واضعو المناهج أن يغرسوا في نفوس الناشئة وعقولهم الانتماء لأوطانهم، والثقة بالنفس، والاعتزاز بالتاريخ. لكن هذا يزود الناشئة بالسذاجة، ويجعلهم لقمة سائغة للإعلام الأجنبي المعادي، كما يزعزع ثقتهم بكل ما تعلموه ولقنوه حين يزداد وعيهم، وتنمو خبراتهم. أضف إلى هذا أن رؤيتهم للأشياء تصبح مشوهة وغير واقعية. وربما أدت المبالغة في تمجيد الذات إلى تكوين نزعة عنصرية لديهم، على نحو ما صنعت النازية بالألمان. إن مهمة المناهج في هذه القضية دقيقة جداً، وأعتقد أن من الخير لنا ولأبنائنا أن يروا الأشياء كما هي مع فهم ظروف الأحداث وملابساتها الموضوعية، فذاك يزودهم بالرؤية الصحيحة، كما يزودهم بالحصانة والمناعة ضد الإعلام المعادي، ويجعلهم في مأمن من الزيف والنكوص على الأعقاب.

٣ ـ من المشكلات الكبرى التي تعوق المناهج عن بلوغ أهدافها

مصادمة ما يعرف بـ (المنهج المستتر) لها. ويعرف المنهج المستتر بأنه «مجموعة المعتقدات والقيم والعادات غير المدونة التي يتم تسريبها إلى الطلاب من خلال القوانين والإجراءات التي تنظم عمل المدرسة والعلاقات الاجتماعية فيها»[1].

إن الدراسات تثبت أن تأثر الطلاب بالمنهاج المستتر أكثر من تأثرهم بالمنهاج المدرسي المكتوب؛ لأن الأول يتجسد فيما هو كائن من سلوك القائمين على المدرسة وأخلاقهم وعاداتهم. أما الثاني، فإنه يتحدث عما ينبغي أن يكون. أية فائدة ترتجى من درس في العدل أو اللطف أو الإحسان أو الدقة أو الأمانة أو أضرار التدخين... إذا كان الطلاب يرون في تصرفات الإداريين أو المعلمين أو الآباء أو الوجهاء... ما يناقض ذلك وينفيه على نحو تام؟!

إن صحة المناهج أمر ضروري وحيوي، لكن لا ينبغي أن يُظن أن تأثر الطلاب بها يفوق تأثرهم بسلوكات مربيهم أو بوسائل الإعلام. وهذا يلقي على المربين مسؤولية كبرى، ويدعوهم إلى التفكير في عواقب كل تصرف من تصرفاتهم أو موقف من مواقفهم.

٤ ـ إن أكثر مناهج التعليم في البلاد الإسلامية يشكو انفصاماً واضحاً بين الدلائل الشرعية والدلائل الكونية، فنجد المواد الدينية شبه خالية من الاستدلال بآيات الله ـ تعالى ـ في الآفاق والأنفس، والتي تكشف عنها علوم الفلك والكيمياء والفيزياء والأحياء وعلوم النفس والاجتماع والسياسة والاقتصاد، وما يتبدّى فيها كل يوم من سنن ربانية ماضية.

ونجد في المقابل أن المناهج والمواد الطبيعية والعلمية والاجتماعية، تكاد تكون خالية من الاستدلال بالآيات والأحاديث والأحكام والأفكار والرؤى الإيمانية مع وفرتها في مصادرنا الإسلامية المختلفة.

---

(١) مناهج التربية الإسلامية: ٤٢.

ولو أن الأمر وقف عند هذا الحد إذن لهان الخطب، لكن واقع الحال أن في بعض المناهج نزعة علمانية، وبعضها ينطلق من نظريات، تتعارض مع جوهر الإسلام. وهذا يؤدي إلى تشويش عقيدة الطالب وفكره، وتمزيق كيانه المعرفي، ويدفعه دفعاً إلى الإحساس بانحسار المنهجية الإسلامية عن جوانب فكرية ومعرفية كثيرة. وهذا في الحقيقة أسوأ ما يمكن أن نقدمه إلى مجتمع، يسعى إلى تحقيق التجانس والتعاضد بين جميع أفراده لمواجهة التحديات والمخاطر الكبيرة!.

٥ ـ إن واضعي المناهج، يهدفون إلى إعطاء الطالب معرفة منظمة في كل فرع من فروعها الأساسية بغية إعداده لخوض غمار الحياة بكفاءة واقتدار. ومن الواضح اليوم تسارع وتيرة التغير في كل شيء، فالمعارف والخبرات التي يحتاجها سوق العمل متغيرة؛ والدراسات التربوية المكثفة التي تتم في سائر أنحاء المعمورة، توجب إعادة النظر في الكثير من المقولات والنظريات العلمية وأساليب تصميم المناهج... لكن الملاحظ أن استجابة كثير من المناهج لدينا لكل ذلك بطيئة للغاية، وذلك بسبب خوف خفي من التجديد حيناً، وبسبب ضعف المتابعة للجديد في الحقل التربوي حيناً، وبسبب ضعف الإمكانات المادية والتطويرية أحياناً أخرى. وحين يتخرج الطالب، ويذهب إلى بلد متقدم لمتابعة الدراسة هناك، يدرك اتساع الهوة بين ما كان يدرسه في بلده، وبين ما يدرسه في البلد الجديد. وتكون النتيجة النظر بازدراء إلى الحصيلة العلمية التي جناها من وراء دراسة السنوات الطويلة في بلده ويكون ذلك بالنسبة إليه الخطوة الأولى على طريق الاستلاب الثقافي!.

إن أجهزة (التقويم) التربوي، ضعيفة جداً في كثير من البلاد الإسلامية؛ ولذا فإن هناك جهلاً عريضاً لدى واضعي المناهج بمدى التأثير الذي تحدثه مناهجهم في التكوين المعرفي والفكري للناشئة؛ وذلك بسبب ضآلة البحوث والدراسات التي يتم إجراؤها من أجل اكتشاف فاعلية المناهج وطرق التدريس المختلفة.

إن هناك الكثير مما يمكن قوله في شأن المناهج خاصة وأزمة التعليم عامة، لكننا لم نعقد هذا الكتاب للاستقصاء، وإنما لتكوين بعض الرؤى حول قضية التربية والتعليم ذات الأهمية الاستثنائية لدى كل أمة تريد تجاوز واقعها نحو ما هو أكرم وأفضل.



إضاءة:

إن الحرية هي القدرة على الاختيار، ولا اختيار عند عدم وجود بدائل.

آفاق المستقبل

حين نطلق كلمة (مستقبل) فإننا نريد في العادة أحد معنين: الأول هو الثمار والنتائج التي نتوقع أن تفضي إليها مجموعة من العوامل والأسباب والمعطيات الكائنة، على النحو الذي تسمح به خبرتنا بالواقع المعيش وشفافيتنا صوب التطورات والتوجهات في مجال من مجالات الحياة.

أما المعنى الثاني فيتمحور حول الآمال والمنجزات التي نرى ضرورة تحقيقها في المستقبل بقطع النظر عن مدى توفر المقدمات والإمكانات التي تقود إليها. وحديثنا هنا عن آفاق مستقبل التربية والتعليم يجري وفق المنظور الثاني.

وإن كثيراً مما يتعين علينا إنجازه في مضمار التعليم مضى شيء من الحديث عنه في ثنايا الصفحات السابقة، ونريد هنا أن نضيف إلى ذلك ما نرى أنه ضروري لتكميل ما أسلفناه من رؤى وأفكار، وذلك من خلال الإلماحات التالية:

١ ـ أهمية النظر إلى المستقبل:

إن التطلع إلى المستقبل ضروري للخروج من أية أزمة، إذ إنه الكوة الصغيرة التي نتنفس منها عبق الاستمرار والتأبي على الاستسلام للمشكلات القائمة مهما كانت ضراوتها.

إن التفكير بالمستقبل، قد يكون هو الوسيلة لتنظيم الاستفادة من الإمكانات الحاضرة. وظاهر في حياة الأمم التي ليس لديها طاقة تسخرها للتفكير فيما هو آت أنها تضيع الحاضر، وتبدد كل فرصة متاحة. وبعض

الناس ينظر إلى المستقبل بروح الأمل والرجاء دون أن يحسِّن من الوضعية الحاضرة، فتزداد أحواله سوءاً يوماً بعد يوم؛ وكأن ما يُحصد يمكن أن يكون من غير جنس ما يُزرع!.

حتى نؤطر التفكير في المستقبل، فإن علينا أن ندرك أن كل ما نتطلع إليه، ونتمناه، لن يكون كاملاً ما دامت أحوالنا غير كاملة؛ فمن غير الممكن أن نعثر على حلول كاملة في وسط غير كامل؛ وإن الأزمة حين تلف كل المجتمع، فإن المربين وحدهم، لا يستطيعون إنجاز الكثير. ولذا فإن ما ندعو إلى إنجازه في حقل التربية والتعليم مثلاً ـ لن يتحقق ما لم نحسِّن من الجوانب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في حياتنا؛ **فالنهوض الشامل هو الذي سيهيئ الفرص لكل الإمكانات أن تتفتح، ولكل الأيدي أن تعمل.**

٢ ـ الدقة في تصوير الأزمة:

إن وجود أزمات ووجود طموحات وتطلعات من الأمور الطبيعية في حياة البشر، لكن المشكلة تكمن في عدم فهم الأزمات على نحو صحيح، وفي بناء تطلعات كبيرة على إمكانات هشة غير ملائمة؛ وهذا ما يحدث لدينا بكثرة. إننا كثيراً ما نرتبك في توصيف موضع المعاناة بدقة؛ حيث إن ما تراكم لدينا من معارف وخبرات في هذه المسألة محدود بالنسبة لما لدى الأمم الأخرى. إننا بحاجة إلى أن نتعلم مهارات توصيف الأزمات وشرحها وتحديدها وبيان ارتباطاتها وتاريخها... إن كل مشكلة يمكن توصيفها على نحو جيد هي مشكلة محلولة جزئياً. وإن مما يساعدنا على ذلك أن نقارن بين ما لدينا وبين ما لدى الآخرين؛ فالوعي بالذات كثيراً ما ينبع من الوعي بالآخر. ولننظر دائماً إلى ما يمكن أن يكون لو أننا أحسنا الاستفادة مما بين أيدينا من إمكانات. والمهم دائماً أن نفرق بين المرض وأعراضه؛ فالإخفاق الدراسي قد لا يكون أكثر من نتيجة لسوء طريقة التدريس أو سوء المنهج أو ضيق سوق العمل... والمهم كذلك ألا نضخم المشكلات حتى نرى أنفسنا عاجزين عن عمل أي شيء لها، وألا نبسِّطها إلى درجة الشعور بأنه ليس

هناك ما يستدعي القلق. إن من الموضوعية في هذا الشأن ألا نكوّن تصورات عن مشكلاتنا انطلاقاً من أفق محدود أو محيط ضيق - كما يحدث دائماً - فإذا ما رأينا حالات سيئة في مدرسةٍ ما لم يجز لنا أن نعمم الحكم على جميع المدارس في منطقة أو في دولة؛ فالعوامل التي تتحكم في وجود ظاهرةٍ ما كثيرة جداً، والوقوف عليها وتقديرها ليس بالأمر اليسير، وبعض تلك العوامل قد يكون خاصاً.

سوف نتريث كثيراً في إطلاق الأحكام المصورة لأزماتنا إذا ما عرفنا أن فهم الواقع على نحو دقيق هو شيء نسبي وخاضع لاعتبارات كثيرة ولاسيما في ظل شح المعلومات، وقلة الدراسات في معظم ما يخص المؤسسات والأنشطة التربوية. علينا أن نهيئ أنفسنا لتقبل وجهات نظر عديدة - وأحياناً فجة - في كل ما يمت إلى تصوير الواقع وفهمه.

٣ - العثور على منهج للتعامل مع المشكلات:

حين نشعر أن هناك أزمة فإن المرحلة التالية، هي البحث عن حل لها، وهناك اليوم تياران كبيران في مناهج البحث العلمي: التيار (الكمي) والتيار (الكيفي)، وينضوي تحت كل واحد منهما عدد من المناهج البحثية الفرعية، ولكل منهما ميزاته المعروفة لدى الباحثين. إلى جانب هذا يشعر كثيرون من المفكرين والاختصاصيين بأن ما اخترعه البشر من مناهج وأساليب لفهم المشكلات، يمر هو الآخر بأزمة، وهذا طبيعي؛ فكل ما يخضع لقواعد وقوانين محددة يتعرض لخطورة التصلب والقصور عن أداء مهامه. وإن ما يتم كشفه اليوم من مناطق المجهول، قد زاد من عجز مناهج البحث السائدة عن التعامل مع المزيد من الجزئيات وتفسيرها.

إن العقدة في حقل حل المشكلات دائماً هي: العثور على منهج ملائم لطبيعة المشكلة، وقد تعود كثير من الناس - كالصحفيين مثلاً - أن يعتمدوا على الحدس في فهم المشكلة وحلها، ومع أن للحدس موقعه المهم في ذلك إلا أن الاعتماد عليه وحده، يوجد مشكلات كثيرة؛ فلا بد

من اختيار ما نحدس به والبرهنة عليه. إن من سمات النظرية الجيدة والمنهج الجيد فتح الطريق أمام العمل والتطوير، وكل نظرية، توصل الناس إلى طريق مسدود، ليست بنظرية. والنظرية الجيدة كذلك نظرية منتجة، أي قابلة للدراسة والنقد وتوليد المزيد من البحث العلمي؛ وهذا يوجب علينا ألا نحمل الأفكار التي نتوصل إليها من الجزم والقطع أكثر مما تتحمله طبيعتها. ونعكس إيماننا بذلك بأن نصوغ أحكامنا بأسلوب اجتهادي مرن، ومنفتح على ما يمكن أن يستجد من خبرات ومفاهيم جديدة. وحتى نفعل ذلك فلا بد من إعطاء الخيال الفرصة للمشاركة في أي منهج نستخدمه في التخطيط والمعالجة. إن كثيراً من الناس يعيشون وفق أخيلتهم، والمحرومون من الخيال الخصب، يسجنون أنفسهم في مقولات وقواعد كثيراً ما تكون بالية وقاصرة. وطالما أتاح الخيال الخصب ارتياد آفاق رحبة، لا يدركها الحرفيون وذوو التفكير الجزئي.

من المهم ونحن في سياق علاج مشكلاتنا أن نملك فضيلة الانتظار والصبر على التصحيح؛ فالمسائل التربوية ذات بعد إنساني عميق، وكل ما يتصل بالإنسان يتسم بالتعقيد والعناد، ويحتاج علاجه إلى وقت، ومع الوقت الاهتمام والذكاء ورحابة الأفق، ولكن لا قيمة لكل هذا إلا بعد أن نتأكد أننا في المسار الصحيح.

٤ ـ تحدي الدفق المعلوماتي:

الدفق الهائل للمعلومات في عصرنا الحاضر يزداد شدة، ولا يدري أحد حجم التحديات التي ستنبثق عنه خلال السنوات العشر القادمة، لكن يمكن أن يقال: إن هذا التواصل المعلوماتي، هو سلاح ذو حدين، فهو من وجه سيمكن من إلقاء الضوء على الأزمات والاختناقات التي تعاني منها الأعمال التعليمية، كما سيوفر كياناً كبيراً من المعرفة المنظمة التي ستساعد على إصلاح التعليم، إلى جانب تنمية حاسة المقارنة لدى الناس، والقائمين على المؤسسات التربوية... ومن وجه آخر فإن ما سيسمعه الطالب، ويراه

في الوسائل الإعلامية سيكون أكثر وأحدث مما يتلقاه في المدرسة، وهذا يمثل في حد ذاته تحدياً جديداً للمدارس، ويفرض عليها أن تغير من أساليبها وبعض أهدافها أيضاً؛ فالمدارس لن تستطيع مجاراة وسائل الإعلام وشبكات المعلومات في تقديم المعارف المتطورة والطازجة للطلاب؛ مما يعني أن على المدارس أن تركز جهودها في حقل آخر، وأن تساعد منسوبيها على التعامل مع هذا السيل الجارف من المعلومات بحكمة وفاعلية. ويمكن أن نلخص ما نعنيه هنا في النقاط التالية:

أ ـ تدريب الطالب على التعامل مع مصادر المعلومات، كالمراجع ودوائر المعارف و(بنوك) المعلومات وشبكات المعلومات مثل (الإنترنت) ويجب أن نضع في اعتبارنا الثورة الهائلة التي تتفجر اليوم في تخزين المعلومات واسترجاعها، نتيجة استخدام الوسائط الضوئية ذات سعة التخزين الهائلة وأسلوب النص الفائق[1].

إن تعليم طالب كيفية الرجوع إلى معجم أفضل مئة مرة من تحفيظه معاني ألف كلمة في اللغة.

ب ـ على مؤسساتنا التعليمية أن تصرف جزءاً من اهتمامها إلى تكوين عقلية راشدة لدى الطلاب، وقادرة على الفهم الموضوعي للأشياء، وعلى النقد والربط بين العلة والمعلول، والسبب والمسبب، وعلى الانتقاء، واستخراج المغزى الذي توحي به الأفكار والمعلومات المتداولة، بالإضافة إلى القدرة على الحكم على الأخبار الواردة إليهم، وغربلتها وتمييز الغث من السمين منها. وسيكون من مهامها على نحو خاص تعليم الطلاب (الدقة) في الفهم والتعبير، ومحاولة تمليكهم القدرة على رؤية الأشياء بطرق جديدة خارج الطرق المألوفة، وحب الوضوح والحساسية الثقافية تجاه المقولات المختلفة... وما لم تفعل ذلك فإن الشباب سيكونون معرضين

---

(١) العرب وعصر المعلومات: ٣٩٣.

للغرق في بحار المعلومات والمعارف المتقاطعة والمتضاربة، والتي كثيراً ما تفتقر إلى الدقة والموضوعية، وتذاع بدوافع سياسية وتجارية وعنصرية...

ج - التدفق المعلوماتي، يتجه من الغرب إلى الشرق، ومن الشمال إلى الجنوب، وهو - بالطبع - لا ينقل إلينا أسرار التقنية أو التفوق الغربي، وإنما ينقل مظاهر التفوق الغربي، كما يشيع بيننا معالم ثقافة أجنبية ومغايرة لثقافتنا. وهي ثقافة متسقة داخلياً، وذات جاذبية في أجزاء عديدة منها. والمطلوب من مدارسنا اليوم أن تحصن الشباب المسلم من الانزلاق إلى أوحال تلك الثقافة. ويبدو أن أداء المدارس في هذا الشأن ليس كما ينبغي؛ حيث نرى لدى كثير من الطلاب إحساساً ضعيفاً بهويتهم الإسلامية، إلى جانب سيطرة النزعة الاستهلاكية عليهم، والمعاناة من الضياع والعزلة والفقر الروحي والانبهار بالتقنية، وحب التقليد، والتعلق بالقشور والمظاهر الفارغة!

إن الطالب ليس بحاجة اليوم إلى التمتع بعقلية جيدة فحسب، وإنما هو بحاجة إلى نوع من الإحياء الكلي: العقلي والنفسي والروحي والشعوري، مع ملاحظة التوازن والانسجام بين هذه الجوانب. وهذا لن يتم ما لم نحاول زيادة فاعلية التعلم لدى الطالب واستثمار كل طاقاته، مع المحافظة على كرامته وحريته، إلى جانب إشاعة روح المشاركة والتعاون بين الطلاب، والتركيز على أن يتحمل الطالب المزيد من المسؤولية في تثقيف نفسه وإثراء شخصيته.

٥ - تفعيل المشاركة الاجتماعية في التعليم:

تعلمنا من تجربتنا التاريخية ومن تجارب الأمم من حولنا أن الضمانة الوثيقة لنجاح أي مشروع، تكمن في تبني المجتمع له؛ فلا نجاح لأية خطة ما لم يستطع القائمون عليها إقناع المجتمع بها، ليجعلها جزءاً من همومه واهتماماته؛ وكل حمل يتم خارج رحم الأمة ورحم المجتمع، هو كالحمل الكاذب!.

مشكلات التربية واكتساب المعرفة، ليست مشكلات مدارس أو طلاب

أو دول، وإنما هي تجسيدات لمشكلات ثقافية واجتماعية وسياسية واقتصادية، تعاني منها أمة بأكملها؛ وينبغي أن يكون لكل فرد منها وظيفة ما في التخفيف من وطأتها.

سيكون من الهموم الكبرى لقادة الفكر والرأي والمشرفين على المؤسسات التربوية والثقافية - النجاح في إقناع الفرد في مجتمعهم بتقبل المزيد من التثقيف والنمو المعرفي في المجال الذي يهمه، أو الحرفة التي يعمل فيها. والذي يحول دون ذلك دائماً مجموعة من الحتميات الفلسفية والنفسية والاجتماعية؛ وليس أمامنا من خيار سوى مواجهة تلك الحتميات وتفتيت المشكلات الناتجة عنها؛ وهذا يحتاج منا أن نقيِّم الهياكل والمضامين الثقافية السائدة في ظل المقارنة بثقافات الأمم المعاصرة. وهذا سيقوي ثقة الناس بأنفسهم وبثقافاتهم، على خلاف ما يتبادر إلى الذهن.

إن النهوض بالتعليم بحاجة ماسة إلى مساهمة الناس جميعاً، وعلى جميع المستويات؛ فالتعليم حتى لا يتحجر، وينغلق على نفسه بحاجة إلى نقد اجتماعي قوي، وينبغي على (الرأي العام) أن يضغط على المؤسسات التربوية، ويحملها على تطوير نفسها لما فيه المصلحة العامة. وأعتقد أن قضية كقضية التربية، تستحق ملحقاً في جريدة كل سنة، ونصف صفحة كل أسبوع، يتم فيها مناقشة أنشطة المدارس وتقييمها. وما دامت المؤسسات التعليمية، قد قامت في الأصل لخدمة أبناء الناس، فمن حق الناس أن يثمنوا تلك الخدمة، ويكشفوا عن مواطن الخلل فيها.

المدارس من وجه آخر، لا تستغني عن نصح الأهالي؛ فأفكار التطوير كثيراً ما تأتي من جهات بعيدة عن مجال التربية. ويحتاج مجال العلاقة بين البيت والمدرسة إلى تنظيم وإيجاد آليات لتفعيل التشاور، وقبل ذلك إلى ثقافة تدفع دفعاً إلى تقديم النصح والمعونة إلى المؤسسات التربوية والعامة. لا نريد أن تكون الحلول المقدمة لحل مشكلات التعليم ثمرة جهود جهاز واحد، وإنما ثمرة الاستماع إلى كل أولئك الذين يعنيهم الأمر. وعلى

المدارس أن تسهل سبل الوصول إلى التعاون المثمر من خلال مجالس الآباء ولجان أصدقاء التربية والزيارات المتبادلة بين المدارس والبيوت... ولا تستطيع المدارس أن تحصل على ما تريد من دعم الأهالي ما لم يشعروا أن اقتراحاتهم تؤخذ مأخذ الجد والاهتمام. نحن بحاجة إلى علاقة شفافة بين المجتمع والمدرسة؛ وسيكون من المفيد أن تصمم المدارس استبانات، يملؤها الأهالي، تدور حول أداء المدارس على المستوى المعرفي والسلوكي، وستكون الفائدة أعظم إذا شكلت لجان مشتركة لتحليل تلك الاستبانات واستخلاص النتائج منها، ثم اتخاذ القرارات الإصلاحية بناء عليها.

التعليم من جهة أخرى بحاجة إلى العون المادي من الأهالي، فالحكومات من الآن فصاعداً سوف تواجه شحاً في الموارد المادية المخصصة للتعليم، وستزداد متطلبات التعليم على مستوى الكم ومستوى الكيف؛ وليس هناك سوى أحد خيارين: إما انحطاط التعليم وتراجعه، وإما إيجاد سبل وأطر لمشاركة الأهالي في دعمه. إن الناس في كثير من بلاد المسلمين، قد صار عندهم نوع من الإدمان على الخدمات المجانية غير آبهين بالنتائج التي ستترتب على ذلك. إن مبلغاً يسيراً في الشهر، يشكل ٣٪ من دخل رب الأسرة، يؤخذ من الطالب، لا يؤثر على تكاليف معيشة أهله، لكنه يؤدي إلى تحسين مستوى خدمات المدرسة، ويساعدها على تنظيم برامج وأنشطة مفيدة وكثيرة، لا يمكن أن تقوم بها من غير مال. وربما يكون من الأصلح أن يتم إنفاق دعم الأهالي في التجهيزات المدرسية، مثل المكتبات والمعامل وأجهزة الحاسب، وتمويل الأنشطة غير الصفية وغير ذلك مما يسهم في رفع كفاءة التعليم. وهذا لن يشكل في الحقيقة أي خسارة لأولياء الأمور؛ حيث سيستردون ذلك أضعافاً مضاعفة في نوعية إعداد أبنائهم للحياة. في العالم دول كثيرة، تتقاسم تكاليف التعليم مع الأهالي؛ ففي كوريا الجنوبية ـ مثلاً ـ تحاول الدولة أن تبقي تكاليف التعليم منخفضة، وتحمل الأهالي جزءاً منها، وهي تخفض الدعم الحكومي للتعليم كلما تقدم الطلبة في مراحل الدراسة، إلى أن يصل الأمر إلى تحميل

الأهالي نحواً من ٥٠٪ من نفقاته[١].

ربما احتاج كل ما ذكرناه إلى أمر إداري هام، هو تخفيف المركزية في الإشراف على المدارس، إذ من حق أهل كل منطقة أن يشعروا بتميز مدارسهم، وتجاوب المناهج مع نوع المعرفة الذي يحتاجونه في إطار هيكل معرفي عام تشرف عليه الدولة. وهناك دول معروفة بالمركزية الشديدة في كل شيء، ثم وجدت أنه لا سبيل إلى مشاركة الناس دون تفويض أجزاء من التخطيط التربوي والإشراف والتطوير إلى الأهالي؛ فالصين - مثلاً - قامت عام ١٩٨٦ بتفويض تطوير التعليم الابتدائي للسلطات المحلية في المناطق والأقاليم[٢].

إن تخفيف المركزية في التعليم، سيجعل الناس، يشعرون بالقرب من إدارات المدارس، كما سيقوي يقينهم بجدوى الاقتراحات والأفكار التي يبدونها، كما سيمكنهم من إدراك حاجات المدارس على نحو أفضل؛ وهذا كله سوف يسهل عملية البذل والدعم المادي المطلوب منهم.

٦ - تطوير نظم التعليم:

من غير الممكن أن نحل مشكلات التعليم، وأن نزيد من فاعليته من غير أن نطور نظمه، فالسكان في زيادة مستمرة، والمهارات التي يحتاجها الشباب أكثر بكثير مما كان مطلوباً في السابق، والتسرب من المدارس كبير، ولا سيما في البلاد الإسلامية الأشد فقراً؛ وهذا كله يتطلب أن يجد الناس أمامهم أطراً متنوعة وبدائل عديدة لما هو سائد اليوم من نظم التعليم.

من حق كل فتى وكل فتاة أن يجدا المؤسسة التعليمية التي تقدم ما يحتاجانه من علم ومهارة، مهما كان ظرفه أو ظرفها، ومهما كانت إمكاناته أو إمكاناتها؛ فذلك شرط أساسي للقضاء على الأمية الأبجدية والأمية الدينية

(١) وضع الأطفال في العالم عام ٢٠٠٠: ٤٢.

(٢) أنظمة التعليم وتحديات العصر: ١٥٣.

والأمية الحضارية، وشرط أساسي لنفض غبار التخلف الذي نعاني منه.

ما زالت المدرسة، هي المكان الأكثر ملاءمة لتعليم الأعداد الضخمة من الأولاد، لكن لا بد من أن تكتسب مرونة في أوقات الدوام، وفي المناهج التي تقدمها. سيكون من الضروري أن يجد أولئك المشغولون في الصباح وقتاً في المساء للدراسة، وأن يجد أولئك الذين لا يجدون أي وقت للتردد على المدرسة الجهة التي تهيئ لهم الدراسة بالمراسلة، وتبرمج لهم المعرفة، وتمنحهم الشهادة المناسبة.

إن نظم التعليم في العالم متشابهة في كثير من الأحيان، وهناك تنويعات عديدة، وجدوى النظام، لا تنبع ـ في أكثر الأحيان ـ من طبيعته، وإنما من ملاءمته وتلبيته للحاجات المعرفية والعملية للشباب والناشئة؛ ولذا فإنه يتعين على كل قطر إسلامي أن يجرب ما تتطلبه أوضاعه الخاصة من تطوير وتجديد في نظمه التعليمية. هناك أساليب عديدة، يمكن اتباعها، كما أن هناك نماذج كثيرة جربتها بعض الدول، ويمكن الاستفادة من كل ذلك.

من الباحثين من يرى أن من أساليب تطوير نظم المدارس، أن يعهد لإحدى كليات التربية في كل منطقة بتبني الإشراف على مدرسة من مدارس وزارة المعارف، حيث تتضافر جهود أساتذة الكلية في التخطيط لتلك المدرسة وإدارتها، وتقديم طرق تدريس حديثة ومتطورة فيها، ويوضع لها نظام امتحانات جديد مع المحافظة على أهداف كل مادة؛ كما أنه يتم تجريب نظام جديد للدوام وارتباط الأساتذة بالطلاب، ويتم تقويم نتائج تلك التحديثات على نحو مستمر؛ حتى نصل إلى عدد من النماذج الجيدة التي نشعر بوفائها بحاجات الناس، وتتلاءم مع ظروفهم، ثم تعمم تلك النماذج على المناطق كافة[١].

في بريطانيا أثبت تطوير بعض النظم التعليمية جدواه، حيث يتم في

---

(١) انظر: حول هذا بحوث مؤتمر التعليم وتحديات القرن (٢١) ص١٣٧.

بعض المدارس تقديم برامج خاصة، تتداخل فيها الخبرة العملية مع الخبرات المدرسية، وفي بعض دول أمريكا الجنوبية تمت إقامة مؤسسات في مستوى المدارس الابتدائية والمتوسطة، هي أشبه بوحدة إنتاجية، يتعلم فيها الطلاب إنتاج الحاصلات الزراعية، والقيام ببعض الأعمال الخشبية من أجل الاستعمال الشخصي أو البيع، وتترابط فيها مهارات القراءة والكتابة ومهارات العلوم الطبيعية والتقنية مع العملية الإنتاجية، وتكون محوراً لها[1].

إن جوانب القصور في التعليم العام، إلى جانب الظروف والأحوال الصعبة لكثير من الطلاب، تجعلنا نتساءل: كيف يمكن أن نشبع الحاجات التعليمية لأولئك الأشبال والشباب الذين يقعون خارج مسؤولية أية وزارة في البلد، وهم في الحقيقة كثر. والسؤال الأكثر إلحاحاً، هو كيف يمكن تطوير نظم التعليم الرسمي، وتحقيق التعاون بينه وبين التعليم غير الرسمي وغير النظامي لمعالجة حالات التسرب بين الطلاب الشائعة والكثيرة في طول العالم الإسلامي وعرضه؟؟

٧ ـ إعادة النظر في المناهج:

ربما كانت المناهج من أكثر العناصر التعليمية حاجة إلى النظر المتكرر والمراجعة الدائمة؛ فهي مرتبطة إلى حد كبير بعمليات إعادة التوازن للمجتمع، وتأهيل الطلاب لمعايشة المستجدات في جميع مجالات الحياة. لا يغيب عن البال أن التطرف في التجديد والتطوير، ليس بالشيء الحميد، حيث لا يشترط أن يكون الجديد أجود من القديم، ولذا فإنه لا بد من أن يصاحب التجديد وعي عميق بضرورة البحث العلمي في واقع المناهج السائدة وتحليلها، والتعرف على أوجه الجمود والقصور فيها. وأعتقد أن هناك جانبين لتطوير المناهج في عالمنا الإسلامي، هما:

أ ـ إن المناهج التي يدرسها الطلاب في التعليم العام غير كافية

---

(١) أزمة العالم في التعليم: ٣٠٥.

لتأسيس معرفة دينية وتاريخية وحضارية جيدة؛ فساعات (التربية الدينية) في السواد الأعظم من الدول الإسلامية غير فعالة، وغير كافية لتأسيس معرفة دينية حسنة. كما أن حاصل ما يتعلمه الطالب عن تاريخ الأمة وحضارتها، هو الآخر ضئيل، مع أن الأمم تتخذ من تاريخها وحضارتها أداة في تربية الناشئة، وأداة لتوكيد انتمائها، ومع أن البنية الثقافية الإسلامية مهددة اليوم بالوافدات الأجنبية؛ مما يستلزم تركيزاً جيداً على العلوم الشرعية والإنسانية، وصياغة مناهج على نحو يرفع من درجة حساسية الشباب نحو الحلال والحرام ويبصرهم بالإنجازات الحضارية الإسلامية، والتحديات التي تواجه أمة الإسلام في العصر الحديث، والإمكانات المتوفرة لها.

ب ـ نحن بحاجة إلى أن تكون لدينا مناهج معاصرة حقاً في طبيعة تصميمها، وفي نوعية الموضوعات التي تتناولها. ولا يكفي أن تعرض المناهج معلومات جيدة وموثوقة، بل لا بد من أن تدل الطلاب على جوانب التأزم في المعارف المتداولة، إلى جانب تلك المشكلات التي لم تظفر بحلول ناجعة؛ فهناك العديد من المجالات والمسائل التي تتطلب معارف جديدة، ولا سيما في المجال الأخلاقي والإنساني. ونظراً للتغير السريع في كل شيء فإن الطالب يحتاج اليوم إلى أن يتعلم كيف يختار القراءات الراشدة المتعلقة بشخصه، وكذلك كيفية التعامل مع المتغيرات. وهذا لن يتم إلا من خلال احتواء المناهج على معرفة رفيعة ورصينة، تقوم على التحليل والتعليل والربط، وليس على الوصف والسرد التقريري[١].

إن زماننا هذا يتطلب جيلاً يعرف خصوصيته الحضارية، ويتمتع بدرجة جيدة من العقلانية والمرونة إلى جانب النظرة البعيدة المدى، والاستعداد للعمل ضمن فريق، وهذا هو المحك الحقيقي لفعالية أداء المناهج لوظيفتها التثقيفية والتربوية.

---

(١) انظر: رؤية مستقبلية لدور التعليم والبحث العلمي: ٤٠.

لا بد لتحقيق درجة جيدة من (المعاصرة) أن يطلع الطلاب على ما يستجد في القضايا الكبرى في مسائل البيئة، والصراع على الموارد، ومسائل العنصرية والهندسة الوراثية، والاتجاه العام للنظم الدولية الجديدة، وما شابه ذلك، مما يشكل لدى الطلاب وعياً عاماً بالتطورات الكبرى ذات الأثر في حياة البشرية. حتى تستطيع المناهج تكوين العقول المرنة، لا بد أن تكون هي على درجة من المرونة؛ وهذا يقتضي أن نخفف من تقديس الكتاب المدرسي الذي لن يقدم للطلاب كل ما يحتاجونه؛ وذلك من خلال تطوير طرق التعليم، حيث يمكن التخفيف من الاعتماد على الكتب المدرسية من خلال إعطاء مساحات أوسع للحوار والنقاش خلال الحصص الدراسية، ومن خلال تكليف الطلاب بكتابة البحوث والتقارير العلمية عن بعض الموضوعات، ومن خلال المطالعة الحرة في المكتبة في بعض الموضوعات التي تعرضها المناهج المدرسية.

سوف نحدث الكثير من التغيير في مناهجنا إذا تمكنا من تحديد مواصفات الشاب القادر على خوض غمار حياة صعبة، والمنتمي إلى خير أمة أخرجت للناس. ولله الأمر من قبل ومن بعد.



إضاءة:

إن أدبياتنا تعلمنا أن أفضل طريقة لمواجهة التحديات الخارجية هو تدعيم الذات وإصلاح الداخل.

الخاتمة

حاولت في هذا الكتاب أن ألقي الضوء على بعض القضايا المهمة في الشأن التربوي والتعليمي؛ ونظراً لتباين الأوضاع التعليمية في البلاد الإسلامية؛ فقد صغت العبارات المصورة لواقع التربية والتعليم، ولإمكانات التطوير والحلول المنتظرة ـ بعبارات مرنة، كما أنني كنت أبحث دائماً عن القواسم المشتركة بين كل ذلك. وأعتقد جازماً أنني لا أستطيع أن أتفادى القصور الذاتي في معالجة قضايا كبرى كتلك القضايا التي عالجتها في هذا الكتاب، ولكن حسبي سلامة القصد وإفراغ الجهد؛ والله المؤمل في المثوبة والتوفيق.

بهذا الجزء نختم هذه السلسلة مع وجود قناعة تامة بالضعف والنقص، والاعتراف بأن هناك أشياء كثيرة مهمة لم أنتبه إليها، أو لم أوفها حقها من البحث والتأمل والمعالجة، وإن الجهود الكثيرة المباركة التي تبذل على امتداد ساحاتنا الثقافية، سوف تكمل النقص، وتسد الثغرات، وتقدم ما هو أفضل وأدق.

إن إنجاز هذه السلسلة في مدة لا تتجاوز خمس سنوات، ما كان له أن يتم لولا معونة وتوفيق من الله ـ جل وعلا ـ فله الحمد والمنة على ذلك؛ وأسأله أن يديم إمداده ويزيدنا من فضله.

وقد كان لمساندة أسرتي لي أعظم الأثر في الدأب والمثابرة وتحمل مشاق البحث والتأليف، ولا سيما زوجتي الفاضلة أم عمار؛ فأسأل الله أن يشركها فيما أصيبه من أجر ومثوبة على ما قمت به؛ إنه ولي كل نعمة ومولى كل إحسان.

كما أني أشكر أساتذتي وأصدقائي وزملائي - والذين لا أكاد أحصيهم - على التشجيع والتوجيه الذي لقيته منهم.

والحمد لله أولاً وآخراً؛ وصلى الله وسلم على عبده ونبيه محمد وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيلهم إلى يوم الدين.



الفهارس

١ـ فهرس المراجع .
٢ـ فهرس الأفكار والمقولات العامة
٣ـ فهرس الموضوعات .



ثبت المراجع

١ ـ آفاق المستقبل ـ تأليف جاك آتالي ـ ترجمة د. محمد زكريا إسماعيل ـ بيروت ـ دار العلم للملايين ط١ ١٩٩٢.

٢ ـ أثر تقنيات التعليم على الذكاء المروز لدى الأطفال في المرحلة الابتدائية ـ تأليف د. فائز الحاج ـ الرياض ـ دار الهدى ـ ط١ ١٤١٦.

٣ ـ أثر العلم في المجتمع ـ تأليف برتراند راسل ـ ترجمة د. تمام حسان ـ القاهرة ـ مكتبة نهضة مصر.

٤ ـ اجتماعيات التربية ـ تأليف أو لفابنكس ـ ترجمة د. محمد علي المرصفي ـ ط١ ١٤٠٩.

٥ ـ الإدارة: المهام والمسؤوليات، التطبيقات تأليف بيتردراكر ـ ترجمة اللواء محمد عبد الكريم القاهرة ـ الدار الدولية للنشر ـ ١٩٩٥.

٦ ـ أزمة التعليم المعاصر وحلولها الإسلامية تأليف د. زغلول النجار نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي عام ١٤١٦.

٧ ـ أزمة العالم في التعليم من منظور الثمانينيات تأليف فيليب كومز ـ ترجمة محمد خير حربي وزملائه ـ الرياض ـ دار المريخ ـ ١٤٠٦.

٨ ـ اغتيال العقل تأليف د. برهان غليون ـ بيروت دار التنوير ط٢ عام ١٩٨٧.

٩ ـ أمة معرضة للخطر ـ حول حتمية إصلاح التعليم في أمريكا ـ ترجمة د. يوسف عبد المعطي نشر مكتب التربية لدول الخليج العربي عام ١٤٠٤.

١٠ ـ أنظمة التعليم وتحديات العصر ـ تأليف د. عبد الله الجراش ـ نشر دار اقرأ ط١ عام ١٤١٣.

١١ ـ بحوث مؤتمر التعليم وتحديات القرن (٢١) الذي أقيم في جامعة حلوان عام ١٩٩٥ ـ تحرير د. أحمد إسماعيل حجي.

١٢ ـ تحضير الطفل العربي لعام (٢٠٠٠) تأليف د. محمد عماد زكي ـ القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٩٠.

١٣ ـ تحويل التدريب: استراتيجيات نقل أثر التدريب إلى حيز التطبيق ـ تأليف ماري برود وجون نيوستروم ـ ترجمة عبد الفتاح النعماني ـ نشر مركز الخبرات المهنية للإدارة عام ١٤١٦.

١٤ ـ التربية العربية والتعليم في العالم العربي في القرن (٢١) تأليف د. منير بشور ـ بيروت دار نلسن ـ ط١ عام ١٩٩٥.

١٥ ـ التربية في البلاد العربية: حاضرها ومشكلاتها ومستقبلها تأليف د. عبد الله عبد الدائم ـ بيروت ـ دار العلم للملايين ـ ط٤ عام ١٩٨٣.

١٦ ـ التربية المستمرة ـ دورية صادرة عن مركز تدريب قيادات تعليم الكبار بالبحرين العدد الثاني عام ١٩٨٠.

١٧ ـ التربية والتحدي (التجربة اليابانية) تأليف ميري هوايت ـ عرض وتعليق د. سعد مرسي ود. كوثر كوجك ـ القاهرة ـ عالم الكتب عام ١٩٩١.

١٨ ـ التربية والتغير الثقافي تأليف د. محمد الهادي عفيفي ـ القاهرة ـ مكتبة الأنجلو المصرية ط٥ عام ١٩٨٠.

١٩ ـ التربية والتقدم الاجتماعي والاقتصادي للدول النامية ـ تأليف جون وهانسون كول س برمبك ـ ترجمة د. محمد لبيب النجيجي ـ القاهرة ـ مؤسسة فرانكلين عام ١٩٧٦.

٢٠ ـ التربية وتنمية المجتمع العربي ـ تأليف د. عمر الشيباني ـ طرابلس ـ الدار العربية للكتاب ـ عام ١٩٨٥.

٢١ ـ التربية والنظام الاجتماعي ـ تأليف برتراندراسل ـ ترجمة سمير عبده ـ لبنان ـ مكتبة الحياة ط٢ عام ١٩٧٨.

٢٢ ـ التربية اليهودية في فلسطين المحتلة ـ تأليف عادل عطاري ـ بيروت ـ مؤسسة الرسالة ط١ عام ١٤٠٠.

٢٣ ـ تشجيع البحث العلمي ـ تأليف د. عبد الحكيم بدران ـ نشر مكتب التربية لدول الخليج العربي ـ الرياض عام ١٤١١.

٢٤ ـ تطور التربية في الصين ـ تقرير أعدته اللجنة الوطنية للتربية في الصين ـ ترجمة مكتب التربية لدول الخليج العربي ـ طبع عام ١٤٠٨.

٢٥ ـ التعلم ـ دراسة نفسية تفسيرية توجيهية ـ تأليف د. رمزية الغريب ـ القاهرة ـ مكتبة الأنجلو المصرية ط٤ عام ١٩٧١.

٢٦ ـ التعلم والتعليم في الجامعات والمعاهد العليا ـ تأليف روث بيردوجيمس هارتلي ـ ترجمة د. أحمد شكري ـ جامعة الملك عبد العزيز ـ مركز النشر العلمي.

٢٧ ـ التعليم العالي في أمريكا والشؤون الدولية ـ تأليف هوارد ويلسون وفلورانس ويلسون ـ ترجمة عبد الفتاح المنياوي ـ القاهرة ـ مكتبة مصر.
٢٨ ـ التعليم العالي في المملكة العربية السعودية بين التقليد والتجديد ـ تأليف د. صبحي قاضي ـ جدة شركة عكاظ ـ ط١ عام ١٤٠١.
٢٩ ـ التعليم مشروع اقتصادي ـ تأليف د. إميل حنا ـ سلسلة كتابك ـ رقم ١٤٨ ـ القاهرة ـ دار المعارف.
٣٠ ـ التعليم والثقافة كحاجات أساسية في الوطن العربي ـ إعداد د. سعيد إسماعيل وزملائه ـ دمشق دار طلاس ط١ عام ١٩٩١.
٣١ ـ التنمية التكنولوجية: مفهومها ومتطلباتها ـ تأليف د. يعقوب العبيد ـ الكويت ـ الدار الدولية للنشر ط١ عام ١٩٨٩.
٣٢ ـ التنمية المهنية لأعضاء هيئة التدريس بالجامعة ـ إعداد. محمد بشير حداد ـ رسالة غير منشورة، نوقشت عام ١٤١٧.
٣٣ ـ الثقافة الفردية وثقافة الجمهور ـ تأليف لويس دوللو ـ ترجمة د. عادل العوا ـ نشر دار عوديات ـ بيروت ـ باريس ط٢ عام ١٩٨٤.
٣٤ ـ جامع العلوم والحكم ـ تأليف ابن رجب الحنبلي ـ بيروت ـ دار المعرفة.
٣٥ ـ الجامع لأحكام القرآن ـ تأليف القرطبي ـ بيروت ـ دار الكتاب العربي ط٢ عام ١٩٥٢.
٣٦ ـ الجامعات الإسلامية ـ دراسة مسحية تحليلية تقيمية ـ تأليف د. محمد جميل خياط ـ مكة المكرمة ط١ عام ١٤١٤.
٣٧ ـ جريدة الباحث العربي عدد رمضان عام ١٤١٧.
٣٨ ـ جريدة الرياض ـ تاريخ ٦/٣/١٤١٨.
٣٩ ـ جريدة الشرق الأوسط ـ عدد ٦٧٢٠ ـ الصادر في ٢٢/٤/١٩٩٧.
٤٠ ـ دور الجامعات في عالم متغير ـ بقلم طائفة من المتخصصين ـ ترجمة د. عبد العزيز سليمان ود. إبراهيم مطاوع ـ القاهرة ـ دار نهضة مصر عام ١٩٧٥.
٤١ ـ دور التدريب في تطوير العمل الإداري ـ تأليف د. عبد الفتاح حسين ـ سلسلة مطبوعات المجموعة الاستشارية العربية ط١ عام ١٤١٧.
٤٢ ـ رؤية مستقبلية لدور التعليم والبحث العلمي من أجل تحقيق التنمية المستقلة ـ تأليف د. عمر محمد علي. دمشق ـ دار طلاس ط١ عام ١٤٠٨.
٤٣ ـ العرب وعصر المعلومات ـ تأليف د. نبيل علي ـ الكويت سلسلة عالم المعرفة ـ العدد ١٨٤ عام ١٩٩٤.

٤٤ - على مشارف القرن (٢١) تأليف د. توفيق القصير - الرياض - مكتب الآفاق المتحدة - ط١ عام ١٤١٣.
٤٥ - فتح القدير - تأليف الإمام الشوكاني - بيروت - دار المعرفة.
٤٦ - فصول في التفكير الموضوعي - تأليف د. عبد الكريم بكار - دمشق - دار القلم ط١ عام ١٤١٣.
٤٧ - الفكر الشرقي القديم - تأليف - جون كولر - ترجمة كامل حسين - الكويت - سلسلة عالم المعرفة - العدد ١٩٩ عام ١٩٩٥.
٤٨ - فلسفة التربية الإسلامية - تأليف د. ماجد الكيلاني - مكة المكرمة - مكتبة المنارة ط١ عام ١٤٠٧.
٤٩ - فلسفة التربية - تأليف أوليفية ربول - ترجمة د. جهاد نعمان - منشورات عويدات بيروت - باريس ط٣ عام ١٩٨٦.
٥٠ - قاموس جون ديوي. مختارات من مؤلفاته جمعها رالف ن. وين - ترجمة د. محمد علي العريان - القاهرة - مكتبة الأنجلو المصرية - عام ١٩٦٤.
٥١ - قصة الفلسفة - تأليف ويل ديورانت - ترجمة أحمد الشيباني - القاهرة - دار القارئ العربي ط٢ عام ١٤١٤.
٥٢ - قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي تأليف د. زغلول النجار - سلسلة كتاب الأمة قطر ط١ عام ١٤٠٩.
٥٣ - قواعد الأحكام - تأليف عز الدين بن عبد السلام - بيروت - دار المعرفة.
٥٤ - كتاب (المعلومات) لعام ١٩٩١ - الرياض - الآفاق المتحدة ط١ عام ١٩٩١.
٥٥ - كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس - تأليف إسماعيل بن محمد العجلوني - بيروت - مؤسسة الرسالة - ط٣ عام ١٤٠٣.
٥٦ - لسان العرب - تأليف ابن منظور - بيروت - دار صادر.
٥٧ - اللغة العربية في التعليم العالي والبحث العلمي - تأليف د. مازن المبارك - بيروت - مؤسسة الرسالة.
٥٨ - لماذا نعلم؟ - بأقلام مجموعة من الكتاب - تحرير لويز شارب - ترجمة د. محمد علي العريان القاهرة - مؤسسة فرانكلين عام ١٩٦٤.
٥٩ - ما هي الفلسفة؟ تأليف جيل دولوز وفيليكس غتاري - ترجمة د. جورج سعد - نشر دار عويدات - بيروت - باريس ط١ عام ١٩٩٣.
٦٠ - مجلة المعرفة الصادرة عن وزارة المعارف السعودية - الرياض - الأعداد: ١٧، ١٨، ١٩، ٢١ - عام ١٤١٧ والعدد ٣٢ عام ١٤١٨.

٦١ ـ مرآة الجامعة ـ الصادرة عن جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض ـ جمادى الآخرة عام ١٤١٨.
٦٢ ـ مستقبل التعليم والبطالة في الوطن العربي ـ تأليف د. نبيل النواب ود. نادر فرجاني ـ نشر المعهد العربي للتخطيط بالكويت ـ دمشق ـ دار طلاس عام ١٩٨٨.
٦٣ ـ المعجم الوسيط ـ إعداد لجنة بإشراف مجمع اللغة العربية بالقاهرة ـ القاهرة ـ دار الفكر.
٦٤ ـ المعلم أمة في واحد ـ تأليف ايرل بولياس وجيمس يونغ ـ ترجمة إيلي واريل ـ بيروت ـ دار الآفاق الجديدة.
٦٥ ـ مقدمة ابن خلدون ـ تحقيق المستشرق كاترمير ـ بيروت مكتبة لبنان عام ١٩٧٠.
٦٦ ـ مقدمات في البعث الحضاري ـ تأليف د. سيد دسوقي حسن ـ الكويت ـ دار القلم ط١ عام ١٤٠٧.
٦٧ ـ مقومات الشخصية المسلمة ـ تأليف د. ماجد الكيلاني ـ مكة المكرمة ـ دار الاستقامة ط١ عام ١٤١٦.
٦٨ ـ مناهج التربية الإسلامية والمربون العاملون فيها ـ تأليف د. ماجد الكيلاني ـ بيروت ـ عام الكتب ـ ط أولى عام ١٤١٦.
٦٩ ـ المنطق وفلسفة العلوم ـ تأليف ـ پول موي ـ ترجمة د. فؤاد زكريا ـ الكويت مكتبة دار العروبة عام ١٤٠١.
٧٠ ـ المنهاج الدراسي وصلته بالظرية التربوية الإسلامية تأليف د. عبد الرحمن عبد الله ـ الرياض ـ مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ط١ عام ١٤٠٦.
٧١ ـ نظام التعليم في تركيا ـ تأليف د. مصطفى متولي ـ الرياض ـ دار الخريجي عام ١٤١٢.
٧٢ ـ النظم التعليمية عند المحدثين في القرون الثلاثة الأولى ـ تأليف المكي أقلانية ـ قطر ـ سلسلة كتاب الأمة ط١ عام ١٤١٣.
٧٣ ـ وضع الأطفال في العالم عام ١٩٩٢ ـ إصدار منظمة الأمم المتحدة للطفولة ـ المكتب الإقليمي ـ عمان.



٢ - فهرس الأفكار والمقولات العامة

الفكرة	الصفحة
- إن التربية (كالحرب) تحتاج إلى الرجل المكيث الذي يملك فضيلة الصبر والانتظار	١٢
- التقدم الأفقي في المعرفة، لا ينعكس إلا على نحو محدود على التقدم الرأسي في العلوم الإنسانية، مما يجعل التقدم على صعيدها بطيئاً وغير مأمون دائماً	١٥
- إن الوحي يمنحنا الثوابت، ويرسم لنا الخطوط العريضة، وعلينا نحن أن نقوم بواجبنا في تلبية ما تأتي به المتغيرات الثقافية الكبرى من تحديات، وما تطرحه من أسئلة	١٦
- إن طبيعة التخصص تغري بالانحياز والرؤية الأحادية	١٧
- سيصل المربون إلى أهدافهم إذا استطاعوا مغالبة كل العوامل التي تفرز معطيات ضارة بالعملية التربوية، وأنى لهم ذلك؟!	١٨
- يمكن للتربية أن تكون عامل هدم إذا فقد المربون الشفافية الكافية للتغريق بين ما هو جوهري، وبين ما هو هامشي	١٩
- إن تاريخ البشرية يتميز بتحطيم الشعوب التي استخدمت التربية أداة لاستمرار ما هو موجود	١٩
- إن عدم إنجاز طبيعة الإنسان، هو سر عظمته، حيث يعني ذلك مطاوعة بلا حدود	٢٠
- إن الحضارة الحديثة، تمتلك معدات كاملة، لكن الأهداف الكبرى غامضة ..	٢١
- يثير العلم من الأسئلة على مقدار ما يمنحنا من اليقين، وسيظل في معارفنا بعض الفجوات	٢١
- الإنسان المتوحش نشأ أصلاً في بيئة متوحشة، والإنسان الرقيق اللماح اكتسب ذلك من بيئة تقدر هذه الصفات وتربي عليها	٢٣

الفكرة	الصفحة

- إن الحرص على التماثل الشديد، قد يدفع بالمجتمع نحو التحلل الذاتي ٢٣
- إن هذا الزمان هو زمان (المواطن العالمي) الذي يجوب الأرض معلماً ومتعلماً وآخذاً ومعطياً. ومهمة التربية أن تؤهل الشباب لذلك ٣٥
- إن الحضارة الغربية أضعفت إرادة الإنسان حين نقلت مجال السيطرة والتحكم من الإنسان إلى الأشياء ٣٧
- في شخصياتنا جوانب عدة، لا ينضجها إلا الزمن، ويجب أن نعطيه الفرصة الكافية . ٤٦
- إن من المهم جداً أن يشعر الطفل أن جميع تصرفات الأهل هي في النهاية لصالحه ٤٨
- إن كثيراً من الإحباط الذي يصيب المربين، يعود إلى عدم إدراكهم للأثر الضخم الذي تتركه البيئة المحيطة في نفوس الناشئة ٤٩
- إن الذاتية على ما فيها من ثوابت وملامح بارزة، ليست شيئاً ناجزاً ونهائياً، وتظل قابلة لنوع من التحوير ٥٠
- إن ما نقوله للناشئة، لا يستوعبونه على نحو مباشر، وإنما يمر بعملية (ترميز) تقوم بها البيئة المحيطة ٥٠
- إن كل رؤانا ووجهات نظرنا، يجب أن تحتفظ بنهايات مفتوحة، فهناك دائماً إمكانات للتغيير والتحسين ٥١
- إن الشعور بالكرامة متغلغل في أعماق الصغار، وإن من الحيوي المحافظة على هذا الشعور ٥٢
- جهودنا التربوية عبارة عن (خدمة) نقدمها لمن نربيهم، وبعضنا يحولها إلى نوع من الاستعباد ٥٣
- يتأثر الطالب بأستاذه أكثر من تأثره بأبيه؛ لأنه يرى أباه في كل أحواله، ولا يرى أستاذه إلا في أحسن أحواله ٥٣
- إن التجربة قد دلت على أن القيم التي يحملها الكبار، تجهض الكثير من الجهود التربوية، وتخذل أهل الغيرة من المربين ٥٥
- إن المطلوب من المربين أن يعرفوا كيف يوسعون محتوى الثقافة الإسلامية، وكيف يحددون اتجاهات جديدة لنموه ٥٧
- إن الحركة دائماً ممكنة لكنها إذا لم تؤصل وترشَّد، فقد تكون بالغة الضرر .. ٥٧
- نعني بـ (التكيف) امتلاك طاقة روحية وعقلية تمكن الناشئة من استيعاب الوافدات الجديدة، والتجاوب معها على نحو صحيح ٥٨

الفكرة	الصفحة

- ليس الإنسان قاصراً، ولكنه كسول إلى حد بعيد ٥٩
- إن في أوساطنا (حمى) تجتاح الصغار والكبار، هي حمى الإنجاز السريع ... ٦٠
- إذا استمرت وتيرة (البطالة) بالتصاعد، فإن كل بنياننا الأخلاقي والاجتماعي سوف يصاب بأضرار جسيمة ٦٠
- مسيرة الحضارة، كانت تتجه دائماً من الخاص نحو العام، ومن الانفراد نحو الاشتراك ٦٠
- إن صلاح أي مسلم لن يكتمل إذا كان صلاحاً فردياً، ما لم يتجاوز ذلك إلى مرتبة (الإصلاح) ٦١
- من المهم أن نوقن أننا لن نستطيع تحقيق مكاسب فردية دائمة في وسط منهار ٦٣
- إن المراجعة والنقد الذاتي، يسببان آلاماً للناس، لكنهما يمثلان الخطوة الأولى على طريق إيقاف التدهور ٦٤
- في حياتنا العامة خوف شديد من (الوضوح) ومحاولات مستميتة للظهور بالمظهر اللائق ٦٤
- حين يرى الطفل أن كل ما حوله تام وسائغ، فكيف يكون هو ناقصاً؟ ٦٥
- انتهى عصر التستر على الفضائح، واستعراض العضلات أمام الأهل والجيران، وبدأ عصر التحدي العالمي ٦٥
- إن التدخل الصارخ في خصوصيات الناس، قد أشاع فيهم روح المظهرية ٦٦
- إن الخلفية التاريخية للأسرة، تترك آثارها في حياة أبنائها أجيالاً عديدة ٦٨
- إن مما هو ثابت اليوم أن الزحام والإسكان الضيق، يؤثر في عدد كبير من الأطفال، ويعوق أداءهم التربوي ٦٩
- إن الإبداع كثيراً ما يتطلب شيئاً من الظروف المعاكسة ٧٠
- إن مستقبلنا على المدى البعيد، سيكون منوطاً بقدرة الإيمان والمثل العليا على تشكيل سلوكنا ٧٦
- كثير من الناس لا يتبلور إحساسهم بقيمة (العدل) إلا إذا تعرضوا للظلم ٧٧
- ستظل أعمالنا مشتتة ومتناقضة، ما لم نوحدها عن طريق الولاء المطلق لدين الله ٧٧
- إن الكمال الذي ننشده ليس بنية مكتملة محددة المعالم، والاستحواذ عليه ليس أكثر من مناهزته بصورة دائمة ٧٩

الفكرة	الصفحة

- تعلمنا التجربة التاريخية الأممية أن الظروف المادية، لا تشكل أبداً حواجز لا تقهر .. ٧٩
- إن من الحيوي ألا نبحث دائماً عن الطرق السهلة للوصول إلى أهدافنا، وأن نربي أطفالنا على تقدير العمل الشاق ٨١
- من الإخفاق يتعلم الإنسان سبر الطرق المسدودة، وامتلاك حاسة الاستشعار لمواطن القصور ٨١
- إن الاغتباط بالحق والحقيقة شأن من شؤون النفس الكبيرة ٨٢
- إن تربيتنا البيتية وعلاقات المعلمين مع طلابهم، تؤسس (ثقافة الصمت) لأننا نعتقد أن عدم وجود اعتراض على أي شيء هو دليل صحة وعافية! ٨٣
- إن مما أطال في عمر الحضارة الغربية اعتماد المفاتشة وإيجاد آليات عديدة، يراقب من خلالها كل فرد في المجتمع تصرفات كل فرد فيه ٨٤
- إن الأفكار حين لا تجد منفذاً للوصول إلى الآخرين، يكون مصيرها إما الذبول، وإما الاعوجاج والانحراف ٨٤
- إن تقدم العالم، كان في الغالب عن طريق (الأزمات) وإن القفزات العلمية جاءت نتيجة الاصطدام بمشكلات كبرى ٨٥
- علينا أن ننظر بجدية إلى خطورة ما نجهله حول كل قضية من قضايانا المعاصرة ٨٦
- إن قدر العالم لا ينبع من كثرة ما يعرف، وإنما من حدسه بما لا يعرف وتقديره له وأخذه بعين الاعتبار عند إصدار الأحكام ٨٦
- إن صاحب الفهم الصحيح، لا يبني من الأفكار والمسلمات ما يتجاوز ما يتوفر لديه من معلومات وبراهين ٨٦
- إن عصرنا هو عصر (الترحال) وإن علينا أن نهيئ أبناءنا لذلك ٨٧
- في الاختلاف ثراء وتنوع وإخصاب وتعاون، وهو عامل أساسي في توازن الحياة العامة ٨٧
- الشعوب النامية تعاني من مشكلة الغموض القانوني، فعندها إلى جانب كل قانون مكتوب قانون غير مكتوب ٨٨
- من خلال الحوار والنقاش، ومن خلال الوقوف على الأخطاء والأهواء، نبصر طريقنا إلى المنظور الكلي الذي هو الحقيقة ٨٨
- إن سعة الفهم لا تؤدي إلى الاتفاق في الآراء، لكنها تمنح الأساس للاختلاف ٨٨

الفكرة	الصفحة
ـ (العقل المثقف) هو ذاك الذي اجتاز عدداً كبيراً من حالات التدرب على التفكير المستقيم، والقادر على استخلاص نموذج خاص من خلال استعراض عدد كبير من وجهات النظر المختلفة في المسألة الواحدة	٨٩
ـ توحد عقول الناشئة مع البيئات التي يعيشون فيها، يحولهم إلى (إمّعات)	٨٩
ـ إن كثيراً من تقدم المسلمين مرهون بامتلاك الشباب روح المخاطرة من أجل العلم وأصول المنهج العلمي	٩٠
ـ إذا أردت أن تعرف مدى توطن الروح العلمية في أمة، فانظر ماذا يعمل الناس في إجازاتهم وأوقات فراغهم	٩١
ـ لن تمتلك أمتنا زمام الحضارة إلا إذا أصبح البحث عن الجديد حركة مجتمع لا حركة صفوة	٩١
ـ يجب أن تظل (الحقيقة) حرة مستعلية على الاستغلال والمتاجرة، وإلا فقد يصبح العلم سلاحاً لقتل الحياة	٩٢
ـ إن السعي إلى تأمين سلامة الناس وتخليصهم من مشكلاتهم، يقتضي دائماً أن يعرِّض العلماء سلامتهم الشخصية لبعض المخاطر	٩٣
ـ الخيال يحملنا إلى عوالم، لا تقع في مجال الخبرة البشرية: بعضها على حواف الممكن، وبعضها على حواف المستحيل	٩٤
ـ معرفة ما هو كائن لا قيمة لها إلا إذا ارتبطت بالإمكانات المحتملة	٩٤
ـ إن أكثر من ٩٠٪ من الأفكار والنظم والأساليب، بينه نوع من التعارض على مستوى من المستويات، مما يجعلها قابلة للنقد والتمحيص	٩٦
ـ إن العقل البشري، يستطيع أن يجمع بين أقصى درجات المنهجية وأقصى درجات الخرافة. والبنى العميقة لمعظم الثقافات هي بني خرافية	٩٧
ـ إن تقديم المعرفة في إطارات من الفهم والنقد، هو الذي يحولها من عبء على الذاكرة إلى أداة تفتح وإنضاج	٩٨
ـ إن ما يدل على نبل الإنسان، ليس ما يفعله، وإنما ما يتمنى بصدق أن يفعله	٩٩
ـ إن ما نشاهده من جودة وإتقان في المصنوعات والأشياء المنتجة، هو ـ بمعنى ما ـ صدى لكينونة إنسانية منظمة	٩٩
ـ الخبرة الجيدة، هي التي تمحص أشكال القصور والزيف، وهي التي ترشد إلى الأوضاع التي تبلغ فيها الأشياء اكتمالها	١٠١

الفكرة	الصفحة
- الأشياء الجميلة، أشياء متفوقة، تجاوزت المستويات المألوفة والآفاق المنتظرة	١٠٢
- إن درجة الانبهار بالشيء الجميل، تتطابق مع (المسافة الجمالية) بين المختزن في الخبرة، وبين المستوى الذي يشعه الشيء الجميل	١٠٢
- إن كل أشكال القبح، هي على مستوى ما، موصولة بمعنى من معاني المعصية	١٠٤
- إن الخشية تتملكني من أن تفقد الأمة الإسلامية من الأهداف والغايات الكبرى للوجود على مقدار ما تتملكه من وسائل التحضر وأساليبه	١١٠
- إن على المؤسسات التعليمية أن تجعل من نفسها البيئة النموذجية لتجسيد ما تقدمه من مثل وقيم لطلابها	١١٢
- ستنجز المدارس الكثير حين تجعل من قاعاتها منصات لمناقشة أنواع التصدع بين المبادئ وأشكال السلوك اليومي	١١٣
- ما يقدمه (الذكاء) في فهم الواقع ضئيل بالنسبة إلى ما تقدمه الخبرة المتراكمة والتجربة	١١٥
- ما قيمة الأفكار إذا لم نستطع توظيفها في حلول المشكلات الأخلاقية والمعيشية التي يعاني منها الناس كل يوم؟	١١٦
- إن التدفق المعرفي الهائل، قد يحسن من درجة الوعي العام، لكنه في الغالب يعطي انطباعات مشوشة	١١٨
- تكتسب المعارف من الصلابة على مقدار ما تحظى به من تداول العقول والأفهام لها	١٢٠
- كل المذاهب المنحرفة، نشأت وترعرعت في الخفاء، وهي دائماً تستمد استمرارها من عدم تعريضها للتداول والمناقشة	١٢١
- إن العلم لا يملك أخلاقية خاصة تعصمه من أن يسلك مسالك تدمر البشرية، ولذا فلا بد من إدارة معطياته بحذر شديد	١٢١
- ما جدوى مفتاح من ذهب إذا كان لا يفتح أقفال التخلف الذي يجثم على صدورنا؟!	١٢٢
- إن كثيراً من مثقفينا بحاجة إلى إعادة تأهيل؛ حتى يتمكنوا من فهم حاجات الأكثرية الصامتة	١٢٣
- كلما نضج العقل أكثر، تشوق إلى المزيد من المعرفة، وطلبه للمزيد من المعرفة، هو داؤه وترياقه في آن واحد	١٣١

الفكرة	الصفحة

- من خلال التواصل العالمي المكثف صار ما نملكه من مستويات معرفية نسبي القيمة، وأهميته من وزنه في المعايير العالمية ١٣٣
- إن الطاقات الكامنة في الإنسان، تتيح له الانفتاح على جميع الاحتمالات، وهذا الانفتاح هو الذي يجعل نتائج التعليم والتدريب مبهرة وعظيمة ١٣٤
- إن فجاجة الإنسان تجعله يتكيف مع البيئة عن طريق المحاولة والصواب والخطأ. وعن طريق العلم والخبرة يتكيف معها عن طريق الاستبصار ١٣٥
- من غير مستوى جيد من المعرفة، يصعب فهم المرامي الحضارية للإسلام ... ١٣٨
- حاجة الأمة الأساسية ليست إلى صفوة مستنيرة، وإنما إلى استنارة عامة ١٣٩
- كلما حدثت تحديات كبيرة، فإن العلم يطلق الاستجابات المناسبة لها ١٤٠
- لا تفقد المعلومات قيمتها عن طريق التقادم فحسب، وإنما عن طريق قراءتها قراءة جديدة في ضوء الخبرات المتراكمة ١٤١
- لم يعد التساؤل اليوم عما تجب معرفته بل عما لا يجوز الجهل به ١٤١
- جوهر التعلم مدى الحياة أن يساعد كل واحد منا على تغيير صورته عن نفسه، والتخلص من كل الصور النمطية المبكرة التي شكلها لنا الآخرون، أو توصلنا إليها نتيجة معاناة شخصية ١٤٣
- العظماء والسباقون من الناس، هم في الأصل أشخاص لا يملكون صوراً نهائية لأنفسهم، وشعارهم الدائم: إن ما هو أفضل ما زال في الأفق ١٤٣
- الاستجابة العليلة للتحديات، هي التي تحولها من محفزات على التقدم إلى عقبات ومشكلات في طريقه ١٤٤
- إن التعلم المستمر هو الحيوية التي تمكن الإنسان من أن يعيش إلى أن يموت! ١٤٤
- إن بعض ما ينشر، يشوه الرؤية، ويحرف القارئ عن الوجهة الصحيحة ١٤٦
- إن ما نقرؤه ونسمعه لا يصبح ملكاً لنا إلا من خلال التفكير فيه ١٤٦
- إن الجمود والنمطية، هما السمة الأساسية لمؤسساتنا التعلمية، وروح التعليم فيها خامدة! ١٥٠
- إن الإمكانات التي نملكها للارتقاء بمعارفنا كثيرة، لكن المشكلة في ضعف الهمة وفقد النفس التواقة! ١٥٢
- كثيراً ما تكون الخطوة الأولى، هي أهم عمل في مسير طويل ١٥٥
- كثير من الكليات لا تمنح نفسها من الوقت لاختيار (معلم المستقبل) ما يمنحه الناس أنفسهم عند شراء سلعة معمرة! ١٥٦

الفكرة | الصفحة

- إن التنمية الروحية والفكرية والمهنية، ربما تكون الأكثر نجاعة والأقل كلفة بالنسبة إلى الدول النامية ١٥٧
- المعرفة في الأصل واحدة، وقد قسَّمها الإنسان بغية التمكن من استيعابها ١٥٨
- إن طول ممارسة أية مهنة، يقتل روح المبادرة، ويرسخ النمطية ١٥٩
- القطاع التعليمي بطبيعته، يميل إلى الركود، وإيجاد آليات لتثبيت الحالة الحاضرة ... ١٥٩
- الطالب يقوِّم أستاذه تقويماً شاملاً متكاملاً، ويتعامل معه على أساس ذلك ... ١٦٢
- طول ممارسة التعليم، قد يصوغ إنساناً محطماً مفلساً في طاقاته الروحية والعقلية إذا لم يكن على جانب من الحيطة والحذر ١٦٢
- إن الاحتفاظ برغبة قوية للنمو والاكتشاف والتحرر من الرتابة، هو السبيل الوحيد للحيلولة دون تحلل الشخصية، وفقدان ميزة الحياة ١٦٣
- كل شيء الآن يحتشد ويتراكم، ومع هذا فإن هناك مناطق مظلمة تحتاج إلى اكتشاف، وفراغات معرفية تحتاج إلى ملء ١٦٤
- إن المعرفة التي لا تتصل بالناس أو بمعارف أخرى تظل محدودة الفائدة منقوصة القيمة ١٦٤
- على المعلم أن يبحث عن منطقة عيش فكرية ونفسية تمكنه من النمو الجيد . ١٦٥
- إن الرتابة، تسهِّل العمل، لكنها تولد الركود، وتبلد الإحساس ١٦٥
- إن الخضوع للبيئة، قد يحوِّل الإنسان إلى جزء تافه في آلة كبيرة، كما يجعله مستعبداً لحياة فقدت أهدافها الصحيحة ١٦٦
- لن تكون الأهداف سامية ما لم تتجاوز أطر المصالح المحضة والهموم الذاتية الصغيرة ١٦٧
- إننا بحاجة دائمة إلى التطلع إلى ما يمكن أن يكون. والمسافة الفاصلة بين الواقع والمأمول هي مصدر النمو والحفز المستمر ١٦٨
- تظهر براعة الإنسان حين يستخرج من هيكل محطَّم جزءاً صغيراً قابلاً لأن يكون شيئاً عظيماً ١٦٨
- إن وظيفة المعلم هي (الكلام) وهي وظيفة بطبعها تستهلك الطاقات الروحية . ١٦٨
- أمواج التقدم العلمي، تدفع بالمتخصصين دائماً نحو الحافة ١٦٩
- المعلم الصالح مثل المواطن الصالح، هو قبل كل شيء إنسان صالح ١٧٠
- قد يكون تأثيث مدينة كاملة أسهل من تغيير اتجاه شخص، أو تحوير مركبه العقلي! ١٧١

الفكرة	الصفحة

- إن مرض التفوق هو الوثوقية الزائدة ١٧١
- إن المعلمين بحاجة إلى أن ينموا في أنفسهم درجة عالية من الحساسية الاجتماعية إذا ما أرادوا إحداث نوع من التجاوب النفسي مع طلابهم ١٧٢
- مهما كان موقف الأستاذ من طلابه قاسياً، فينبغي أن ينتهي بكلمات ونظرات، ترفع، ولا تضع، وتشجع ولا تحبط ١٧٤
- الدعابة هي خميرة العلاقات الإنسانية، وهي الوسط الكيميائي الذي يتفاعل باستمرار ١٧٤
- عمل المعلم اليوم مزيج من مهام الأب والقائد ومدير المشروع والشارح والناقد ١٧٥
- العادات العقلية ظروف شرطية للكفايات الفكرية، فهي تحدد للعقل التخوم والمدارات التي سيعمل فيها ١٧٧
- إن أشكال المقولات التي (تقولب) عقلية المرء، هي التي تحدد آفاق فكره وطبيعة امتصاصه للمعارف والتعامل معها ١٧٧
- إن من مستلزمات (التفسير التآمري) للواقع والتاريخ اللجوء الدائم إلى عادة(الانتقاء) الذي يمكِّن العقل من القيام بعمله ١٧٨
- حب الاستطلاع إمكانية في نفس الطفل، لكنها تحتاج دائماً إلى حماية ورعاية ١٨٠
- ضحالة ثقافة المعلم، تدفع الطلاب إلى عدم توجيه أسئلة له؛ من باب الرفق به! ١٨١
- التدريس هو فن إيصال المعلومة إلى الطالب؛ والجانب المهاري فيه ذو أهمية بالغة ١٨٤
- إن أسلوب الرجل، هو الرجل نفسه، ولا ينطبق هذا على شيء كانطباقه على مهنة التعليم ١٨٤
- أمرنا الله ـ جل وعلا ـ بتدبر القرآن، وتكفل لنا بحفظه، فاشتغلنا بالحفظ، وتركنا التدبر! ١٨٦
- المجتمع الذي تتمحور حياته حول عدد من الأشخاص في مجال من المجالات، ينشئ على نحو غير مقصود (المعلم) الملقن ١٨٦
- قد يكون (الارتحال) نفسه أهم من المكان الذي سنصل إليه ١٩١
- إن إثابة الطلاب على بعض إنجازاتهم، قد تفقد قيمتها إذا اشتملت على عنصر المبالغة، أو إذا تم منحها بسخاء بالغ ١٩٣

الفكرة	الصفحة

- حرص الإدارة على ضبط إيقاع الحركة في المدرسة، يدفع إلى السلبية وسوء الخلق ١٩٤
- الأعمال الحضارية العظيمة، لا تقوم على المنع والخوف والتوجّس، وإنما تقوم على الإيمان والحب والشغف والمبادرة الذاتية والتضحية ١٩٤
- كلما ارتقى الإنسان كان تأثير العقاب المعنوي فيه أشد. والأسر المحطمة والجاهلة هي التي تعتمد استخدام العقاب البدني في تربية أبنائها ١٩٧
- هناك إجماع على أن التعليم لا يمكن أن يكون مهنة المترفين والأثرياء ١٩٩
- يمكن للوضع المتردي للمعلمين في كثير من البلاد، أن يحول هذه المهنة إلى وصمة اجتماعية! ٢٠٠
- بسبب الضغوط على حركة التعليم الشرعي قديماً، اشتغل كثير من العلماء بأمور فرعية، وأسدل الستار على قضايا جوهرية، كانت بحاجة إلى تشكيل وعي مجتمعي حولها ٢٠٦
- يتجمد الفكر إذا لم يكن في الواقع المعيش ما يحفزه على تطوير نفسه وتطوير طروحاته ٢٠٦
- وعي الحركة العلمية بذاتها شرط لاستمرار قيامها بوظائفها، وشرط لإبقاء العلم في علاقة جدلية مع الواقع المعيش ٢٠٦
- حين أخذت الحضارة الإسلامية بالتراجع، خسرت العلوم الشرعية، البيئة الصحية التي تحتاجها للازدهار والنمو ٢٠٧
- أكثر المؤسسات الشرعية، ابتليت بالقصور الذاتي، كما ابتليت بالتآمر الخارجي ٢٠٩
- قطاع التعليم بطبيعته، قطاع (حرون) والعاملون فيه أميل إلى التقليد ٢١٢
- أول خطوة على المعاهد الشرعية أن تخطوها، هي أن تحدد أهدافها على نحو دقيق وواضح ٢١٢
- هناك ظاهرة مشتركة، تطبع معظم إنتاج مؤسساتنا في العالم الإسلامي، وهي ظاهرة انخفاض مستوى (النوعية)! ٢١٤
- يفقد الكثير من البراهين التي تساق على المسائل العقدية الكثير من مصداقيته وإقناعه حين تختلف القاعدة الثقافية التي توجه آليات الفهم والاقتناع ٢١٦
- المجال الروحي بطبيعته شديد الحساسية، وينبغي أن يتم العمل فيه بدقة ووعي ٢٢٢

الفكرة	الصفحة

- دائماً تكون دوائر النظر أوسع من إمكانات التطبيق ٢٢٥
- حين تجتاح المجتمعات رياح الاضطرابات العاصفة، تكون الجامعات من أهم المؤسسات التي تحافظ على توازن المجتمع، وتوائم بين القديم والجديد ٢٢٩
- لا تستطيع الجامعات أن تقول كل شيء لطلابها، لكنها تستطيع أن تنمي لديهم (الحساسيات) التي تمكنهم من اتخاذ المبادرات والمواقف الصحيحة
- نظامنا الرمزي يتكوَّن من معطيات تاريخية ومنهجية ٢٣٢
- من الصعب استيعاب الواقع ما لم يتم استيعاب جيد للتاريخ ٢٣٢
- فقد الطالب الجامعي للخبرة الجيدة يعرضه لخطر السلبية أو الاندماج الكلي، وكلاهما مصدر من مصادر التحلل الذاتي ٢٣٢
- الوعي بمجمل التحديات التي تواجه الأمة ـ شرط أساسي للوصول إلى محكات نهائية في مسائل التغيير والإصلاح الاجتماعي ٢٣٣
- إن المكانة المرموقة التي تحتلها الجامعات في مجتمعاتها، تعطيها حق الريادة، وترتب عليها في الوقت نفسه مسؤولية النهوض بالبيئة المحيطة ٢٣٤
- إن الجامعات تعكس على نحو لا مهرب منه كل التغيرات الفكرية والاجتماعية والحضارية التي تحدث داخل مجتمعاتها ٢٣٦
- يبدو أن الشكوى الدائمة شيء ملازم للطبيعة البشرية، أو هي مما اخترعته للتحريض على التقدم ٢٣٧
- أزمة (الهوية) التي نعاني منها ثمرة مباشرة لانطفاء جذوة الإبداع، وركود الإنتاج الثقافي الجيد ٢٣٧
- لا هوية من غير فكر، ولا فكر من غير إنتاج فكري، ولا إنتاج فكري من غير مؤسسات تحتضنه وتساعده ٢٣٧
- إن من طبيعة الفكر أن يهزم الفكر، والمعرفة التي لا تنمو تتأسن، وتفقد مصداقيتها ٢٤١
- إن التعليم الجامعي خدمة تقدَّم للطلاب، ومن حقهم أن يبدوا رأيهم فيما يقدم إليهم ٢٤٤
- إن الاتجاهات اللغوية الحديثة، ترفض اعتبار اللغة وعاء مجرداً للفكر، فهي وعاء ومضمون معاً ٢٤٦
- إن التفكير إذا ما خضع لمقتضيات الطرق العلمية، فإنه يتخذ الخطوات نفسها ـ حيثما كان وبأي لغة اختيرت ـ في وصف التجربة ٢٤٦

الفكرة	الصفحة

- إن اللغة مهما كانت قاصرة، تظل كائناً مبدعاً وشديد الطواعية ٢٤٧
- كلما كان الطالب أصغر سناً، كانت حاجته إلى التلقين والتمدرس وتلقي (المعارف المقفلة) أشد ٢٥٢
- إن العرض الأحادي للمسائل دون مقارنة أو نقد يكوّن عقلية البعد الواحد، وينشر روح التحزب والتعصب ٢٥٢
- إن متطلبات الحياة، تدفع باستمرار نحو تطوير المعرفة وإيجاد تنظيمات جديدة لها ٢٥٣
- إن المنهاج يحتاج إلى أن يظل محافظاً على علاقات متوازنة بالنظريات والحقائق المعرفية من جهة، والمتقضيات التي يفرضها الارتقاء الحضاري والتعايش الاجتماعي من جهة أخرى ٢٥٤
- إن حيوية التعليم الجامعي، لا تبدو واضحة إلا إذا وضعناه في سياق منظومة تنموية وحضارية جديدة ٢٥٩
- البطالة لا تسبب شحاً في الموارد الشخصية للعاطلين عن العمل فحسب، وإنما تسبب لهم ارتكاسات نفسية واجتماعية خطيرة ٢٦٦
- على الشباب أن يعلم جيداً أنه إذا لم يساعد نفسه لم يساعده أحد ٢٦٦
- من إبداع حلول جديدة، ومواجهة مشكلات متجددة، تتكون آلية التقدم العلمي والحضاري ٢٧٤
- إن البحث العلمي يقدم معرفة منظمة أكثر، لكنه لا يقدم حلولاً فورية للمشكلات الأكثر عمقاً ٢٧٥
- إذا لم يستطع البحث العلمي أن يحل مشكلات المجتمع، ويسهم في تطويره، فإنه لا مفر أمامه من أن يتخلف، ويحيا على هامش النظام العلمي والتقني ٢٧٦
- إن كثيراً من مراكز البحوث في العالم الإسلامي، قد تحول تدريجياً إلى ما يشبه (الدواوين الحكومية) حيث تكدس فيها الموظفون الذين يستهلكون مواردها! ٢٧٩
- إن المعلومات لدينا شحيحة، وإدارتها مع ذلك سيئة ٢٨٠
- العلم يولد نماذج جديدة، والنماذج الجديدة تمكن العلم من إعادة طروحاته وتجديد علاقاته ٢٨١
- لا يتقدم العلم من غير النقد وقدح الفكرة بالفكرة، وتحقيق البحث بالبحث . ٢٨١

الفكرة	الصفحة

- البيئة العلمية التي لا تخرج باحثاً خلوقاً، هي بيئة مهترئة ٢٨١
- الوظيفة النقدية الاجتماعية، هي التي تنقل الإنسان إلى درجة مفكر ٢٨٢
- القطيعة مع التراث ومع الثقافة الإسلامية، هي أصل الاستسلام لأخذ علوم الغرب، ومناهجه دون تمحيص أو تطوير ٢٨٢
- استجابة الناس إلى الجهود الإصلاحية، لا تتم في فراغ، وإنما تحتاج إلى توفر شروط ومناخات معينة ٢٨٦
- تولد الحياة الطيبة من بوتقة نسيج معقد من العناصر الروحية والمادية ٢٨٧
- بإمكان التراث الضخم أن يساعد على العمل، وأن يرشد إلى الوجهة الصحيحة، كما أن بإمكانه أن يبرمج عقل الأمة برمجة خاطئة ٢٨٨
- إن فائدتنا من تكديس المعلومات والأخبار ستكون محدودة، ما لم نمتلك رؤية نقدية للانتفاع بذلك وتوظيفه في حياتنا المعاصرة ٢٨٩
- القصور الاقتصادي في حياتنا ليس أصيلاً، وإنما هو انعكاس للقصور في الجوانب الأخلاقية والسياسية والاجتماعية ٢٩١
- لا تتعرف الأمم على ما هية ثقافتها إلا حين تكون تلك الثقافة مهددة بالزوال ٢٩٥
- سوف يتوفر الوسط المشجع على البحث العلمي حين يكون الشوق إلى اكتشاف المجهول حيوية تتغلغل في سائر أوصال المجتمع ٢٩٦
- من طبيعة الإنجازات الكبرى أنها تتأبى على التأطير والسجن في أوعية محدودة ٢٩٧
- إن مهمة العلم أن يرتاد آفاق المجهول... لكن ذلك لا يؤدي إلى تحسين نوعية الحياة على نحو ملموس، ما لم يترجم إلى تطبيقات عملية، ويتجسد في وسائل توفر الراحة للناس ٣٠١
- التعليم التقني يشكل الأرضية التي تتلاقى عليها إشراقات الفكر مع قوانين الطبيعة، مع الخبرات المتراكمة ٣٠٢
- كان الإغريق يرون أن الإنسان التقني، يعارض الإنسان بالمعنى الصحيح، وقد أدى اتصال العرب بهم إلى تعميق كراهيتهم للمهن والحرف والأعمال اليدوية ٣٠٩
- ترسخ في ثقافتنا على نحو خفي أن العلوم المهنية والتقنية، هي منتجات فرعية للمعرفة المتقدمة، واتصالها بالثقافة اتصال غير مباشر ٣٠٩
- إذا ما أردنا للتعليم المهني أن يكتسب جاذبية أكبر، فإن علينا أن نطعِّم مناهجه بمواد ذات بعد ثقافي إنساني بعيدة عن التطبيق ٣٠٩

الفكرة	الصفحة

- إن إنعاش التعليم المهني، لا يقصد منه نفع فئة من الناس فحسب، وإنما نفع مجتمع عليه أن يتعلم كيف يقوم بشؤون نفسه ٣١٥
- ما لم يتم تنسيق الجهود البحثية مع الجهود التصنيعية، فإن الصناعة ستبقى جسداً بلا روح، وسيبقى البحث العلمي روحاً بلا جسد ٣٢٣
- إن ما يحتمل أن يبلغه كل واحد منا من رقي روحي وفكري وأدائي أهم بكثير مما هو كائن ومشخص في حياتنا العملية ٣٢٤
- إن الذات الفاضلة معنى يتجسد في الاختيار الأخلاقي الراشد وتحمل المسؤولية والمبادرة إلى فعل الخيرات ٣٢٤
- كل العلوم تبدأ على شكل ملاحظات فلسفية، ومع الأيام (تتقولب) لتصبح فنوناً، ولتفقد بالتالي تألّقها وحريتها ٣٢٥
- بين الثقافة والقانون علاقة جدلية؛ فالقانون يوجد ثقافة، والثقافة توسع من نفوذ القانون واحترامه ٣٢٩
- إن وعينا بما لدينا من خلال معرفة ما لدى الآخرين، قد يكون أهم مكاسبنا من (العولمة) التي أظل زمانها ٣٢٩
- لا خيار لنا في الإصرار على الاستمرار في الارتقاء والتقدم، ولكن لذلك ثمنه الذي يجب دفعه عن طيب نفس ٣٣٢
- اتساع طموحات الناس وأعراض التغير السريع أديا إلى نوع من الربط بين ما يحدث من تقدم حضاري وبين ارتفاع وتيرة الشكوى ٣٣٥
- اعتمدت الدول التي تقود التقدم الحضاري (التعليم) على أنه المدخل الأساسي للخلاص من المشكلات، والارتقاء في معارج التقدم ٣٣٥
- إن حجم كل مشكلة مساو للفرق بين ما هو موجود وبين ما هو مطلوب ٣٣٦
- إن العقل - بطبيعته لا يستطيع فهم الواقع إلا على مراحل، وهو يعاني من بطء إيقاعه في فهم المتغيرات المتلاحقة، واقتراح التكيفات الملائمة لها ... ٣٣٩
- إن الطبيعة الإنسانية ليست متصلبة إلى حد التأبي على التأقلم، ولكن الناس من خلال مألوفاتهم وتركيباتهم الذهنية والثقافية، يكتسبون طبيعة ثانية، ربما تكون أصلب من الأولى ٣٣٩
- إن التحجر الموجود في النظم والمناهج التعليمية، يعود في كثير منه إلى نوع من القصور في المضامين النفسية والفكرية لكثير من القائمين على المؤسسات التعليمية ٣٣٩

الفكرة	الصفحة

- إن التطورات السريعة، قد أدت إلى تجديدات غير منضبطة، مما أدى إلى تفكيك النظم الثقافية والاجتماعية الموروثة! ٣٤٠
- إن جوهر كثير من الأزمات الاجتماعية، يعود إلى أسس أخلاقية ٣٤٠
- إن الطبقية الموجودة في كثير من المؤسسات التعليمية قد حولت التعليم من وسيلة دمج اجتماعي إلى أداة تمزيق في أوصال المجتمع ٣٤٢
- نحن نؤمن أن كثيراً من مشكلات التعليم، لم ينبع من ضعف الاقتصاد وحده، لكن هناك أزمات كثيرة يعاني منها، لا يمكن تجاوزها عن غير طريق المال ٣٤٥
- إن تصوير تاريخنا وواقعنا على أنه مجموعة من الانتصارات، يزود الناشئة بالسذاجة، ويجعلهم لقمة سائغة للإعلام الأجنبي المعادي! ٣٤٧
- لا ينبغي أن يظن أن تأثر الطلاب بمناهج الدراسة أكثر من تأثرهم بسلوكات معلميهم أو بوسائل الإعلام ٣٤٨
- إن التطلع إلى المستقبل هو الكوة الصغيرة التي نتنفس منها عبق الاستمرار والتأبي على الاستسلام للمشكلات القائمة ٣٥١
- التفكير بالمستقبل، قد يكون هو الوسيلة الفضلى لتنظيم الاستفادة من الإمكانات الحاضرة ٣٥١
- حين تلف الأزمة كل فعاليات المجتمع، فإن المربين لا يستطيعون إنجاز الكثير ٣٥٢
- علينا أن نهيئ أنفسنا لسماع كثير من وجهات النظر الفجة في كل ما يمت إلى الواقع بصلة ٣٥٣
- كل ما يخضع لقواعد وقوانين محددة، يتعرض لخطر التصلب والقصور عن أداء مهامه ٣٥٣
- إن العقدة في حقل علاج المشكلات، هو العثور على منهج ملائم لطبيعة المشكلة ٣٥٣
- النظرية الجيدة، نظرية منتجة، أي قابلة للدراسة والنقد وتوليد المزيد من البحث العلمي ٣٥٤
- لا قيمة للصبر ورحابة الأفق والذكاء في علاج المشكلات إذا لم نتأكد أننا في المسار الصحيح ٣٥٤
- إن تعليم الطالب كيفية استخدام معجم أفضل مئة مرة من أن نحفِّظه معاني ألف كلمة في اللغة ٣٥٥

الفكرة	الصفحة

- سيكون من مهام المؤسسات التعليمية الملحة أن تملّك الطلاب القدرة على رؤية الأشياء بطرق جديدة خارج الطرق المألوفة ٣٥٥
- لا نجاح لأية خطة ما لم يتمكن القائمون عليها من إقناع المجتمع بها ٣٥٦
- الذي يحول بين كثير من الناس وبين المزيد من التثقف، هو مجموعة من الحتميات النفسية والفكرية والفلسفية، وليس أمامنا خيار سوى مواجهتها بصلابة ٣٥٧
- التعليم حتى لا يتحجر، ولا ينغلق على نفسه، بحاجة إلى نقد اجتماعي قوي ٣٥٧
- من غير الممكن أن نحل مشكلات التعليم، ونزيد في فاعليته من غير تطوير نظمه ٣٥٩
- لا بد للمناهج من أن تتمتع بالمرونة إذا كان يراد لها أن تكوّن عقولاً مرنة .. ٣٦٣
- سوف نحدث الكثير من التغيير في مناهجنا إذا تمكنا من تحديد مواصفات الشاب القادر على خوض غمار حياة صعبة، والمنتمي إلى خير أمة أخرجت للناس ٣٦٣

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
حول جوهر التربية وأهميتها	٩
التربية طبيعتها وأهميتها	١١
ثلاثة محاور أساسية في التربية	١٤
التربية جزء من كل	١٧
أهمية التربية	١٩
حول فلسفة التربية	٢٥
معنى فلسفة التربية ووظيفتها	٢٧
وظيفة التربية تتركز في أمرين اثنين	٢٩
معالم فلسفتنا التربوية	٣٢
الكون كله مخلوق لله تعالى	٣٢
الحياة الحقيقية هي الحياة الآخرة	٣٤
عالمية الإسلام	٣٥
من معالم فلسفتنا التماسك والانسجام	٣٦
الارتقاء نحو المثل الأعلى	٣٧
المنهج الرباني يجمع بين الصلابة والمرونة	٣٩
مبادئ وأساليب تربوية	٤٣
التربية مهمة تحتاج إلى انتظار	٤٥
المطلوب في التربية قدر من كل شيء	٤٧
يظل ما تقوله البيئة المحيطة هو الأهم	٤٩

الموضوع	الصفحة

التربية الجيدة هي التي تثير الرغبة نحو مزيد من التربية ٥١
كما نكون تكون تربيتنا ٥٣
التنشئة على التلاؤم مع التغير ٥٥
لا بديل عن العمل ٥٩
العمل على غرس الاهتمام بالأمور المشتركة ٦٠
اعتماد المراجعة والنقد الذاتي ٦٣
احترام الخصوصيات ٦٥
التربية الأسرية هي الأساس ٦٧
سمات الأسرة الجيدة ٦٨
أهداف تربوية ٧٣
الإيمان العميق والتخلق بالأخلاق الإسلامية ٧٦
روح الكفاح والمثابرة ٧٨
الاستمساك بالحق ومقاومة الشرور ٨١
توسيع قاعدة الفهم ٨٤
الشخصية العلمية ٩٠
صناعة الطموحات الكبيرة ٩٨
العناية والإتقان ٩٩
اللمسة الجمالية ١٠٢
العلم للحياة ١٠٥
أضواء قرآنية على بعض شؤون العلم ١٠٧
لماذا نتعلم؟ ١٠٩
العلم بين ترسيخ الثقافة وغربلتها ١١١
تحسين نوعية الحياة ١١٣
ترشيد ردود الأفعال ١١٥
تنامي الحاجة إلى المعرفة المتخصصة ١١٨
العلم السري خطر ١٢٠
حاجة المثقفين إلى تفهم مطالب الأكثرية ١٢٢

الموضوع	الصفحة

أثر التعليم في التنمية الاقتصادية ١٢٣

حول التعلم ١٢٩

تعلم بلا حدود ١٣١

التعلم من الفجاجة إلى النضج ١٣٤

دوافع التعلم ١٣٥

التعلم مدى الحياة ١٣٧

أهمية التعلم مدى الحياة ١٣٧

أنواع الأمية التي نعاني منها ١٣٨

تغيرات حادة وسريعة ١٤٠

تدفق المعلومات ١٤١

علاج مشكلة الفراغ ١٤٢

ما التعلم المستمر؟ ١٤٢

مشخصات التعلم المستمر ١٤٣

وسائل التعلم المستمر ١٤٥

حول المعلم ١٥٣

اختيار المعلم وإعداده ١٥٥

١ ـ حسن المطلع نصف الفوز ١٥٥

٢ ـ الإعداد المستمر ١٥٧

شخصية المعلم ١٦٢

١ ـ خطورة التعليم على شخصية المعلم ١٦٢

٢ ـ لا بديل عن التعلم الدائم ١٦٤

٣ ـ كسر الرتابة ١٦٥

٤ ـ تنمية شخصية المعلم ١٦٥

٥ ـ أخلاق المعلم ١٧٠

مسؤوليات المعلم ١٧٥

تنمية الإتجاهات الأخلاقية ١٧٥

المعلم جسر بين الأجيال ١٧٦

الموضوع	الصفحة

تحرير العقل من أغلاله ١٧٧
مساعدة الطلاب على تحديد أهدافهم ١٧٩
إثارة الفضول لدى الطلاب ١٨٠
إعانة الطلاب على الوضوح الفكري ١٨١
تكميل المناهج والمقررات الدارسية ١٨٢
أسلوب التدريس: ١٨٤
١ ـ الحفظ والتلقين أم الفهم؟ ١٨٥
٢ ـ تعليم أكثر التصاقاً بحقائق الأشياء ١٨٨
٣ ـ البحث العلمي عوضاً عن الاختبارات القاسية ١٩٠
٤ ـ تشجيع الجد والتميز ١٩١
٥ ـ المعلم واستخدام العقاب ١٩٣
حقوق المعلم: ١٩٨
١ ـ عصر المادة ١٩٨
٢ ـ انخفاض مستوى الدخل ١٩٩
٣ ـ سوء وضع المدرس ١٩٩
٤ ـ الحاجة إلى حلول مركبة ٢٠١
حول التعليم الشرعي ٢٠٣
مدخل تاريخي ٢٠٥
الارتقاء بالتعليم الشرعي ٢١٠
١ ـ حول الهدف والتخصص ٢١٢
٢ ـ القبول وشروطه ٢١٤
٣ ـ المقررات والمناهج ٢١٥
٤ ـ النشاط غير الصفي ٢٢٠
٥ ـ التربية والتوجيه ٢٢٢
٦ ـ الإدارة والأجهزة المساندة ٢٢٣
٧ ـ التمويل ٢٢٤
حول التعليم الجامعي ٢٢٧

الموضوع	الصفحة

مهمات الجامعة ٢٢٩
١ ـ إرساء تقاليد علمية ٢٣٠
٢ ـ تمليك الطالب منهجاً للتعامل مع المعرفة ٢٣١
٣ ـ تكوين الرجل الحسّاس ٢٣٢
٤ ـ إنتاج المعارف المتقدمة ٢٣٣
٥ ـ خدمة المجتمع ٢٣٤
التعليم الجامعي بين الواقع والمأمول ٢٣٦
١ ـ أزمة هوية ٢٣٧
٢ ـ الفيضان الطلابي ٢٣٨
٣ ـ ضعف مستوى التعليم ٢٣٨
٤ ـ تردي البحث العلمي ٢٣٩
٥ ـ ضعف الحساسية لسوق العمل ٢٤٠
الأستاذ الجامعي ٢٤١
الارتقاء بالأستاذ الجامعي ٢٤١
١ ـ رفع مستوى شروط الإعادة ٢٤٢
٢ ـ تنمية الأستاذ الجامعي ٢٤٣
٣ ـ إرساء معايير للجودة ٢٤٣
٤ ـ تقويم الطلاب لأستاذتهم ٢٤٤
لغة التعليم الجامعي ٢٤٦
١ ـ مشكلات التدريس بلغة أجنبية ٢٤٧
٢ ـ تجارب بعض الأمم في التدريس بلغاتها ٢٤٧
المناهج والمقررات ٢٥١
سمات مشتركة ٢٥١
١ ـ تدعيم الثقافة الأساسية ٢٥١
٢ ـ الطلاقة ٢٥٢
٣ ـ المرونة وعكس متطلبات التطور الحضاري ٢٥٣
٤ ـ الانفتاح المعرفي ٢٥٥

الموضوع	الصفحة
بعض آفاق الإصلاح	٢٥٧
١ ـ مساهمة الأهالي في دعم التعليم الجامعي	٢٥٩
٢ ـ تحسين المناخ العام	٢٦٠
٣ ـ فرض رسوم على التعليم الجامعي	٢٦١
٤ ـ علاج مشكلة بطالة المثقفين	٢٦٢
٥ ـ تجاوز الذات	٢٦٦
حول البحث العلمي:	٢٧١
أهمية البحث العلمي	٢٧٣
واقع البحث العلمي ومشكلاته:	٢٧٦
١ ـ عدم إدراك أمتنا لأهمية البحث العلمي	٢٧٦
٢ ـ ضعف الإنفاق على البحث العلمي في البلاد الإسلامية	٢٧٨
٣ ـ ندرة المعلومات والإحصاءات التي يحتاجها الباحثون	٢٧٩
٤ ـ عدم توفر البيئة العلمية	٢٨١
٥ ـ ضآلة الإنتاج البحثي	٢٨٣
النهوض بالبحث العلمي	٢٨٥
١ ـ توجيه البحث العلمي	٢٨٥
أ ـ الالتزام والتدين	٢٨٦
ب ـ الحياة الطيبة	٢٨٧
جـ ـ التراث	٢٨٨
د ـ الصناعة	٢٩٠
٢ ـ دعم البحث العلمي وتنظيمه:	٢٩١
أ ـ تمويل البحث العلمي	٢٩١
ب ـ سن التشريعات المساعدة على تنشيطه	٢٩٢
جـ ـ فك الحزمة التقنية	٢٩٣
د ـ التنسيق بين الباحثين والصناعيين	٢٩٥
هـ ـ تنويع الأطر التي تحتضن البحث العلمي	٢٩٥
حول التعليم المهني والتقني:	٢٩٩

الموضوع	الصفحة

١ ـ تعريف التعليم المهني والتقني ٣٠١
٢ ـ أهمية التعليم المهني والتقني ٣٠١
واقع التعليم المهني والتقني: ٣٠٥
أسباب ضعفه ٣٠٨
الارتقاء بالتعليم المهني والتقني: ٣١١
١ ـ إضفاء اللمسة الثقافية ٣١١
٢ ـ الارتباط المبكر بالعمل اليدوي ٣١٢
٣ ـ الشفافية نحو سوق العمل ٣١٤
٤ ـ تبسيط المعارف المهنية وإشاعتها ٣١٤
٥ ـ مساهمة الأعمال الخيرية في تمويله ٣١٥
توطين التقنية: ٣١٧
١ ـ التركيز على البحوث التطبيقية ٣١٨
٢ ـ دعم الصيانة وإيقاف تدفق الأجهزة المتطورة ٣١٩
٣ ـ التحول إلى نظام الصناعة عوضاً عن نظام التجارة ٣٢٠
٤ ـ اعتماد الهندسة العكسية والتقليد ٣٢١
التدريب: ٣٢٤
١ ـ أهمية التدريب ٣٢٥
٢ ـ تعميم التدريب ٣٢٨
٣ ـ فاعلية التدريب ٣٣١
حول أزمة التعليم وآفاق المستقبل ٣٣٣
١ ـ أزمة التعليم ٣٣٥
٢ ـ بعض جوانب الأزمة ٣٣٨
أ ـ القصور الذاتي ٣٣٨
ب ـ الجانب الاجتماعي ٣٤٠
جـ ـ الجانب الاقتصادي ٣٤٣
د ـ المناهج ٣٤٥
آفاق المستقبل ٣٥١

الموضوع	الصفحة
١ ـ أهمية النظر إلى المستقبل	٣٥١
٢ ـ الدقة في تصوير الأزمة	٣٥٢
٣ ـ العثور على منهج للتعامل مع المشكلات	٣٥٣
٤ ـ تحدي الدفق المعلوماتي	٣٥٤
٥ ـ تفعيل المشاركة الاجتماعية في التعليم	٣٥٦
٦ ـ تطوير نظم التعليم	٣٥٩
٧ ـ إعادة النظر في المناهج	٣٦١
الخاتمة	٣٦٤
الفهارس	٣٦٧
١ ـ فهرس المراجع	٣٦٩
٢ ـ فهرس الأفكار والمقولات العامة	٣٧٥
٣ ـ فهرس الموضوعات	٣٩١

تمّ بحمد الله